

(أبو حيان في طنجة (رواية

بهاء الدين الطود

(1)

مسمراً فوق مقعدي بقيت طيلة المسافة الفاصلة بين الميناءين الإسباني والمغربي،
المتناوبين على دون أن أهتم بأنني أُجبرت على الجلوس بأمر من الشرطين
تلك الهوة السحرية التي حرستي، فاهتمامي الوحيد كان مصوّباً إلى ما بداخلي، إلى
باعتد بيّني وبين كل ما يحيط بي.

من كان الطقس دافئاً مشمساً، والأمواج متراخية غافية، كأنها تخشى إيقاظ البحر
سباته، وبعض راكبي الباخرة يصعدون إلى شرفات سطحها ناشدين تأمل الأفق أو
التزود بمنعة مشاهدة البحر، أو ربما كان الطقس نقيس ما توقعت، مكفراً
مضطرباً، والبحر في أشد هيجانه، تتعالى أمواجه وتتلاطم، فتعترض سير السفينة
ساعية في ابتلاعها.

من أين لي أن أعرف كل هذا؟

من أين لي أن أعرف ما كان يقع خارج دائرة نفسي، وكل اهتمامي كان منصبًا على
مصيبتي؟

كنت أحس أن خيطاً رقيقاً يربط ماضي بحاضر يُقطع بين لحظة وأخرى،
فأنفصل عن أحد الزمانين، وأدور في أبدية لا نهاية لها.

هكذا كنت في حالة خارقة من الذوبان في دواخي، وحين كنت أجرو على التفكير
ما عادوا فيما يجري حولي، أجده منفراً مقرزاً، فالاماكن لم تعد هي الأماكن والناس
ما ألفته هم الناس، والروائح لم تعد هي الروائح، والكلمات، والإشارات، وكل
حواسي، اخنقى واندثر، وحل مكانه الهمام.

الباخرة العملاقة نفسها، لم يستوعبها عقلي، فقد ظننتها قصراً خرافياً تسحبه
الشياطين بخيوط غير مرئية فوق أمواج البحر.

وقلت لنفسي، لا يمكن لهذه أن تكون باخرة، فليس بها رجال ذوو قامات مديدة
وسواعد مفتولة يتذابون على التجذيف، أو أشرعة ما تدفعها إلى السير بهذه

السرعة!

إن لم يكن عالم السحره والشياطين، فهو عالم آخر أجهله تماماً وعره، انتصبت واقفاً بأمر من الشرطيين وخطوت رفقتهم، انحدرنا في سلام ضيقه شاسعة فذهب ظني إلى أنها ستفضي بنا إلى بئر سحيقة، لكنها أسلمتنا إلى باحة فولاذية السقف والأرض والجدران.

كدت أختنق من روائح قوية عافتها نفسي، ومن هدير كدوبيّ رعد متواصل صادر إحدى زوايا تلك الباحة، شموع قصيرة مثبتة في سقفها لاطفالها أعتى الرياح، من العدوة هي الشموع ذاتها التي أفرزعني في الليلة السابقة بعد أن أُلقي على القبض في الأندلسية فحسبتها عيون شياطين، وتراءت لي كوة ضخمة مربعة تقضي إلى فولاذياً لم الخارج، لكن بعد أن غادرنها تبيّن لي أنها باب كبير، وأن ما ظننته سجناً يكن سوي بطن السفينة الخرافية العملاقة

واستقلبني فضاء مزعج مضاء بسُرَّاج مثبتة هنا وهناك، لا تبدد الظلام القائم فحسب وإنما تُحيله نهاراً متألقاً.

سرت محاطا بالشرطيين، أستدير برأسِي يميناً ويساراً، فضغطت بشدة على عنقي جواد لأنبيّ إن كنت حقاً أعيش هذا الواقع وأنني لست في حلم، وانتقض قلبي مثل امرأة أخرى جموج حين شاهدت "نهانوند"، لكن، منذ الوهلة الأولى، تبيّن لي أنها "نهانوند" ظلت "تشبهها، فلم أغضّ الطرف عنها إلا بعد أن تعثرت في سيري، لكن الخفية إلا من خلال مشعة في ذهني، فتذكرت أنه لم يسبق لي أن تحسّست مفاتنها الحياة كما يفعل مراافق أصابع يدي ليلاً في مضجعي، وليس أمام الملاً ودبّب حركة عن مفاتنها بتلقائية، ورجال المرأة الشبيهة بها. نسوة آخريات كن يسرن وقد كشفن خجل أو وجّل أز الوالحاهم وشواربهم وقصوا من شعر رؤوسهم دون

إلى ولجنا داراً كبيرة كتب فوق مدخلها "مفوضية شرطة الميناء"، عرفت أنني أدخل دار الشرطة، وأن الرجال أصحاب الأحزمة الجلدية والقبعات الغريبة هم من الشرطة، وأشاروا علي بالجلوس فوق مقعد خشبي إلى جانب رهط من الناس، فجلست.

جاء شرطي بدین وأمسك بقفاي، ثم جرني من بين الجالسين إلى مكتب فسيح، اسمه وأمرني بالجلوس فوق مقعد أمام "ال حاج إبراهيم"، ضابط الشرطة الممتاز، كان

وصفته منحوتين على لوح صغير بني اللون وضع أمامه، بينما جلس هو خلف منضدة توزعت فوقها أوراق وصكوك وأدوات لا أعرفها؟
وبدون مقدمات قذف الرجل في وجهي بذات الأسئلة الغريبة التي أقيت عليَّ من لدن شرطة الباخرة، بعد أن تسلمتني من شرطة الأندلس.

— ما اسمك؟ كيف تسللت إلى إسبانيا؟ أين تقim؟

وجه كرر أسئلته أكثر من مرَّة، لكنني بقىت أحدق في عينيه الضيقتين المطلتين من إلى مستطيل، حليق، صقيل إلا من شارب موْخُوطٍ بشيب دون أن أجيبه، فالتفتَ كأنني كلب، مرافقيِّ الواقفين بجانبه، أحدهما بدين مكرش، هو الذي قادني من قفayı: استطaci، وخطابهما الثاني نحيل رَثُ الهيئَة أصفر اللون، تولى كتابة محضر — لا أبداً، ليس مجنونا كما تظنون، إنه يدعى الجنون، لا غير.

وتدخل الشرطي البدين الذي رافقني في الباخرة، مخبراً رئيسه أو — حاولنا يا سيدي جر لسانه إلى العربية وإلى لغات أخرى، حتى ظنناه أطرشَ وجهينا أصمَّ، أبكمَ. فاستعملنا لغة الإشارات، فلم يرد بشيء، بل ظل يحملق في وكأنه لا يراانا، تماماً كما يفعل الآن.

ضرب "الحاج إبراهيم" بقبضة يده اليمنى على المنضدة حتى كادت تتطاير الأوراق من فوقها، وقطب حاجبيه فازدادت عيناه الضيقتان انسداداً، وقال لي — لن يجديك هذا الصمت، فستُحبس، وتُجُوَّع، ويُدَقَّ رأسك إلى الأرض إلى أن !تعترف

حركت رأسي كمن يفهم دون أن أُبَيِّسَ بكلمة، فسادت فترة صمت خفيفة، تبادل يقال، الرجال خلالها نظرات ذاهلة، أكدت يقينهم بأنني كنت أسمع، وأستوعب ما كان أقصر ولعلهم فكروا في أن التهديد بحبسي وتجويعي وضرب رأسي إلى الأرض هو قبل، السبيل لتدفق من فمي أجوبة ترضي مآربهم. كنت أسمع في الحقيقة كل ما بدوا خلي، على لكنني لم أحفل بأي تهديد، فرعبي الوحيد كان منصباً على ما يجري بالوحدة، بوعيي الكامل انشغالي بشأنني النفسي المفجوع بالغرابة، بإحساسي الشنيع بوجودي في غير مكاني، وفي غير زمانٍ.

وحين حركت رأسي إشارة إلى كوني أسمع وأفهم، كانت تراودني فكرة التحدث إليهم، علني بذلك أكتشف بعض الغموض عن نوایاهم، أو عن مصيرِي مثلًا،

"وجهت كلامي إلى رئيسهم "الحاج إبراهيم" ونطقت:

— سيدتي أطال الله عمرك، ما كنت يوماً لصاً ولا شريراً ولا جباناً، ومادمت لا إلى أخفي سوءاً ضد الله ولا ضد عباده، فلن يرعنبي أي تهديد، ولعلمك، فقد جئت وأهل المغرب، ينتابني شوق عارم إلى ملاقة فلاسفة وفقهاء من ديار أهل المغرب والحكمة، وكان ظني الأندلس، لا أقل ولا أكثر، إنني قدمت مهاجراً ناشداً المعرفة لكنني وحسبى ما وجدت أنني سأجد قوماً يكرمون وفادة الغريب ويقدرون حق قدره، بالاغتراب سوى ما غشى صدري بالغم، ورأسي بالكمد، ونفسي

ما أن أتممت جملتي الأخيرة حتى رأيت الذهول قد طغى على وجوه الرجال، وأخذ ينظر بعضهم إلى بعض في تساؤل من التبس عليه الأمر، وقد فغرت أفواههم، وحظت أعينهم وكأنني فهت بكلام غريب منهم، لا يصدر عن إنسان عاقل بهنامي أنا أيضاً أصبحت بالارتباك، والتبس على الحال، فظننت أن الأمر قد يتعلق الغريب بما جعلني ألقى نظرة فاحصة على نفسي، وتابت قولي

قمصاناً — إن أحدهم في ثغر "المُنْقَب" سترني بهذه الثياب، فو الله ما عرف جسدي أنكم ولا سراويل بهذا الشكل، ولا حتى غادرت بيتي يوماً عاري الرأس، أعرف سر تريدون أجوبة مني على أسئلتكم، أنا أيضاً أرغب في أجوبة منكم تستجل لي هذا الغموض المحيط بي، فترى عن صدري غمه، وعن رأسي كمده، وعن نفسي غربتها، فهل تبدلون فأفصح، أو أبدأ فتفصحون؟

طلت الدهشة مرسومة على محياهم إلى أن تحدث "الحاج إبراهيم" متعلثماً، محاولاً اصطدام جملٍ عربية سليمة

البلين — حاشا يا سيدتي أن تكونوا لصاً أو ما شابه. في الحقيقة فاجأنا كلامكم من واجبنا الفصيح، أدهشنا صوتكم العذب الرنان، إننا على استعداد لمساعدتكم، بل على أسئلتي أن نوضح لكم ما التبس عليكم، إنما قبل ذلك، أريد أجوبة صريحة.

حركت رأسي بالإيجاب، فنطق

— ما هو اسمكم وما هي جنسيةكم؟

لأم أقو على إخفاء ما غشى وجهي من استخفاف بسؤاله، منطقياً ولغوياً، فأجبته حيان التوحيدى على بن محمد بن العباس، وجنسى ذكر، عربي مسلم — اسمي "أبو — أنا أسأل عن جنسكم وليس عن جنسكم

وبالاستخفاف الممزوج بالامتعاض نفسه أجبته:

— أنا يا سيدني رجل واحد فرد، وأنت تخاطبني بصيغة الجمع، فهل ترى في شخصي جمّاً من الرجال، أم أن هناك سبباً أجهله وراء هذا الخطاب؟

(2)

تتدخل الشرطي النحيل الأصفر الملائم، موجهاً كلامه إلى رئيسه

— أسأله من أي بلد هو قادم، أقصد عن اسم بلدـه

فاستجاب له رئيسه، معيناً سؤالـه بصيغة معقولـة

— من أي بلد قدمـت؟

استرخت أسرارـير وجهـي وأنا أجـبيـه

— من "بغداد" يا سـيدـيـ

التقت "الـحـاجـ إـبـراهـيمـ" إـلـىـ مـعـاـونـيـهـ، وـكـمـنـ يـخـاطـبـ نـفـسـهـ قـالـ لـهـماـ

— يقولـ من "بغـدادـ"!ـ، أـمـاـ كانـ أـولـىـ أـنـ تـسلـمـهـ السـلـطـاتـ الإـسـبـانـيـةـ مـباـشـرـةـ إـلـىـ بلدـهـ

ـعـوـضـ أـنـ تـحـيلـهـ عـلـيـنـاـ.

ـثـمـ نـظـرـ إـلـيـَّـ

— أـلـدـيـكـ أـورـاقـ تـثـبـتـ أـنـكـ عـراـقـيـ؟ـ

ـمـرـأـهـ أـخـرـىـ يـجـانـبـ سـؤـالـهـ الصـوابـ، لـكـنـنـيـ أـجـبـتـهـ

— لـمـ يـسـبـقـ أـنـ حـصـلـتـ وـثـيقـةـ تـثـبـتـ وـلـأـنـيـ لـلـعـراـقـ وـلـأـنـيـ بـلـدـ آـخـرـ؟ـ

— وـكـيـفـ تـرـيـدـنـيـ أـنـ أـقـتـنـعـ بـأـنـكـ عـراـقـيـ؟ـ

ـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ غـمـوـضـ سـؤـالـهـ، لـمـ أـسـخـرـ مـنـهـ، كـنـتـ أـرـغـبـ فـيـ أـنـ كـوـنـ صـرـيـحاـ

ـوـصـادـقاـ، فـقـلـتـ لـهـ

ـالـوـطـنـ — وـمـاـ مـرـادـكـ ياـ سـيدـيـ لـكـيـ تـتـأـكـدـ إـنـ كـنـتـ عـراـقـيـاـ أـمـ فـارـسـيـاـ أـمـ حـجازـيـاـ، أـلـيـسـ

ـحـيـثـ أـقـامـكـ اللـهـ؟ـ!ـ مـعـ أـنـيـ أـجـهـرـ بـأـنـيـ عـراـقـيـ، صـرـاحـةـ أـوـدـ لـوـ أـعـرـفـ؟ـ

ـأـطـرـقـ صـامـتاـ وـكـأـنـ كـلـامـيـ فـاجـأـهـ، فـتـابـعـتـ حـدـيـثـيـ

ـسـبـقـ يـاـ صـاحـبـ السـلـطـةـ أـنـ أـخـبـرـتـكـ بـأـنـيـ مـسـلـمـ، وـفـيـ مـلـتـيـ وـاعـتـقـادـيـ أـنـ الـمـسـلـمـينـ

ـوـرـفـعاـ فـيـ دـيـارـ إـلـاسـلـامـ سـوـاسـيـةـ، إـلـاـ إـذـاـ كـانـ لـكـ شـكـ فـيـ إـسـلـامـيـ، فـفـيـ هـذـهـ الـحـالـ،

ـوـالـفـرـوعـ لـأـيـ غـمـوـضـ، أـعـلـنـ أـمـامـكـ بـأـنـيـ مـسـلـمـ حـنـبـلـيـ، عـالـمـ مـتـفـقـهـ فـيـ الـأـصـوـلـ

والحديث، وأمور الفقه عامة، من مذاهب ونحل ومسالك ومعاملات طلب مني أن أصمت قليلاً، وأشار على معاونيه بالسكت، ووضع راحة يده على جبينه، وسرح ساهماً وكأنه يواجه حالة شاذة فريدة تقضي حرصه وصبره، أو كأن ما أواجهه به يجانب في نظره المنطق والصواب.

بعد برهة، خاطبني وهو يحاول أن يبدو هادئاً

إن — إني يا سيدي لا أشك في إسلامك، وقد أعجبتني ثقافتك ورافقتي دقة أجوبتك، ما أرغب فيه صراحة هو أن أعرف كيفية مجيئك إلى المغرب، وطريقة دخولك إلى إسبانيا؟

طأطأت رأسى موافقاً مستحسناً سؤاله، وخضت في الحديث

— قدمت إلى المغرب كحال جميع الوافدين عليه، أما إذا كان قصدك أن تعرف الطريق الذي سلكته، فلا أرى بأساً من إطلاعك على تفاصيل رحلتي بكمالها

أسرع يقول بلسان تشوبه بشاشة معينة

— تماماً تماماً، ذلك ما أرغب فيه، استمر استمر

وتابعت حديثي

— يممّت وجهي شطر دمشق، فالإسكندرية، فبرقة، فالقيروان، فتلمسان، إلى أن دخلت حاضرة فاس، سليماً معافى والله الحمد

أجده وقد أنسستي فاس ما كان قد تخل رحلتي من محن ونوايب، إذ وجدت بها ما لم في حواضر غيرها، مرتفعات مزدانية بشجر الغاب، ونباتات الكروم، والتين والموز والزيتون، والليمون والتفاح، والمشمش والبرقوق، والعنب والكرز، واللوز وساكنتها، ووجدت الكل والجوز، استطاعت هواءها وجنانها، ورافقتي مبانيها وأزقتها الأصحي رضي الله عنه على دين الإسلام ومذهب إمام الهجرة سيدنا مالك بن أنس كان "ال حاج إبراهيم" يحرك رأسه استلطاناً لكلامي، و كنت أروي أخباري وأنا ألتلصّص بيصري بين معاونيه، لاستطلع وقع ما أقصه عليهم، فاستنتجت عدم ارتياحهما لما أعرف به، لكن رئيسهما "ال حاج إبراهيم" كان أكثر ما يهمني، وأضفت

— اصطفيت من آل فاس خلاناً وأصحاباً أكرموا وفادتي، وقدرونني حق قدرى، أذكر قليلة أخذ من بينهم الفقهاء، الجوطى والدباخ والسليمانى والkgat الشبيهى، وفي أيام

أَذْنَّيْ فِي يَأْلَفُ بَعْضًا الْبَعْضَ، فَصَرَتْ أَطْلَعُهُمْ عَلَى الصَّغِيرَةِ وَالكَبِيرَةِ مَا كَانَ قَدْ سَفَرَ فِي مِنْ بَلْدٍ إِلَى بَلْدٍ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ طَبَعَ وَحَالِي فِي بَغْدَادِ.

ـ قاطعني "ال حاج ابراهيم":

ـ سيدى! جميل ما تقصه عن مقامك في فاس، وما كان عليه طبعك في بغداد، لكنني أكثر شوقاً لأعرف كيف دخلت إلى إسبانيا
ـ فقلت له:

ـ المهم، أن أصدقاء فاس عرّفوني بقافلة كانت قد قدمت من سجلماسة في طريقها إلى غرناطة، وكان بها تجار نباء وفقهاء نبغاء، فانضممت إليهم لأرفقهم في والحمير، قافتلهم المكونة من خمسة وستين رجلاً، وعدداً من النساء والخيول والبغال ودواب أخرى حملت صبية، وتكتست فوقها أمتعة ومؤن وأغراض أخرى

ـ وعاد "ال حاج ابراهيم" إلى مقاطعة قصبي

ـ باختصار، وصلتم إلى طنجة؟

ـ أجل، كانت حاضرة طنجة محطة مستهدفة لنبحر منها إلى بلدة "طريف" لكننا توقفنا في حاضرة "قصر كاتمة" لنسريح من ضجر الطريق وعناء بالأندلس، وهي بلدة يشقها نهر يدعى لوکوس، أرضها منبسطة خصبة معطاء، تحف السفر، خضراء وجنان متقلة بالكرום والفاكه على مدار فصول العام، أهلها بها بساتين كرام، فصيحو اللسان، حاضرو البديهة، سريعوا النفاذ إلى القلوب، ومن أجود السهر والسمّر وفصّ ما استجد من العلوم والأخبار، وما أستحضره عنهم، عادتهم، سرده على مسامعنا أحد رجالاتهم من بيت آل القنطري، أنه قابل شخصياً، منذ ما غماره، حوالى خمسين عاماً المدعو "حاميم المتتبّي"، البربري الذي ظهر في قبيلة مرتين في اليوم، فأنشأ بها ديناً وقرآنـا بربرياً، واقتصر في دينه الجديد على الصلاة والعجيب الغريب، وأبطل الحج إلى بيت الله، كما أوجب صوم الأربعاء والخميس، لكنهم في قصر "كاتمة" أن عدداً كبيراً من برابرة شمال المغرب اعتنق هذا الدين، لا ريب فيها، ويمكناـ تصدواـ له، مثلما تصدواـ لنشاط الخوارج. ما أقصه حقيقة والدنهاجي والفاسي استفسار بعض أهالي كاتمة من التقاـ، كالصرصري وبوعجاج الفهري.

ـ ثم رحلنا عن البلدة في صباح باكر بعد أن أدينـا فريضة صلاة الفجر في مسجدها

الأعظم المهيّب، وقد قيل لنا إنه كان كنيسة رومانية في عصر بائد
وقاطعني الرجل أصفر الوجه الذي يدون أقوالي

— اختصر كلامك يا أخي، فلدينا عشرات المهاجرين السريين

فقصدى له الحاج ابراهيم مقاطعاً

— اصمت! ودع الرجل يتحدث بالكيفية التي يريدها

ثُمَّ ابتسِم في وجهي وخاطبني

— نحن معك إلى أن تنهي كل أقوالك

فاستأنفت حديثي

أصيلاً هكذا يمّنا في اتجاه طنجة، لكن القدر كان يخفي علينا أننا سنتوقف في "تغر والشّكر لله، يومين كاملين، بسبب وعكة صحية حلّت برفيق لنا، لكنه قام منها سليماً أمنيتني أن أقف و "أصيلاً" قرية بهيجة، تشرف على بحر الظلمات الصاخب، كانت أمنيتني، وكبرت على مرمى حجر من هذا البحر الهادر وأتأمله عن كثب، فتحققـت ومسامي سعادتي وأنا أحـس بهـديره يـمـلـأ أذـني، ونسـائمـه تـتـسلـلـ إـلـىـ رـئـتي

أقـمنـاـ فيـ هـذـاـ التـغـرـ يومـينـ سـيـظـلـانـ مـوـشـومـينـ فـيـ ذـاكـتـيـ ماـ حـيـيـتـ، فـحـينـ نـزـلـنـاـ فـيـ تلكـ السـوـيـعـاتـ الـأـولـىـ منـ بـزوـغـ خـيوـطـ الشـمـسـ لـمـشاـهـدـةـ مـرـوجـ الـبـحـرـ، وـكـانـ صـخـبـهـ كـرـوـمـ هـدـأـ، وـأـطـرـافـهـ قـدـ انـكـمـشـتـ، مـخـلـفةـ طـحـالـبـ بـلـورـيـةـ، وـأـعـشـابـاـ مـبـلـلةـ، كـأـنـهـ قدـ

لـرـوـائـحـ خـضـرـاءـ فـيـ أـحـدـ بـسـاتـينـ جـنـةـ الـخـلـودـ، يـاـ لـهـاـ مـنـ نـسـائـمـ رـطـبـةـ نـدـيـةـ هـيـ نـقـيـضـ

عـيـنـاتـ، الصـحـارـيـ، فـمـنـ شـدـةـ مـاـ اـسـطـابـتـهـ نـفـسـيـ وـاـنـشـرـحـ لـهـاـ صـدـريـ جـمـعـتـ مـنـهـاـ

عـصـيدـ، فـسـاعـدـنـيـ الـفـقـيـهـ "أـبـوـ عـصـيدـ"ـ عـلـىـ رـبـطـهـ عـنـدـ مـخـلـفـ سـرـجـ حـصـانـيـ، نـعـمـ "أـبـوـ

لـلـدـرـاوـيـشـ وـالـمـعـوزـيـنـ. ذـاكـ الـفـقـيـهـ الإـلـمـامـ الـمـبـرـزـ فـيـ أـصـيلاـ، رـجـلـ مـتـصـوـفـ، يـبـسطـ يـدـهـ

سـمـكـ يـدـعـىـ روـيـكـلـ، مـنـ بـيـنـ مـرـيـدـيـهـ وـأـصـدـقـائـهـ أـتـذـكـرـ وـجـهـاـ وـدـيـعـاـ خـجـولاـ لـصـيـادـ

بـيـنـمـاـ يـهـتـمـ أـبـوـ عـصـيدـ رـجـلـ لاـ يـعـرـفـ عـنـ الدـنـيـاـ سـوـىـ أـنـوـاعـ السـمـكـ وـأـقـصـابـ صـيـدـهـ،

يـرـتـبـطـانـ بـعـلـاقـةـ مـوـدـةـ لـافتـةـ. بـأشـعـارـ الـمـتـصـوـفـةـ وـالـأـنـسـابـ وـالـتـرـاجـمـ، وـبـالـرـغـمـ مـنـ ذـلـكـ

أـنـهـمـاـ مـعـاـ مـنـ أـشـدـ وـأـقـرـبـ مـنـ عـاـشـرـوـاـ وـمـاـ ذـكـرـهـ أـبـوـ عـصـيدـ فـيـ لـيـلـةـ سـمـرـنـاـ الـأـولـىـ،

عـمـرـ خـلالـ سـنـوـاتـ نـفـيـهـ فـيـ "أـصـيلاـ"، بـعـدـ السـلـطـانـ الإـدـرـيـسيـ "يـحـيـيـ بـنـ إـدـرـيـسـ بـنـ

مـوـسـىـ بـنـ أـبـيـ الـعـافـيـةـ"، وـحـسـداـ مـنـهـ عـلـىـ مـاـ "أـنـ كـانـ حـاـكـمـ لـلـمـغـرـبـ كـلـهـ، لـكـنـ الـحـاـكـمـ

مـنـ حـبـ الـمـغـارـبـةـ، نـصـبـ لـهـ مـكـائـدـ إـلـىـ أـنـ نـفـاهـ إـلـىـ كـانـ يـتـمـتـعـ بـهـ هـذـاـ الـأـمـيـرـ الشـابـ

"تغر أصيلاً".

وقد دلني هذا الفقيه على دار بجوار حمام ومعبد يهودي، كانت محل إقامة هذا مساء السلطان الذي كان على قدر من العلم بالفقه والحديث. وكان رويكَل يزوره كل عن شيخه محملاً بشرائط من الأسماك الطازجة. وفي الليلة الثانية، حدثي الفقيه بن محمد"، الذي أخذ عنه كتاب البخاري "الإمام أبي محمد عبد الله بن ابراهيم سنة، أسعدني في الحقيقة الملقب "ب الإمام الأصيلي"، وكان قد توفي منذ حوالى ثلاثة بنه ما تيسر لي من بعض أن أستمع إلى بعض أخبار هذا الإمام، بعد أن سمعت إقامته هناك منذ حوالى خمسين مرديه وعشريه في بغداد، ومكة، والمدينة، أثناء عاماً.

أخباراً عنه، توقفنا ترحاً على قبره في حديقة مساجة خارج أسوار المدينة، فتبادلنا الشافعي وأبي بكر إذ أكدت له أن الإمام كان صديقاً مقرباً من الإمام أبي بكر وأبي بكر الأجربي. وفي الأبهري ومن شيوخه الأفذاذ في مكة الإمام زيد المرزوبي بأن الإمام الأصيلي، بعد أن عاد المدينة قاضيها الإمام أبي مروان المالكي، فأخبرني القضاء في سرقسطة وقرطبة، وبعد مدة، من المشرق إلى أصيلاً، رحل عنها ليتولى واحدة في منزل خاص بها، وعاشرهن بالعدل عاد مرفوقاً بثلاث زوجات، أسكن كل غيرها، إلى أن قضى، فدفن هنا في مسقط القسطاس، دون أن يفضل واحدة على رأسه.

توقفتُ عن إتمام حديثي حين انحني الشرطي الأصفر الوجه على أذن رئيسه، له بكلمات غير مسموعة، لكن الرئيس ثناه عن همسه بإشارة من يده، وطلب وهمس إلى استئناف سردي، مبدياً ابتسامة متكلفة، غير أن ما كان يسود المقام نبهني مني أقوالي، تلك أن الرجل ما عاد يطيق سماع ما أزوده به من أخبار، أو لعله لم يصدق والحيطة. ولربما طباع رجال الشرطة في كل البقاع، فعملهم يجلبهم على الارتياح إلى سمعي وليس طريقة سردي التي بدت له سجية مرسلة، هي أقوى ما كان يشده إن أخبرته مضمون أخباري، مما جعلني أختصر كلامي، وهو عين ما حدث، فما الثلاثة الفاصلة برحيلنا عن "تغر أصيلاً" والعوائق التي اعترضتنا في قطع الأنهر أن تصبح أكفاناً بين أصيلة وطنجة، واستئجارنا لمراكب خشبية ذات أشرعة كادت حتى قاطعني مستقراً لنا في لجة البحر، حملتنا من "طنجة" إلى "طريف" بالأندلس،

— منذ متى تم هذا السفر إلى الأندلس؟

أجبته صادقاً

— منذ بضعة أيام، أي في أقل من أسبوع واحد

هنا ارتفعت أصوات الجميع بالضحك والقهقةة، فعاد الرئيس لاستفساري قائلاً

— أريد معرفة التاريخ، لا يهم اليوم أو الشهر، أريد العام بالضبط؟

بالغرابة السؤال! قلت في نفسي، وأجبته

— قلت لك إن ما حدث كان منذ بضعة أيام، أي في هذا الشهر، وفي هذا العام ذاته،

لنسنا في ذي القعدة من عام ٤٠٠ للهجرة؟

انتشر الاستخفاف على محياهم جميعهم، ولم يعد عسيراً على عيني أن تقرأ في ملامحهم علامات دالة على أنني في نظرهم شخص مجنون، لكنني واصلت حفاظي

رباطة جأشني، وتوجهت بالحديث ليس إلى الرئيس وحده، وإنما إليهم جميعاً على

— أؤكد لكم أنني سليم معافى، وفي كامل قواي العقلية والجسدية، فإن وقع التباس

فيما أرويه عن رحلتي، فإن مردہ إلى عدم فهمكم

وتدخل "الحاج ابراهيم" بعد أن أطالت النظر في وجهي

— طيب، تقول إنك قدمت من العراق في هذا العام، وركبت البحر إلى الأندلس في العام ذاته. يمكنك أن تخبرنا عن ظروف بلدك؟ من تركت يحكم العراق مثلاً؟

أسرعت بالإجابة

— تركت الخليفة العباسي "أبا العباس أحمد بن المقتدر" المعروف لدينا ولديكم

ال حقيقي بالقادر بالله، حاكما على العراق، لكن ما هو خاف عليكم، هو أن الحاكم

نفوذه على "فارس" ليس الخليفة وإنما "بهاء الدولة" البويعي، فهذا الرجل بعد أن بسط

بعد أن تزوج الخليفة من و "الأهواز" و "كرمان" استبد بالسلطة دون الخليفة، خاصة

ابنته "سكينة" عام ٣٨٣ بصدق بلغ مائة ألف دينار.

وقاطعني "الحاج ابراهيم" متبرماً من حديثي، بعد أن بحث في أوراق أماته

— اسمع يا سيدي، إننا لنسنا في عام ٤٠٠ للهجرة، وإنما في عام ١٤٢٣، ثم التفت

إلى معاونيه وخطبهما أمراً

— أعدا له محضراً بأقواله واتركاه ينام إلى الصباح، لنقدمه إلى النيابة العامة ضمن

المهاجرين السريين.

وقال أحد معاونيه ضاحكاً متعجباً

— يقيناً إن الرجل سجين كتاب قرأه عن التاريخ القديم فتوقف دماغه هناك

لم يجده الرئيس، بل غادر المكتب دون أن يفوه بشيء، أما أنا، فقد جمد لسانني

وتركت أمر إرادتي لمشبئ الله، ول يقولوا أو يفعلوا بي ما شاءوا

للاشتغال، أنا بعد أن أفردوا لي مقعداً خشبياً وأغلقوا الباب وانسحبوا، عاد فكري

بأنني سجين زمان العالم، الفقيه، المنطقي، الفيلسوف. يحاول شرطي بسيط إقناعي

من منا فاقده، من! يبتعد عن زمامي بأكثر من ألف عام! يوهمني بأنني فاقد للعقل

ومنطقه؟ جيل على الارتباط والتشكك؟ أم من يحتم إلى عقله

باختلاف وحسبى أنني أوجد في مكان غير مكاني، فعادة ما يفسر اختلاف المكان

فهذا والله لن الزمان، إنما أن أكون في زمان جاء بعد زمامي بأكثر من ألف عام،

هنا في المغرب يستوعبه عقل كائن بشري، لقد حدث التباس ما! بكل تأكيد. لعلهم

يتكلمون العربية، يعدون السنوات بطريقة مختلفة مما نعده نحن في العراق؟ لكنهم

ويقولون عن أنفسهم إنهم مسلمون، يبسمون ويستغرون الله

و "يا إلهي، أكاد أصاب حقيقة بتلف العقل، ماذا لو أحضرت لهم الشيختين" القنطري

"الدنهاجي" من حاضرة "قصر كاتمة" وهي على مسافة يوم واحد لا أكثر، أو

أحضرت لهم الفقيه "أبا عصيـد" من "تغر أصيلاً" وهي على مقربة نصف يوم،

ليشهدوا بالحقيقة، بوجودي في زمانهم وجودهم في زمامي، ثم كيف للمرء منبني

آدم أن يعيش أكثر من ألف عام؟ وعلى سبيل افتراض أن ما زعموه حقيقة، فأين

كنت مختفي؟ في أعلى السماء أم في باطن الأرض؟

رأيي حتى هراء، هرطقة، إنني أنا الذي أمتلك الحقيقة وهم الأغبياء، ولن أتنازل عن

بكثرة متحليـه، لو انضم إليـهم السواد الأعظم من الناس. إن الباطل لن يصير حقاً

القويم كما أن الحقيقة لن تصير باطلاً بقلة معتقدـها، ذلك هو المنطق

الجاحـظ" هـكذا علىـ أن أـفكـرـ وأن أـقاـومـ، فـأـنـاـ فيـلـيـسـوفـ، عـالـمـ منـطـقـيـ، أناـ نـاسـخـ لـكتـبـ

شرطيـ أـملـسـ فيـ زـامـنـ هـذـاـ الحـاضـرـ، وـلـيـسـ فيـ الزـامـنـ الـذـيـ قـبـلـهـ، ولـنـ أـعـبـأـ بـمـنـطـقـ

المـحـيـاـ كـأـنـهـ جـارـيـةـ هـرـبـ عنـهاـ الزـامـنـ.

لم أـدرـ المـدةـ الـتـيـ اـسـتـغـرـقـهاـ حـوارـيـ الدـاخـلـيـ، إـلـىـ أـنـ فـتـحـواـ عـلـيـ بـابـ الغـرـفـةـ لأـعـرـفـ

أـنـ الـوقـتـ صـبـاحـ.

(3)

بمتكأ يريح اقتادوني، فأدخلوني مكتبا آخر، وأمروني بالجلوس فوق مقعد خشبي الخلفاء الظهر، لجميع مقاعدهم مُتَكَّاتٍ مريحة وكأنها مقاعد حاشية.

سمعي تناول شاب طويل القامة، أملس الوجه، شبيه بغلام، أوراقاً وأخذ ينلو على فناولني تصريحاتي بلغة منفرة، خلتها سوطاً يجلبني، وطلب مني أن أبضم أو أوقع، القلم لا يجف، مما قلماً غريباً دون أن يسعفي بِدوَّاه، وحين نبهته أخبرني بأن سمق بصفد حديدي، لم يسبق لعيني أَكْدَ لي أَنْتِي في عالم غريب عنِّي. بعد ذلك غلواً يدي إلى أن أدخلونا هودجاً ضخماً أن أبصرت مثيلاً له، واقتادوني ضمن أسرى آخرين، إلى أن توقف عند مدخل بناء أبيض بنوافذ زجاجية، فتحرّك بنا وكأنه حسان أَرْعَنْ، بالعرق، لكنني حين قرأت على مدخله: اللون، ظننته أول الأمر سجناً، فنصح جبني طمأنينة ما، إذ فكرت بأن التعامل مع القضاء "المحكمة الابتدائية"، دبت في قلبي الشرطة أو السجن أضمن لسلامة بدني من مواجهة.

إلى أنزلونا مثني في حراسة مشددة، وكأننا ثوار أو قطاع طريق، وساروا بنا تكّسَّ أن وجدنا أنفسنا ننحدر في سلام من بعض دركات أفضت بنا إلى غرفة عَطْنَة المجهول بها بشر سيقولوا قبلنا إليها، وسُدَّ علينا الباب لنظل في مواجهة.

بعد زمن قدرته بنصف يوم، جاء دوري، بعد أن كان أحدهم من وقت لآخر ينادي بأسماء بعضاً، خرجت من الغرفة، فصعدت السلام ذاتها محاطاً بجنديين، سرنا وصعدنا، وسرنا إلى أن وجدت نفسي أُوْمِر بولوج مكتب رحب ثري، فولجته، فك الرجال قيدي بعد أن قدمت تحية عسكرية صارمة دالة على عظمة صاحب المكتب، بالأمر، أما هو فلم يكتثر للتحية ولا رد بأكثر أو أقل منها، بل نظر إلى أنا المعنى ففعلت بمساعدة مثيراً على أن أجعل يدي خلف ظهري وأن أقف مستقيماً أمامه، أحد الجنديين.

أخذ الرجل يتصرف أوراقاً فوق مكتبه، وبين الحين والآخر، كان يرفع بصره ويتأملني، إلى أن سألني:

— من أي بلد أنت؟

— من العراق سيدني، أجبته

حرّك رأسه بطريقة توحى بذهوله، وخاطبني

— تقول في تصريحاتك المدونة في المحضر، إنك قدمت من بغداد عبر المدن التي ذكرتها، وإن اسمك هو "أبو حيان التوحيدي"

— أجل سيدتي أطال الله عمرك، أعترف بذلك

سكت برهة مفكراً، وكمن يحاول اختزال الاستطاق قال لي

— سأكون مضطراً لأن آمر بإياديك مستشفى الأمراض العقلية إلى أن تعود إلى الحقيقي، رشك، لكن إذا ما عدلت طواعية عن ادعاء الحمق، واعترفت باسمك من العقاب ومقر إقامتك، ووسيلة دخولك إلى إسبانيا، فسأكون رحيمًا بك، وستتجو سكت قليلاً وأضاف:

— أما إذا كانت لك عاهة عقلية، كأن تكون مختلاً، فيجب أن تعرف بمرضك؟

— وما هو دليلك يا سيدتي على أنني لم أتعترف بالحقيقة، أو أنني مصاب بعاهة عقلية كالجنون؟ لا قدر الله

قلت في عجلة من أمري، وأضفت:

— إني يا سيدتي لا أستر على شيء، لا عن أخبار ولا عن مرض، وقد اعترفت الحقيقي وباسم بلدي الحقيقي، وبالسبل التي سلكتها، إلى أن حللت بالمغرب، باسمي وكذلك بالأندلس.

انتقض صوته واشياً تبرمه من جوابي

— إنك جاوزت المراوغة حد اليقين بأنك شخص معtoه، فمن سيصدق أقوالك الخرافية، تساور من فاس في قافلة متوجهة إلى "غرناطة"، وتحل "بقصر كتابة" والإدريسيّة ثغر أصيلاً، وتسمع أخباراً من أفواه رجال عايشوا أحد ملوك الدولة المنقرضة منذ قرون، ثم تقول بأنك لست مجنوناً؟

أجبته:

به، فأي تعبير — إن الجنون أيها الحكم لا يقوى أحدٌ منا على إخفائه إن كان مصاباً عادي لغوي شائن أو غير منطقي صدر عنِّي؟ وأية حركة، أو تصرف غير لاحظت، أو لاحظ غيرك، أنه قد طرأ على سلوكي؟

توقفت للحظة أسترجع أنفاسي، ورأيت الذهول مرسوماً على محيا الحكم، فتابعت حديثي لمزيد إقناعه، وقلت له

— إبني يا سيدتي أتصرف تصرف العقلاء، وإذا كان قد صدر مني سلوك غير

فليس معنى ذلك أنتي أحمق، فقد يصدر عن العاقل بعض ما لا يصدر إلا عن سوي،
مجنون، علما بأن الحمقى يطغى انحرافهم على اعتدالهم، وفي وضعٍ فإني متsequ
نفسي وعقلي، ولم أُخْفِ شيئاً من أخباري ولا من حياتي مع

فاجأني مقاطعاً

— إذا كانت الحال كما تقول، أي أنك رجل عاقل متsequ معقول، فلماذا تزعم أنك "أبا
حيان التوحيد"؟

— إنها الحقيقة، بغض النظر عمّا إن كانت لي أو عليّ، وهل تعرف يا مولاي
شخصاً غيري يحمل هذا الاسم؟

لم يقو على طمس ابتسامة ماكرة دالة على استخفافه بمنطقى، وأجاب

— بطبيعة الحال أعرف "أبا حيان التوحيد"، وليس هناك من المتعلمين المطلعين
يتكرر على تاريخ الأدب من يجهل أبا حيان التوحيد المتوفى منذ قرون. أجل، قد
حتى أنك اسمه، هذا وارد، أما أن تتنسب إلى زمانه وتتتحل اسمه وصفته وحياته،
مجنونا! من تزعم بأن تاريخنا الحالي هو عام ٤٠٠ هجرية، ثم تقول بأنك لست
يقوى على تصديق هذا الهراء؟

أن تمنيت لو تفتح الأرض من تحتي، فتصهرني بداخلها، لأرتاح مما أنا فيه، ذلك
الشك عاد يموج برأسى، دون إرادتى وجدت أسئلة تتسلب على لسانى
أنا أجهل صفتكم تحديداً، وأعلم أن دورى ينحصر في إمدادكم بأجوبة، لكن — سيدى،
 وضعى الغامض لديك ولدى أيضاً، يحتم على استفسارك لأنترف رأسى من قدمى،
الحقيقى فوالله ما عدت أفهم أكثر مما أجيّب به، فهل تدلى رعاك الله على التاريخ
العراق؟ الذي نعيشه اليوم، سواء هنا في بلاد المغرب أم ذلك الموجود في بلاد
مضى واندثر، وكيف يمكن للمرء في نظرك أن يجمع قيد حياته بين زمانين، أحدهما
وآخر حاضر حال؟ أو ليس هذا هو بؤرة خلافاً؟

حرك الرجل رأسه موافقاً، وقال:

— طيب، صفتى وكيل الملك، أي أني أ مثل النيابة العامة، وأدافع عن الحق العام،
فهلا عرفت معنى وكيل الملك؟

— معناه في تقديرى أن الملك أذن لك عنه بمقتضى وكالة ضمنية، وبمعنى آخر فقد
تكون قاضي القضاة!

عاد يقول في نفاذ صبر:

— أمازلت تدعى الجهل بالرغم من ثقافتك الواسعة!

هذا — أنا لا أدعى شيئاً، لكن يستحيل أن أفتتح بأني أحسب على ماضٍ يبتعد عن الحاضر بأكثر من ألف عام، وإذا أردتني أن أصدق، فعليك أيضاً أن تصدق.

— أصدق ماذا؟

— تصدق أقوالي في الأوراق التي بين يديك، فإذا لم تقنعني، فأنا مثلك لا أستوعب هذا الفارق الزمني الذي تصرُّ عليه.

— أنت إذن متشبث بزعمك، طيب، لتعلم أن التاريخ الذي نعيشه اليوم في المغرب أما هو التاريخ نفسه الذي يعيشه إخواننا في العراق، فنحن في عام ٢٠٠٣ ميلادية، قيامها الدولة العباسية التي ترعم انتسابك إليها، فقد اختفت، واندثرت، ومر على أما زلت عشرة قرون، وحلَّ محلها دول أخرى، بخلفاء وسلطانين وحكام آخرين، مصرًا على رأيك؟

— مهما يحدُث فأنا أعترف بالحقيقة، متمنيًّا لو لم تكن هذه هي الحقيقة، لأن نكون في حلم، أو على الأقل يكون أحدهنا في حالة حلم

امتدت يد وكيل الملك إلى قطعة جماد رمادية اللون، من خشب لامع، أو لربما من وعاء زنك أو حديد، فلم أقو على تمييز معندها، لكنها كانت مشدودة بحبل رقيق إلى حقيقياً بداخلها في لونها، وضعها بين فيه وأذنه، وأخذ يتحدث إليها كما لو أن رجلاً يحاوره.

وددت لو قلت له، بأن المجنون الحقيقي هو الذي يحاور جماداً، لكنني اكتفيت بذهولي، ولدت بالصمت.

(4)

معقوف بعد زمن قصير، وقع طرق خفيف على الباب، فأطل منه رجل كهل، الشيب، الأنف، رمادي الشعر، حليق الوجه إلا من شارب متّسخ، غالب عليه بياض وبعيونيه قدرت أنه في عمري وقامتي ونحافتي، ألقى تحية احترام على وكيل الملك، بتساؤل يخفي تضليله، لكن وكيل الملك طمأنه، مرحبا، قائلاً

— إذن، أنت الكاتب محمد شكري، لقد طلبت حضورك قصد استشارتك لا غير،

فأنت كاتبنا المعروف، من رموز هذه المدينة، تفضل، استرح

بعد أن استوى محمد شكري فوق مقعد أسعفه به "محند أشهبار" الكاتب الذي يدون
أقوالـيـ، ظل تساؤله بادياً على وجهـهـ، فبادرـهـ وكيلـ الملكـ بالقولـ

ـ إـنـكـ من دونـ شـكـ، تـعـرـفـ منـ هوـ "أـبـوـ حـيـانـ التـوـحـيدـيـ". ولـعـكـ عـارـفـ بـأـخـبـارـهـ
أـوـ مـطـلـعـ عـلـىـ بـعـضـ كـتـبـهـ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟

أـجـابـهـ شـكـريـ بـصـوـتـ يـفـضـحـ اـرـتـبـاـكـهـ

ـ نـعـمـ سـيـديـ، أـعـرـفـ بـعـضـ أـسـمـاءـ كـتـبـهـ، أـمـاـ عنـ شـخـصـهـ، فـأـذـكـرـ أـنـ أـقـلـامـاـ كـبـيرـةـ
وـكـثـيرـ سـالـتـ مـنـوـهـةـ بـعـقـرـيـتـهـ وـعـلـمـهـ الغـزـيرـ، خـاصـةـ مـنـذـ حـوـالـيـ عـشـرـينـ عـامـاـ، حـينـ
بـالـأـحـرـىـ وـقـعـ الـاحـتـفالـ مـنـ لـدـنـ كـبـارـ الـمـتـقـفـينـ بـذـكـرـىـ مـرـورـ أـلـفـ عـامـ عـلـىـ وـفـاتـهـ، أـوـ
عـلـىـ اـخـقـائـهـ، ذـلـكـ أـنـ لـاـ أـحـدـ مـنـ الـمـؤـرـخـينـ يـعـلمـ تـارـيخـ وـفـاتـهـ.

قبلـ أـنـ يـنـهـيـ مـحـمـدـ شـكـريـ شـهـادـتـهـ، اـقـتـحـمـ الـمـكـتبـ رـجـلـ طـوـيلـ الـقـامـةـ، حـسـنـ الـطـلـعةـ،
الـمـفـتـينـ الـأـفـذـاذـ، وـاثـقـ الـخـطـىـ، فـبـدـاـ مـنـ هـيـئـتـهـ، وـتـقـتـهـ بـنـفـسـهـ، أـنـهـ أـحـدـ كـبـارـ الـحـاكـمـينـ أـوـ
أـنـاـ، فـقـدـ كـنـتـ وـاقـفـاـ سـلـفـاـ. وـزـادـ فـيـ تـأـكـيدـ تـخـمـيـنـيـ وـقـوـفـ الـجـمـيعـ اـحـتـرـاماـ لـقـدـوـمـهـ، إـلـيـ

فـوـقـ مـقـعـدـ بـجـوـارـ وـكـيـلـ الـمـلـكـ، وـأـشـارـ وـلـمـ يـعـودـواـ لـجـلوـسـهـمـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ يـسـتـوـىـ الـزـائـرـ
يـدـ وـكـيـلـ الـمـلـكـ، وـوـضـعـهـ أـمـامـهـ فـوـقـ عـلـيـهـمـ بـالـجـلوـسـ، فـتـسـلـمـ أـورـاقـ تـصـرـيـحـاتـيـ مـنـ
الـمـكـتبـ.

ـ قـبـلـ أـنـ يـطـلـعـ عـلـيـهـاـ، بـادـرـهـ وـكـيـلـ الـمـلـكـ بـالـقـوـلـ، وـهـوـ يـشـيرـ إـلـىـ مـتـقـفـ الـمـدـيـنـةـ

ـ إـنـهـ الـكـاتـبـ الـمـغـرـبـيـ الشـهـيرـ مـحـمـدـ شـكـريـ، فـقـدـ دـعـوـتـهـ لـأـسـتـأـنـسـ بـرـأـيـهـ فـيـ حـيـاةـ
عـامـ، أـقـولـ وـنـتـاجـ الـمـرـحـومـ "أـبـيـ حـيـانـ التـوـحـيدـيـ"ـ الـحـقـيقـيـ، الـمـتـوـفـيـ مـنـ أـلـفـ
الـتـوـحـيدـيـ"، وـبـأـنـاـ نـعـيـشـ فـيـ الـحـقـيقـيـ، لـأـنـ الضـنـينـ الـمـاـثـ أـمـامـنـاـ يـزـعـمـ أـنـهـ "أـبـوـ حـيـانـ
الـإـسـبـانـيـةـ عـلـيـنـاـ بـتـهـمـةـ الـهـجـرـةـ السـرـيـةـ، عـصـرـ الـدـوـلـةـ الـعـبـاسـيـةـ، وـقـدـ أـحـالـتـهـ السـلـطـاتـ
لـكـمـ إـشـكـالـ هـذـهـ النـازـلـةـ الـغـرـيـبـةـ وـبـعـدـ أـنـ اـطـلـعـواـ عـلـىـ تـصـرـيـحـاتـهـ، سـيـتـبـيـنـ

انـكـ الـوـكـيلـ الـعـامـ عـلـىـ تـفـحـصـ أـقـوـالـيـ المـدوـنـةـ فـيـ أـورـاقـ أـمـامـهـ، وـبـيـنـ الـحـينـ
وـالـآـخـرـ، كـانـ يـرـفـعـ بـصـرـهـ لـيـتـأـمـلـيـ، ثـمـ يـعـودـ لـمـحـضـ تـصـرـيـحـاتـيـ، وـاسـتـبـشـرـتـ خـيرـاـ
حـينـ أـمـرـ الشـابـ "محـنـدـ أـشـهـبـارـ"ـ بـإـحـضـارـ مـقـعـدـ لـيـ، وـطـالـبـهـ بـاستـئـافـ كـتـابـةـ مـحـضـ
الـاسـتـطـاقـ.

ـ وـتـدـخـلـ وـكـيـلـ الـمـلـكـ، مـخـاطـبـاـ الـكـاتـبـ مـحـنـدـ أـشـهـبـارـ

ناول السيد الوكيل العام، ماهو مسجل لديك من أقوال المتهم.

أز عجني أن يقول عنِي إنِي متهم، لكنني لذت بالصمت.

بعد أن تصفح الوكيل العام ماراج من استطاق في غيابه، توجه نحوِي بالسؤال التالي:

— هل أنت مصر على أقوالك، وعلى أنك "أبو حيَان التوحيدِ"؟

حركت رأسِي بالإيجاب وأضفت:

في — إنِي يا سيدِي أتشبَّث بكل ما قلْتُه، ولعلمك، فإنِي أجزع من النقوقِ والتخاذل لي السيد الأقوال، سواءً أكانت لغيري أمْ لي شخصياً، إنما بالله عليك، كيف ينسب وكيل الملك صفةِ متهم؟ أي ذنب اقترفت؟

ارتسمت علىِ محياه ابتسامة مواربة وهو يجيبني:

إن — إنِك متهم بالهجرة السرية إلى إسبانيا، وهي ليست جنائية حتى تصاب بالفزع ما يشغلنا حقيقة، هو جريمة انتحال الصفة، أي انتحالك لشخصية "أبي حيَان التوحيدِ".

ثم التقى إلى محمد شكري وطلب منه الحديث.

جال محمد شكري ببصره في وجوه الحاضرين، وكأنه يلتمس سمعاً، وقال

رغبة — لم أفهم شيئاً لحد الآن. ولعلمك فإني جاهل بأمور القانون، أما إذا كانت على أتم السيد الوكيل العام أن أزوِّدكم بما أعرفه عن "أبي حيَان التوحيدِ" فإني الاستعداد.

حرّك الوكيل العام رأسه بالإيجاب، فتحدث شكري

— عرف عن أبي حيَان الشجاعة والصراحة والمجاهرة برأيه في الناس، كباراً

وصغاراً، دون حرج في نشر مساوئهم ومحاسنهم، اعتقاداً منه بضرورة ذم المسيء ومدح المحسن، وكان أدبياً وفليسوفاً وخطيباً لا يشق له غبار.

ثم وهو يتأملني أكمل حديثه

— لكن هذا الرجل يبدو من لهجته عراقياً، ولغته ممتازة جداً، لكنه، على ما أرى كتبًا وأسمع، رجل أحمق، ذلك أن "أبا حيَان" تلاشت عظامه منذ ألف عام، وقد ترك القدماء ونخائركثيرة، أذكر من بينها "المقابلات" و "الإمتاع والمؤانسة" و "الأخبار الحكماء".

وطفق يتذكر، لكنني لم أقوَ على تحمل كذبه، فتوجهت بكلامي إلى الوكيل العام فاضحًا إيه.

— أعترف أنَّ الكتاب الأول والثاني من مخلوقاتي، وإنني على استعداد لسرد يسبق لي محتوياتها. أما كتاب "أخبار القدماء وذخائر الحكماء"، فلا علم لي به، ولم شكري، بل أتذكر أنَّ الفتُّ كتاباً بهذا العنوان، ولاشك أنه من مختارات السيد محمد وناقشنا عناؤينها دون أنَّ الشيخ "أبا سعيد السيرافي" كان يحتفظ بنسخ لبعض كتبه، أن يخطر ببالنا هذا العنوان.

قاطعني الوكيل العام بإشارة من يده، طالباً من الكاتب "أشهبار" أن يسرع في تدوين "أقوالنا، والتفت إلى "شكري" سائلاً

— هل تعرف من هو الشيخ "أبو سعيد السيرافي"؟ أقصد هل هو مذكور في تاريخ الأدب؟

برفع محمد شكري بصره إلى سقف المكتب في حالة تذكر، ثم خفض بصره وأجاب — لا ياسيدي، لا أتذكر من يكون هذا الشخص

بتطلع الوكيل العام نحوبي وسألني

— من يكون هذا الشيخ؟

أسرعت أجيب

— إنه "أبو سعيد السيرافي" من أشهر علماء عصرنا، شيخي ومعلمي، أخذت عنه النحو والكلام وأصنافاً من العلوم والمعارف، كان رحمة الله عليه من كبار بخطه، ناهيك والمتكلمين المعتزلة، فقد شرح كتاب "سيبوبيه" في ثلاثة آلاف ورقة محمد شكري عن تبحره في الحساب والهندسة والمنطق، إني أستغرب كيف أنَّ السيد السيرافي؟ الذي يدعى اطلاعه على كتبه، لا يعرف من يكون المرحوم

قاطعني الوكيل العام قبل أنْ أتم جملتي، وسأل محمد شكري

— هل العلماء الذين تتلمذ عليهم أبو حيان معروفون في كتب الأدب

ردَّ محمد شكري

— بكل تأكيد

فالتفت نحوبي وسألني

— وعَمَّنْ غير "السيرافي" أخذت علمك؟

الكثير — تعلمت كذلك على يد الشيخ "أبي سليمان السجستاني" المنطقي، كما أخذت والذى ، "من المعارف على يد القاضي الشيخ "أبي حامد أحمد بن بشر المروروذى أتخل عن لم أتخل عن السير في موكب جنازته بحي الأعظمية في بغداد، متلماً لم عنه رحمة الله، الاستشهاد بمؤلفاته وأقواله في كتابي "البصائر والذخائر"، استحضر ذلك، السلف الصالح أنه كان ضد الألقاب الكبيرة والتفحيم في الخطاب، مستنده في الذي كان يخاطب رسول الله بـ "يارسول الله ويا محمد".

كان الوكيل العام، مثل جميع الحاضرين، يتابع حديثي باهتمام بالغ، ويبحث كاتب الضبط الشاب محدث أشهبار على تدوين كل التفاصيل، بل كان يسعفه في كتابة الأسماء حتى لا يقع في خطأ.

واستمر حديثي عنم أخذت عنهم علومي

ظل الوكيل العام صامتاً إلى أن تأكد من توافقني عن حديثي، فخاطبني — إنك أيها السيد ظاهرة غريبة، وقضيتك من المعضلات الفريدة المعروضة على الغموض، القضاء، وبمساعدتك لنا، قد نصل بإذن الله وعونه إلى استجلاء مكمن هذا البعيد وإلى فك هذا اللغز المثير، وقد نعثر على الحلقة الضالة بين ماضيك أبو "وحاصرك الحالي هذا، إنني أرغب في تصديقك، لكن حتى لو ثبت لدينا أنك تصل إلى حيان التوحيد" ذاته! فكيف تفسر لنا قفزك على ألف عام، إذ لا يعقل أن عام ١٤٢٣. الأندلس في عام ٤٠٠، وبعد يومين أو ثلاثة أيام يلقى عليك القبض في! أليس هذا محيراً؟ فأين ذهبت الألف عام ونيف،

التفت إلى محمد شكري وسألة:

— هل يمكن لي اقتناء بعض مؤلفات "أبي حيان" بالابتهاج أو الاستعارة؟

أجابه شكري

وعنه — إنني يا سيدي الوكيل العام، أحافظ في بيتي بكتب قيمة كتبت عن مؤلفاته إليك شخصياً، كما أتوفر على بعض كتبه، وبإمكانني أن آتيك بها قبل أن يرتد سأستعييرها طرفك،ولي صديق شاعر، هو أحمد اليدري، يمتلك أيضاً بعض كتبه، قبالة "شركة احتكار منه في الحال، فبيتنا لا يبعدان كثيراً عن المحكمة، فهو يقيم تأذن لي بالانصراف التبغ"، وأنا في شارع تولستوي بجوار مقهى روكتسي، فهل آتاك بها؟

— لتنقضل، سبقي في انتظارك.

غادر محمد شكري المكتب، فطلت نظرات الحاضرين مصوبة نحوه بطريقة وكأنني بينهم إيليس أعيش الدهر الأبدى، مما جعل نفورى منهم يشتد فضولية، لأنس و كان سحابة قائمة السوداء، لم تكتف بتغليفى فحسب، وإنما اقتحمت ويتضخم، وأخذت تمتصنى لأتلاشى وأختفى، مثلاً تخفي الأضغاث دون استئذان دواخلى، أصحابها.

هل أنا حلم؟ هل أنا سراب؟ هل أنا وهم؟

وددت لو كنت أحد هذه المخلوقات الاصطلاحية، فأعيش مثلاً دون إرادة أو وعي أو إحساس، لكن مشاعرى الإنسانية وإحساسى بوجودى بين الوكيل العام ووكيل الملك ومحند أشهبار كاتب الضبط، والشرطة الموجودة خارج المكتب ومحمد شكري غرناطة، الذى تغيب لإحضار ما سماه بمؤلفاتي، و "نهاوند" التي تنتظر قدومى إلى فتبهنى إلى أو ظلت تنتظر عودتى التي لم تتحقق. كل هذه الحقائق كانت تصفعنى، بعضهما عن بعض أتنى كائن حقيقى قائم فى مكانين، أو بالأحرى فى زمانين يفصل زمان يحسب بالقرون.

فكرت في كتبي ومؤلفاتي، تلك التي أضرمت فيها النار غير آسف قبل مغادرتى التي بغداد، إنها أيضاً حقيقة ثابتة، فأى كتب ينسبها محمد شكري إلى شخصى؟ تلك تغيب لإحضارها، هل كتبت بعد رحيلي فنسبت إلى زوراً؟

(5)

السوسي"، أشهر في غفلة عن إرادتى، طفا إلى سطح ذاكرتى وجه العراف "ابراهيم من استحضارى لكل فقهاء وعرافى بلاد سوس. يا إلهى، كيف ظل مختفياً بالرغم يجالس سوى السلطان من التقى بهم بحاضرة فاس. الآن أتذكر كل شيء، كان لا وكمار شيخ القبائل لا المغربي المغراوى المعز بن عطية، وحتى الحاشية السلطانية الواقعة من ألفها إلى يائها، وأنا يستقبلهم إلا إذا أذن له السلطان بذلك. تحضرنى تلك كانت غائبة عنى بسبب كراهيتى للسحره بحضره وكيل الملك والوكيل العام، ربما فأعلنت عن رأىي هذا لأصدقائي الفاسقين، والعرفان، أجل، كنت أمقت السحره، السوسي بين مدافعين شاهدين له بالتقوى وكانوا منقسمين حول هذا الفقيه

والخروج عن الشريعة، فانضمت أول الأمر والكرامات، ونابذين يرمونه بالمرور
النبي (ص) "من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد إلى الفئة الأخيرة، مستنداً إلى قول
وهو حديث صحيح رواه البزار. لكنني وافقت بعد ،"(كفر بما أنزل على محمد (ص)
بالشريعة ورغبة النبالة في أن يطلع على علومي في أن تأكّد لي تمسك الرجل
وكذا تحصيله لـإذن خاص من عظمة السلطان لمقابلتي التصوف والمنطق وال نحو،
هكذا وبعد أن سبقه رقاص أخبرني بقدومه في موعد حده، حضر إلى مقر إقامتي
فندق ضيوف فاس، مصحوباً بحارسٍ من قوات دار المخزن، لكن الحارسيْن في
في انتظاره بالبهو إلى أن عاد إليهما قبيل أذان الفجر بقيا

الليلة أَجَل، استقبلته في غرفتي وأنا في أقصى ما يكون عليه الحرص واليقظة، كانت
وطال سرنا باردة، فسفقته مما كان متوفراً بغرفتي من عصير القرفة والزنجبيل،
بتين وزيتون فاسيين وتشعّب حديثاً إلى أن رُفعت الكلفة بيننا، فكذبنا على معدتِنَا
سماعه من فنون النحو وبلح فكيكي، وأنا أسمعه ما استهواه ورغب في مزيد من
بين الكرامات والمعجزة والمنطق والكلام، كما روى لي ما زادني علماً بالفارق
تمتاز عن الكرامة بالتحدي، أما السحر والسحر، فالكرامة لا تقع إلا اتفاقاً، والمعجزة
بالشياطين فلا يؤتى إلا من دجال فاسق يستعين

وشنف سمعي بخوارق كثيرة متنوعة قام بها لإبطال أنواع متعددة من السحر،
كسحر تعطيل الزواج، وسحر التفريق بين الزوجين، وسحر الخمول، ونماذج لعلاج
جميع أنواع هذا السحر بآيات قرآنية وأدعية شرعية، وخاص في حديثه عن سحر
المحبة للجمع بين الرجل والمرأة المتنافعين، كما صارحنى بتفوقه وبراعته في
السحر الحال بعيد عن الشرك بالله.

القصيدة رافقني أني وجدته متحدثاً بارعاً ملماً بخيالاً النفوس والمشاعر النفسية
نهانوند، ولربما " وهو جسها الخفية، مما جعلني أضعف فأبوج له بعشقي وتعلقـيـ بـ
رُقْيَةـ أوـ كـرـامـةـ تـحـفـظـ العـهـدـ لـرـغـبـةـ دـفـيـنـةـ زـلـ لـهـ لـسـانـيـ، فـانـزـلـتـ مـنـهـ أـسـئـلـةـ عـنـ
أـقـابـلـهـ بـالـأـنـدـلـسـ، شـرـيـطـةـ أـنـ لـاـ يـكـونـ وـالـحـبـ بـيـنـيـ وـبـيـنـهـ لـتـظـلـ فـيـ اـنـتـظـارـيـ إـلـىـ أـنـ
بـالـشـرـكـ بـالـلـهـ. فـاـسـتـبـعـ اـنـشـغـالـهـ بـمـاـ يـخـالـفـ الشـرـعـ، وـأـكـدـ لـهـذـهـ الرـُـقـيـةـ أوـ الـكـرـامـةـ عـلـاـقـةـ
نوـعـانـ: نـوـعـ يـخـالـفـ الشـرـعـ، فـيـدـخـلـ فـيـ بـاـبـ الشـرـكـ، وـآخـرـ جـائزـ لـيـ أـنـ الرـقـىـ
وـأـسـمـعـنـيـ حـدـيـثـاـ شـرـيفـاـ صـحـيـحاـ رـوـاهـ مـسـلـمـ فـيـ كـتـابـ السـلـامـ، عـنـ لـاـبـتـعـادـهـ عـنـ الشـرـكـ،

"الله عليه وسلم قال: "لا بأس بالرقي ما لم تكن شركاً رسول الله صلى".

— ولكن الأمر يتعارق أيضاً بالمدة التي ستبقاها في الأندلس؟

سائلني، وبعد أن فكر قليلاً، أضاف:

عزَّ — سأعمل حِسابَ ذلك، سأنجز لك رقية من أهم وأنجع ما ألهمني وحبانني به ستحفظ وجَّلَ، بعد سنوات من الدعوات والخشوع والأرق والإرهاق، وهي رقية عقالك وبذنك ما طوّح بك الزمن بعيداً عن بغداد.

أسرعت أجبيه، كاشفاً له سري

— لكنني لن أبقى بعيداً عن "نهاوند" إلى أن أعود إلى بغداد، إنها في طريقها هي أيضاً إلى غرناطة، وهناك سأقابلها.

عاد يفكر ثم خاطبني

لأعدت لك — لو أنك تحفظ الآن بما كانت تستعمله "نهاوند"، منديل أو خاتم مثلاً. تلقيا في الحال رقية مماثلة تحصنها وتحفظ عقلها وبذنها مثلك، إلى أن

أسرعت أفتح صندوق ثيابي، يفضحني حبوري ودهشتني، وأخذت ألمي بقطع الثياب الأرض قطعة قطعة، إلى أن وقعت عيني ويدي على تكة ثم بخنق، فأشرت فوق العراف ابراهيم السوسي دون أن أفوه بأي كلام. فابتسم وقال لي بهما إلى

— ناولني البخنق.

أخذه مني ومرّ به على أنفه يشم رائحته، ثم أخرج ورقاً صقيلاً من قرابه، أخذ يدعوك البخنق به، قبل أن يخط رقتيه بذات الورق.

عن ما إن مررت أحاديث هذه الواقعة بذهني حتى انقضت في مقعدي، وكأن يداً خفية مع الأنظار امتدت إليَّ فمسكت بتلاببي، وهزّتني هزاً تتبهني إلى ما حدث لي مندهشاً إن الساحر "ابراهيم السوسي" في فاس، مما جعل الوكيل العام للملك يسألني كنت شواطاً كنت بأتميَّ، فطمأنته بحركة من رأسي على سلامتي، لكنني في داخلي من نار.

كيف احتجبت هذه الواقعة عن ذهني، وفكري كلُّه كان مصوباً إلى ما بداخلي وإلى ما تخلل رحلتي؟! كيف لم تخطر بيالي، مع أنها تكاد تكون الحلقة المفقودة بين ماضيٍّ وحاضرٍ؟ أنا العالم المنطقي الفيلسوف الصوفي، المسخر لجمع حواسِي أستحضر وقدراتي الطبيعية والمكتسبة بحثاً وتدقيقاً عن مصدر همي وغمي وكmedi،

طنجة" و كل من قابلتهم في "حاضرة فاس" و "قصر كاتمة" و "نهر أصيلا" و "نهر ايت باسيت" به "نهر طريف" يغيب عن ذهني أبرز وجه وأخطره لرجل ساحر كاهن فقيه، في تلك الليلة الليلاء، ليكون السبب في تغيير مصيري وقدري؟

أجل كل ما أعينيه لن يكون مرده إلا لتلك الرقية التي أعدها لي "ابراهيم السوسي"، وأمرني بحفظها بجوار قلبي.

إنه السحر بعينه، السحر الذي جعلني أقفز على ألف عام، ولعل "نهاوند" بفضل هذا الساحر المغربي، قد قفزت هي الأخرى على ألف عام، كيف وهي دون شك قد استعادتها الحياة مثلي، و لعلها تبحث عنني في مكان ما. إنما النوع من سيفتح الرجال بهذه الواقعية؟ من سيصدقني؟ من يصدق آثار هذا السحر؟

(6)

ظل رأسي متصدعاً إلى أن حضر محمد شكري، دخل وبيديه مجموعة كتب،
يساعده في حملها رجل قصير القامة، متراهل الجسم، أشقر الشعر أشعثه، ذو وجه
مُشرَب بحُمرة.

وضعا الكتب فوق مائدة الكاتب محمد أشهبار، وقدم شكري إلى الحاكمينِ مرافقه
قائلاً:

— إنه "الروبيو" صاحب دكان بيع السجائر والصحف المجاور لبيتي، وهو صديقي رد قبل أن أتعلم القراءة والكتابة، فابتسم الجميع محرّكين رؤوسهم بتحية خفيفة، عليها "الروبيو" بحركة مماثلة دون أن يخفى ارتباكه وغادر المكتب.

طلب الوكيل العام من الكاتب محنـد أشـهـار نـقـلـ الـكتـبـ إـلـىـ جـوارـهـ،ـ وـأـخـذـ يـقـرـأـ
ـعـنـاـوـيـنـهـاـ بـصـوـتـ سـمـعـانـاهـ جـمـيعـاـ

— البصائر والذخائر، الامتناع والمؤانسة، المقابلات، الإشارات الإلهية.

توقف عن القراءة، وخطبنا

— إن الاطلاع على مضمون هذه الكتب يتطلب شهوراً

بِولَمْ أَطِقْ صِبَرًا، فَقَاطَعَتْ الْوَكِيلُ الْعَامِ

— سيدى، إنى أرفض أن تتسب هذه الكتب إلى شخصى، ذلك إنى أضرمت النار

مؤلفاتي جميعها قبل أن أغادر بغداد، ثم ما جدوى الإطلاع على الكتب في
ومناقشتها؟

انتقض الوكيل العام في مقعده وخطبني مُرغِيًّا

بمضامين — أنت لست إذن "أبا حيان التوحيدى" الحقيقى، ولذلك تنتصل وتبرر جهلك
علماء ثقات، فكيف مؤلفاته، فلا تنسَ أن الكتب المنسوبة إليه وقع تحقيقها من لدن
تبراً منها وتدعى أنك "أبو حيان التوحيدى"؟

— إنني لا أتبراً، وإنما أحيطك علمًا بأنى جعلت جميع مؤلفاتي حطباً للنار دون أن
أبقي على واحد منها!

— وماذا كان الداعي لإحراق كتبك وبيتك؟ ما سمعنا عن شخص قام بإحراق
مؤلفاته!

ختم هذه الجملة الأخيرة بضحكه جوفاء، فأجبته

وبذلك — نعم يا سيدى، هناك العشرات من العلماء الذين أضرموا النار في كتبهم،
فإن لي في إحراقها أسوة بأئمَّة، اقتديت بهم واهتديت بهديهم.

— من هم هؤلاء الأئمَّة والعلماء الذين أحرقوا كتبهم؟

سألاني الوكيل العام، وطلب من الكاتب أن يدون جوابي بدقة فأسرعت أجيبه
— "أبو سليمان الداراتي"، الذي جمع كتبه في تور وسجرها بالنار . ومثل "داود
في باطن الطائي" الذي ألقى كتبه في البحر، و "أبي عمرو بن العلاء" الذي دفن كتبه
إبني يا مولاي . الأرض فلم يوجد لها أثر، وشيخي "أبي سعيد السيرافي" سيد العلماء
معي على أن حين أحرقت كتبى كنت أعاني من حالة نفسية متربدة، وقد تتفق
آماله، ولا يلبث الإنسان حين ينحدر إلى غروب عمره وتكتشف له تقاهة الدنيا، تتبدد
إلى كتبى، كنت أن يدرك معنى العبث بكل حدته وقوته. هكذا، حين كنت أنظر
مجد أدبي، ولذلك لم أر أراها تجسيداً معبراً عن إخفافي في الظفر بما كنت آمله من
فيها داعياً للتمسك بها أو الحرص عليها، فقمت بإضرام النار.

— إذا كانت الحال كما تقول، فمعنى هذا أنك لست مؤلف هذه الكتب التي بين أيدينا؟
وتدخل محمد شكري، مستأذنا في الكلام

— سيدى الوكيل العام، المعروف عن أبي حيان التوحيدى، والذي تؤكد هذه الكتب
من نسخ التي بين أيدينا نفسها، أنه أضرم النار في جميع مؤلفاته، إلا ما نجا منها

كتاباً على ما ظلت في حوزة أصحابه، ولذلك لم يصل إلينا منها إلا حوالي عشرين أثناً ذكر.

فرد الوكيل العام كمن يخاطب نفسه:

— من الحكمـةـ إذن الترـيـثـ، وـعدـمـ منـاقـشـةـ المـتـهمـ فـيـ مـضـامـينـ هـذـهـ الكـتـبـ إـلـىـ أـنـ يـتـمـ الـاطـلاـعـ عـلـىـ مـاـ نـخـتـارـهـ مـنـهـ، مـعـ مـزـيدـ مـنـ الـبـحـثـ.

والتقت نحوـيـ، تـعلـوـ وجـهـهـ اـبـتسـامـةـ تـعـبـرـ عـنـ قـنـاعـةـ مـؤـجـلـةـ بـشـخـصـيـ، وـقـالـ لـيـ

— هل توافق على مقالـهـ السـيـدـ مـحمدـ شـكـريـ؟

حرـكـتـ رـأـسـيـ بـالـإـيجـابـ، وـقـلـتـ

— فـعـلاـ، فـقـدـ سـبـقـ لـيـ أـنـ قـمـتـ بـنـسـخـ بـعـضـ مـؤـلـفـاتـيـ، وـأـهـدـيـتـهـ إـلـىـ تـلـةـ مـنـ شـيـوخـيـ وـأـصـدـقـائـيـ وـمـرـيـديـ، غـيـرـ أـنـ عـدـدـهـ كـانـ لـاـ يـزـيدـ عـنـ عـشـرـةـ كـتـبـ، أـوـ لـرـبـماـ ضـعـفـ هـذـاـ عـدـدـ، لـاـ ذـكـرـ. أـمـاـ أـكـثـرـ الـمـخـطـوـطـاتـ وـالـبـحـوـثـ وـالـدـرـاسـاتـ، بـلـ جـمـيعـ مـاـ كـنـتـ

أـحـفـظـ بـهـ، مـنـ كـتـبـيـ وـكـتـبـ غـيرـيـ، فـقـدـ أـضـرـمـتـ فـيـ النـارـ اـسـتـجـلـابـاـ لـرـاحـةـ نـفـسيـ.

جالـ الوـكـيلـ العـامـ بـبـصـرـهـ فـيـ وـجـهـ الرـجـالـ، يـسـطـلـعـ ذـهـولـهـ، وـخـاطـبـنـيـ

— أـمـاـ زـلـتـ تـذـكـرـ مـنـ أـهـدـيـتـهـ كـتـبـكـ؟

الـوـحـيدـ الـذـيـ — وـاحـداـ وـاحـداـ، وـفـيـ مـقـدـمـتـهـ الـوـزـيـرـ "أـبـوـ الـفـضـلـ بـنـ الـعـمـيـدـ"، ذـلـكـ أـنـهـ غـرـيبـ مـؤـثـرـ، عـوـضـنـيـ عـنـ تـلـكـ الـكـتـبـ، لـكـنـ مـقـايـضـتـهـ غـيـرـ الـمـتـوقـعـةـ كـانـتـ مـنـ نـوـعـ

عـلـىـ اـسـتـعـادـ فـاعـلـ فـيـمـاـ حدـثـ بـعـدـهـ فـيـ مـسـيرـ حـيـاتـيـ كـلـهاـ. وـإـذـ سـمـحـ المـقـامـ، فـإـنـيـ

لـسـرـدـ تـلـكـ الـوـاقـعـةـ الـتـيـ لـمـ أـؤـرـخـ لـهـ وـلـاـ دـوـنـتـهـ فـيـ أـيـ كـتـابـ.

— تـقـضـلـ، إـنـاـ عـلـىـ اـسـتـعـادـ لـسـمـاعـ هـذـهـ الـقـصـةـ.

نظرـتـ بـدـورـيـ إـلـىـ وـجـهـ الرـجـالـ الصـامـتـةـ، فـرـأـيـتـ وـجـهـ مـحـمـدـ شـكـريـ أـكـثـرـهـ ذـهـولـاـ

وـقـلـقاـ، فـقـدـ كـانـ يـنـظـرـ إـلـيـ كـالـمـأـخـوذـ، فـبـسـمـلـتـ وـقـلـتـ

— كـلـ شـيـءـ اـبـتـدـأـ فـيـ ذـلـكـ الصـبـاحـ الـبـغـادـيـ الرـائـقـ، حـينـ نـقـرـ بـابـ مـنـزـلـيـ رـسـولـ

مـنـهـ يـحـمـلـ فـيـ يـدـهـ كـتـابـاـ مـنـ "الـوـزـيـرـ أـبـيـ الـفـضـلـ بـنـ الـعـمـيـدـ"، فـتـحـتـ لـهـ الـبـابـ وـتـسـلـمـتـ

إـحـدىـ الـكـتـابـ، فـرـمـقـتـ سـيـدةـ تـقـفـ خـلـفـهـ، لـمـ أـحـفـلـ بـوـجـودـهـ، إـذـ حـسـبـتـهـ زـوـجـتـهـ أـوـ

لـكـنـهـ بـنـاتـهـ، فـقـدـ كـانـ كـسـائـرـ النـسـاءـ تـحـجـبـ وـجـهـهـاـ وـجـسـدـهـاـ بـعـبـاءـ وـخـمـارـ أـسـوـدـينـ،

قـبـلـ أـنـ يـهـمـ بـالـاـنـصـرـافـ، بـادـرـنـيـ بـقـوـلـهـ

— إـنـ سـيـديـ الـوـزـيـرـ، يـهـدـيـكـ سـيـدـتـيـ "نـهـاـونـدـ"، وـأـشـارـ إـلـىـ مـرـاقـفـتـهـ

لن أزعم أني لم أرتكب، فلم تكن العادة أن يُهدى رجل من عامة الناس امرأة أو إلى جارية، لكنني أخفيت ارتباكي وتصرفت كما لو أن الأمر عادي، فدعوت المرأة وأوصدت الدخول، ووَدّعت الرجل بعد أن حمّلته شكري وامتناني إلى سيده الوزير، بباب داري.

في داخل الدار، والمرأة تقف بجواري، ألقيت نظرة سريعة على كتاب الوزير، أمهات فوجدته يوصيني خيراً بـ "نهانوند"، ويهديني إياها جراء ما أمنتنه به من لتملأ رأسي المؤلفات، لكن عباره "أجمل محظياتي" الواردة في الكتاب استوقفتني، درجة، فهي لا تُشَرِّف بالتساؤل، ذلك أني أعلم أن المحظية في سلم الحريم، أعلاهنَّ الجواري، لكنها ستكون لدى امرأة بهذا اللقب إلا بعد أن يقع تفضيلها على جميع بدون ألقاب! قلت في نفسي.

والتفت إليها لأستنبط من الخبر حقيقة المعنى. في تلك اللحظة رمتها وهي تضع بدخولها خمارها فوق حاشية سجادتي الشيرازية، بعد أن خرجت من عباءتها إعلاناً حتى لا أقع في عصمتى ومتاعي، فأصابني الدُّوار من فرط المفاجأة إلى أن تماسكت ناعمة البشرة على الأرض، ذلك أني وجدتها عفراً، فاتنة الحسن، مشوقة القوام، آسر، إنها كمرمر فارسي، بيضاء كعاج هندي، وبعينيها الواسعتين كحل طبيعي نموذج جمال المحظيات في قصور الخفاء.

يا إلهي، مجرد مؤلفين من بنات أفکاري، وكتاب الحيوان للجاحظ كنت قد نسخته بيدي، وبعض كتب أرسطو المترجمة من السريانية إلى العربية على يد صديقي أبي الافتتان زكريا يحيى بن عدي النصراني، وها أنا أجازى بامرأة مغلفة بالسحر حدّ ووالدهشة.

حسناً فعلت بإهدائي الوزير "أبي الفضل" تلك الكتب، وإنما كنت لأقف شاهداً على ما تحدثه المرأة في أحوال الرجل.

توقفت عن الكلام متأملاً تلك الأيام، فضحك محمد شكري، وطلب مني أن أستمر في فاستأنفت حديثي، وابتسم الوكيل العام وهو يشير عليّ بيده أن أوصل سرد قصتي، القول:

— ظلت "نهانوند" منتصبة بجواري نخلة باسقة، ومن انشراح محياتها عرفت أنها وألقيت سعيدة بقدرها، أنا أيضاً بقىت مأخوذاً، لكنني نزعت عقالي من فوق رأسي،

بأصابع به فوق البساط الفارسي نفسه، وصرت دون إرادتي ألتمس شاربي وأفتألها
أليس القدر هو يدي، والنشوة تشتعل في فؤادي، فكلنا محكوم بإرادة الله ومშئته،
الذي سخرها مملوكة لي، وسخرني مالكا لها؟ تلك مشيئة الله.

(7)

— كم مدة بقية مع "نهاوند"؟

سألني محمد شكري

— ثلاث سنوات هي كل ما تناسلته أيامي مع "نهاوند"، وقبلها لاشيء يستحق نبش تفاصيله. ثلاث سنوات تغير خلالها طبعي وديني، حتى شيطان ترسلي انقلب أحواله، أصبح يكشف لي عن مكمن المكارم والشجاعة بعد أن كان يفضح لي اللؤم والجبن، يرشدني إلى المحسن لأمدحه عوض أن يدلني على المسيء لأنمه عنها، تلكم حقائق مبهرة. قبل "نهاوند"، كان طبعي أن أتبع نفائص الناس وأن أحفر مكانة الهجاء لدرجة أنني كنت قد بلغت الذروة في الذم والهجاء، حتى زاحم ترسلي رائفة، لتصير في شعر "جرير" و "الفرزدق". لكن بمحىء "نهاوند" صارت أيامي على تحويل معها نفسي تحس بالطلاؤة في كل شيء. تلك خاصية العشق، فهو قادر الأرض سوف لن مصائرنا من طريق النار إلى طريق النور، فمن لا ينعم بالنور في ينعم به في السماء.

هكذا صرت أرى الأشياء أنا الكهل النازل من الظهيرة، وهي الحسنة الربيعية من القادمة من الضحى، وتمنيت لو تمدني بولد ذكر أصلع عقله بما حباني به الله والده أبي علم ومعرفة، فأسعدتها أن يكون لي معها نسل، لكن مولانا "أبا الفتح وريث وعقابا بي على كتابي الفضل بن العميد"، أجهض حلمنا حين استعادها إليه نكایة في "متالب الوزيرين" الذي فضحت فيه والده.

بعد رحيلها أظلمت الدنيا من حولي، فصرت كمن ضل طريقه، ولم أعد أطيق البقاء في المشرق، أضرمت النار في مؤلفاتي جميعها، وقررت الرحيل بعيدا، دون أن أحدد وجهة معينة، إذ ازدحمت في رأسى فارس مع الهند مع السندي، وحين حضرتى الأندلس، أمسكت بها، وألغيت ما عداها، وأخفيت قراري عن جميع بني البشر، إلا عن "نهاوند" التي حين علمت بعزمي على الهجرة إلى الأندلس، سرّبت لي مع

كان وصيفتها خبراً، مفاده أنها ستظل في انتظاري إلى أن أعود ويقضي الله أمراً مفعولاً.

مُفَادُهُ أَنَّهَا فِي يَوْمٍ آخَرَ، وَمَعَ الْوَصِيفَةِ ذَاتِهَا، أَبْلَغْتُنِي أَجْمَلُ خَبَرٍ تَلَقَّيْتُهُ فِي حَيَاتِي، وَسْتَرَافْهُنَّ ضَمِنَ قَافْلَةً أَفْلَحَتْ فِي الْانْضِمَامِ إِلَى حَرِيمِ أَحَدِ التَّجَارِ مِنْ مَعَارِفِهَا، تَتَأْهِبُ لِلسَّفَرِ إِلَى غَرْنَاطَةَ، طَالِبَةً أَنْ أَظْلَ كَاتِمًا سَرِ سَفَرِي.

كَتَابًاً مِنْ فَرْطِ سَعادَتِي لَمْ أَتُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، لَكِنْ قَبْلَ أَنْ تَغَادِرْنِي الْوَصِيفَةُ، حَمَّلْتُهَا وَلَا إِلَى مَوْجَزَهُ، مِبْهَمًا لِمَنْ قَدْ يَصادِفُهُ سَواهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ أُشَيرَ فِيهِ إِلَى مَرْسَلِهِ، الْعَرِيفُ مِنْ تَلَقِّيهِ، قَلْتُ فِيهِ بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ: "كُلُّ صَبَاحٍ يَوْمُ جُمُعَةٍ، عَنْدَ مَدْخَلِ جَنَّةِ الْعَرِيفِ مِنْ تَلَقِّيهِ، بِالْمَدِينَةِ الْمَقْصُودَةِ، إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا".

كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ كَامِلٍ، مِنْ أَنَّهَا بِفَطْنَتِهَا وَذَكَائِهَا سَتَعْرِفُ أَنْ مَوْعِدَ لِقَائِنَا سَيَكُونُ فِي صَبَاحِ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَنْدَ مَدْخَلِ حَدَائِقِ جَنَّةِ الْعَرِيفِ فِي غَرْنَاطَةَ، فِي هَذَا الْوَقْتِ، النَّاسُ بِالْأَغْتِسَالِ وَارْتِدَاءِ الْحَلَلِ النَّظِيفَةِ، اسْتَعْدَادًا لِصَلَةِ الْجَمَعَةِ، كَمَا أَنْ يَنْشُغِلَ عَلَى النِّسَوَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ يَتَبَادِلُنِ الْزِيَارَةُ مَا يَتَبَيَّحُ لَنَا التَّرَدُّدُ كُلُّ صَبَاحٍ يَوْمِ جُمُعَةٍ جَنَّةِ الْعَرِيفِ إِلَى أَنْ تَلْقَيَ.

— جَمِيلُ، رَائِعُ.

صَاحِ محمد شَكْرِي وَأَضَافَ:

كَيْفَ تَمْ لَقَاؤُكُمَا فِي غَرْنَاطَةِ؟

"الْمُنْقَبُ" — لَمْ نَتَقَابِلْ، إِذْ رَأَيْتُ الدَّرْبَ دُونِي، فَقَدْ أُلْقِيَ القِبْضُ عَلَيَّ فِي مَدِينَةِ قَبْلِيِّ، وَلَرَبِّمَا هِيَ الْآنِ السَّاحِلِيَّةُ، قَبْلَ أَنْ أَبْلُغَ غَرْنَاطَةَ، وَلَعِلَّ "نَهَاوَنْدَ" قَدْ وَصَلَتْ إِلَيْهَا تَرَدُّدُ كُلِّ صَبَاحٍ عَلَى حَدَائِقِ جَنَّةِ الْعَرِيفِ مِنْتَظَرَةً قَدْوَمِي.

— تَقُولُ إِنَّهَا تَرَدُّدَ الْآنَ عَلَى جَنَّةِ الْعَرِيفِ. أَتَعْلَمُ أَنَّ الْآنَ هَذِهِ قَدْ مَرَّ عَلَيْهَا عَشَرَ قَرْوَنَ؟

عَلَقَ شَكْرِي وَسَأَلَنِي، لَكَنِّي لَمْ أَجْبِهُ، فَعَادَ يَسْأَلُنِي مِنْ جَدِيدٍ

— أَكَتَبْتُ شَيْئًا عَنْ سَنَوَاتِكَ الْثَّلَاثِ مَعَ "نَهَاوَنْدَ"؟

ذَلِكَ — سَبَقَ وَأَنْ قَلْتُ بِأَنِّي لَمْ أَدْوَنْ شَيْئًا عَنْهَا، إِنِّي فَوْقُ مَرْتَبَةِ الْكِتَابَةِ عَنِ النِّسَاءِ، الْحَدِيثُ عَنْهَا أَنَّ الشِّعْرَ وَحْدَهُ فِي اعْتِقَادِيِّ، دُونَ التَّرَسْلِ، مَا يُنْظَمُ عَنِ الْمَرْأَةِ، لَكِنْ هَيْبَتْهُمْ فِي الْمَجَالِسِ الرَّجَالِيَّةِ الْخَاصَّةِ، لَا يَضُرُّ بِمَقْامِ الْفَقَهَاءِ، أَوْ يَنْالُ مِنْ

— وهل نظمت فيها شعراً؟

سأل محمد شكري في عجلة من أمره

صمت الجميع وكأنهم تضامنوا مع سؤاله، فاعتذلت في مقعدي، ورفعت رأسي إلى المكتب، باحثاً عن مقاطع تناسب المقام، وأنشتهم مما أحفظه عن أحد شعراء سقف قصر كتابة:

آهٌ مما أضرَّ بي من غرامي
وأشتياقي ولو عتي وغليبي
سادتي هل إلى الوصال سبيلٌ
إِنْتَيْ لِمَ أَجَدْ لَهُ مِنْ سَبِيلٍ
فارحموا مَنْ شَكَا لغير رحيمٍ
كم له في ذوي الهوى من قتيلٍ
ناله عزُّكُمْ وذَلَّ لدِيكُمْ
فاعجبوا منه للعزيز الذليلِ
وبشوقِي بعثْتُ قلبي رسولاً
فارفقوا لا يُحلُّ قتل الرسولِ

: حرك الوكيل العام رأسه مبتسمًا، وخطبني

— لِنَعْدُ إلى الموضوع، أين اختفت الألف عام وأنت مازلت هو أنت؟

حثثني — أعترف يا سيدي بأنني محاصر بهذه الواقعة التي تكاد تتلف عقلي، والتي الأمارة أكثر من مرة على الانتحار، ولو لا إيماني بالله ما كنت لأنقني شر نفسي يحتسب"، صدق الله بالسوء، "ومن يَتَّقَ اللَّهُ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا العظيم.

وضعت رأسي بين راحتي يدي، وطفقت أفكر باحثاً عن الحلقة المفقودة في حياتي، أو من تلك التي كان للعرفان "ابراهيم السوسي" يَدُ فيها دون شك، لكنني شخصياً لا بالسحر.

: لكن الوكيل العام مرق حبل تفكيري حين عاد لسؤاله

— أين نظرناها اختفت الألف عام؟ ماذا حدث لك في إسبانيا؟ أنتذكر واقعة معينة لها صلة بهذا الموضوع؟

— نعم أذكر.

قلت، وخفضت رأسي مفكراً، متذكرةً تفاصيل ما حدث في العدوة الأندلسية، فأسرع الوكيل العام يحثني بأسلوب لبق على الحديث:

الساحل — تكلم، اسْرُدْ كل ما تتذكرة من أيامك في إسبانيا، منذ أن ركبت البحر من ما تجود المغربي إلى أن ألقى عليك القبض هناك، فلنا متسعاً من الوقت لسماع كل به ذاكرتك، تفضل، توكل على الله.

— حين وَطَئْتُ أقداماً أرض الأندلس في بلدة "طريف"، وكنت ضمن القافلة التي ودليلنا غادرت فاساً، استأجرنا ثلاثة فرسان بخيولهم وأسلحتهم، ليكونوا حراساً أيام، وبها قد نستعين بدليل إلى غاية بلدة "المُنْقَب"، التي قيل لنا إنها تبعد مسافة ستة مسافة يوم واحد آخر يرافقنا إلى "غرناطة" التي لا تبعد بسوى

لمكاره أو كان الصباح بارداً، فسارت قافلتنا في حفظ الله ورعايته، دون أن نتعرض الصاعدة مخاطر، إلا ما كان من وعورة بعض الطرق والممرات والمسالك الجبلية النازلة المشرفة على البحر أحياناً، والقاصية عنه أحياناً أخرى.

مررنا بقرى ومداشِر ووديان وأنهار، تثير الإعجاب والدهشة، لدرجة أن بعض المشاهد أيقظت بفوادي مشاعر كانت آسنة، حتى أتنى نظمت عنها شعراً

الأندلسية نعم، أقرّ بجمال منتزهات فاس وعجائب ساحل بحر الظلمات، لكنَّ لهذه كان البحر فراده وطعمها آخر، مذاق شراب ساحر يسكر بمجرد وقوع البصر عليه، والطبيعة الرابض دوماً بين تلك الجبال والهضاب والسفوح، يزيد الأنفس تجلياً سماوي نزلت إجلالاً، حتى المطر المتتساقط فوق رؤوسنا، بدت لنا زخاته دموع فرح لتخف عننا محن الطريق ونوابئه.

إلاَّ في ربما اندرلت اليوم تلك المدن والمداشِر والوديان والأنهار، أو هي قد لا توجد طرية، إذ لم يمر بطون الكتب، لكنها بالنسبة لزمني الخاص بي مازالت لدى طلية على رحلتي هذه سوى بضعة أيام، يالفظاعة القدر!

سكت عن الكلام بعد أن انتبهت إلى أتنى خضت في حديث قد لا يروق الوكيل العام، وقبل أن أبادره بتقديم عذرِي، قاطعني مبتسماً

— أرجو أن تستمر في حديثك بالكيفية التي تريحك، إننا جميعاً نستمتع بجميع تفاصيل رحلتك، إنك أيها الشيخ متحدث باهر ماهر، تعرف كيف تستحوذ على

العقل، استمر لا تتوقف؟

شكريه وأضفت

والإرهاق، استقبلتنا مدينة "المُنقَب" بمساءٍ شاتِّ، عاصفٌ بالرياح والزوابع والتعب كل الكائنات من دور وجدها الظلام قد سبقنا، ناشرًا رداءً الأسود عليها، فحجب عنَا سوَاق جارية وبحر وهضاب، حتى الأرض من تحت حوافر دوابنا تحولت إلى أوتاد خيامنا فوق ذلك بسيول المياه المناسبة من أعلى الجبال، فاستحال علينا دق واحد منا البقاء فوق ظهر الزمهرير المتدفع المصم للاذان، مثتما استحال على كل مفرٌّ متدفع دابته، والماء فوق رأسه وتحت أقدام مركوبه مكرٌّ.

عدَّ بعضنا هذا الاستقبال نذير شؤم، لكنني شخصياً كنت قد اعتدت أن لا أتوجس شرًا إلاّ منبني آدم، وليس من غضب الطبيعة.

صغيرة ظللنا وقتاً من الزمن نتحسر على حالنا كالأيتام، إلى أن اهتدينا إلى مغارات وبغالنا وحميرنا تحت ترдан بها الجبال، أرشدنا إليها حراسنا الفرسان، فقيدنا خيولنا للقطع بسيف أو خنجر، وأبل مطرٌ عاصف في ظلام سميك، كأنه شيء مادي قابل عن حراسة الدواب لدرجة أن كلابنا خشيتها، فلحقت بنا إلى المغارات متخلية.

كنت آخر من اهتدى إلى مغارة نائية منعزلة، دخلتها والبرد موشك على تجميد يرتديه إلا مفاصلني وقبض أنفاسي، فاستبدل بيابي المكسوة بالماء قفطاناً فاسياً لا هذا، لكنني قلت أكبـر القوم عند استقبال ضيوفهم، وليس أثناء نومهم، كنت أعرف في نفسي، إن للضرورة أحـكامـاً.

وفاتـيـ أنـ أـقولـ،ـ إـنـيـ قـبـلـ أـرـتـديـ القـفـطـانـ الفـاسـيـ،ـ كـنـتـ قـدـ لـبـسـتـ تـكـةـ عـرـاقـيـةـ وـفـوقـهاـ غـالـلةـ عـرـاقـيـةـ أـيـضاـ،ـ وـبـالـرـغـمـ مـنـ ذـلـكـ ظـلـتـ أـوـصـالـيـ تـصـطـاكـ مـنـ هـجـمةـ صـوـفـيـاـ البرـ،ـ فـنـهـضـتـ وـأـضـفـتـ فـوـقـ القـفـطـانـ،ـ بـقـيرـاـ وـشـمـلـةـ عـرـاقـيـنـ ثـمـ جـلـبـاـبـاـ فـاسـيـاـ فـاـكـتـتـفـيـ دـفـءـ بـقـبـ كـبـيرـ غـطـيـتـ بـهـ رـأـسـيـ بـعـدـ أـنـ دـثـرـتـهـ بـكـوـفـيـةـ وـطـرـحـةـ عـرـاقـيـنـ،ـ خـنـجـريـ معـقـولـ،ـ لـعـهـ كـانـ السـبـبـ فـيـ أـنـيـ مـاـ إـنـ تـوـسـتـ سـرـجـ حصـانـيـ وـوـضـعـتـ مجـهـولةـ عـلـىـ مـفـرـقـ بـجـانـبـيـ حـتـىـ دـاهـمـيـ سـبـاتـ عـمـيقـ،ـ وـكـأـنـهـ حـسـامـ مـهـنـدـ أـهـوـتـ بـهـ يـدـ رـأـسـيـ،ـ فـأـوـقـفـتـ تـشـغـيلـهـ فـيـ الـحـالـ.

وـحـينـ اـسـتـعادـتـيـ الـحـيـاةـ،ـ وـجـدـ الـظـلـامـ مـاـ زـالـ مـخـيمـاـ عـلـىـ المـغـارـةـ،ـ فـزـعـتـ،ـ إـذـ حـسـبـتـ نـفـسـيـ قـدـ صـحـوتـ قـبـلـ طـلـوعـ النـهـارـ،ـ مـسـتـبعـداـ أـنـ كـوـنـ قـدـ نـمـتـ لـيـلـتـيـ وـيـوـماـ

نائية كاملاً دون أن يتولى رفافي إيقاطي. لكن الشك لعب برأسني، فمادامت المغارة فلما لا يكون مرافقي قد ضلوا الطريق إليها فتركوني نائماً

قمت أبحث عن المنفذ الذي تسللت منه، فزكمت أنفي رائحة رطوبة عطنة. وبعد طواف وتطواف، تأكّد لي أن المغارة مغلقة، ولا شيء بها يسرّب الضوء أو الهواء، أو يتّيح لي الخروج منها، ذُعرت، فامسكت بخنجرِي، وطفقت أقرع به الجدار ضوضاء وصراخاً عسى أن يُقْيِضَ الله لي انتباه أحد مرافقي، فيسرع وأحدث لنجدتي.

قرعت وقرعت، وقرعت وصرخت وصرخت، فما انتبه أحد إلى قرعِي صراخي، فاستبدلت بخنجرِي سرج حصاني، نزعت عنه الركاب وصرت أو سمع وذا الجدار، محدثاً دويًا يخترق سمع الأصم، كنت لا أتوقف إلا أقرع به ذا الجدار متّني، فأعيد موصلة الدق والقرع والصراخ، وأعيد وأعيد، إلى أن بعد أن يكل بأن ذلك الحجر المسكون بالظلماء، سيكون الشاهد الوحيد على نهاية صار يقيني قلبي الذي تتّسّرّع دقاته، مثّلما تتّسّرّع دقات الطبل إعلاناً لخاتمة وصلة حياتي، وأن الغناء، سيتوقف بعد لحظات لتختم وصلة وجودي.

إنَّ علمنَا لو أحاط بموتنا متى سيكون، لكن ذلك مفسدة لنا، ومحنة شديدة علينا، "فالجهل بالشيء راحة، والعلم بالشيء تعب".

سبق أن قلت هذا متفلساً متخيلاً، وها أنذا أعيش حقيقة وواقعًا، ألمـس بجميع حواسـي مفسـدي ومحـتي ونـهاية حـياتـي.

أفكار مثل هذه وحدها، كانت تطرق رأسي، فشعرت بالوهن، ولم تعد قدمـاي ثقل جـسـدي، ولا عـادـت يـدي تـقوـى على الإمسـاك بالـركـاب لـقـرعـ الجـدارـ، تـتحـمـلـانـ سـقطـتـ علىـ الأـرـضـ مـسـتـسـلـمـاً لـقـدرـيـ نـاطـقاًـ بـشـهـادـتـيـ، دـوـىـ فيـ أـذـنـيـ صـدـىـ وـبـعـدـ أنـ الـخـارـجـ، فـأـرـخـيـتـ سـمعـيـ لـأـتـبـيـنـ الـأـمـرـ بـإـحـسـاسـ منـ يـسـتـمـعـ إـلـىـ مـنـطـوـقـ لـطـرـقـ منـ الـحـدـ عـلـيـهـ فـيـ جـنـاـيةـ كـبـرىـ بـإـلـعـامـةـ حـكـمـ بـإـقـامـةـ.

تأكّد لي الطرق من الخارج بوضوح لا لبس فيه، فأحسست بعيني تغزو رقان بالدموع إعلاناً عن ولادي من جديد. أنا إذن رجل حي يرزق، هناك سعي حيثُ في الإنقاذِي، كنت أعرف أن شهامة رفافي المغاربة لن يجعلهم يتخلون عنِي في الخارج خلعاً مهجورة، ويحلو لهم سفرهم إلى غرناطة. ما كانت شيم مريدي سُنةٌ مالكٌ مغاربة

أصحابهم، وقد عاشرتهم وخبرتهم زماناً تضيع أيامه في العد.

لم أدر كيف غشيتني عافيتي، واشتدّ بأسى، لأجد نفسي وقد انتصب واقفاً على قدمي، فتناولت ركاب سرجي وسط ظلام القبو، وصرت أقرع الجدار بكل ما أوتيتُ من قوة مستعادة خارقة، وأصرخ بذات القوة نفسها

— أنا "أبو حيان التوحيدى"، أغثثوني، أغثثونى !!

ازداد هدير المعاول المنبعث من الخارج حقيقة قائمة كاسمي وصراخي، كشمس الحياة الهجيرة وبغداد وفاس، وبقدر ما كانت دقات الحفر تقترب، كنت أقترب من المغار، لم أدر إن كان الجدار قد تحطم، أم إن أولئك الرجال انبعثوا معي بداخل أصواتاً ترطن بكلام ذلك أن نوراً كلمح البرق كان قد أعمى عيني فلم أتبين منهم إلا بي وتقادني في مجاهل غريب لم تسمعه أذني من قبل، بعد ذلك شعرت بِاِيُّ تمسك بمكتبكم هذا لم أتبينها، إلى أن استعدت بصرى بداخل مكتب شبيه

أسئلتهم تتقاذف بعد أن سقوني ماءً ولبناً، وألقموني رغيفاً حَدَّ الارتواء والشبع، بدأت الطريق الذي من حولي، مرّة عن كيفية وجودي بذلك المكان، ومرّة أخرى عن يتحدث بعربيّة سلكته إلى الأندلس، ومرة عن أسماء وأوصاف رفافي، كان أحدهم كلمة واحدة من كل ما، هو الذي تولى وساطة الترجمة، فشرح لي أنّهم لم يصدقوا ضخماً كان مقاماً بمكان ما أخبرتهم به، ولا هو نفسه صدق ذلك، وذكر لي أنّ بناء المختصين في علم الآثار وجود المغار منذ سنين بعيدة، لا يضبطها سوى تلك المغاره والبقاء بها حياً الإسلامي، وأنه يستحيل على أي كان من بني آدم ولو ج مجرد شبح فعدني الجميع مجنوناً وقال أحدهم عنى أنّي

(8)

بعرف مقتدر ذلك ما حدث بالأندلس، لكن قبل ذلك وأنا في فاس، كنت قد التقى بـ أو لنقل حرزًا كما يدعى "إبراهيم السوسي" فأعاد لي رقية، كما نسميه في العراق، بعيداً عن بغداد، فهل لهذا تسمونه في المغرب، وأخبرني بأنها ستحفظ بدني مادمت السنين؟ هل أفلح ذلك الساحر إلى هذه السحر علاقة ببقائي على قيد الحياة كل هذه نائماً بتلك المغاره مدة عشرة قرون، هذا ما الدرجة؟ لعله كان السبب في بقائي نفسي، هو أنني أبو حيان التوحيدى، وأعرف أرتتاب فيه، غير أنّ ما أعرفه عن

وفلسفة المسلمين قديمها وحديثها إلى زمامي الذي خلاني ومعارفي وتاريخ وآداب هجرية. أما ما جاء بعده فهو لدى في عداد الغيب. عشته، والمتوقف في عام ٤٠٠ عبده تولاه بلطف من عنده". صدق الله العظيم "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ نِجَاهَةً

"ظلت عيونهم حاحظة مشربة نحو ي في خشوع وذهول، لكن الشاب "محمد أشهبار عرفت الكاتب، وفي غفلة مني ارتمى على يعانقني، فترك بخدي شيئاً لرجاً ساخناً، أنها دموعه، وأن ما فعله جاء تعبيراً عن تصديقه لروايتي

أجل، صدق أصغر الرجال أنني أبو حيان التوحيدى القادر من دهور ولت وانقضت، وإلا ما كان ليبلل خدي بما فاضت به عيناه دون إرادته

أراحتي ما فعله الشاب، خف عن كاهلي بعض ثقل همومي، دلني على أن منطق الرجال لم يطرأ عليه سوى تغيير طفيف، وأن الأحساس ما زالت توازي ووعي العقلية، فمن يستعصى عليه الاحتكام إلى البرهان العقلي يسخر أحاسيسه لتكون الأدلة دليله.

واكتفي شعور قوي بأن دورهم آت لاريبي فيه، وأن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت هذا كي تلين مداركهم، فما دام الطريق مشتدّاً، فإن عقولهم لن تنفك تنفتح ليقبلوا الواقع، واقعي هذا الأسطوري المحير، وهو واقع والله يستعصى هضمه ويصعب إليهم من تصديقه، فأنا نفسي أكاد لا أتقبله، بالرغم من أنني صاحب الشأن، القادر البائدة التي أنا حقبة زمنية أعرفها ويجهلونها، الشاهد الأوحد عليها، على أيامي تلك الحاضرة التي لا أعرف منها وحدى الأقدر على الإحاطة بها، وأيامي هذه القليلة سوى هذه الوجوه الآدمية المحيطة بشخصي

ظل ذهني منشغلًا في حواره الباطني إلى أن نطق الوكيل العام للملك، يخاطبني – إنني يا سيدي أود لو أصدق كل كلمة تصدر عنك، فإذا كنت أنت حقاً الشيخ "أبا أن حيان التوحيدى" كما يدلني قلبي، فسأكون من الشاكرين له عز وجل، إذ قيض لي أتحدث إلى شخصية فريدة قادمة من زمن بعيد، شخصية في علو قدرك وعلمك ومكانتك الرفيعة في التاريخ العربي الإسلامي

توقف يفكر وقد غشيت محياه سحابة حزن، وبصوت أحش خاطبني وكيل الملك – إنني أحس بقشعريرة تسري في بدني، ذلك أنني من فرط الذهول أكاد لا أصدق ما القادر من "أسمع وأشاهد، يا إلهي، كيف أتولى استطاق العالم" أبي حيان التوحيدى

وكانه مجرم آثم؟ بطن التاريخ، وأمره أن يقف دون حركة، ويجعل يديه مغلولة خلفه
إبني اعتذر يا سيدى، ألتمن منك المغفرة!

وتدخل الوكيل العام

— والله ما عدت أقوى على الاستيعاب، وأظن أنى في حاجة إلى بعض الوقت
توقف قليلاً وكأنه شارد الذهن، ثم أضاف

— بالنظر إلى مهمتي الجسيمة رئيساً للسلطة على هذا الإقليم، فإن مسؤوليتي
لها تجبرني على التدقيق والتحقيق، خاصة وأنا أمام واقعة غريبة وفريدة، لم يسبق
متلها في تاريخ القضاء.

بأدوار وجهه نحو وكيل الملك يخصه بخطابه

هذا المحضر يجب أن يحفظ وبطريقة قانونية، والتعليق المناسب هو التقادم

والنفت نحو مبناماً

تاريخ — إنها إجراءات عادلة لقبر الملف، ذلك أن هجرتك إلى إسبانيا قد تمت في
يطبق بأثر قديم بعيد، والقانون لا يسري إلا على الجرائم المرتكبة في ظله، أي لا
"بعث رسول رجعي"، وهي قاعدة مستمدة من القرآن الكريم: "وما كنا معذبين حتى
ما إن توقف الوكيل العام حتى صرخ محمد شكري

— هنئاً سيدى أبا حيان

فتبעהه هتاف بالترحيب.

لكنني بالرغم من صواب القرار، والفرح الذي عم فطفا على وجوه الحاضرين، ظل
ذهني منشغل بقضيتي الأساسية، تلك التي طغت على كل ما عداها، وبعد انحداري
لم نحو خريف عمري، أجد نفسي أبداً المسير لأنعلم كيف أواجه عالماً جديداً غريباً
مستمدة من ألفه ولم يألفني، فحتى قوانينه التي يتحجج الوكيل العام بقوله إنها
كان المسلم في الإسلام، بدت لي صادمة، إذ كيف بالله يعاقبون على الهجرة، متى
علانية؟. ألم يهاجر الرسول بلاد الإسلام يُعاقب على الهجرة سواء أكانت سرية أم
كتابه إلى الهجرة في أكثر من آية؟ "ومن سرّاً من مكة إلى المدينة؟ ألم يدع الله في
مُراغماً كثيراً وسعة". "ومن يخرج من بيته يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض
يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً مهاجراً إلى الله ورسوله ثم
رحيمًا".

أمر يستعصى على الفهم، ما علمت بوجود دين أو مذهب يقيم الحد على المهاجر شأن السري، ما أعلمك بقينا هو أن الله سبحانه وتعالى في قضية الهجرة، رفع من والأنصار بنى آدم وسواه برسوله حين قال: "لقد تاب الله على النبي والمهاجرين من القابع الذي الذين اتبعوه في ساعة العسرة". إن للمهاجر في الإسلام مرتبة أعلى والعيش أو الفرار من لا يهاجر، فنيته لا تتعدى طلب العلم أو البحث عن القوت رسوله الضيم والذل. فهل في هذا ما يخالف كتاب الله وسنة

على كان الوكيل العام ي ملي على الكاتب محنـد أـشـهـار تعـلـيل نـجـاتـي من قـسوـةـ العـقـابـ جـرـيمـةـ هـجـرـتـيـ السـرـيـةـ الـبـشـعـةـ فـيـ نـظـرـهـمـ وـفـكـرـتـ فـيـ أـنـ أـنـاقـشـ الرـجـلـ فـيـ المـوـضـوـعـ،ـ وـأـنـ أـعـلـنـ لـهـ بـأـنـ قـوـانـيـنـهـ تـخـالـفـ الشـرـعـ،ـ لـكـنـيـ خـفـتـ أـنـ تـغـضـبـهـ أـفـكـارـيـ صـدـرـهـ وـهـوـ رـئـيـسـ السـلـطـةـ،ـ فـيـنـقـلـبـ لـيـنـهـ إـلـىـ مـاـ لـاـ تـحـمـدـ عـقـبـاهـ.ـ فـالـحـاـكـمـ عـادـةـ مـاـ يـضـيقـ لـوـ تـجـاهـ مـحـكـومـهـ إـنـ عـارـضـهـ،ـ مـثـلـمـاـ يـتـسـعـ صـدـرـهـ أـمـامـ مـنـ هـوـ أـعـلـىـ سـلـطـةـ مـنـهـ حـتـىـ المـغـارـبـةـ،ـ فـقـدـ أـهـانـهـ،ـ تـلـكـمـ طـبـائـعـ الـحـاكـمـ لـوـ يـعـلـمـونـ!ـ ثـمـ إـنـيـ أـجـهـلـ قـوـانـيـنـ هـؤـلـاءـ عـامـ،ـ وـجـائزـ أـنـ تـكـوـنـ قـدـ عـرـفـتـهـ نـابـعـةـ مـنـ إـلـاسـلـامـ،ـ لـكـنـ ذـلـكـ مـرـّ عـلـيـهـ أـكـثـرـ مـنـ أـلـفـ بـيـزـنـطـيـةـ أـوـ مـجوـسـيـةـ،ـ أـوـ قـدـ اـنـقـلـبـتـ إـلـىـ غـيـرـ مـنـبـعـ إـلـاسـلـامـ وـمـذـهـبـ مـالـكـ،ـ كـأـنـ تـكـوـنـ ظـهـرـ فـيـ غـمـارـةـ قـدـ اـنـتـشـرـ،ـ فـسـادـ يـكـوـنـ مـذـهـبـ المـدـعـوـ حـامـيـنـ الـمـتـنـبـيـ،ـ الـبـرـبـرـيـ الـذـيـ بـلـ يـظـلـهـ إـلـاسـلـامـ،ـ إـلـىـ جـرـيمـةـ يـقـامـ رـبـوـعـ الـمـغـرـبـ،ـ إـذـ لـاـ يـعـقـلـ أـنـ تـحـوـلـ الـهـجـرـةـ فـيـ عـلـيـهـ الحـدـ

كـانـتـ هـذـهـ خـواـطـرـ تـمـوجـ مـسـرـعـةـ فـيـ ذـهـنـيـ،ـ فـسـكـتـُ عـنـ الـكـلـامـ وـأـنـ أـحـدـجـ الـحـيـرةـ المـرـسـوـمـةـ عـلـىـ وـجـوهـهـمـ جـمـيـعـاـ تـتـضـاعـفـ،ـ لـكـنـ خـواـطـرـ أـخـرـىـ مـضـادـةـ اـقـتـحـمـتـيـ عـمـاـ اـعـتـرـتـهـ حـدـّـةـ فـيـ لـهـجـتـيـ،ـ إـذـ فـكـرـتـ فـيـ أـنـيـ مـاـ دـمـتـ سـأـصـدـقـ الـقـوـلـ فـيـ لـتـشـتـيـنـيـ مـنـ الـهـجـرـةـ،ـ وـهـوـ مـوـقـفـ عـقـلـانـيـ سـلـيمـ،ـ يـسـاـيرـ الـشـرـعـ،ـ فـلـيـفـعـلـوـاـ بـيـ مـاـ شـاعـواـ،ـ مـوـقـفـيـ أـنـ أـغـيـرـ مـنـ مـنـطـقـيـ وـصـرـاحـتـيـ،ـ حـتـىـ لـوـ كـانـ لـهـمـ مـنـطـقـ مـخـالـفـ،ـ فـالـصـدـقـ دـوـنـ بـرـاهـيـنـهـ،ـ وـيـكـشـفـ عـنـ قـوـةـ صـاحـبـهـ فـيـنـحـهـ التـقـيـرـ وـالـاحـتـرـامـ وـالـنـفـوذـ،ـ يـحـلـ فـيـ كـنـهـ أـبـوـحـيـانـ التـوـحـيدـيـ"ـ الـمـجـبـولـ عـلـىـ قـوـلـ الـحـقـ"ـ فـأـنـاـ

بـوقـبـلـ أـنـ أـتـحدـثـ إـلـيـهـ بـالـصـرـاحـةـ الـتـيـ اـعـتـزـمـتـهـاـ،ـ قـاطـعـنـيـ الوـكـيلـ الـعـامـ فـيـ أـدـبـ جـمـ عـزـيزـاـًـ -ـ سـيـديـ أـبـاحـيـانـ الـمـحـترـمـ،ـ لـتـعـدـ نـفـسـكـ مـنـ هـذـهـ اللـحـظـةـ،ـ ضـيـفـاـ مـكـرـمـاـ مـشـرـفـاـ الـمـدـيـنـةـ الـتـيـ شـرـقـتـهـاـ وـغـالـيـاـ،ـ سـتـتـنـقـلـ الـآنـ إـلـىـ إـلـقـامـةـ فـيـ أـفـخمـ فـنـدقـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ،ـ هـذـهـ

جديد، وهي المدينة نفسها بقدومك قبل أن تغادرها إلى الأندلس، وعدت لترى نفسيها من الله في الربع الإسباني كله التي غادرها ولديها طارق بن زياد، لينشر كتاب

ـ وتدخل السيد محمد شكري مخاطباً الوكيل العام للملك

ـ سيدى، إذا سمحتم، فإني أدعوك يا حيان للإقامة في شقتي، إلا إذا كان لكم رأيٌ مخالفٌ

ـ أجابه الوكيل العام

ـ إن الشيخ أبو حيان سيحل ضيفاً على وزارة العدل، وليس على الخواص، فالرجل في حاجة إلى راحة كاملة

ـ وتدخل وكيل الملك مخاطباً رئيسه الوكيل العام

ـ هل تأذن لي يا سيدى أن أحجز له جناحاً في فندق "المنزه"؟

ـ لا أبداً، أنا أفكّر في إقامة "السراب" فهو فندق آمن، ثم هو مطل على المحيط - لا أبداً، أنا أفكّر في إقامة "السراب" فهو فندق آمن، ثم هو مطل على سينكون في الأطلسي، بحر الظلمات كما سماه أبو حيان واستهواه مروجه، فهناك مناي عن كل مضائق، يجب أن يخصص له أجمل جناح مشرف على البحر، وأن وزير تفرد له حراسة خاصة، إبني سأصحبه بنفسي إلى الفندق، بعد أن أتصل بالسيد العدل لأطلعه على هذا الحدث السعيد.

ـ صمت قليلاً وأضاف

ـ القضاة - أمركم جميعاً بأن يدفن هذا السر في مكتبنا هذا، وأن لا يتسرّب إلى علم بشخصه أو المحامين أو غيرهم، فالشيخ أبو حيان يجب أن يستريح، وكل ما يتعلق الوحد من طلبات وغيرها يجب أن أعلم به حفظاً لسلامته وراحته، فأنا المسؤول عنه إلى حد هذه الساعة!

ـ وتدخل محمد شكري موجهاً كلامه إلى الوكيل العام

ـ رأيك يا سيدى عين الصواب، وحدها لو أذنت لي أن أبسّط لك بعض ما تناقلته الأخبار عن حياة أبي حيان.

ـ حرك الوكيل العام رأسه موافقاً، دون أن يقوى على إخفاء امتعاض لاح على محياه، فأضاف شكري

ـ القائل - أبو حيان، لا يحب الأضواء ولا تستهويه حياة البذخ، وهو من الأدباء فعلت في مؤلفاتي الذين كتبوا التاريخ الباطني المskوت عنه في بغداد، تماماً مثلما

لحياة المهمشين "الخبز الحافي" و "السوق الداخلي" و "وجوه"، حيث أرّخت
ومثلما كتب مؤلفاً كاملاً والمنبوذين والهشائين من ساكنة طنجة وتطوان والعرائش،
عباد، انتقاماً منها ورداً على ذم فيه صديقيه الوزيرين ابن العميد والصاحب بن
محمد درويش رداً على إساعته إلىَّ، بل إساعتها له، عرَّضت أنا كذلك بالشاعر
للهجوم على الكاتب الأمريكي بول بولز، الذي أقام أيضاً كتاباً مستقلاً خصصته
نوایاه الاستعمارية السيئة، إذ كان يحب المغرب دون طويلاً في طنجة، فضحت فيه
المغاربة.

منبوذاً من هكذا كانت حياة أبي حيان، شبيهة بحياتي، فكلانا لم يتزوج وكلانا عاش
المسحوقين قِبْلِ أقربائه وبني قومه، كما نشترك في خصوصية حمل هموم
الأدبية جاء من لدن والمهمشين والتعبير عنها، كما نلتقي في كون الاعتراف بقيمتنا
الآخر الغرب الأجنبي، وليس من لدن بني قومنا.

ـ وقاطعه الوكيل العام

ـ إلى أين تريد الوصول بالضبط؟

ـ أرغب في مجالسته بحكم ما نشترك فيه معاً

ـ حلَّـ أيها السيد محمد شكري، شتان بين ما تفكِّر فيه وما هو واقع الحال. إن الشيخ
العربي في ضيفاً على ساكنة الأرض قاطبة، جاعنا معطراً بعقب التاريخ الإسلامي
هذه المسافة طرأته التي كان عليها منذ عشرة قرون، إن انبعاثه حياً بيننا بعد
وفسفته، فتلك أشياء الزمنية الطويلة، لظاهرة فريدة محيرة للأباب، أما علمه وفكره
على لسانه مباشرة، وليس ثانوية تأتي في مقام آخر، وقد نطلع عليها في كتبه أو
على لسانك أنت.

قبل أن ينتهي الوكيل العام من حديثه، استسمحته في الرد على محمد شكري وقلت
ـ أخاطبهم جميعاً:

ـ لم يسبق لي البتة أن سجلت التاريخ الجوانى المسكون عنه في بغداد، ولا في
غير بغداد، ولا عاشرت المنبوذين والمهمشين، أو عبرت عن همومهم في أي مؤلف
أمام من مولفاته، ويكتفى على سبيل المثال العودة إلى كتابي "المقابلات" الموجود
السيد الوكيل العام

ـ وأشارت بيدي إلى الكتاب وأنا أقول

الخاصة — إن لم يكن قد طَالَهُ التزوير، ففي هذا المؤلف مثلاً، قمت ببسط آرائي بغداد، وهي لأطلع الناس على القضايا الفكرية التي تستغرق اهتمام المثقفين في والدينية، وتبرز قضايا تتعلق بالمسائل والأبحاث الفلسفية والمنطقية والاجتماعية مسلمين ونصارى صورة من التعاون بين مثقفين منتمين إلى ملل دينية مختلفة، في جو من التسامح ويهدواً وملاحدة ومجوساً، يتحاورون ويتقاربون العلم والمعرفة وهم جميعاً شخصيات والود، أشرت إلى آرائهم وعقائدهم دون أن أهمل أسماءهم، منبود أو مهمش واحد ساقمة، فلاسفة ومناطقة، دون أن يوجد من بينهم جميعاً وأنا أتحدث، رمقت وكيل الملك يمسك بكتاب "المقايسات" ويتصلبه، وكأنه يريد التأكيد مما قلته، فاسترسلت في حديثي:

فقد — أما عن صديقي الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد رحمة الله عليهما، أشرقت الشمس وغابت، وأشرقت وغابت مدة خمسين عاماً على هجومي عليهما، وهذا معناه أنني كنت في طور الشباب الأرعن، لكن أيامنا ما انفكنا أن عادت إلى كما صفائها الأول، بعد تلك الخصومة التي استغرقتنا عامين لا أكثر، فعدنا لنصر والخوارزمي كنا، خمسة أصدقاء كأصابع اليد الواحدة، أنا وابن العميد وابن عباد قصر ابن عباد، وبديع الزمان الهمذاني، تجدد صفائونا، فأصبحنا إذا لم نجتمع في جتمعنا لدى ابن العميد في قصره بحي الكرخ على دجلة.

بعد أن أنهيت كلامي، وقف وكيل الملك وخطا نحوي، فصافحني وهو يكرر اعتذاره لي، بادلته التحية، ودعوته إلى الجلوس في مكانه.

في هذه اللحظة، انتصب الوكيل العام واقفاً وقال لنا — أيها السادة، أشكركم جميعاً، وأعلن عن إنتهاء الجلسة.

فأسرع السيد محمد شكري يقول لي:

— سيدتي أبا حيان، إنني أتوق إلى مجالستك، فهل تأذن بزيارة لك في فندقك؟

— ليس اليوم، ول يكن بعد أن أتألم قسطاً من الراحة.

غادرت المحكمة في موكب الوكيل العام، وأنا أحس صداعاً في رأسي وتصدعاً في مفاصلني، فكرت في أنني لو أملأ رئتي بهواء نقى فقد أستعيد بعض عافيتي، كما فكرت في حاجتي الماسة إلى العزلة، إلى أن أخلو إلى نفسي علني أقوى على أكثر من التفكير في مصيبي هذه الجديدة، فلم يعد لدي شاكٌ في أنني فعلاً قفزت على

عشرة قرون قد عشرة قرون، يا له من واقع مرّ صادم! فبعد ليلة واحدة أستيقظ لأجد
أجعل عقلي يستوعبها؟ وللت! كل من قابليهم يؤكدون هذه الحقيقة! لكن كيف لي أن
حقاً؟ يا إلهي، لا أقوى على كيف لي أن أعزّي نفسي في وفاة "نهاوند"؟ وهل توفيت
كانت إحدى طيات هجرتي بعد أن التفكير في ذلك، كانت مناي وملادي الأخير،
بقيت على قيد الحياة. ترى ماذا كان ضاق بي المشرق بافتقادها، ولعلني من أجلها
العميد؟ هل منعواها من السفر إلى مصيرها من بعدي؟ هل استعادها ورثة ابن
جمعة في حدائق جنة العريف؟ من غرناطة؟ أم ترى سافرت فظللت تنتظرني كل يوم
عظم الوزير متلاشية في التراب، أين لي أن أعلم بوقائع مرت عليها قرون! إن
في رحلة الأندلس، كلهم اليوم وورثته كذلك. وخلاني في بغداد وفاس، ورفافي
يدلني على ما حل بهم قيد حياتهم، يرقدون عظاماً نخرة بعد أن طواهم الرّدى! من
وعلى بيتي في الرُّصافة على دجلة، وبيت وعلى بغداد العباسية، والأندلس الأموية،
الضفة الأخرى بحى الكرخ، وحلات اللهو والسمر، الوزير أبي الفتح بن العميد في
الوزيرين، كل شيء صار طعاماً لديدان القبور، بعد أن المحاورات الفكرية في بيت
إلّي، أنا الأوحد الأبقى من كل بشر تلك الحقبة الزمنية، مضى بهم ركب الأيام،
نار، وهم آدميون من تراب، ليتني قضيت في ذلك الزمن البائد، كأنني إبليس من
هؤلاء القادمين من المستقبل، أو بالأحرى، الذين عدت إليهم من دون أن أتعرف
يجمعني بهم غير الشكل البشري والشبه الآدمي، هل أنا قادر بعد هذا الماضي، ماذا
في عمري على أن أتجانس معهم، وأنصهر في عاداتهم وحضارتهم؟ الانحدار
أضحوكة بينهم، دمية ناطقة تستدر الشفقة وتثير الذهول، إن يستحيل! سأكون
يستطيع العيش إلا في زمانه وثقافته ومحيطة الإنسان لا

تذكرت كيف كنت أدعو الناس في مجالسي إلى طرح وساوس الماضي، ومخاوف
المستقبل، وعيش الحاضر فحسب، جلباً لاعتدال النفس. أنا القائل بهذا، لكن، هل
أقوى اليوم على عيش الحاضر فحسب؟ وأي حاضر، وهذا الذي ابتنيت به في طنجة
حاضر، أم هذا البغدادي المعشش في ذاكرتي بأناسه وأماكنه وروائحه؟ فكلاهما لدي
تركت أحدهما في لا يجب أن يكون إلا حاضراً راهناً، وإن كان مجزأاً إلى زمانين،
قرون، أنا أعيش العراق منذ عشرة قرون، ولحقت بثانيهما في المغرب بعد عشرة
أسميه بالحاضر، إذن الماضي والمستقبل في زمن يطلق عليه الحاضر، وعلى أن

إلا إذا أُتي صاحبه وأن أعيشه بتوافق بين الظاهر والباطن، لكن التوافق لا يكتمل
النفس أمام ما أنا عليه من نور العقل وقبس النفس، فكيف لي بجلب نور العقل وقبس
حضوري؟ حيرة وقلق وتمزق داخلي وغيابي حتى وأنا في

جميعاً، يا إلهي، عليّ أن أعلن عجزي عن استيعاب حضارتهم، أن أحذر به أمامهم
القائل بهذا في فالظهور بالعجز في موضعه، كالاستطالة بالقدرة في موضعها، أنا
المغربي، إنما حاضري البغدادي، وأؤكده بعد عشرة قرون في حاضري هذا الطنجي
حالياً اليوم في طنجة، ليس ترفاً فكريّاً، حالياً في بغداد، بل كواقع حسي ملموس،
أنا عاجز، عاجز عن فشنان ما بين الكلام عن قبض الجمر وقبضه حقيقة، إذن
الشبح مني إلىبني اتسافي وتجانسي معهم، وكذلك مع نفسي، أحس بأنني أقرب إلى
يقولون عن انبعاثي إنه الإنسان، ليتهم يدركون هذا، من أين لهم أن يدركوه، وهم
خبر سعيد، إنه ضيف حل على ساكنة الأرض قاطبة.

انتشلني الوكيل العام وأنا غارق في بحر همي، وقال لي

— سيدى الشيخ أبا حيان، إن هذه العربة التي نركبها تسمى "سيارة" وهي اختراع
عمره حوالي مائتى عام، تجري بسرعة تفوق ركب الحصان عشرات أضعاف
فمسافة الطريق التي يسيرها الإنسان على ظهر الدابة أو مشيا على قدميه المرات،
 أسبوع كامل، تجتازها السيارة في ساعات، أقصد في أقل من يوم واحد مدة.

سكت قليلاً وسألني

— كيف كنتم تقيسون الوقت في العراق؟ هل تقيسونه بالساعة؟

أجبته:

— إن قياس الوقت على الأرض اختراع عراقي منذ العصر البابلي. وحضرتني
سورة يومن في القرآن الكريم فرفعت صوتي مرتلاً
الستين — "هو الذي جعل الشمس ضياءً، والقمر نوراً، وقدره منازل، لتعلموا عدد
في اختلاف والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون، إن
يتقون" صدق الله الليل والنهار، وما خلق الله في السموات والأرض، لآيات لقوم
العظيم.

— آسف سيدى، نسيت أنني أتحدث إلى فقيه عالم

— أستغفر الله

أجبته.

لم أحسست بإنهاك غشيني وأنا أعتمر مقعدي في الجانب الخلفي من السيارة، ولذلك المرتفعة في أحفل بما كان يشير إليه الوكيل العام من معالم المدينة، أو أبنيتها بالدور، لذا ظل السماء، فالنفاتي إلى ما يوجد عن يميني أو عن يسارِي، يصيّبني أخبرتهما بحالي هذه، بصرِي منخفضاً، أو مصووباً إلى الطريق أمامي، لكنني حين وکأنها استجابت لإرادته الخفية، أوقف الوكيل العام السيارة في لمح البصر، فرست وكيل الملك إلى الخلف، فعادت العربة تسير ودعاني إلى الجلوس بجانبه، بينما انتقل شبيه بنهر آسن، وعلى جانبيه تدفقت أشجار بنا في طريق ملتو مرصوص ناعم، ما فتئت أن فسحت المجال لعشب بري قصيرة، واستقامت أخرى فارعة الطول، أزرق شاسع امتد على اليمين، فنبهني أخضر غطى أديم الأرض على اليسار، وبحر المتساقط على صفحة مياه البحر، ترسله وكيل الملك إلى أن انعم النظر في الشعاع السماء والبحر الشمس المتحضرة، قبل تلاشيهَا بين أفق

وقال لي:

— إنه المحيط الأطلسي، بحر الظلامات كما كان يسمى قديماً

فسألته عما يوجد خلف هذا البحر، إن كانت له نهاية، فأسرع الوكيل العام يجيئني

— توجد قارة تسمى أمريكا، وقد اكتشفت منذ حوالي خمسة قرون، أي في تاريخ مغادرة العرب للأندلس، بعد أن سقطت في يد النصارى

تلقيت هذا الخبر وكأنه حجرُ ألقى به فوق رأسي، وفاطعته دون أن أدعه يسترسل في مرده

— تقول سقطت في يد النصارى! ألم تعد الأندلس عربية مسلمة؟

أجابني بمنتهى السكينة، وكأنه يخبرني بشروق الشمس أو مغيبها، دون أن يدرِّي أنه أو قد ناراً في رأسي وصدرِي

— الأندلس ضاعت، تساقطت إمارة بعد إمارة، كان آخرها غرناطة.

— يا إلهي، أكاد أجن، لا أستوعب هذا الخبر، الأندلس تعود إلى العجم؟

فتدخل وكيل الملك

— إن الخبر ليس جديداً، فقد راحت الأندلس منذ خمسة قرون، ورحلت بعد سقوطها يوم مسلمة أجیال وأجيال، فمن ليس له اهتمامٌ بالتاريخ، لا يعلم أن الأندلس كانت ذات

عربية، فلماذا ياسidi هذا الحزن؟

— إنكما لا تدركان وقع هذا الخبر الصاعق على نفسي، فقد كان يقيني أن بلاد الإسلام تتسع وإذا بها تنكمش.

سرحت مفكرا ثم أضفتُ

فمنذ — إن حكاياتي مع الأندلس تعود إلى خمسين عاماً، إذا استثنينا العشرة قرون، ربه أطعنني صديقي الوزير الصاحب بن عباد على كتاب "العقد الفريد" لابن عبد آخر صار الأندلسي، وأنا لا يغمض لي جفن توقاً لملاقاة أهل الأندلس، وعاماً بعد أذكر أن صديقي اهتمامي يزداد بأخبار وأشعار وموشحات وفقه وعلم أهل هذا البلد، حضوري: "هذه كتاب العقد الفريد" قال عنه في الصاحب بن عباد حين اطلع على أخبار بلاد بضاعتنا ردت إلينا، فقد كان يظن أن الكتاب يشتمل على شيء من المحبة المتبادلة بين الأندلس، فإذا به يستغرق أخبار بلاد المشرق، وهذا دليل يؤكّد نكتب إعجاباً بكم أصحاب الأرومة العربية الواحدة من المشرق إلى المغرب، أجمل أرض عربية وبأخباركم، وتكتبون إعجاباً بنا وبأخبارنا، لكن أن تضيع إسلامية، فإننا أحتج لوقت كثير لاستيعاب هذا الواقع!

وتندركت العراق، فأسرعت بسؤال عنده

— وبحكمـا، ألا أخبرتـاني بما حلـ بالعراق؟ ألا يزال خلافـة إسلامـية، أم إنـ العـجمـ انقضـوا عـلـيهـ هوـ الآخرـ، فـمسـحـ أوـ مجـسـ؟

أجابـنيـ الوـكـيلـ العامـ

— اطمئـنـ ياـ سـيـديـ،ـ العـرـاقـ مـازـالـ أـرـضاـ عـرـبـيـةـ إـسـلامـيـةـ،ـ منـ أـغـنـىـ بلـادـ المـعـمـورـ،ـ لوـ أـحـسـنـ حـكـامـهـ تـدـبـيرـ خـيـراتـهـ

فقدـانـهاـ —ـ الحـمـدـ للـهـ،ـ الحـمـدـ للـهـ،ـ لـكـنـ هـذـهـ الأـنـدـلـسـ الـعـرـوـسـ الضـائـعـةـ،ـ سـيـصـيـبـنـيـ خـبرـ!
الـشـتـاتـ وـالـاسـتـبـادـ بـالـخـبـلـ،ـ تـبـاـ لـنـزوـاتـ الـحـكـامـ،ـ وـالـلـهـ ماـ ضـاعـ هـذـاـ الـفـرـدـوـسـ إـلـاـ بـسـبـبـ
ظـهـرـيـ عـلـيـ أـقـرـأـ عـنـ سـقـوطـهـاـ،ـ وـعـنـ كـلـ مـاـ اـسـتـجـدـ بـبـلـادـ الـعـرـبـ،ـ مـنـذـ أـنـ أـولـيـتـ
قـيـدـ بـغـدـادـ فـيـ عـامـ ٤٠٠ـ هـجـرـيـةـ إـلـىـ الـيـوـمـ،ـ عـسـانـيـ بـذـلـكـ أـحـقـ الـبقاءـ عـاـقاـلـاـ عـلـىـ
وـرـأـيـ الـحـيـاةـ،ـ وـعـسـانـيـ أـعـثـرـ لـنـفـسـيـ عـلـىـ بـعـضـ السـلـوـىـ،ـ أـتـعـرـفـ فـوـقـيـ مـنـ أـسـفـلـيـ،ـ
مـنـ قـدـمـيـ،ـ فـإـنـيـ مـنـ فـرـطـ الضـبابـ الـمـحـيـطـ بـعـقـلـيـ وـبـصـرـيـ،ـ بـمـاضـيـ وـحـاضـرـيـ،ـ لـمـ
أـعـدـ أـتـبـيـنـ شـيـئـاـ.

فالتفت الوكيل العام نحوه، وبنظره قائمة قال يواسيني
— بالله عليك يا سيدى، إذا كنت لا تقوى على تقبل واقعك هذا وأنت المنطقى
الفيلسوف المؤمن بالله، فمن يا ترى يتقبله؟
ماهها عالياً توقفت بنا السيارة في ميدان فسيح منير تتوسطه بِرْكَةُ بُنَافُورَةٍ يتصاعد
السيارة، بأننا في مرتعشاً مثيراً للدهشة، فأخبرنى وكيل الملك، ونحن نترجل من
نصيحة الوكيل العام، مدخل فندق السراب، لكننى كنت أستجتمع أفكارى لأرد على
فقلت أخاطبه قبل أن نهم بالدخول إلى الفندق:

— أشكرك على نصيحتك بأن أقبل أمر واقعى، إينى فعلاً أسعى في تحقيق ذلك،
 فعل القبول أو الرفض، إذا كان مصدره العقل، فإن هناك فعلاً آخر يصدر عن لكن
النفس، ولا يتحكم فيه العقل، ولعل أبسط ما يمكن أن أمثل به، هو ما عبر عنه
الشام الخليفة الأموي عبد الرحمن الداخل، حاكم قرطبة، حين بعث إلى أخيه في
قائلاً:

أيها الراكبُ الْمُيمُّ أرضي
إقرَّ من بعضِيَّ السلام لبعضِي
إن جسْمي، كما تراه، بأرضٍ
وفؤادي ومالكِيَّه بأرضٍ
قدَّرَ البَيْنُ بَيْنَنا، فافتَرَقْنا
وطوَى البَيْنُ عن جُفونِي غَمْضِي
قد قضى الدَّهْرُ بالفارقِ عَلَيْنَا
فعَسَى باجتماعِنا، سوف يَقْضي

داء الاغتراب إذا كان هذا العظيم الشجاع، الجامع بين السيف والقلم، يشكو من
عنه الزمان والنوى، فما عسى أن يفعله فقير مثلى، فقد الأحبة والخلان، هرب
والمكان.

(9)

مقتبل عمره، قصير ظلا ينظران إلى دون أن يفوها بكلام، فتقدم نحونا رجل في
امتزجت باحترام وتقدير لنا، القامة، أنيق الملبس، سمح الوجه، تغمر حميات بشاشة

فقال له الوكيل العام عنِي

— إنه الشيخ "أبو حيَان التوحيدي".

سألني صافحنا واحداً واحداً، فذهب يقيني إلى أنه لا يعرف شيئاً عنِي، خاصة بعد أن
إن كنت أحمل حقائب أو متاعاً، فأشار إليه الوكيل العام وهو يقول لي
— إنه السيد عبد السلام، صاحب "السراب".

فعرفت أن مالك الفندق، خرج لاستقبالنا، بناء على موعد سابق مع الوكيل العام، إذ
بادره بالقول وهو يدعونا لتقديمه

— أعددت لضيفكم الشيخ، أجمل جناح مطل على البحر، قصي عن الضوضاء،
وبإذن الله، سوف يكون مبهجاً بإقامته.

التحق بنا رجل يحمل في يده مفاتيح، لم يبادره أحد منا بتحية، ولا بادرنا هو بها،
فهمت أنه أحد الخدم في فندق السراب.

وفكرت في أن ازدراء الأسياد للفئة الدنيا لم يطرأ عليه تغيير منذ عشرة قرون
سرنا يتعقب خطانا الرجل المُرْدَرَى ملفوفاً في صدرية بيضاء، وسراويل سوداء،
برُكْكَةً كأنه قط فارسي مطيع وأمين، فمررنا بحديقة حَفَّتْ بها دور بيضاء، وتوسطتها
المنحدر شاسعة يتلألأً بها ماء شديد الزرقة، فكان على بصري أن يتوقف صوب
الموج، عن يميني، لينعم في زبد أبيض يفصل سواد البحر عن رمل الشاطئ، إنه
والفتريات، صخبه الرتيب وصل إلى أذني، متلماً امتلأت خياشيمي برائحة الطحالب
المرحوم إنها رائحة شاطئ شعر أصيلاً نفسه، حين سرت على يابسته رفقة صديقي
نباته "أبي عصید"، البحر وحده ظل كالآبد، مستريحاً بصخب موجه، وروائح
العطرة.

ونيف، ليتني كنت أفهم لغة البحر لأسأله عما حل بالدنيا خلال هذه القرون العشرة
تقارب أدرت في رأسي حساباً عن المدة التي بقيها العرب في الأندلس، فوجنتها
هذا ثمانية قرون، إنها ليست بالوقت الهلين، فضحتك من نفسي ساخراً منها على
أصبحت التحول، وبعد أن كنت أعد الوقت بالساعات أو الأيام أو حتى بالشهور،
الإبحار في أude بالقرون، لكن إصحابي لهدير البحر بـساعات برد़ه، أوقف نفسي عن
حكاية ضياع الكابة، ورافقي الفندق الذي تمطى فوق ربوة ساجدة للبحر، لكن
الأندلس، ظلت مطرقة تدق رأسي

أدخلنا صاحب الفندق إلى سكن يسع قوماً من الناس، توقد أضواوه وتطفأ بمجرد يوم، لمس أزرارها، لم يكن ليخطر بخلدي جماله ولا رونقه، ولا فكرت في أنني ذات إلا، سأكون من ساكنيه، فقد حسبته هدفاً لزيارة جاءت من قبل الفرجة عليه ليس مبالغة لكن، حين أبلغني الوكيل العام أنه مخصص لإقامة بي مفردي، أصابتي دهشة لم أقو على إخفائها.

صار يدلني على محتوياته، هذه قاعة جلوس تفضي إلى شرفة استراحة مطلة على البحر، وهذه غرفة نوم بنوافذ مشرعة على البحر، وتلك غرفة أخرى لا تقل رونقاً مثيرة عن أختها، وهذا حمام به قبر مرمر في بياض لبن المعز، وبجانبه ميضاً يتحول وفق للاستغراب، وتلك معدات للحلاقة وقص الشعر ومশطه، وصنابير ماء أنفجر من إرادتك من بارد إلى دافئ إلى ساخن. فقاطعت شروحاته وأنا أكاد الصحف:

— يلزمني تلقي دروسٍ لأعرف الاغتسال في هذا الحمام الخيالي ارتفعت أصوات الجميع بعدوى ضحكي، فتذكرت بأن صدري لم يعرف انشراحًا أن استيقظت من سباتي في مغارة مدينة المنقب بالأندلس، قلت لهم والضحك منذ بي يستبد

نفسي — لأفترض أنني تمكنت من غسل بدني في هذا الت Abbott الأبيض، فيماذا أدى رأحتها وأستر عورتي وأنا لا أملك سوى ما أرتديه من أسمال رثة، تعاف الأنوف فعمت فهقهانتا من جديد أرجاء الحمام.

قال لي الوكيل العام وهو يجف ما بعينيه من دمع ابتهاجه، ونحن نغادر الحمام — بعد لحظات ياسيدي، سيلحق بنا أحدهم يحمل لك ألبسة لتتنقى ما يروق لك منها قلت له وأنا أوزع نظري بين شخوصهم

— أسيكون لي مثل ما ترتدونه؟ شريطة أن يكون لباساً سائداً بين عامة الرجال؟ — طبعاً طبعاً، إنه لباس عام، يرتديه الرجال في كل بقاع الأرض، بما فيها العراق لم أقو على حبس ضحكي، وأنا أخال نفسي ملفوفاً في هذا اللباس الشبيه بما كان وزراء، ما يتزين به الغلمان والجواري في حفلات اللهو والغناء بقصور الخلفاء إن أخبرتهم بما خلته عن نفسي، حتى دوت الصالة بالفهقهات

لم أتوقف عن الضحك، وأنا أشير بيدي إلى قطعة ثوب متدرية من عنق السيد عبد

كان لها السلام، صاحب الفندق، وشبيهتها بحبل المشنقة، وأنا أسائل عن لزومها، وإن الحرارة دورٌ في درء السحر أو الوقاية من عين الحسود أو من البرد أو

فأجابني الوكيل العام

— لم أكن أظنك يا سيدى الفقيه العالم على هذا القدر من المرح والدعابة
فقلت أرد عليه

— أشكرك، وأخبرك بأنني بعد معاشرتي لخلان فاس، ولأصدقاء قصر كتمة ثغر أصيلة، أصبح يقيني أن المغاربة من أظرف المسلمين وأخفهم ولأصحاب الله درك، لم تجبني، ما الغاية من حبال المشنقة هذه؟ وأشارت إلى روحًا، لكن، المتسلية من أعناقهم الأثواب.

فأجاب ضاحكاً

— إنها للزينة لا غير، وتسمى "ربطات العنق".

سكت قليلاً وأضاف

— وهي ابتكار أوروبي

فأسعفه وكيل الملك شارحاً

— حضارة أوربا هي السائدة في هذا القرن، فكرًا ولباسًا وغيرهما، والأندلس امتداد للقاربة الأوروبية، صانعة هذه الحضارة

عن كاد تذكيري بالأندلس، هذه الهاربة من بين أصابع اليد العربية يصعبني، فيدرأ رباط "نفسى مرحها، لكننى استبعدتها عن ذهنى وحصرت تفكيرى في غرابة ابتكار "العنق"، فسألت الرجال مازحًا

— لعله ابتكار نسائي، أوحى به الحبل الذي تقاد به الدواب، أو تلجم به. إنما أود لو أعرف إن كانت المرأة تتزين به هي الأخرى

فضحکوا وأجمعوا على النفي

وأضفت

— هذه قرينة على أن "ربطة العنق" من ابتداع المرأة، وذلك لتحكم به قبضتها على عنق الرجل متى شابهما نزاع

عَمَّ الضحك من جديد، فاستأنفت بسط تداعياتي بذات السخرية المغلفة بالجد

— إن المبتكر مثلُ الفيلسوف، تفكيره في الأصل مجرد رجع أو استجابة لحاجة

الرجل ابتكرت له تملتها الضرورة المادية أو النفسية، أو هما معاً، والمرأة حتى تُذلَّ في سرها فلغایات هذه الرابطة القريبة من شكل الأفعى، لزينة عنقه ظاهرياً، أما أخرى، أضعفها تشبيهه بالحيوان.

ظل جو المرح هو السائد إلى أن دخل رجل محمّل بعدد من الألبسة والأحذية، في قياسات مختلفة، حتى يتسع لي اختيار مقاسات تناسبني.

(10)

النافذة، أزاحت بعد أن استعادتني الحياة، وصحوت من نومي، هرولت مسرعاً إلى ذاته الذي كنت قد ستارتها وأشرعت بابها، فاستقبلني شاطئ فسيح بهيج، هو الشاطئ سمنا، فعرَّجت على تنسّمت رائحته بالأمس، وتذكرت الألبسة التي كانت موضوع وجوارب وغيرها، الصالة لأجدها في مكانها، أقصصه وبذل وأحذية وربطات عنق وكأني أتعلم لغة فضحت من نفسي على الأسماء الغريبة التي كان عليَّ حفظها لاماً، ووقفت أمام جديدة، ارتديت سراويل وقميصاً أبيضاً ثم انتعلت حذاءً أسود ذنبي قد زادت عن المعتاد، المرأة الكبيرة، أتفرج على نفسي، لاحظت أن كثافة شعر اللحية من جذورها؟ فكرت ملياً، ماذا لو قمت بِقصٍّ شيء من هذا الشعر؟ أو اقتلت وتوجهت إلى الحمام، أخذت المقص فنزعـت القميص عن بدني بعد أن فتحت أزراره الوكيل العام وجميع مرافقـيه، بل كل من وشذـبت اللحية وهذـبتها، ثم تذكرت كيف أن أملسيـه، فلماذا أستثنـى منهم؟ أغـابة الدين أن قـابلـتهم في طـنـجةـ، كانوا حلـيقـيـ الوجهـ نـفـسيـ، وأـنـاـ أـبـلـ لـحـيـتـيـ وـأـدـعـكـهاـ بـالـصـابـونـ مـتـبـعاـ يـحـفـظـ الرـجـلـ بـلـحـيـتـهـ؟ـ تسـاءـلـتـ فـيـ دـلـنـيـ عـلـىـ كـيـفـيـةـ الـحـلـاقـةـ،ـ لـكـنـنـيـ أـبـقـيـتـ عـلـىـ شـارـبـيـ مـؤـجـلاـ إـرـشـادـ وـكـيلـ الـمـلـكـ،ـ حـينـ وـبـعـدـ أـنـ عـدـتـ لـارـتـداءـ الـقـمـيـصـ،ـ وـقـفـتـ أـمـامـ الـمـرـأـةـ الـكـبـيرـةـ إـحـفـاءـ إـلـىـ يـوـمـ آـخـرـ،ـ فـكـدتـ أـقـعـ أـرـضاـ مـشـدـدـاـ الـضـحـكـ عـلـىـ نـفـسـيـ،ـ فـقـدـ جـرـدـتـ حـافـةـ الـرـابـضـةـ فـيـ الصـالـةـ،ـ صـفـاتـ الـوـقـارـ وـالـورـعـ،ـ بـقـيـتـ زـمـنـاـ أـمـامـ الـمـرـأـةـ أـنـعـمـ النـظـرـ الـمـوـسـىـ مـحـيـاـيـ منـ كـلـ قـسـمـاتـ وـجـهـيـ،ـ فـقـدـ بـدـاـ لـيـ كـأـنـهـ وـجـهـ شـخـصـ آـخـرـ قـرـيبـ مـنـ وـجـوهـ وـأـعـيـدـ مـدـقـقاـ فـيـ بـمـخـلـوقـاتـ الـقـرـنـ الـحـادـيـ وـالـعـشـرـينـ الـمـيـلـادـيـ،ـ لـقـدـ أـعـجـبـتـ بـنـفـسـيـ حـقاـ،ـ الـمـغـارـبـةـ وـشـبـيـهـ أـبـدـوـ كـهـلـاـ عـوـضـ الشـيـخـ الـذـيـ كـنـتـهـ سـرـنـيـ أـنـ،ـ إـنـ الـقـسـمـاتـ الـحـقـيقـيـةـ لـوـجـهـ الـمـرـءـ،ـ لـاـ تـتـبـيـنـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ يـزـيلـ لـحـيـتـهـ

تذكّرت الوزير الصاحب بن عباد، قبل أن تسوء علاقتنا، أي قبل أن أكتب مؤلّف "مثالب الوزيرين"، الذي خصّصته لذمه هو والوزير ابن العميد، فقد كنت في ذلك رد المساء، في ضيافته بقصره الفاخر، رفقة الصديق "بديع الزمان الهمذاني" حين الآسن، فيما بروحوه الماكّرة على دعوتي إلى الابتكار والتجدد للخروج عن المأثور: لا يخالف الشرع، وقال لي

— لم لا تحفي لحيتك ابتكاراً، مadam الفعل لا يخالف الشرع؟

فعلّق "بديع الزمان الهمذاني" تزلفاً للوزير

— إن اللحية سنّها أشرف المخلوقين محمد رسول الله (ص)، وإذنها معصية لا تُغتفر، إلا بالتّوبة والعدول عنها.

فأسرعت بالرد:

— إن الرسول قد سنّها من باب الإجازة عرفاً مشتركاً بين الأقوام، من مسلمين ونصارى ويهود ومجوس، وإن إخفاءها ليس ابتكاراً ولا بدعة، ولا تدخل في باب تجاوزاً المعاصي، صغيرها أو كبيرها، والدليل هو أنه لم يأت فيها وعيد، وإذا سلمنا فإن أن إزالة اللحية من المعاصي فستكون من الصغار، وعلى رأي المعتزلة، بتجنب الصغار تغفر بتجنب الكبار، أي أن المعاصي الصغيرة، يستحق غفارانها المعاصي الكبيرة.

كنت أعلم أن الوزير الصاحب بن عباد شغوف بأراء المعتزلة، وهو في سرّه على مذهبهم، لكن ما إن أكملت فولي حتى استوى في مقعده، ونادي على الجارية رباب، وهي من أجمل جواريه، لا يحضرها سوى في المجالس الخاصة الضيقة، ناصعة امرأة كاملة، أسليلة، ظريفة الأنف، ضيقه الفم واسعة العينين، كحيلة الشعر، البياض، سلمها قدح نبيذه، وأشار عليها أن تملأه، وخطبنا الصغار لستما مختلفين في الرأي، لكنهما لم تكملا شرحه، فكما قال أبو حيان. إن ناقص، ذلك أنه إذا افترفت من مجتبني الكبار، كانت مغفورة، وهو قول حق، لكنه فإن معصيته إذا اجتمعت الصغيرة والصغيرة من ذات الشخص المجتبى للكبار، على انفراد، ثم تصير من الكبار، كالرجل الذي يسرق درهماً على انفراد، ودرهما يؤخذ بالذنب، إذا تاب آخر وأخر، فإن فعله يكون من الكبار، ومن ثم فإن الشخص عنه وعاد إليه.

السراب" ، دارت هذه الحادثة في ذهني وأنا أقف أمام المرأة في إقامتي بـ "فندق التي كانت محور فكرت في المعاصي الصغيرة التي أرتكبُها تباعاً، فقد أزلتُ لحيتي وأنا اليوم في النقاش مع الوزير الصاحب والهمذاني، منذ أكثر من عشرة قرون، ثانية، ثم إنني أتعذر أن طنجة أعتزم قصّ شعر رأسي تمثلاً بالمغاربة، وهي معصية ثلاثة، ويعلم الله ما قد أظل عاري الرأس، من أية عمامة أو عقال، وهي معصية فقد أصبتُ وأخطأ المعتزلة، أرتكب من الصغائر، لكنها أبداً لن تصير من الكبائر، بغداد، من سبق ومن لحق بهم، رحم الله الصاحب بن عباد والهمذاني وجميع خلان كانت برفقتي في عزلتي المغاربية وأخص منهم جاريتي العزيزة "نهانوند" ، فيما ليتها الحليق إلا من شارب يغلب عليه بياض هذه، لتدفعه وحدتي، وتسمهم برأيها في وجهي الشيب.

لأشك أنها استحضرت أوقاتنا البهيجه وهي تترحّم على روحي، واهمة أنني صرت في عداد الأموات.

الحقيقة أنها لم تكن واهمة، فقد كنت فعلاً ميتاً، من يختفي كل هذا الدهر، لا يمكن أن يكون إلا ميتاً.

الأبدى، لكن الموتى تفارق أرواحهم هياكلها، تغادر إلى الخلود الدائم المتصل الأزلي في الذي لا أول له ولا آخر، أما روحي، فهي دون شك بقيت مثلاً بقي جسدي بقيت تضاعيف العاجلة، دون أن يطرأ عليهما أي تغيير، فكل ما حدث لي، هو أنني اطلعت على طيلة عشرة قرون مختلفاً عن العالمين العاجل والدائم، ولينتي ما كان يحدث فيهما أو في أحدهما، لكن لا هذه ولا تلك.

إن من طبيعة الإنسان جنوحه إلى أن يعلم ما يحدث في غيابه، ولو بعد قيامه من على مجلسه وهو على قيد الحياة، أحرى لو يعلم ما سيؤول إليه بعد وفاته، لكن لا ماضي هذه ولا على تلك، فلم يتثن لي أن أطلع على سوى ما يموج في ذهني، على إليه البعيد الحزين مليء بالضيق وال الحاجة، وبالكرب والشدة، لكن مع ذلك أحن حنين الإبل في نجد.

(11)

أسمر سمعت نقرًا على الباب، أسرع لفتحه، فوجدت رجلاً في مقتبل عمره،

عنق غامقة البشرة داكنها، ترتسم على محياه بشاشة محببة، تتدلى على صدره ربطه بأدب جم وانحناء اللون، شبيهة بإحدى ربطات عنقي التي لم أترن بها بعد، حياني من رأسه وأخبرني:

الفندق مع — إن السيد الوكيل العام يقرئكم السلام، ويخبركم بأنه يوجد في استراحة الصباح السيد وزير العدل وآخرين، وسوف يزورونكم بعد أن تنتهيوا من فطور يسموه، لعله تحقيق جديد مع قاضي القضاة، أو وزير العدل، كما يحلو للمغاربة أن العربية قلت في نفسي، وفكرت في هؤلاء المغاربة الذين أصبحوا ينتهكون اللغة يكون رد بطريقة فجة، إذ يخاطبون شخصاً مفرداً بصيغة الجمع، تصورتُ ما قد تحريف وهم سيبويه أو السيرافي، لو كانوا قد علموا ما سيصيب اللغة العربية من على قيد الحياة.

تداركت سهوي عن الرجل الواقف أمامي، ودعوته إلى الدخول، لكنه اعترى بيلغ باشغالات له، شارحاً أنه مستخدم في "فندق السراب"، شكرته وطلبت منه أن السيد الوكيل العام، أني في انتظاره متى شاء، وأوصدت باب الإقامة وقاضي بعد لحظات، عاد النقر على الباب، فهرولت مسرعاً لاستقبال الوكيل العام مأكولات، القضاة، لكنني حين فتحت الباب فوجئت برجل يجر مائدة مزدانتة بأصناف لضيوفى تكفي نفرا من الناس، دعوته إلى الدخول وأنا أسأله إن كانت مخصصة لأقيت نظرة . القادمين، فضحك وأكَّد لي أنها لي بمفردي، ولا تتراول منها ما طاب لي وللبن والبيض، سريعة على المائدة، فلم أميز من محتوياتها سوى الرغيف والماء إليها، وأخذ يدلني فسألت الرجل قبل أن ينصرف عن باقي الأصناف، وأنا أشير مستغرباً جهلي لها:

— هذا شاي أخضر، وهذه قهوة، وهذا عصير برقال، وهذا جبن، ثم رفع بصره نحوى وخاطبني:

— إذا احتجتم إلى شيء آخر فنادوني، اسمى محمد العربي وأجبته

— أنا دي من النافذة؟

ضحك في ذهول، وأشار إلى قطعة جماد فوق المائدة بجانب المرأة

— اطلبوني بواسطة التلفون، على الرقم تسعة

شكّرته وانسحّب.

جلست، وسحبّت المائدة المتحركة نحوّي، فشربت كلّ السوائل باردها وساخّنها، ثم أقيمت في أحشائي بالرغيف والجبنة والبيض، إلى أن أتيت على كلّ شيء، فبقيت الأقداح والأطباقيّات فارغة، فكرت إن كان يصح لي غسلها أو ترك أمرها لصاحب فلّم لا الفندق، لكن ما دامت الإقامة تتوافر على ماء متصل لا ينقطع إلا بإرادتي،أتولى تنظيفها، وهو ما حدث.

أجزم بأنّ بُعيدَ لحظات، عاد النقر على الباب للمرة الثالثة، هرولت لفتحه، وأنا رحبّت بالرجال .الطارق، هذه المرة، لن يكون إلا الوكيل العام، وفعلاً أصاب جزمي فوق أرائك مريحة، الأربعة، وصافحّتهم واحداً واحداً، ودعوتهم إلى الدخول، تناثرّوا دون أن يتوقف لسانني عن الترحيب بهم.

بادر الوكيل العام قاضي القضاة بالقول
إلا — والله يا معالي الوزير، لم أتعرّف شيخنا أباً حيّان، حين فتح لنا الباب،
بصعوبة، وبعد أن أزال لحيته انقص عمره عشرين عاماً إن لم أقلّ ثلاثين
شكّرته في حياء، وأنا أخزن في ذاكرتي كلمة معالي الوزير، مقرراً أن أخاطب
الوزير أنا أيضاً بهذا الاسم، وذلك حتى أضيق من هوة اختلافنا حول المفاهيم
والكلمات، فاختلاف معاني الكلمات أمر يضيق له صدرِي ويربكني أكثر مما يربّك
محاورِي، فعزمت على أن أجعل حواسِي متيقظة لالتقاط ما استجد في اللغة لدى
المغاربة.

كان معالي الوزير قد اتّخذ مكانه قبالي وجهاً لوجهه، رجل أبيض البشرة ممتليء الوجه، بشوش خجول، أملس المحييا إلا من شارب كث غلب عليه بياض الشيب، ارتدى ربطة عنق غامقة مخططة بالبياض، ورأفي أن يكون هو ومرافقه وقد شبّهُيهُ بمستخدمي "فندق السراب"، يرتدون جميعاً بدلاً وأقمصة، وربطات الأربعة وأحذية، دون أن يتميّز الوزير عنهم بعمامة من حرير أو خنجر من فضة عنق وماس، أو غير ذلك، ففكّرت في أن الفوارق بين الفئات الاجتماعية، ولو وذهب على الأقلّ، قد انتفت وتلاشت ظاهرياً.

استمر الوزير في أحاديث عابرة لبقة، حول الطقس وموقع مدينة طنجة الجغرافي بين بحرين، خلته يتربص للزوج بي في امتحان يكشف له حقيقتي، لكنه ظل بريئاً من

يمدني تخميناتي، بل عبر لي عن سروره الأبلغ بلقائي والتحدث إليّ، ووعد أن العشرة ما طرأ من تحولات في التاريخ والعلم والفكر، خلال مؤلفات تطلعني على إذ قال قرون الأخيرة، ثم تدارك وكأن الغيب كشف له ما كان يموج في خاطري، بل:

وال تاريخ، — إن الكتب قد ترهقك، لذا أقترح أن أبعث لك بشخصية سامقة في الفكر العلوم والفكر، لسد الفجوة التي تفصلك عن الحاضر، هناك بكل تأكيد مستجدات في مستهلكون ومجترّون لعلم لكن بالنسبة لنا نحن العرب عموماً، ستكتشف بنفسك أننا وفكرة غيرنا أكثر مما نحن منتجون له.

بوسأله:

— من تعني بغير العرب؟

— أقصد الغرب المسيحي، فمنذ النهضة التي عرفها قبل خمسة قرون ونحن ظاهرة لأبحاثه واكتشافاته، ويكتفي إخبارك بأنك أنت شخصياً أديب الفلسفه، وفيلسوف وإلى الأدباء، العالم المنطقي النحوي "أبو حيان التوحيدي"، قد وقع التبّيه إليك، سبقو إلى مؤلفاتك من لدن الغرب قبل العرب، ومنمن أذكر من المستشرقين الذين ليكشف لنا اكتشاف قيمتك، المستشرق "لويس ماسينيون"، الذي بحث في سيرتك إلى مؤلفاتك، الشيء الكثير عنك، والمستشرق "مار جليوت" الذي كان أول من انتبه للحضارة الإسلامية في القرن "والمستشرق "آدم ميتز" الذي ألف كتاباً علمياً دقيقاً في العلمية الرابع الهجري"، فأفاض في الإشادة بقيمتك.

وعدت إلى استفساره

— من هم الذين سميتهم بالمستشرقين؟

العلم، — الاستشراق علم قائم بذاته، كعلم المنطق والفلسفة وغيرهما، وأصحاب هذا مستقلة عن غربيون مسيحيون، تعلموا لغتنا، فبحثوا في تراثنا القديم، كظاهرة تراثهم، فترجموه واعتمدوا بعضه مصدراً لبناء فكرهم وحضارتهم.

مستحسننا لم أخف إعجابي بهذا الوزير الشاب، ذي الثقافة الواسعة، فصارحته بذلك، مبادرته بإسعافي بشخص يطلعني على ما استجد في غيابي، فقال أستحضر — أود إخبارك بأنني استمتعت حقاً بكتابك "الإمتاع والمؤانسة"، وما زالت رسمخ منه بعض النوادر والفكاهات، كما قرأت بعض الدراسات عن مؤلفاتك، ومما

فهل حقاً في ذهني أنك تجمع بين متناقضين هما، فلسفة التشاوُم، وفلسفة الفكاهة،
المتناقضين؟ تجمع بينهما؟ كيف يمكن في نظرك للشخص أن يجمع بين هذين
أجبته بصدق وحماس:

من — إنني مندهش يا معالي الوزير، ذلك أن الاستفسارات نفسها التي وجهت إليَّ
لم أكن لدن الأصدقاء في بغداد، أجدها توجه إليَّ من جديد بعد عشرة قرون. إنني
القرون، هذه أتوقع أو يخطر بذهني، أن مؤلفاتي ستحظى بالقبول، وتتصدَّى كل هذه
أضرمت النار في حقيقة اندھش لها الیوم، ويکفي حجة على ما أقول، أنني كنت قد
من موقع فكري أو كتبِي لعدم جدواها، وذلك لكوني لم أظفر منها بما كنت أنشده
مقابل دراهم كانت أدبي، فقد عشت حياتي كلها أعمل ورافقاً وناسخاً لكتبٍ غيري،
تسد رمقي بمشرقة.

ظللت عيون الحاضرين جاحظة مشربة تتأملني، فأضفت قائلاً
جمعي — أليس ما أعلنه مفارقة مدهشة؟ ما علينا، ولأعدُّ إلى سؤالك، إن ما قيل عن
وهناك في مؤلفاتي، بين فلسفة التشاوُم وفلسفة الفكاهة لا أنيه، فالتشاؤم المنثور هنا
أن أتخذه مذهبًا كان مجرد صدى لتجاري وخبراتي، لوئنته بمزاجي الخاص، دون
المخلوقات، وأن انجذابه على غرار فلاسفة التشاوُم، ولا أحد يجهل أن الإنسان أشقي
والترويج عن نفسه، فكلنا نجمع بين نحو الفكاهة، حاجة طبيعية للتفيس عن شقائه،
تجمع بين الليل والنهار والحر والبرد، المتناقضات، لأننا جزء من الطبيعة التي
الجد بالهزل، والهزل بالجد، في ذات العمل لكنني لم يسبق لي أبداً أن مزجت
رجعت إلى مؤلفاتي كـ "الهوازل والشوامل" مثلاً، أو الواحد، كما فعل الحاجظ، وإذا
الصداقة والصديق" فستجدها عاكسة لتمزقات داخلية عشتها، "الإشارات الإلهية" أو
والحِيرَة، أو خيبة أملِي في الناس.، أما إذا عدت إلى مؤلفات لي أو لإحساس بالغرابة
الإِمْتَاع والمؤانسة" أو "النوادر"، فستجذبني أؤكد بها قيمة الفكاهة في " أخرى، كـ
الناس، وضرورة تذوق النفس للفرح والهزل وحتى المجون، وذلك درءاً للشقاء حياة
الإنساني الطبيعي.

يريد ما إن أنهيت كلامي حتى انتصب الوزير واقفاً وانحنى عليَّ ممسكاً برأسِي،
عاد إلى مقعده تقبيله، فحاولت أن أثنيه وأنا أستغفر الله، إنما بدون جدوى، إلى أن
وخاطبني:

عمق — أصارحك أيها العالم الجليل، بأن تقبيلي لرأيك ليس احتفاء بمجيئك إلينا من ولربما الوحيد التاريخ، بقدر ما هو تقدير لقيمتك الفكرية النادرة، فأنت من القلائل، الأدب والسمو في من المفكرين المسلمين العرب، الذين يجمعون بين السمو في وهو أقل ما قيل، إنك الفلسفة والمنطق والنحو والفقه والحساب، حتى لقد قيل عنك، الكبيرة "فليسوف الأدباء وأديب الفلسفه"، وغيرها من الأوصاف.

وكانت المفاجأة حين سأله

— إلى متى يا معالي الوزير، سأظل سجين هذه الإقامة الجميلة، كطائر في قفص من ذهب؟

إلى لم يقو الوزير على إخفاء ما غشى محياه من حيرة وارتباك، فصوّب نظرة حادة ينقده من مرافقيه، كأنه يشهدهم على اكتشاف سرّ ما، أو يستجد بهم ليسعفوه برأي مهممة أو عزت ورطة وقع فيها، لكن ضيوفه كانوا أكثر حيرة منه، إذ تبادلوا نظرات حين أجابني لي بأن في صدورهم أمراً يخونه عنى، لكن الوزير بدأ مخاوفي بصدق الرجال

بابلي — إنني أيها الضيف العزيز الغالي لم أتوقع منك هذا السؤال، ذلك أنه لم يخطر سراً إذا ما أن يكون لك إحساس بالمضايقة إلى درجة الظن بأنك سجين، ولا أخفيك دراية بقصتك هذه أخبرتك بأن لا أحد من رجال الدولة سواعي يعلم بوجودك، أو له عليها، ظلت وقتاً من الزمن المحيرة، وأنا شخصياً، حين أطلعني السيد الوكيل العام بين المصدق وغير المصدق

لنُقل على بالله عليك، رجل ينبعث حياً بعد أكثر من ألف عام انقضت على وفاته، أو سباته أو غيابه، فمن ذا الذي يقوى على تصديق مثل هذا الخبر؟

هكذا في أقصى حالات الحيرة والذهول بقيت على اتصال تلفوني مع السيد الوكيل النفسي العام، ولزمنتي الحالة نفسها وأنا في منزلي، إلى درجة صرت معها أفكر مع بصوت مرتفع، وكأنني ممسوس، مما جعل زوجي تصاب بالفزع، وتتهمني الليلة بالجنون، لكنها أعزرتني بعد أن أطلعتها على واقعتك هذه المربيكة للعقل، وفي منزلي ذاتها، أي ليلة أمس، رجوت ثلاثة من مساعدتي في الوزارة أن يحضروا إلى العام ورئيس لمزيد من البحث والتقصي، وهؤلاء السادة هم: المفتش العام والكاتب أسر عنا بالقدوم مديرية الشؤون الجنائية، الحاضرون معنا الآن، وفي أول الصباح

للتعرف إليك، هذا كل ما في الأمر.

وتدخل المفتش العام

— سيدى أبا حيان، إن إقامتك التى تراها سجنا، هي من أرقى فنادق طنجة

بوقبل أن يضيف شيئاً، قاطعه الكاتب العام للوزارة

— لعل الشيخ أبا حيان يعني بالسجن، حالته النفسية كالعزلة أو الاغتراب، وليس المكان.

فابتسمت للرجل كنایة عن موافقتي، وأنا أستمع إلى الوزير الذي شرع في حديثه
ـ وهو يبتسم في وجهي

لأول — لم يعد لي أدنى شك في أنك "أبو حيـان التوحـيدي"، الحـقيقي، ولـذلك فإنـني الواقعـة مـرة، سـاطـلـع السـيد الـوزـير الـأـول بـصـفـتـه رـئـيس الـحـكـومـة الـمـغـرـبـية، عـلـى هـذـه وـاتـسـعـت اـبـتسـامـتـه إـلـي أـن قـارـبـت الصـحـكـ حـين أـضـافـ

— إنني أعلم مسبقاً بأن السيد الوزير الأول لن يقتنع إلا بصعوبة لخبرك هذا، أيضاً يشبهني بالهدد، حين زف نبأ ملكة سباً إلى سليمان حجة على تغيبه، فأنا تغيبت عن المجلس الحكومي المنعقد في هذه اللحظة في الرباط، تحججت بمرض وهمي افتعلته حتى أزورك، وأتعرفك، وأتزود بمعلومات عنك ومنك شخصياً، وسأحظى حقاً بشرف كبير، وأنا أقدم للحكومة تقريراً عن هذا الحدث الجميل.

الأمن – إن الشرطة القضائية يا معالي الوزير، وبدون شك، قد أبرقت إلى مديرية الشيخ الوطني في الرباط، بهذا الحدث، ذلك أنها أول من تولى التحقيق مع التوحيد.

وتدخل الوكيل العام للملك موضحاً

أين – إنني أعرف بالمستوى الثقافي لرجال الشرطة القضائية في هذا الإقليم، فمن ملخص ما لهم أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى، يحيي العظام وهي رميم. ذلك أنهم في يزعم أنه "كتبه في محضر تحقيقهم، أن شخصاً مجنوناً يدعى "أبا حيان التوحيدى حالة تلبس، من مواليد القرن الرابع الهجري في بغداد، وقد ألقى عليه القبض في بجنحة الهجرة السرية، إنهم يجهلون اسم "أبي حيان التوحيدى".

وقطاعه الوزير

نفسه، — إني أتفق معك، فلا علم لمدير الأمن بهذا الخبر، كما لا علم للوزير الأول أبي حيان " فقد أجريت اتصالاً بهما هذا الصباح، مما يؤكد عدم انتباه الشرطة لـ التوحيدي" ، وبذلك سيكون للقضاء شرف وميزة السبق إلى التعرف إليه.

والتفت نحو ي مضيفاً

قد — إن انبعاثك يا سيدتي أهم حدث في هذا العصر، فإذا كان علماء ومتقوّل العالم ترثى سوّدوا آلاف الصفحات البيضاء، احتقاء بالذكرى الألفية لوفاتك، فكيف يا الأكبر، ويا سيكون ابتهاجهم وحفاوتهم بانبعاثك حياً — إني يا سيدتي، ويا شقيقتي الصادقة، إذا ما والدي الروحي المتنمّى — ولتسنّح لي أن أخاطبك بهذه المشاعر جلوسي إلى "أبي حيان": سئلت يوماً عما استفدتة في وزارة العدل، فسيكون جوابي التوحيدي".

ذكرني هذا الظرف بأصدقاء فاس وقصر كتامة، فقد كان وداعي لهم مؤثراً، ترك المحبة لدى انتباعاً مموداً لن تمحوه السنون. إنه حال المغاربة قاطبة، فهم يزجون عبد إلى كل وافد مشرقي، وكأنهم ورثوا ذاك الحنين الفياض، الذي حمله معه الرحمن الأموي إلى غرناطة، وقصتي معهم إن كانت جذورها تنسب إلى جوف التاريخ، فإنني لا أزال أتظل بأغصانها، في فندق السراب بمدينة طنجة.

وتدخل الكاتب العام للوزارة مخاطباً الوزير

— في وسعنا يا معالي الوزير أن نرتّب لشيخنا أبي حيان زيارات لبعض مناطق المغرب، حتى لا يحس السأم ببقاءه في طنجة:

ونظر نحو ي يستطيع رأيي، فأجبته

— رغبتي أن أزور بغداد

من جديد، نزل الخبر عليهم كسيف قاطع، فأضفت أعلل رغبتي

— إني عراقي مولداً ونشأة وعيشاً، وحنيني إلى بلدي لا يضاهيه حنين، فمن حقي أن أزوره، إلا إذا كان هناك اعتراض

رد الوزير

العراق، — أبداً أبداً، لا اعتراض لأحد على رغباتك، فمن حقك زيارة العراق، وغير مدمرّة إنما بعد انتهاء الحرب، فلعلك على علم بأن العراق يتعرض لحرب أسرعت بسؤاله وقد أفزعني الخبر:

— حرب في العراق؟ مع من نتحارب؟

أجاب الوزير موضحاً

— قلت إن العراق يتعرض لحرب، ولم أقل يتحارب، ذلك أن دولاً غربية بزعامة أمريكا، طمعاً في ثروة النفط، افتعلت خرقه للشرعية الدولية، فشنّت حرباً ل تستثر بهذ الزيت.

انقضى عقلي لغموض وهول ما سمعت، فقلت مستفسراً

ثم إن — لم أفهم مدلول عبارة الشرعية الدولية، ولا كلمة النفط، فماذا تعني بهما؟ اتخذ العراق أكبر خلافة إسلامية عربية، وهو محاط بجيران مسلمين، فأي موقف الجيران؟

أجابني الوزير بهدوء، وكأنه غير معني بما يحدث

— ما عاد العراق كعهدك به، خلافة إسلامية لا تغرب عنها الشمس، إنه في عصرنا بينها هذا مجرد قطر صغير، محاط بأقطار متتاظرة هنا وهناك، في نزاع دائم فيما شأن أطفال الحي.

صمت قليلاً وأضاف بالهدوء نفسه

فالبلاد .— الموضوع معقد جداً. إنه شبيه بما حدث بين إمارات الأندلس قبل ضياعها ضد بلد عربي اليوم، أمست كنظيرتها الأندلس، تحتمي بالأجنبي، أو تؤازره التي تدمره آخر. وال伊拉克 نفسه في عصرنا هذا الذي نعيشـه، وبدعم من أمريكا ومن يطلعـكـ اليوم، خاض حرباً شعواء مع جارته إيران. سأبعثـ إليكـ كما وعدتكـ، إلى العراق على كل مستجدـ يغيبـ عنـكـ، وما يهمـناـ فيـ هذهـ السـاعـةـ، هوـ أنـ السـفـرـ محفوفـ بـمـخـاطـرـ حـقـيقـيـةـ.

توقفـ الوزيرـ عنـ حـديثـهـ، دونـ أنـ يـوقفـ نـظـراتـ صـوـبـهاـ نحوـيـ، كـأنـهـ يـقـيسـ بهاـ قـنـاعـتيـ، وبـالـرـغـمـ مـاـ كـانـ يـعـتـمـلـ فـيـ دـاخـلـيـ مـنـ قـلـقـ وـحـيـرـةـ، فـقـدـ حـرـكـتـ درـجـاتـ مـبـدـيـاـ قـنـاعـةـ مـلـتـبـسـةـ، مـاـ جـعـلـهـ يـبـتـسـمـ وـيـضـيـفـ رـأـيـ

— مـاـدـامـ غـيـابـكـ عـنـ العـرـاقـ قـدـ اـسـتـغـرـقـ عـشـرـةـ قـرـونـ وـثـلـاثـةـ وـعـشـرـينـ عـامـاـ، فـلـاـ بـأـسـ إنـ زـادـ بـضـعـةـ أـشـهـرـ أـخـرىـ، إـلـىـ أـنـ يـهـدـاـ الـوـضـعـ

خـيـمـتـ فـتـرـةـ صـمـتـ قـصـيرـةـ، فـتـدـاعـىـ إـلـىـ ذـهـنـيـ مـحـمـدـ شـكـرـيـ، وـتـذـكـرـتـ طـرـيقـتـهـ فـيـماـ يـبـسـطـهـ مـنـ أـفـكـارـ بـصـوـتـ حـادـ مـرـتفـعـ، دونـ أـنـ يـنسـىـ أـنـهـ كـانـ المـلـطـعـ الـمـسـلـيـةـ

على بعض مؤلفاتي، العارف بائي كنت قد أضرمت النار فيها، ولن أجد الوحد
لي في هذه العزلة المضطربة. قلت هذا في نفسي، وسألت الوكيل العام غيره مؤنسا
بمقدوره دعوته لزيارتني، بعد أن يرحل معالي الوزير إن كان
لكن ما إن سمع الوزير اسم شكري حتى انفجرت حنجرته بسؤال باعث به الوكيل
العام:

— من أين هذه العلاقة بين الشيخ أبي حيان ومحمد شكري؟

أجاب الوكيل العام في شبه ارتباك

التحقيق — لا تجمعهما يا سيدي أية علاقة، كل ما حدث أن السيد وكيل الملك، وأثناء
كتاب الشیخ التمهیدی مع الشیخ أبي حیان، استقدم محمد شکری لیستأنس برأیه فی

— من أین لشکری أن یمتلك رأیا فی مؤلفات الشیخ أبي حیان حتی یبُدیه؟

تساءل والغضب يتسلق وجهه، لكن لا أحد تجرا على إجابته، فأضاف ببرنة نقل حدة
عن سابقتها:

— التحقيق يكون سرياً، سترى كيف سينتشر هذا الخبر غداً صباحاً في أكثر من
صحيفة.

فقال له الوكيل العام:

سبق يا سيدي أن أصدرت أمري إلى الحاضرين أثناء التحقيق، بكتمان سر هذه
القضية.

(12)

المطلة على البحر، حلّ المساء، وأنا وحيد في إقامتي، فافترشت وسادة في الشرفة
الدنيا، اكتسحني وصرت أرقب الشمس قبل مغيبها، وأستحضر في الآن ذاته هموم
ما كانت يقين جازم بأن وزير العدل يضمّر عداءً لمحمد شكري، لعل صدقة
إجراء التحقيق تجمعهما، فانقلبت إلى عداوة، وإلا ما كان ليحتاج على حضوره أثناء
معي، وينعته بوصف يحط من شأنه.

متوازنة، جعلني هذا أفكّر في الصدقة بين العالم والحاكم، تلك التي يستحيل أن تكون
العالم الحق، يدين إذ من شيم السلطان، الترحيب بالتزلف والاستذاد بالإذلال، بينما
التزلف ويرفض الإذلال.

تذكّرت ما حدث لي مع الوزيرين أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد، فقد كمن يلقم حجراً كلما استمعت إلى آرائهم، عكس الفقيه "ابن مسكوني"، الذي كنت كان على خلافى، كبير النفس مع العامة، صغيرها أمام الحاكم، قوي الكبرياء مع رفقاء، مسلوبها أمام الوزراء، ما أبصرت عيناي عالماً سخراً عواطفه وأحاسيسه والإعجاب رياء مثل ما فعل هذا الرجل، فقد أوصله ترافقه حد إبداء المحبة الصادقة، تجارب الأمم" و "المنقطع النظير لأبي الفضل بن العميد، لدرجة أنه خصّ كتابيه العميد وفترة حكمه، دون "تهذيب الأخلاق" من أجل إشاعة السمعة الرائعة عن ابن كل ذلك ليصبح معلماً لولده أن يرى في ذلك أية نقيبة، وكأنه منزه عن الأخطاء، مكتبة بغداد، ولينزل إلى الدرك أبي الفتح، ولاظفر بعدها بوظيفة قيم ومؤتمن على سهراته وملاذاته ببلاده الأسفل من الإهانة، ليصير نديمه وجليسه في

آخرى مع يا له من رجل وضيع النفس، جرفته تلك الحياة السرابية، ليرتبط بعلاقة ليتساق نخلة الوزير المهلبي، الذي تساقه كما يتسلق سارق التمور نخلة، فجاوزه برعاية منه أخرى أعلى وأنضج، هي عضد الدولة، أكبر أمير بويعي، إلى أن حظى القصر الذي جعلته يتتصدر قاعة الجلوس في قصر البركة، لا أدرى كيف صار ذلك شك قد صهرته كان متمطياً فوق دجلة، إن لم يكن قد جرفه النهر، فإن الأرض دون في باطنها، متلماً غيّبت ابن مسكوني.

أفز أما أنا، فلم أطق إذلال الوزيرين، عافتهما نفسي لتكبرهما ولتعجرفهم، ولم المنتصر، وهما بسكوني وتوافقني النفسي، إلا بعد أن تعاليت على مقامهما لأصيير أنا قلمي كان أبتر من الخاسران، وما كتابي "مطالب الوزيرين" إلا حجة قاطعة على أن سلطانهما

ضحكـت وأنا أـذكر ما قـلتـه لـمسـكونـي حين أـطـلـعني عـلـى ما دـونـه عـنـ ابنـ العـمـيدـ .ـ لكنـكـ ياـ مـسـكونـيـ،ـ لمـ تـشـرـ ولوـ بـطـرـيقـةـ موـارـبـةـ إـلـىـ عـشـقـ اـبـنـ العـمـيدـ لـلـغـلـمانـ .ـ فـانتـزـعـ أـورـاقـهـ مـنـ يـدـيـ،ـ وـقدـ اـعـتـلـىـ وـجـهـهـ غـضـبـ شـدـيدـ وـلـازـ بالـفـرارـ .ـ أـتـكـونـ عـلـاقـةـ مـحـمـدـ شـكـريـ بـوـزـيرـ الـعـدـلـ الـمـغـرـبـيـ،ـ شـبـيـهـ بـعـلـاقـتـيـ بـالـوـزـيرـينـ العـرـاقـيـنـ؟ـ

عدت لأرقب الشمس، كان قرصها قد بدأ يغوص في البحر. فاصطبغ الأفق باحمرار شاحب، مع زرقة أرجوانية داكنة، أضفى عليه خرير ارتطام الموج على اليابسة

وأقعاً سحرياً، صبغ نفسي بمشاعر أججت حنيني إلى بغداد ونهاوند، وإلى وجودي بعيداً عن زمامي ومكاني.

فكرتُ في الأجيال التي ركبت هذا البحر، أجيال طارق بن زياد، وموسى بن نصير، والشعراء والقراصنة والمغامرين واللصوص، وفكرت أيضاً في نفسي حين رافق القافلة ركبته في ذلك الزمان البائد. أجل، كنت في كامل انشراحٍ وتلقٍ، أفقٌ الأربعة، أو خامسهم، دون أنْ في العلم والحديث، وأؤمن بهم الصلاة، وكأنني أحد الأئمة يغيب عن ذاكرتي رجوعي المأساوي إلى مدينة طنجة.

هربت من نفسي إلى تأمل انكسار الأمواج على الشاطئ، بعد أن تأكد لي انفصال تماهيٍ وذاتي. بدت لي كل الأمواج متشابهة، لكنني، بين الفينة والأخرى، كنت أقتصر واحدة تكون غريبة عن أخواتها، فأمثل بها نفسي، هكذا قسراً عدت إلى اثنان، التفكير في ذاتي، وحاولت من جديد أن أفصلها عنِّي، أقنعت نفسي بأنني وذاتي وبانفصالي عنها أستطيع أن أجد حلاً لعجزها، وأن أنسف بعض ضروب يأسها. فعجزت مرة أخرى.

وبينما أنا كذلك، إذ بجرس التلفون يقطع حبل تأملِي، فعدت مهرولاً إلى الصالة، برُفت قطعة الجماد إلى أذني، فوصلني صوت حاد النبرات — أُنْعِمْتُ مساءً سيدِي أبا حيان. أنا محمد شكري في بهو الفندق، أتأذن لي بزيارة في غرفتك، أم أنتظرك في مكانِي؟

— تعال إلى إقامتي

: أجبته

ملتهتين ما إن فتحت له الباب ليبدو أمامي بشعر رأسه الأشعث، حتى جحظت عيناه شخصي، فأدركت أن مظهري أذهله، دعوته إلى الدخول وأنا أقول له — لا تشرحنَ لي ما طرأ على شكري، فأنا أيضاً ذهلت أمام المرأة، وأنا أشاهد نفسي بلباسكم هذا.

لغز أشرت عليه بالجلوس، لكنه ظل واقفاً مأخوذاً، كأنه يحاول تفسير حلم مبهِّم، أو أنَّ محير، وأعدت الإشارة بيدي إلى المقعد الذي كان يعتمره وزير العدل قبل يغادره. فاستوى فوقه، ووضع بجانبه حقيبة جدية صغيرة كانت تتدلى من فوق كتفه، وظل يحدق في وجهي. دون أنْ أكبح ضحكة صدرت عنِّي، سأله

— أتراني أختلف عن بني البشر؟

وهو حي — أبداً أبداً والله، بل أراك شديد الشبه بشاعر عربي أعرفه، اسمه أدونيس، يرزق، دعني أشرح لك، عندما رأيتكم بالأمس في مكتب وكيل الملك، حسبتكم الإنسان محتالاً، أو مجنوناً، كنت أكثر من استبعد حقيقتك استناداً إلى نظرية اختلف النظرية القديم عن المعاصر. وحتى بعد أن اتضحت أمركم، وتأكدت حقيقتك، ظلت هذه وأنا أراك مستحوذة على فكري، شاغلة ذهني، بين الرافض لها والقابل بها، لكنني البشري لم يطأ عليه الآن، انتهى يقيني إلى خرافية تلك النظرية، وإلى أن الجنس تغيير منذ وجود سيدنا آدم وزوجه حواء على سطح الأرض.

عدت إلى الضحك ومقاطعته:

— أنت على يقين أن آدم تزوج من حواء؟

أربكه سؤالي لوهله، فضحك وأجاب:

— إن المسكين لم يكن له من اختيار، فقد كانت الأنثى الوحيدة في الدنيا، وكان عليه أن يقبل بها رغم أنفه.

— هي أيضاً كان عليها أن تقبل به رغم أنفها، فقد كان الرجل الوحيد في الدنيا.

— لا شك أن الله أبدعها على أحسن تقويم وبذلك عمّرت الأرض بهذه الألوان البشرية.

عدت لمقاطعته:

— أمن الضروري أن لا ينصب حديثي معكم عشر المغاربة، إلا عن الخوارق أو الساعات؟ النظريات؟ أما كان أجدى أن نترك لسجيتها حديثها فيما يريحها من أمور أو أي شيء كأن تدلني على واقعكم المعيش، أو علاقة أولي الأمر منكم بالرعية، آخر يبقينا فوق الأرض ويقصينا عن ما تتناقله بطون الكتب؟

ضحك محمد شكري ودسّ يده في جيب سترته، فأخرج علبة صغيرة من الورق المقوى في حجم كف اليد وقال لي:

— إنها علبة دخان تحوي عشرين لفافة، أستهلك منها علبتين في اليوم، وثمة من يكتفي بوحدة، أو بأقل من واحدة في اليوم. ولعلكم، فهـي ليست محرمة، فقد سبق أن أفتى بعض المترمـتين بمـكروـهـيتها، لكن سـرـعـانـ ما أـبـطـلـ الواقعـ هـذـهـ الفتـوىـ، فـانتـشرـ تـدخـينـ السـجـائـرـ اـنـتـشارـ النـارـ فـيـ الـهـشـيمـ. مما جـعـلـ أحدـ الشـعـراءـ يـقـولـ

قَالُوا تَعَاطَى الدُّخَانِ قُبْحٌ
فَقُلْتُ لَامَابِهِ قَبَاحَةٌ
يُصِيرُ الْمَرْءَ فِي نَشَاطٍ
وَفِيهِ عَوْنُّ عَلَى الْفَصَاحَةِ
وَلَمْ يَرِدْ بِالْحَرَامِ نَصٌْ
وَالْأَصْلُ فِي شَانِهِ الْإِبَاحَةُ

بها تناول من علبه لفافة الصقها بفيه، وأوقد في عقبها ناراً، وصار يمتص ما
بنفسه، ويستخرج من منخاره وفمه دخاناً ينشره في الفضاء، وقال لي
في — إن ما أقوم به يسمى في قاموسنا المتداول بالتدخين، وأنا أدمنه منذ أن كنت
سيتفقد العاشرة من عمري، إنه يساعد مزاجي على الروakan والخصوصية، سترى كيف
تقبل ذهني، وتغمرني حالة إشراق تسعنفي بفتوى أو مشروع يبعد عنا السأم، هل
تشعر بالذلة والعار؟

— لـ لا، مدام الأمـ كما تقـوا، فـلـأـحـدـ

وضعت لفافة في فمي، فأوقدها لي بعود ثقاب، وطلب مني أن أدعها تتسرب إلى واقفا دواخلي، فامتنلت لأمره، وإذا بسعال مفاجئ يبطش بي حد الاختناق، فانتصبت أستوي وهرولت إلى الحمام، غسلت وجهي وحلقي، ثم عدت إلى الصالة، وقبل أن فوق مقعدي، بادرته قائلًا:

أنت — بعد هذه التجربة المريرة أعلن لك، بأنني والتدخين شيئاً متضادان، لتنعم به أو بطش سعال في حفظ الله ورعايته، أما أنا فـإشرافاتي الذهنية لا تحتاج إلى غثيان لم يك عن ضحكه، لأن ما ألم بي يدعو إلى الانشراح والقهقةة، فلعل مزهواً بعد أن أخذ نفساً من سيجارته:

فمذاقه مرّ — التجربة الأولى عادة ما تكون مُنفرّة، كحال تناول النبيذ لأول مرة، في أفواهنا إلى مذاق كالعلم، لكن النشوة التي يحدثها تشفع في إعادة تناوله، ليتحول العسل.

قاطعته

— لست على مذهب أصحاب القياس، ولا من المتججين بالضارة النافعة

— لکم دینکم ولی دین۔

أكدت لي جملته هذه طبعه الحاد، وأضاف:

— أتعاقر الخمر يا أبا حيـان؟

لداعي لم أجبه، وتعـدمـتـ، وأـنـظـرـ إـلـيـهـ، إـطـالـةـ صـمـتـيـ، عـلـهـ يـقـدـمـ شـرـحـاـ أوـ مـبـرـراـ وـكـأـنـهـ سـؤـالـهـ، أوـ يـعـذـرـ مـنـ الـأسـاسـ، لـكـ بـعـدـ أـنـ ظـلـ هوـ الـآخـرـ مـحـدـقـاـ فـيـ وـجـهـيـ: ضـيـافـيـ، فـأـجـبـتـهـ فـقـيـهـ يـحـثـ تـلـمـيـذاـ عـلـىـ جـوـابـ، أـشـفـقـتـ عـلـيـهـ مـنـ غـرـورـهـ، وـهـوـ فـيـ لـيـسـ مـعـ الـعـامـةـ، وـلـاـ مـعـ الـدـهـمـاءـ.

انفرجـتـ أـسـارـيرـ مـحـيـاهـ، وـخـاصـضـ فـيـ الـحـدـيـثـ:

— كـنـتـ سـتـخـيـبـ ظـنـيـ وـتـصـدـمـنـيـ إـنـ كـنـتـ أـجـبـتـ بـالـنـفـيـ، ذـلـكـ أـنـهـ لـيـسـ مـنـ طـبـاعـ أـمـاـ.ـ المـشـتـغـلـيـنـ بـالـفـلـسـفـةـ وـالـفـكـرـ إـلـيـهـ عنـ مـعـاقـرـةـ الـمـدـامـ، وـلـوـ مـنـ بـابـ التـجـرـيبـ انـهـدـارـيـ فـيـ اـقـتـصـارـكـ عـلـىـ خـاصـةـ دـوـنـ الـعـامـةـ، فـهـذـاـ مـاـ اـهـتـدـيـتـ إـلـيـهـ أـنـاـ أـيـضاـ بـعـدـ ثـمـ اـرـنـقـتـ إـلـىـ الشـيـخـوـخـةـ، فـقـدـ كـانـتـ بـدـايـتـيـ مـعـ الـمـهـمـشـينـ، ثـمـ اـرـنـقـتـ إـلـىـ الـعـامـةـ، بـالـقـرـفـ الـخـاصـةـ، فـخـاصـةـ الـخـاصـةـ، بـعـدـ أـنـ صـارـتـ مـجـالـسـ الـعـامـةـ تـصـبـيـنـيـ

ـ قـاطـعـتـهـ:

— تـزـعـمـ أـنـ التـدـخـينـ يـمـنـحـكـ صـفـاءـ الـذـهـنـ، وـيـلـهـمـكـ إـشـرـاقـاـ يـبـعـدـكـ عـنـ الضـجـرـ وـالـسـأـمـ.ـ تـرـىـ بـمـاـذـاـ أـلـهـمـكـ وـأـنـتـ مـشـرـفـ عـلـىـ تـدـخـينـ ثـلـاثـ سـجـاـيرـ؟ـ

— لـاـ تـتـعـجـلـ الـأـمـرـ يـاـ سـيـديـ، فـقـدـ كـانـتـ بـصـدـدـ إـخـبـارـكـ بـأـنـيـ أـعـدـتـ فـيـ ذـهـنـيـ خـطـةـ مـحـكـمةـ لـلـتـسـلـلـ مـنـ فـنـدـقـ السـرـابـ هـذـاـ.

— وـإـلـىـ أـيـنـ إـنـ شـاءـ اللـهـ؟ـ

— إـلـىـ قـلـبـ مـدـيـنـةـ طـنـجـةـ، أـلـمـ تـسـأـلـيـ أـنـ دـلـلـكـ عـلـىـ وـاقـعـنـاـ الـمـعـيـشـ؟ـ

— بـلـىـ، سـأـلـتـكـ!

— إـذـنـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـغـادـرـ الـفـنـدـقـ دـوـنـ أـنـ يـنـتـبـهـ أـحـدـ مـنـ الـمـسـؤـلـيـنـ أـوـ الـخـدـمـ.ـ وـفـيـ الـمـدـيـنـةـ سـتـقـفـ بـنـفـسـكـ عـلـىـ وـاقـعـنـاـ.

— اـفـرـضـ أـنـهـمـ اـنـتـهـواـ، فـهـلـ يـعـتـرـضـونـ سـبـيـلـاـ؟ـ

— بـكـلـ تـأـكـيدـ، فـرـجـالـ الشـرـطـةـ السـرـيـونـ، يـطـوـقـونـ مـدـخـلـ الـفـنـدـقـ، وـهـمـ عـلـىـ عـلـمـ أـيـ بـوـجـودـيـ مـعـكـ، فـقـدـ تـلـقـوـاـ إـذـنـاـ خـاصـاـ مـنـ الـوـكـيلـ الـعـامـ لـلـمـلـكـ يـسـمـحـ لـيـ بـزـيـارـتـكـ، حـتـىـ زـيـارـتـيـ لـكـ كـانـتـ مـتـوـقـفـةـ عـلـىـ إـذـنـ الـوـكـيلـ الـعـامـ.

ـ ماـ الـعـلـمـ إـذـنـ؟ـ سـأـلـتـهـ فـأـجـابـنـيـ

الرئيس، — ألم أفل لك إيني أعددت خطة محكمة، اسمع، أنا سأغادر الفندق من بابه الشاطئ، أو عبر كما لو كنت قد دعوك، وأنت ستسلل من جهة النافذة المطلة على وتسير بمحاذاته إلى أن النافذة ذاتها. ستنزل دركات السلم المفضية إلى الشاطئ، فتعرج يساراً مولياً ظهرك تجتاز منزلًا صيفياً مضاءً يملكه أحد الأمراء العرب، صحبة سائق سيارة للبحر. بعد بضع خطوات ستتجدني في الطريق العمومي

تتناول حقيبته، وعلقها بكتفه، وقال لي

— أتمنى أن لا تفشل خطتنا، لا تنس أن تحمل معك مفتاح الإقامة

خطا إلى الخارج، ثم التفت نحوي وأضاف

حاول أن ترتدي سترة فوق قميصك، فقد تكون الليلة باردة.

(13)

مصحوباً بنسمات عشب كانت الليلة فعلاً باردة، سرت فوق رمال الشاطئ المبتلة، فانتبهت إلى أنني مغلّ البحر، وضوء القمر، وصخب الأمواج، والتلوّح، والظنون، والحزن، أو من الفرح والكآبة. بأحساس مضادة، متقاضة، لعلها مزيج من السعادة استطعت أن أستحضر مكانها لقد سبق أن اعترضتني أحاسيس شبيهة بهذه، بل ذلك هو المكان، وكنت فتى يافعاً، وزمانها، فقد كنت في مدينة المحمرة الفارسية، مما أيسر تذكر الأحساس حين تعاودنا ذلكم هو الزمان، ليس في هذا آية غرابة، خيل لي أن ريشاً عاصفة تدوي بداخل رأسي، وتغسل ذاكرتي، فتزيح ما تراكم بها من طبقات النسيان، وتفقد بصيرتي، لتفرد لي مشاهد لواقع عينية من حياتي البعيدة، تلك التي كانت في طي العدم، كما لو أني كنت أعمى، فصرت بصيراً وإنزلق اسمها من لساني، فتوقفت وسط الشاطئ وخاطبت نفسي، ماذا؟ قلت لفظت اسمها؟ لم أصدق، كيف لي أن أصدق وأنا منذ عشرات السنين، شهربان؟ قرون، أحفر عن اسمها في ذاكرتي، إلى أن تملكني اليأس وصار يقيني وقبل عشرة إلى الأبد، وفجأة يطفو على سطح ذاكرتي، لتتشقّع معه كل تفاصيل أيامي بأنه أمّي المنسيّة.

ازدلت وثوقاً من حالي الخارقة، وفي لمح البصر مرّ سجل حياتي في ذهني

أجل كنت في ضيافة الحاج عبد الحسين التوحيدى، أعز أقرباء والدى، كان قد

أرسلني إليه لأنعلم الفارسية والسيسانية، رجل على قدر من النقوى والعاصمية، وحده تولى تدريس ولديه قواعد العربية والفارسية والسيسانية، وعلوم الدين والحساب، أستطيع أن أتنسم رائحة طيبة المعلوم من عمامته السوداء، أما صوته الجهوري وهو يتلن القرآن، أو يؤم بنا الصلوات، فإني أكاد أسمعه الآن يرن في أذني، وكأنني لم أغادر بعد مدينة المحرمة.

يتولى كنـت و ولديه نـتـاـب عـلـى جـلـب المـاء مـن العـيـن الـرـابـضـة عـنـد سـفـح الجـبـل، كـانـ متـطـوـعاً، لـيـس أحـدـنـا كـلـ صـبـاح هـذـه المـشـقـة، لـكـنـي أـعـفـيـتـهـمـا مـنـهـا، وـتـحـمـلـتـهـا وـحـيدـاً إـپـثـارـاً أوـ كـرـمـاً مـنـي، وـإـنـما لـغـاـيـة فـي نـفـس يـعـقـوبـ.

كنت أستيقظ مع نسمات الفجر الأولى، فأستر جسدي ببقيري الصوفي، وألف رأسى بما يشبه العمامة، وأسرع لأسابق الريح نحو العين، قبل أن تقع ماءها حواجز الماشية والدواب.

هناك، كنت أنتظر مجيء شهربان، فتلوح رفقة صبيات كما يلوح القمر مكللا بنجوم
في ليلة ظلماء، فأقترب منها ثم أبعد ثم أقترب، محاولاً أن ألفت نظرها إلى
وجودي، وتكرر إقبالي وإدباري، فتجرأت وقلت في نفسي، ماذا لو تقابلنا على
انفراد؟ لكنني حفت حلمي في خيالي، فلا رقيب على خيالي، أفتح أزرار قميصها
وأدعك ما تلمسه أصابع يدي وراحتها، وحين أصطف مع رفيقي وراء عمي عبد
وأعود الحسين لأداء الصلوات، أدعو الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر،
لأنه يقتضي.

وتحقق ذلك الحلم البعيد المنال، ليس في خيالي، وإنما على أرض العين في سفح الجبل، بين شجيرات الصفصاف والصنوبر والعرعار، ونباتات برية ذات روائح زكية، وكأن كل شيء أعد عنوة ليتم مشهداً كنا بطليه.

ما أروع أن تتحول أمانيك إلى معيش حقيقي، إن ذلك شبيه بالشيء النادر الحدوث، لكنه تحقق لدى مع شهربان

وابتسمتْ في ذلك الفجر العذري، وجدتها وحيدة تماماً جرتها، وحين تقابلتْ نظراتنا،
لها، لكنها لي، ارتبتْ وانتقض قلي، وبكلمات مني، مرتعشة مضطربة، لا معنى
عرفتُ أنها كانت بليغة في إثبات هيامي بها، وبكلمات منها مرتعشة مضطربة،
تكون فارسية من هامت بي، ومثلما سرّها أن أكون عريباً وافداً من بغداد، سرني أن

المحمّرة.

نخفي عند سفح الجبل، صرنا نلتقي كل فجر، نخفي ما نحمله من أواني السقي، مثتما اسمها شهربان، قامتينا بين الأشجار والنباتات البرية الباسقة، لم أكن أعرف بعد أن فاحم، تدلّت لكتني عرفت، بل ونزلت عن رأسها بخنقها لتنكشف لي خصلات شعر أمامها وجهها إلى أن خلتها ستصل إلى الأرض، وفتحت أزرار القميص وأنا أنتصب لوجهه، مطوقاً برعشة محمومة

في تلك اللحظة بالذات، قُدر لي أن أكتشف عذاب متعة تحقيق الحلم

توقفت في الشاطئ، وفكت في شكري الذي ينتظر التحافي به، لكنني فكرت في الوقت ذاته في شهربان، وفي الهوة التي تقصلني عنها، وفي حالي الخارقة هذه، أيكون طيفها يحوم الآن حولي، فيسعف ذاكرتي باستحضار ما غاب عنى

عدت إلى تلك الأيام في المحمّرة، استحضرت ذلك الطقس الخريفي البارد، حين كنت أنسُل من بين الأصدقاء، فأتدحرج نحو الشاطئ، أسير فوق رمله المبنّل وأتصدح بالغناء، أو بتسميات لأبيات من شعر أبي ربيعة أو جميل بثينة أو كثير أعيش عزّة، وأبكي، وأبكي، مستعجلًا رحيل الليل لقدوم الفجر، لأقابل شهربان، كنت من العشق الحقيقي، دون أن أعرفه، ولعل مصدر بكائي كان عشقي، أو شدة خوفي فقدان شهربان

وها أنا ذا أعاود السير ليلاً، على رمل شاطئ مبتل، عارف بأحوال العشق، في زمان ومكان غير زمانه ومكانه، كأني الأزل ينتقل من عصر إلى عصر

(14)

إلى أن لاحت أوليت ظهري البحر، فضل المنزل الأميركي عن يسارِي، سرت بجواره الخلفي، ثم عاد سيارة واقفة في الطريق، ترجل منها محمد شكري وفتح لي بابها ضخم جموح، تُرسل وجلس إلى جوار السائق، فانطلقت بنا السيارة وكأنها حيوان عيناه شراراة ضوء يحيل الظلام نهاراً

مزدانة أراد أن يقول شيئاً، فأمسكته ليتركني في سرحاني، لكن ما إن ولجنا أبنية منشغلة بليلة بالألوان، حتى صار يدلّني على معالم لم أُعرّها اهتماماً، فقد كان ذهني حداً فاصلاً كانت أطول ليالي عمري، تلك التي تأخر فجرها عشرة قرون، لتكون

بين عصرین

هل استغرقت تلك الليلة حقاً عشرة قرون؟

عليَّ أن أصدق قبل أن أطلب من الآخرين تصديقي

ما إن توقفت السيارة، حتى قفز محمد شكري خارجها، وفتح لي الباب، وحاطبني

— مرحبا بك صديقي أبا حيان في قلب مدينة طنجة، الشارع يسمى "موسى بن

"نصر" والمطعم الذي سدخله يسمى "الريتز".

عاد إلى صاحب السيارة، سمعته يشكره، ثم رجع حيث أقف، ودعاني لولوج المطعم

وهو يقول لي

بعد أن اتخذت هذا المطعم مقراً لي، جعلت منه ملتقى للمثقفين من معارفي

وأصدقائي، أتفق أن تكون أحدهم؟

حركت رأسي موافقاً ضاحكا، فتقدمني ينزل دركتين لنصير وسط المطعم، انحنىت

برأسني مثله محياً ثلاثة أشخاص ملأوا إحدى الموائد. وقف أحدهم وصافحنا،

فالتمس شكري منه بأدب جم، أن ينتظر إلى أن يفرغ من أمر له معى، وصار

ييدلني

— الذي نراه في الزاوية حان صغير، والفنين المرصوصة فوق الرف أنبذة

مغربيّة.

لم أتمالك دهشتى، فسألته

— خمور تعرض في مطعم عالنية؟

— ماذا يدهشك في هذا؟ جل البلاد الإسلامية تُسوق الخمور جهرا، أما كان في

العراق خمور وحانات؟

— بلى، هناك حانات من زمن جلجامش، ومنها حانة بغدادية كانت تديرها رابعة

العدوية قبل أن تتصرف، أذكر أن أبا نواس كان يؤمها، كما كان يسافر من بغداد

بطرق إلى حانات خارج مدينة الحيرة، أما الخمور فلا تعرض في الأسواق، بل تباع

وبطانته سرية، ويقام الحد على بائعها ومقتنيها، باستثناء حاشية الخليفة

— أنت تتحدث عن العراق قبل عشرة قرون. الأمر يختلف اليوم، دعنا من هذا

الآن، وتعال أطلعك على الصور التي تزدان بها جدران المطعم.

تابعت الفرجة على صور تجمعه بأدباء وشعراء وسياسيين. صور عجيبة حقيقة،

يُكاد أصحابها ينطقون، توقف عند صورة لرجل دمث الملامح، وقال لي عنه

— إنه الشاعر عبد الوهاب البياتي من العراق، قضى نحبه في دمشق منذ سنوات ثلاثة. لقد ظل صوته رعداً مدوياً، وكان نسراً جريحاً، أعرفه عن كثب منذ عاماً. انتقل بعدها إلى صورة أخرى، وقال لي عن صاحبها

— مناضل معارض عنيد، ابن مدينة طنجة، حكم عليه بالإعدام، لكن رفقاء دبروا تنير فراره إلى خارج المغرب، وبعد عقد ونصف، عاد ليصبح وزيراً أولًّا، حكايته الراهنة الإعجاب والدهشة، وقد تفيد في فهم أوضاع السياسة العربية الإسلامية.

لم أتمالك نفسي وأنا أنعم في صورة هذا المناضل المغربي، قلت

— إنه يشبه بال تماماً صديقي أبي زكرياء يحيى بن عدي النصراني البغدادي أشار إلى مائدة تحف بها أربعة مقاعد منزوية في ركن عند مدخل المطعم، وأخبرني

إِنَّهَا مائِدَتِي الموقوفة عَلَيْهِ، لَا يَجِدُ بَهَا أَحَدٌ سُوَايِّ.

أسايره وأستمع إليه، لكنني كنت منشغلًا في الوقت ذاته بحال العراق، بعد عشرة جملته قرون من رحيلي عنه. فقد قال لي، إن الأمر يختلف اليوم، دون أن يدرى أن أجوبتها غامضة، القصيرة هذه دوّختني، وفجّرتْ في دواخلي بركاناً من أسئلة ستظل رغم ما قد أقف عليه من كل مستجد في العراق.

ما كدنا نجلس حول مائته المفضلة، حتى وقف علينا رجل في مقتبل عمره، خمرى فوق اللون، طويل كنخلة لم تتمر بعد، شاربه قصير داكن السواد، محفوفٌ بعانياً بسمة لا تفارقه

فهو — إنه عبد الحفيظ، النادل القيم على جميع الزبناء، لكنني أنا مستثنى منهم، معدتي، يعرف عني كل شيء، نبيذى المفضل، وعاداتي، وأصدقائي، حتى ما تشتهيه ولعلك، فإن معدتي تشبه معدة عصافور، فهي تفضل الشراب على الأكل.

يضحك ويتحدث، ويطلب من عبد الحفيظ أن يأتينا بما لديه، ويسأله في حضوره — أتجرب نبيذاً مفضلاً لادي؟ ودونما اكتراش أجبته

— أريد ماء.

— صديقي يرغب في أن يفتح الجلسة بالماء، اسقه ماء، ذاك شأنه

قال للنادل قبل أن ينصرف، ورحب بالرجل الذي سبق أن صافحنا، وأشار إلى

شخصي قائلًا:

— هذا أبو علي، صديق من العراق.

ثم انحنى عليَّ، وهمس لي:

— حتى لا ينكشف اسمك، ثم إن الشاعر البياتي الذي شاهدنا صورته، كان يفضل أن نلقبه بأبي علي، أليس اسمًا عراقياً؟

حركتُ رأسي بالإيجاب، فعاد إلى رفع صوته معرفًا صديقه الشاب

— إنه عبد القادر، كاتب مغربي متميز، ولعله درس الفلسفة بكلية الآداب، إن لم تخني ذاكرتي!

— ليت لي مثل ذاكرتك

علق عبد القادر، فضحك شكري وقال لي:

والأخرى — الرجل صادق فيما يقول، ذلك أني أمتلك ذاكرتين، إدعاهما ذاكرة الأمي ففي هذا العمر ذاكرة المتعلم، وقد لازمتني ذاكرة الأمي إلى أن بلغت سن العشرين، الأمي تسعفني في حفظ بدأت أتعلم القراءة والكتابة. أما قبل ذلك، فقد كانت ذاكرة جاهلا، بل كنت أكثر إطلاعاً الأسماء والأرقام والحكايات، لكنني وأنا أمي لم أكن وأناؤلها لمن يقرأ لي مقالات منها، ولباقة من متعلمي هذا الزمن، كنت أفتني مجلات يقرأون شيئاً في حين أن هناك متعلمين جاهلين، لا

ضحكنا جميعاً.

غاب أحضر النادل فنينة شراب مع أقداح زجاجية مكتنزة، وفنينة ماء خاصة بي، ثم لردد فترة زمنية قصيرة، عاد بعدها يحمل صحوна صغيرة بمائولات قليلة، لا تكفي جوع رجل واحد، زيتون وباذنجان وفجل، ورداً على ذهولي عقب شكري

— لاتحسينَ هذا أكلا، إنه مجرد مزّة معتادة لفتح الشهية لا غير.

ناحيتي، حين صبَ عبد القادر كأس نبيذه، أسرعت أنا فملأت قدحي بالماء وقربتَه ببعض وكأني بفعلِي هذا أعلن رفض شرب الخمر، فابتسم الرجل وألقى في جوفه يهاجم الشيب شرابه. في تلك الهيئة دخل المطعم شاب مربوع القد، أميل للبدانة، لم واحداً واحداً، فدعاه كل رأسه بعد، وقد طفح محياه بطيبة لا تخطئها العين، صافحنا شكري مرحباً، وقال عنه

— هذا رجل حلو المعشر، طموح، بدأ حياته مدرساً صغيراً إلى أن أصبح أستاداً

للالداب العربية، اسمه عبد اللطيف.

وأشار إلي، وهو يقول لضيفه الجديد

— أبو علي، أديب وفيلسوف من العراق

صبّ كأساً لضيفه وحاطبني

— تأكّد يا أبو علي من أنه لا وجود لأحد من العامة في جلستنا هذه

سكت قليلاً، ثم وكأنه لم يُطق صبراً عاد يستفسرني

— إلى متى ستظل تشرب الماء؟

— إلى أن يشاء الله، بعد ذلك سأتذرّ أمرِي

أجبته:

اسم مرّ زمن شرد فيه ذهني عما كان يروج بينهم من أحاديث، إلى أن استرقت أذني

الحديث عن أبي حيان التوحيدى، فتساءلت في حالة استفار، ظناً مني أنهم بصدق

وأقعني

— بالله عليكم، عمَّ تتحدثون؟

أسرع شكري يجيبني

بول "عن مرارة الاغتراب"، وقد استشهد عبد القادر بثلاثة فلاسفة هم "كيركيجور" و

الاغتراب تيليش" و "أبو حيان التوحيدى"، صنفهم فلاسفة حاولوا التخلص من مأزق

النفسي، عن طريق الإيمان بالله

وأضاف عبد اللطيف

— جعلوا الإيمان ملجاً ومنقداً من الاغتراب

صمتوا في انتظار وجهة نظري، فقلت لعبد اللطيف

قد تصدق نظريتك عن الفيلسوفين الأجانب، فأنا جاهل بهما، لكن بالنسبة لأبي

حيان، فبودي لو أعرف مصدر استنتاجك هذا

رد عبد اللطيف

ستجد "الأمر في بساطة شرب كأس ماء، فبتقليلك لصفحات كتاب "الإشارات الإلهية"

ناشدا التوحيدى ينادي ربه ويناجيه بنبرة صادرة عن قلب خاشع ذليل، متضرعاً،

واغترابه التعلق بحبل الإيمان، وذلك دون شك، محاولة منه للفرار من يأسه

فتدخل عبد القادر

— إن أليير كامي سمي أمثال هؤلاء بـ "الفلسفه المنتحرين"، لأنهم رفضوا الصمود، هربوا من مواجهة مصيرهم بالعقل والمنطق، واستسلموا لما وراء الطبيعة، شأنهم في ذلك شأن من يتثبت بالسراب اتقاءً الغرق.

لكن حركت رأسي موافقاً مع أنني لم أتفق في داخلي مع استنتاجهم السطحي الساذج، ما أدهشني هو اهتمامهم بشخصي، إذ لم يخطر بيالي ولربما ببال من عاصري، بأنني سأظل حاضراً في المشهد الفكري العربي الإسلامي طيلة هذه القرون، عشرة قرون مررت والناس يبنشون في أفكاري وشخصي، دون أن يأخذ موتى سوى أنني لم أكن أنشد المجد كما فعل المتتبّي والموري، لدرجة أنني أضرمت جسدي، مع كتبي، إذ كان يقيني أنني جئت إلى هذه الدنيا في صمت، وسأرحل عنها في النار في هكذا تعمّدت العيش في الظل، دون أن أسعى إلى سلطان أو مجد، أيكون صمت، تمرّدت على صخب الدهماء وعلى الأصوات النشار؟ سأتعرّفُ الحقيقة مادمتُ لأنني قد عدت إلى الدنيا، لكنني إلى حد هذه الساعة ما أعلمه يقيناً هو أنني في حياتي قد هذه الأولى تلك، لم أكن أعيّر ذاتي أي اهتمام، ففي إحرافي لكتبي كنت أحرق ذاتي، والقناعة الذات التي لم تر إلا العثرات بعد العثرات، وإلا الاستئناس بالوحشة بالوحدة.

(15)

انتشلني شكري من ذهولي الداخلي صارخاً:

— أنت غائب عنّا يا أبا علي، لا تشاركنا الشراب ولا الكلام، ولا حتى الاستماع

— معدرة، فقد كنت شارداً في هموم الدنيا، إنما صدقوني بأنني أريد أن أستقيد. فعمَّ تتحدثون؟

أجاب عبد اللطيف:

— مازلنا ننبش حياة أبي حيان الذي قهر اغترابه بلجوئه إلى مرساة الإيمان، محاولاً التصالح مع ذاته. فما قولك وأنت من بلد أبي حيان؟

دققت النظر في وجوههم جميعاً، وأنا اعتزم دحض ما أجمعوا عليه، فقلت لهم غربياً عن — لم يلجا أبو حيان إلى الإيمان لقهر اغترابه ومصالحة ذاته، فهو لم يكن وانتهى مسلماً ذاته حتى يصالحها، بل كان متوحداً معها، فقد نشأ مسلماً مؤمناً،

نقضه، كحال الملاحة مؤمناً. إن اللجوء إلى الشيء لا يكون إلا من خارجه أو من بالله، وأبو حيان لم يكن ملحداً، حين يهربون من القلق إلى الثبات، أي إلى الإيمان تقدم به العمر وخبر الحياة، إلى إيمان فإذا كان قد انتقل من إيمان ضعيف، بعد أن مؤلفاته "الإشارات الإلهية"، فإن ذلك ليس هروباً أقوى، وهو ما أوضح عنه في آخر جديداً للإيمان، فأحرى أن يكون انتحاراً، كما زعم فيلسوفكم ولا لجوءاً ولا اكتشافاً كمْ أو كِمْ كَمْ، لا أذكر اسمه، ولعله مات منتحرًا النصراني كَمْ.

فأسرع عبد القادر يقول:

— أَلْبَرْ كَامِي، لَا نَقْلَ لَنَا يَا أَبَا عَلَيْ إِنَّكَ لَا تَعْرِفُهُ، فَهُوَ كَمَا تَقُولُ، قَدْ مَاتَ مَنْتَحِرًا يَقِينًا

فتدخل شكري وسائلني:

وما قولك في اغتراب أبي حيان؟

إيمانه — الرجل في مسير حياته كلها لازمه إحساسه الشديد بالغربة، مثثما لازمه كان مسلماً قوياً متمنكاً الشديد بالله، ولا تناقض بينهما، ذلك أنه لم يكن مسلماً عادياً، بل الاكتفاء بالحج العقلي إذا ضاق "من كل علوم عصره، لدرجة أنه ألف كتاباً أسماه المجالس العلمية بين مؤيد ورافض الفضاء عن الحج الشرعي"، فأحدث بلبلة في فوق فرائض السنة، وهي أفكار ومتعدد، وذهب في قوله إلى أن أعمال القلوب ببراهينه وحججه، أما ظاهرة اغترابه، جريئة لا يستطيع تناولها إلا مسلم عالم، قوي اتسم به عصره؟ فلا يمكن فصلها عن عصره، أتعلمون بما صمت الجميع متظراً ما قد أضيفه، فتابعت حديثي:

— في عصر التوحيد، عانى أهل الفكر والعلم من الإحساس الشديد بالعجز التوحيدى عن والإهمال والفاقة، تولى جلهم أ عملاً وضيعة لسد رمقهم، فجاء ما كتبه القمة ثقافياً الاغتراب، صدى يمثل روح ذلك العصر، وبإيجاز كان عصر التوحيدى وـالهاوية سياسياً.

وفيلسوفاً، في الحقيقة، كان بودي أن أعرف موقفكم من آراء أبي حيان مفكراً وأديباً وليس مغترباً فحسب، وكان الرجل ما عرف في حياته سوى الغربية

حرك عبد اللطيف رأسه بين الموافق والمتردد، فأشرت له بيدى أن يقول ما لديه، فقال:

— لاشك أن رجحان صفة الفيلسوف كانت غالبة عليه، وهي التي أبرزت بطريقة
بالاغتراب، لافتة ظاهرة الاغتراب لديه، ذلك أن الفلسفة في جوهرها، ترتبط أساساً
إلا إذا وقع بل هي نتاجه. ومن ثمة، فإن أي حديث عن فكر أبي حيان، لا يتسق
كتاباته، ولعله لهذا السبب التطرق إلى اغترابه الوجودي الفلسفى الذي تثوى خلفه كل
الفلسفه الكبار، فالإبداع الفلسفى كان يكثر من العزلة والوحدة، شأنه شأن غيره من
الفيلسوف والواقع هو نتاج موقف عزلة، نتاج مسافة بين

لم أطق صبراً، فقاطعته مضطراً

الفيلسوف — يا سيدى عبد اللطيف، ما كانت الفلسفة نتاج عزلة، ولا نتاج مسافة بين
في برجه العاجي، والواقع، وكأنك تريد أن تقول إنَّ الفيلسوف هو ذلك الرجل القابع
يتأمل الحياة من بعيد.

بل كانت **لِبْقَ** عند أبي حيان، فهذا الفيلسوف الأديب، لم تكن عزلته مادية واقعية،
داخله، يعبر عن عزلة نفسية سامية داخل دائرة الواقع، أي أنه كان يتأمل الواقع من
بعارة أدق، كان يمارس تجاربه الحية، وعن أحواله النفسية كما هي في صيرورتها،
التفلسف بوصفه تجربة معيشة.

حيان اسمحوا لي، لا أريد أن أطيل عليكم، لكن، ألا ترون معى أن ما وصلنا عن أبي
تعرفون أحداً لا يتعدى بعض مؤلفاته؟ إينى أتسائل، وأسائلكم في الوقت ذاته، إن كنتم
ترجم له أو أدمج حياته في كتاب أو رواية، أريد أن أعرف منكم؟
برد عبد اللطيف

فقيه — حديثك أستاذى أبا علي مقنع جداً، فقد جعلتنا نحس بأننا تلاميذ في حضرة
فإن جميع متمكن، وكما في علمك، فإن الكتابة عنه جاءت بعد أن تلاشت آثاره، لذلك
فلا أحد أكد ما قيل عن حياته متضارب، يقوم على الاستنتاج والترجيح والتخمين،
أم جار عليه يقيناً حياته البيولوجية، كأن يكون من أصل عربي أو فارسي، تزوج
يؤكد أنه لم يكن حب امرأة، فكره الزواج، إنه نفسه أهمل الحديث عن ذاته، مما
آخر على إحساسه بلا يطمح فيبقاء أعماله بعد مماته. وما إحراق كتبه إلا تأكيد
جدوى الطموح.

فتدخل عبد القادر مضيفاً

— إن الإحساس بالإحباط يقتل الطموح فعلاً، وقد عرف عن أبي حيان، أنه عاش

حياة الإحباط واليأس والاغتراب.

— حافظ، حافظ، قنينة أخرى مع كأس ويسيكي مضاعف

قال شكري، والتفت نحوه

— بالله عليك، يا أبا علي، شاركتنا يا أخي كأس شراب، إنه لديكم في العراق من عصير التمر، ولدينا هنا من عصير الكرم، وشنان بين مذاق التمر ومذاق العنبر، من أكرر عليك للمرة الضائعة في العد، أننا في جلسة خاصة لا يشاركتنا فيها أحد العامة.

— صمت قليلاً وأضاف

— من تقاليدنا في المغرب، أن لا يردد الضيف هدية مضيفه

لم أعرف كيف باعثني الضحك، ولا كيف حرّكت رأسي رافضاً

فوضع الكأس أمامه، وقال بخيبة فضحتها حنجرته

— ما شئت لا ما شاء شكري

ظل شكري في ذروة حبوره، إذ أخذ يضرب بشدة على ظهر عبد القادر، مفجراً صبيانياً، إلى أن منعه الرجل من مواصلة ضربه، فتناول كأس مدامه، ورشفه فرحاً جرعة طويلة، ثم أعاد قدحه إلى مائته وخطاب صديقه في:
أستسمح أبا علي إن أنا أفشلت سراً خطيراً مدحشاً

أفزعني قوله، هذا رجل أحمق، بعد أن لعبت تعاوين الكؤوس برأسه، سيقدم على فضح سري لأصير من جديد موضوع تساؤلات، أنا في غنى عنها، قلت في نفسي لكنه أشار بيده يطمئنني، وقال:

— هناك مخطوط أثري فريد، عبارة عن سيرة ذاتية كتبها أبو حيان التوحيدى قيد حياته، عثر عليه مؤخراً في بغداد، وقد شاعت الظروف أن يطلع عليه صديقنا أبو الشاكرين على، فإذا رأى أننا أهل لسماع شذرات من هذا المخطوط، فسنكون له من ملأ ثلاثة أقداح لصديقه ولنفسه، وصمت ينتظر ردي

أثارت عيونهم جميعاً أسئلة خفية ظلت معلقة تستطلع حقيقة الخبر من كذبه

لم أعرف بماذا ابتليت، فالرجل بطريقه مواربة يريدى أن أتحدث عن نفسي، وكأنى أبو علي يتحدث عن أبي حيان

ياله من مأزق، إنَّ حياتي تخمني وحدى، ولا معنى لأنشر تفاصيلها على آذان

أناس لا تربطني بهم سوى صلة مجلس شراب عابر
لكن شكري، وكأنه اكتشف ما يموج بداخل رأسي، قال
إنها من — حياة أبي حيّان، ليست ملكاً عينياً موقوفاً عليه، أو على ذويه أو بلده،
الشأن العام المشاع بين الناس، تراث إنساني مشترك بين جميع الأمم
كلام جديد، لكنه حق ومنطقي، رفعتُ كأس الماء وألقيتُ به في حلقي، وقلت لهم
— لا وجود لمخطوط أثري عن سيرة أبي حيان، لكنني أعلم عنه أشياء قد لا
تعرفونها أنتم.

(16)

وأقاً على رجليه، توقفت عن إتمام حديثي، بعد أن فاجأني محمد شكري بانتسابه
يشير تارة إلى معددين مرحباً بأمرأتين وفقطاً على رؤوسنا، وهو في حالة ارتباك،
لتشاركانا المائدة، وفي الآن فارغين، ويطلب منا تارة أخرى أن نسخ المجال لهما
اسم الآخر، دون أن يذكر وجه قرابته ذاته كان يسرد أسماء الجميع ليتعرف كل منا
بالمرأتين.

دون لعلهما زوجاه أو شقيقته! قلت في نفسي، وأنا أتحسر لمعرفة نوع هذه العلاقة، لفافتيمها بعد إرادتي، انقضت في مقعدي من هول ما شاهدت، وبعد أن أوقد لها رجلان لا يختلفان عن ثقاب، صب لهاما كأسين نبيذ، فتناولتاها، وتجربتها، وكأنهما أثاره هذا المشهد الرجال في شيء، لكن الأغرب من ذلك، أن لا أحد غيري إنهم جاريتان، قلت عنهما في داخلي، لكن شكري أبلغ السيدة السمراء، وتدعى صوفيا، بأنني أديب وفيلسوف من العراق، وقال لي عنها بالمقابل: إن السيدة صوفيا روانية باللغة الفرنسية.

حركت رأسي مبتسمًا، لكنني في الحقيقة لم أفهم شيئاً، إذ لم أقو على مزج امرأة! تعاقر الخمر جهراً، برواية للأحاديث الشريفة الذي قلب وبعد برها زمانية اهتديت إلى التسليم بالأمر الواقع متعللاً بالفارق الزمني أن أرى الشمس العالم رأساً على عقب، فبعد هذه المسافة الزمانية، لم يعد غريباً تسطع من مغيبها، وتغرب من حيث مشرقها جلست صامتاً مسكوناً بهوا جس ظلت تناوشني، فارتآيت أن أسلى نفسي بهذهين

الداكنة المخلوقين اللذين اقتحما مجلسنا في بطن الليل، استرقت النظر إلى المرأة مظهراً أيضاً، فقد السمرة المسمة صوفيا، إنها لا تتشبه بالرجال سلوكاً فحسب، بل عنادها لم تختلف قصت شعرها العاري، وتزيينت بقميص وسراويل ضيقة، حتى في إلا أنها تمادت في عن الرجال، فقد أمرها شكري أن لا تخلط أحاديثها بالفرنسية، نحو "ماريا"، غيها دون أن تعبا بأمره، ثم بطرف جفن استرقت نظرات أخرى اعتنثما تنورة قصيرة فراقتي أنوثتها، إذ كشفت عن ساقين ناعمتين بيضاوين، أرسلته وراء ظهرها، لو لم زاهية بلونها السماوي، بشرتها بيضاء وشعرها فاحم، سحر خاص بعينيها العسليتين، جعلني أكن متعلقاً "بنهاوند" لمنيتها زوجاً ثانية لي، اللحظة لم أكن أعلم بعد درجة قربتها من اتحاشى إطالة النظر إليها، فإلى تلك شكري.

كل شيء كان يطوقني بالدهشة والغرابة وبأسئلة كثيرة طرقت رأسي، فشغلتني دون أن أجد سانحة لأستفسر عنها.

تنتفخه كنت أبدو وكأنني أستمع إلى أحاديثهم، لكنني في الحقيقة كنت أستمع إلى ما مجلس نفسي من هواجس، تلك الهواجس المرتبطة بحضور المرأة الغريبتين في بينما وبينهما واحد معنا، فقد كانتا تتحدثان وتعاقران الشراب كالرجال تماماً، لا فرق إلا ما تميزتا به من نعومة البشرة.

صارت الجلسة تمنعني نشوة تذكر أحلام يقطنها الموغلة في أعماق التاريخ، وخطر لي أن أشاركم الحديث، فتوجهت بسؤالي إلى صوفيا
— سيدتي، من من الفقهاء تروين الأحاديث؟

حملقت في وجهي مستغربة، وكأنني فهت بكلام غامض، فأسرعت أعيد سؤالي مغایرة، وأنا إخال لهجتي قد عاقتها عن فهمي، والتبس الأمر على حين بصيغة رأسها يميناً وشمالاً، وأشرعت عينيها تأكيداً لعدم فهمها، لكنني لم أتخاذل، حركت توجهت إلى شكري، أستفسره بصرير العباره بل — ألم تقل عن السيدة صوفيا إنها راوية، أم تراني خانتي أذناي؟
— تأملني برهة، ثم أجابني مبتسمًا، وكأنه تدارك موقفه
— كنت أعني روائية لا راوية، و"روائي" كلمة حديثة يقصد بها من يقوم بكتابه نصوص حكائية من نسج الخيال.

ثم فجأة، افتعل نوبة من الصدح، وخطاب مرافقيه

— مزاح أبي علي لا يفهمه إلا خاصة الخاصة من الأدباء العراقيين، فقد أراد
بأسلوبه الماكر إصلاح خطأ وقعت فيه، إذ قلت عن صوفيا راوية عوض أن أقول
علي؟ روائية، لكنني نجحت في الرد عليه بأسلوبه الماكر ذاته، أليس كذلك يا أبي
حركت رأسها موافقاً وأنا أحس بهم يتৎفسون الصعداء، وأكثرهم صوفيا التي
سايرتهم في فهم ما لم تفهمه

لولا نباهة شكري وشطارته لافتضح أمري، قلت في نفسي، وقد تأكد لدى أن
أحاديث أكذوبته البيضاء قد انطلت عليهم جميعهم، ففكرت في أن لا أشار لهم بسوى
بسؤالها الذي عابر احتراساً من وقوعي في حفرٍ جديدة، لكن السيدة صوفيا أربكتني
فاجأتنى به

— كم لغة تتحدث يا مسيو علي؟

فأسرع شكري يشرح لي

— إن كلمة مسيو فرنسية، وتعني السيد
إلى أحكمت تسجيل الكلمة الجديدة في ذاكرتي، وأدرت سؤالها في رأسها، وأنا أنظر
أجبتها شكري، عله يسعفي بجواب يقيني زلة لسان جديدة. وبعد أن طال صمته،
ملِمْ — إضافة إلى لغتي العربية، أتحدث الفارسية والسيسانية والكردية. كما أنتّي
لغة تتحدين؟ بعض أسرار اللغة البيزنطية والمسمارية والبابلية، وأنت سيدتي، كم
فتدخل شكري يجيبني

— اللغة الفرنسية هي ورقة توتها الوحيدة، فهي غير متمكنة من صياغة جملة عربية
واحدة بطريقة سليمة

خلت أن كلام شكري سيغضبها، لو لم تضحك وتقول

— تلك حقيقة، وأنا سعيدة بها

شكري، ليستأثر أما عبد اللطيف وعبد القادر، فكلما هم أحدهما بفتح فيه، إلا وأسكنه
من موضوع إلى وحده بالحديث، ومثلاً تنتقل جراة من مكان إلى آخر، ظل ينتقل
آخر، معيناً غبطته بكلٍّ فكرة تصدر عنه، وسألني

— أتعرف معنى لاسم صوفيا؟

فعلاً لم أُعثر على تفسير له، فقلت

— لعله اسم مصدره الصوفية!

ضحك وهو يمسّد شعر المرأة، وكأنه سيمتدحها، وقال:

— اسم هجين، تذكر لأصله العربي "صفية" ليتشبه باسم لاتيني مسيحي، مثله مثل اسم ماريا، الذي هو "مريم" في أصله العربي.

(17)

رفع شكري قدحه وأمر الجميع بالصمت، وخطبني:

— سوف تصادف نماذج كثيرة من أمثل صوفيا وماريا، رجال ونساء يشترون في كونهم ضحايا، وإذا عرف السبب بطل العجب
— لم أفهم!

قلت له، فابتسم وتجرأ على تناول سيجارة من صندوق "صوفيا" المختلف عن صندوقه، وقال لي:

— المغرب، هذا البلد الأمين، ظل نصف قرن رازحاً تحت جميع أنواع الاحتلال إلى أن الفرنسي، لكنه لم يذعن، فثقافته، بالمفهوم الشامل، بقيت متراصدة ومستقرة، أُعطي استقلاله، وهنا بدأ العجب

ـ وقاطعه عبد الطيف

ـ لم أكن أعلم أنك محل سياسي، إن كلمة "أعطيه"، هي الكلمة الحق

ـ لست محللاً سياسياً. أنا أنقل الواقع، وأعرى الصحبة والجلاد، فأنا رجل مخضرم، عشت عديداً ونصفاً في ظل الاحتلال العسكري، وأزيد من أربعة عقود ظل الاحتلال الثقافي في

ـ وتدخل عبد القادر قائلاً

ـ أشاطرك الرأي، فقد خرج العسكري من الباب، وعادت ثقافته من النافذة، وهذا ما اتريد قوله؟ أملأ قدحي أيها العبرى

ـ لا، لن أ cocci أحداً قبل أن أنهى حديثي. ولعلمكم، عفواً، ولعلم صديقي وضيفي أبي علي، أعلن له، بأنني في مسيرة حياتي الطويلة العريضة، والتي كلما تقدمت عمرى، إلا وبدت لي قصيرة، أعلن عدم انتتمائى في السابق والحاضر لأية هيئة سياسية حزبية، وبأني أمقت الحزبيين، الشيوخ الكبار البهلوانيين، حروف الجر

وليس النكرات المجرورات، فهؤلاء اغتصبوا طفولتي وسرقوا كهولتي، ل تكون
النتيجة، أن صوفيا أصبحت سعيدة بجهلها تركيب جملة واحدة مفيدة بلغتها الأم،
هكذا يبطل العجب.

والآن، سأملأ أقداحكم لنشرب نخب مآسينا، لنشرب على شرف عظمة حروف
الجر، تلك التي انتصرت على إصابة المجرور بالكسر.

رفع الجميع كؤوسهم إلى السماء، فتساءلتُ عن السبيل لجعل هذه الجلسة تنصر أو
تمضي بسلام، فقد فسّدت أو كادت، فبسبب الكؤوس التي لعبت برأس شكري، لم
معنی لخطبته، ولا معنی لمجالستي شبانا صغاراً في مقام شراب، ولا معنی أحد
حريم غريب مشاع بيننا، ولا معنی لإرغامي على انتقال شخصية أديب لوجود
لا معنی لأن أظل كل هذا الوقت معلقاً فوق مقعد، وأننا المعتمد على عراقي، بل
البساط أو السجاد أو الأرض العارية، لا أن أسلق الكرسي وكأنني في افتراش
حاكم حضرة.

تملكني ضيق مشوب بحزن وأنا أتحسس نفوري من يحيطون بي، فكان علي أن
أصدقاء فاس، فهم أيضاً مغاربة، لكن الحال معهم كان مختلفاً، كان أستحضر
مجالس شراب، إنما تلك كانت قليلة ومحاطة بسرية تامة، تتخللها موسيقى لبعضهم
خالصة، عربية وأمازيغية ويهودية، كانوا يفترشون سجادةً يسمونه زربية، مغربية
مطرزاً بألوان زاهية، حيث تفرد كل شخص منهم وсадة مطرزة ليتكئ عليها
وتتوسط الجلسة مائدة خشبية ذات أرجل قصيرة يسمونها "طيفوراً"، توضع فوقها
قوارير من قش أو مرشات فضية يتقطبون بما بها من رحيق الورد أو الزهر، أو
غيرهما من أرقحة نباتات ذات روائح زكية.

واحد يدار لقد علقَ بذاكرتي من أشربthem "الصّامت" و "الماحية"، يحسونهما في قدر
عليهم بالتناوب فرداً فرداً، ويسمون القدح القشي "غرافاً".

هذه، ما أذن تلك القدحات، وما أدفعها! فمن كثرة انتشاري بها، ونفوري من قعدها
وبغداد، إلى يزداد يقيني بانتهائي إلى الماضي، إلى ذلك الجيل من أصدقاء فاس
ويحضر هنا، فإني زمانهم وثقافتهم. ولذلك، فلو أني الرجل نفسه الذي حضر هناك
والوجودانية في لست الشخص ذاته الحاضر هنا. أيكون الرجل هو حمولته النفسية
زمن واحد؟!

لعل مرد اشتداد غربتي إلى أني ابن ذلك الزمان الذي مرت عليه عشرة قرون. فلو إلى أن الأمر يتعلق بالمكان وحده، لخفت وطأة هذه الغربة، و لتقلّصت حدتها، ولو إلى نزد يُبقي لنفسي بريق أمل، ويُشيع فيها حلم عودتي إلى بيتي في الرصافة، خلاني في بغداد.

لكن، أمام هول ما أنا فيه، فلا أرى لي سوى مخرجين، كلاهما مرّ، تحمل أو جنونٌ
وأعادتني السيدة صوفيا إلى صخب الجلسة، بسؤالها الموجه إلينا جميعاً
— مارأيكم في تغيير هذا المكان؟

فأسرعت أجيبُها:

— أتمنى تغيير الزمان، لا المكان وحده!

ضحكوا جميعهم متوهمين بأنني أمزح، لكن محمد شكري فطن إلى قصدي، إذ
خاطبني وقد بدأ عليه وهن الشراب من خلال حجرته

— الزَّمان من أعقد قضايا الإنسان وأخطرها، وقد قام علماء، أكثرهم غربيون،
بتسويد آلاف الصفحات عنه، لكنه ظل لديهم بدون علاج، إشكال محير، يُصيب
بالجنون ولا يصاب، يَقْهُر ولا يُقْهَر

ووهمست إلى شكري ونحن نتهيأ لمغادرة المطعم

— لن أقوى على الذهاب إلى مكان آخر. أفضل العودة إلى إقامتي

— المكان الآخر نَادِ ليلي، به موسيقى وغناء وبنات ليل

— لا، لن أقوى

— لك ما أردت

أجابني شكري والتقت إلى مرافقيه يخبرهم برغبتي في العودة إلى فندقي، فمدوا
أيديهم لأودعهم واحداً واحداً، لكن صوفيا لم تكتف بمصافحتي، بل مالت نحو
الملاٍ وطبعت على وجهي قبلة، ثم تبعتها ماريا وفعلت الشيء نفسه، قبّلتاني أمام
 فمن كثرة وهمما تضحكان، دون أن تثيرا أي تساؤل أو تعليق من رفاقنا، أما أنا،
ذهولي أحست باحتقان الدم في شراييني

(18)

البيضاء، ظلت المرأتان في طريقنا إلى إقامة السراب، ونحن نمتطي صهوة السيارة

لكنه بجوابه المقتضب، تشغلان تفكيري، فطلبت من شكري أن يكشف لي سرهما،
أجابني بالحرف الواحد وكأنه يحتاج على طلبي، زادني غموضاً على غموض، إذ
— إنهم مجرد صديقتين لا أكثر!

أربكتني جوابه حد الفزع، لكنني دون إرادتي، انتزعت منه ضحكاً عالياً، حين
تساءلت بصوت مسموع:

— تتصادقان والرجال، دون أي اعتبار للشيطان؟
بوسأله:

— وما الذي يضحك في هذا؟

حاولت أن أرصد ملامحه من خلال ضوء متقطع ترسله أعمدة الإنارة، فاتضح لي
أنه يضحك في سره، وخطبني

الهجري، — حين أدركك الصباح يا أبا حيان، بعد نومتك الأندلسية في القرن الرابع
لم تقم وزنا كان العالم قد خطط إلى الأمام مسافة عشرة قرون، لكنك على ما يبدو،
المرأتين هذا لما استغرقته هذه المسافة من تغيرات، وإلا ما كنت لتسألني عن
السؤال، إنك تريد أن يتصرف الناس وفق منطق زمانك، هذا مستحيل

— أنا سألك عن حكاية المرأتين، وليس عن كيف يجب أن يتصرف الناس
قلت. ولذت بالصمت. بعد فترة زمنية، استعدبت التفكير في حركة السيارة التي
جعلتني أحس بما يشبه هدهة المهد، ولعلني غفت لحظات قبل أن أنتبه إلى أن
الرجل منشغل بشيء ما بين يديه، وحين أوقف سيجارته عرفت أنه كان يبحث في
محفظته عن صندوق سجائره، فتذكرت أن التدخين يساعد مزاجه على الروقان. إنه
بعد سيجارة واحدة سوف يبوح لي بأسرار المرأتين، وصدق حديسي، فقبل أن يأتي
على سجارتة الأولى، انفطرت حجرته تعلن استعداده للبوج
— لا شك أن سلوك صوفيا وماريا أوقعك في حيرة من أمرك؟
— إنه كذلك.

أسرعت أجيبه برنة من ينشد سماع المزيد.
فزاد:

— لا بأس، ولو أني سأعرض بإيجاز ما قد يتطلب مني ليلة كاملة من الشروح
كانت أعمدة الإنارة قد اختفت، فبدأ إلى جنبي شيئاً، لكنني من خلال هبوط حاد في

أنه ثمل نبرات حنجرته، أدركت

— إن تصرفات صوفيا وماريا في مطعم ريتز، مرتبطة برياح التغيير التي لم تشمل، أكرر للمرة الثانية أن العالم أثناء نومك العميق، شهد حروبًا وثورات الأندلس، واحتراكات واكتشافات، كظهور الطائرة والإلارنة وموانع الحمل واحتقاء وقيم جديدة وأشياء أخرى كثيرة ومتنوعة، فكان من الطبيعي أن تولد عادات جديدة ومفاهيم جديدة ورؤى جديدة.

لم أطق صبراً، وهو يكرر برتوب كلمات بعضها، وكأنه يخاطب الله أو شخصاً انبث من العصر الحجري، فقاطعته

— من يجهل تأثير الزمن في سلوك البشر؟ كل الحضارات منذ سومر وبابل وغيرها، كانت مصادر لعادات وقيم لم تكن موجودة، أو هي كانت والأندلس مخيلة الإنسان، إلى أن دعت الضرورة إليها، فتعرفناها. كل هذا أعرفه موجودة في لكن سؤالي الضيق اقتصر على حكاية المرأتين اللتين قبلتني أمام الملا في وأحقه، والرجال مطعم ريتز، وشاركتانا مجلس الشراب، وتقول إنهم صديقان لك، وكأنهما سواء بسواء، هذا تحديداً ما سألك عنه.

ما إن أتممت قولي، حتى توقفت بنا السيارة في وسط الطريق، فخاطبني شكري

— إننا بجانب القصر الأميركي، على مقربة من فندق السراب، وسأرافقك عبر الشاطئ إلى إقامتك، وإن اقتضى الحال، أتممت ما تبقى من الليل في ضيافتك. ترجلنا من السيارة، فطلب شكري من السائق أن ينصرف

كماله، واستقبلتنا رائحة البحر بهواء ينشع العظام، وارتفع في السماء بدر منير في كشف أديم صفحة البحر، ولمعان بياض أمواجه، مثلما كشف ملامحنا وتعثر خطواتنا فوق رمل رحب استدار حولنا، فصرخت بأن البحر أشد مخلوقات الله وسحراً. انحرفنا يميناً فامتدت أعمدة الإلارنة خطأً واحداً مسرعاً من حدائق روعة المنزل الأميركي إلى فندق السراب، لكنها بدت أمام شعاع البدر قناديل باهتة محضرة، فانتسلني شكري من هيامي، وقال لي

— نظريتك القائلة إنَّ الاختراكات تمام في ذهن الإنسان، أعجبتني

— أخبرني أولاً بحال المرأتين

قاطعته في عجلة من أمري، وأمسكت بذراعه أحثه على الابتعاد عن حدائق القصر،

ـ والاقتراب من الشاطئ، فضحك وأشعل سيجارة أخرى، وقال لي عن ـ أجل أجل، أعرف أنك مفتون بالبحر، لِذَنْ منه إذن، إنما قبل أن أحذثك السيدتين دعني أصارحك بأن مقدمتي عن التغيير الذي أصاب سلوك البشر كان مصدرها اقتناعي بجهالك للمرأة، وبصفة خاصة نساء هذا العصر، فقد عرف عنك مخالطتك للنساء، وباستثناء ما سمعته منك في المحكمة عن علاقتك بالجارية عدم السيدة نهاوند، فإن جل الباحثين في سيرتك أجمعوا على خلو حياتك من المرأة، ولذلك سقت تلك المقدمة.

ـ قهقهت وهرولت حاولاً الابتعاد عن موجة اكتسحت الشاطئ، فغمرتني لأغوص بركة ماء بارد بلغ ركبتي، وحين التفت إليه، وجدته مُقوسَ الظهر من شدة وسط الضحك، وقد تراجع إلى الخلف ركضاً في رشاشة نورس حقيقي، واستمر في الموجة تناسب بين قدمي، عائداً إلى البحر بعد أن أنهت مهمتها ضحكه ـ أنت ابن الصحراء، وأنا ابن البحر، وإن كنت عرفت أن تتجو من البلل، عليك بانتزاع حذائك وحمله في يدك. فهو حذاء جميل.

ـ قال وهو يقهق بصوت مرتفع

ـ أنا أيضاً غمرتني نشوة فرح طفولي، فأجبته دون أن أكف عن ضحكي ـ أخر بانتهائي إلى الصحراء، مثلاً أخر بأني ابن بغداد، أكبر حاضرة في الخلافة الإسلامية، لكنني عشت كذلك في مدن ساحلية، في البصرة وفي المحمّرة شواطئكم. الفارسية. إلا أن أمواج شواطئنا أكثر رقةً ونعومةً وانسياباً من أمواج المهمشين، أخبرك بهذا لتضيفه إلى معلوماتك الناقصة. ألم تقل إنك أرخت لحياة هامشياً لتورّخ أيضاً لحياة الهمشيين، أو بالأحرى لمن صار في زمانك ـ وأنت أيضاً أباً حيان، لتصرف إلى معلوماتك، بأن أسوأ ريح تهب على طنجة الغربي، وهي "نسميتها الشرقي"، بينما نسمي الريح التي يحملها إلينا بحر الظلمات تسريل مشاعرنا بالنعومة والانتشار.

ـ بدون أن يتوقف عن ضحكه، أضاف

ـ نحن معاً معلوماتنا ناقصة، إنك محظوظ يا صاحبي، فهذا النسيم الذي يلحف وجوهنا هو ما نسميه "الغربي"، أما ريح "الشرقي"، فإنك لا تقوى على مقاومته إز عاجه لحظة واحدة.

(19)

ومشينا دون أن أخلع أشرت له بيدي أن نستأنف مسيرنا بمحاذة الشاطئ، فاستجاب، ورفعت رأسي إلى فندق حذائي المبتلى وأمسك به في يدي، وكأني لا أملك سواه، البحر، ولمعت في ذهني السراب أمازي، وقد بدا بأضوائه المرتعشة مارداً يحرس بيده صخب الموج قوله عن جهلي بالمرأة، فأرددت بصوت عال حتى لا تعرّفت نساء كثيرات عربيات وفارسيات،ولي فؤاد خفيف وهام وعشق، وذاق الغرام وهدة الوجد والبعد، هذا البحر أحضر لي تفاصيل من حياتي كانت في طعم طي العدم، كنت في حوالي العشرين من عمري، غض الإهاب، حين همت بأول فارسية صبية.

— ياسلام! ماذا كان اسمها؟

سؤال شكري، وأرخي أذنيه لسماعي، وفي عجلة من أمري، وكأني أمحن ذاكرتي في لأتعرف ما قد تستعيده من تفاصيل تلك الأيام البعيدة المنسية، أو لربما كنت حاجة إلى البوح، قلت:

— كان اسمها شهربان، ومعناه بالعربية نور القمر

— يا سلام!

صرخ شكري، ورفع نظره صوب القمر، فأسرعت أقول له:

— من أجل ماذا تتمثل بين الحين والآخر بكلمة ياسلام، ماذا تعني بذلك؟

— ألا ترددون هذه الكلمة في العراق؟ إنها تقال في كل البلاد العربية، وتغدو التعبير عن الإعجاب أو الإبهار.

تواعدنا — ما علينا، قد تكون الكلمة من التعبير المحدثة. بيت القصيد أذني وشهربان في الجبل، أو أن نظل على وفائنا إلى أن نتزوج، كنا نلقي خلسة عند غبش الفجر صارت شهربان دنياي بعد أن يرخي الليل سدوله على المنحدر أو الشاطئ، وبعد أن عكرت صفونا أو ومناي. ولعلني كنت قد صرت دنياها ومناها، دون شائبة ليل حالك الظلام، خصومة أفسدت هوانا، اختفت مرة واحدة متلماً يختفي القمر في أمرين، إما أن فرحت أبحث عنها دون كل ولا ملل، حتى غالب على ظني أحد الكهول من آيات الله، السماء رفعتها، وإما أن الأرض ابنتعها، إلى أن بلغني أن قُم، وأنترك لك تخيل ما ضمها إلى حريمه زوجاً رابعاً، وهاجر بها إلى مدينة

أصابني من غم، وما لحق بي من كدر وتعاسة

— ألم ترتبط بعدها شهربان بامرأة أخرى؟

— أبداً لقد صار النحس يلاحقني، ليظل الفشل حليفي، نحن مسironون ياشكري بالله لامخِرُون. فكل شيء مخطط له في لوح محفوظ بمشيئة الله، قبل أن نولد، ثم حقيقتي عليك، كيف تسائلني إن كنت قد ارتبطت بامرأة أخرى، وأنا أحدثك عن حبّ كنت أكتنّه لشهر بان؟

— أقصد بعد زواجها من غيرك. وبعد مرور الزمن، ألم تفكر في الزواج؟

على — "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، صدق الله العظيم، أذكر أنني كدت أقدم تخطيط الزواج مرتين، في المرة الأولى بمدينة شيراز الفارسية نفسها، وكانت قد يلتهم. الأربعين من عمري، كان الجرح الذي تركته شهربان في فؤادي قد أخذ فارسي كنت الحقيقة التي لم أفك في امرأة أخرى، لكن الواقعية بدأت على يد صبي شهون بيتي، كان أعلمها مهنة الوراقه، وأفقهه في علوم اللغة العربية، مقابل توليه النزق، أخبرني ذات نجيباً مریداً ودوداً، تلك حكاية أخرى. الشاهد أن هذا الصبي ريعان شبابها، وكرر على يوم أن أرملة من جيرانه توفى عنها بعلها، وتركها في وصف مفاتنها وخصالها، مسمعي الخبر مرات، دون أن يكف عن الثناء عليها، ظنته مُرسلاً من قبلها، ورشحها زوجاً لي، مما جعلني أشك في أمرها وأمره، إذ عليها، وحين استدرجها لزيارتني بوصفي فاشترطت مشاهدتها قبل أن أفك في العقد فاستفسرت عن أصلها وفصليها، وقررت أن عالماً صوفياً، وجذتها مليحة ناعمة، الله (ص): "اختاروا لِنُطْفَكُمْ فَإِنَّ الْعُرْقَ أَرْفَهَا إِلَى نَفْسِي مُسْتَنْدًا إِلَى حَدِيثِ رَسُولِ عَلَى عِلْمٍ مُسْبَقٍ بِصَلَاحِ أَشْقَائِهَا، وَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ أَسْرَعْتُ دَسَّاسًا"، ذلك أنني كنت الكارثة بخطبتيها قيل أن تحل

أخذ شكري نفسا عميقا . واستوقفني ممسكا بذراعي ، وسألني

— آیہ کارثہ؟ اُتزو جھا غیرک؟

— لیت غیری تروجها، فقد حدث ما هو أفعع من ذلك، ترددت على بيتي بضع
وتواعدنا على الزواج، ولأنی لم أکن أتوافر على ما أرتديه من لباس لائق مرات،
وشملة، ثم من مقامي أثناء الخطبة، انشغلت بحیاکة وخیاطة تکة وغلالۃ وبقیرير يرفع
ابتعت نعلین على کوفية وعمامة في بیاض اللّین الحلیب، دون أن أھمل قدمی، إذ

مقاسي.

بأنها في خضم انشغاله هذا، قام أحد الوشاة لعنة الله عليه— فأبلغ أحد أشقائهما أن تزورني خلسة في منزلي، فما كان من هذا الشقيق، صوناً لعرض عائلته، إلا بئر انقضَّ عليها كحيوان شرس، وبعد أن سفك دمها، ألقى بجسدها الغضَّ في جوف على مشارف المدينة.

أمسك شكري رأسه بكلتا يديه، وصرخ:

— يا للكارثة. إنها حقاً مأساة! ماذا فعلت بعد ذلك؟

ووثقى — لم أكن على علم بما حدث، إلا بعد أن زرت والدتها، وأنا في أوج تألقي إلا من نفسي، فقد جلست إلى الرجل معرفاً بشخصي في ارتباك وحبور لا يدركه منزلها كليم من أقدم على خطبة امرأة خفق قلبها لها، فأرادها حريثاً له. وغادرت الفؤاد، لأجهش بالبكاء، كامرأة ثكلت أعزَّ من تحب.

— وهل كان لا بد من ارتداء لباس أنيق كي تخطبها، مع أن علمك خير ما ترتديه؟
— إنها الأصول ياشكري، فلباسك يرفعك قبل جلوسك، وعلمك يرفعك بعد جلوسك.

(20)

حرك رأسه استحساناً لجملتي، وقال لي

سنين، — أسايرك الرأي، أنا والله متყق معك، فموضوع الأنقة دوّخني أنا أيضاً منذ برجل أنيق، ولا أرى بأساً في إخبارك بأن أقوى ما حفزني على الكتابة، هو إعجابي فضولي كان محل ترحيب واحترام من لدن زبناء مقهي كان يرتاده، ودفعني كتابياً، ما هذا الرجل، فقيل لي إنه كاتب. فقررت للتو أن أكون لاستفسر عنّي يكون تتجزأ، فالأنني في أخبرك به سبق وأن أعلنته في أحد كتبني جهراً، ذلك أن الأنقة لا كتاباته وثقافته، لا بد أن يكون أنيقاً في سلوكه ولباسه.

وأخذ يضحك بصوت مرتفع وكأن مساً قد أصابه

— ماذا يضحكك يا شكري. أجبني؟

توقف بعد أن ابتعد عن خطوتين، وهو يمسح عينيه من دموع الضحك، فقال لي — أضحك على ما سببته لي من تعasse، فقد جعلتني أتألم، وحين انتبهت، وجدت أن السيدة توفيت منذ قرون، أكثر من عشرة قرون، حتى لو كنت تزوجتها، أو عاشت

وقتنا مائة عام دون زواج، فقد كان عليها أن تكون في العدم. إنَّ الحزن عليها في هذا أمر مضحك، وإذا أردت الحقيقة، فإنني أضحك أيضاً من الفرح. من سعادة قصوى تغمرني.

— أية سعادة تقصد؟

لم يجبني، ألقى بين يدي بحقيبته، وجرى يواجه الأمواج إلى أن ولج البحر. لم أعرف بماذا ابتليت، هناك بكل تأكيد غاشيةٌ غشيتها، أو جنٌّ شقٌّ صدره فدفعه الانتحار، وتبعته يهدئي الهلع

— شكري شكري، لا تكن مجنوناً، ارجع ارجع

دون أن يتوقف صرافي، وقفَ الماء يعلو ركبتي، وداهمنتي موجة تكسرت فوق صدري، فكادت تلقي بي أرضاً لتجرفني إلى داخل البحر، فتراجعت إلى اليابسة، وأنا أشاهد شبحه يغوص ثم يطفو فوق الماء.

بعد برهة زمنية، وقد أوشك صبري على النفاد، خرج الرجل المجنون وهو يرتعش بالبرد. أنا أيضاً كانت ركبتي تصطكان من البرد أو الخوف، أو من هجمتها من معاً.

— لماذا بك يا شكري؟ لماذا ولجت البحر؟

لم يكف عن الضحك وهو يخلع سترته وقميصه، فخلعت أنا أيضاً سترتي نصف المبللة ووضعتها على كتفيه لتمنحه بعض الدفء.

— من شدة فرحي دخلت إلى البحر.

— عن أي فرح تتحدث يا هذا؟

وفي ذروة حبوره وضحكه، أضاف

— إنه التفرد بمعرفة أسرار أبي حيان، وعشقياته، وخيباته، ومنزلته الرفيعة في هذه الدنيا.

أزال حِذاءه، ورمى به بعيداً في جوف البحر، ثم كوم سترته وقميصه، ولوح بهما في البحر ذاته. وواصل حديثه متفلساً

— إن القدر الذي حرملك من الزواج، هو نفسه الذي أبقاك حياً لتنعم برغد العيش سيردينَ الحياة. القدر سيغويشك ما فاتك في زمانك ذاك البعيد. كل نساء العالم كالذباب. هل هناك التعرف إليك، سوف يجتمعن حولك كالنحل ويرتمنين على قدميك

أن تولد. كان عليك أن سعادة أكبر من هذه؟ إن هذا مسطرٌ في اللوح المحفوظ قبل إلّي. أنا لا أعرف كيف تعرفه بمجرد علمك بعودتك إلى الحياة، لكنك لم تتنبه سعادتنا، إنما قل لي، إنك لم نتخرج نحن البشر بمبررات لشقاينا، ولا نتخرج بها عن تحدثي بعد عن المرأة الثانية!

— أنت رجل أحمق، هيا بنا إلى الفندق قبل أن يزهد البرد أرواحنا

(21)

همست لشكري:

— إنني أحس بانجذاب نحوها، يخيل إلي أنها أصابت مني الفؤاد، ليس بقصائد الشعرية، إطلاقاً، وإنما بأطراها كامرأة

: انحنى على كتفي، وأحاط فاه براحتني يديه، كي لا يسمعه غيري، وأسرّ في أذني إنها حقاً جميلة، وشاعرة جيدة

. ابتسم وهو يعتدل فوق مقعده بجواري، وتابع انصاته لما تلقىه المرأة من شعر

— شاعرة ليست ولابد، لكن أنوثتها صارخة، قلت في نفسي

ظلت الأعناق مشرببة نحوها، إلى أن توقفت، فاهتزَ المكان بالتصفيق

رمقت شكري يتسلل وسط الحشد متدفعاً نحوها، وقد علق محفظته على كتفه، في حين كانت هي تنشر ابتسامتها على من أحاط بها من مریدين، أولئك الذين ما أن مقامه انتبهوا إلى قドوم شكري حتى أفسحوا له المجال ليصل إليها، مؤكدين بارتباكم الأثير لديهم

مستطيلة، بقيت في مكاني أرعى الوجوه والحركات، فدققتُ النظر في نوافذ كبيرة بصرى ذات زجاج سماوي، تتدلى على حواشيه ستائر زاهية الألوان، ثم انسحب إلى جدار، زين بصور لمناظر بهية، وآخر طرز بزخارف ونقوش ارتفعت إلى سقف الرّدهة، فتدلت ثريات ضخمة بمحابيح صغيرة نحيفة، صعب على عدّها

لا، ليس هذا فندقاً كما قال شكري، بل هو قصرٌ خليفيٌّ بحق

راقني أن أكون نكرة وسط هذا الحشد من الناس. فلا أحد تعرّفني أو انتبه إلى وجودي.

منها فكرت في القصائد الشعرية التي هزّت القاعة بالتصفيق، تلك التي لم ترقني

الشعر، قصيدة واحدة، ولا صدرٌ ولا عجزٌ. فقد كانت أقرب إلى الترسل منها إلى الإيقاعية، غاب عنها الوزن، وغابت الموسيقى، فافتقر البيت الشعري إلى وحنته التضمين، أو لعل شعراء وإلى استقلاله التام، وامتد إلى بيت لاحق، ربما هي تجهل عند الخليل هذا العصر تخلوا إرادياً عن نظام العروض كما كان.

تذكرت صديقي أبا نصر الجوهرى، ومطارحاتنا الفكرية المستفيضة عن مؤلفيه عروض الورقة" و "كتاب الصحاح المعروف"، فلو كان حاضراً واستمع إلى هذه" حل بكتابيه القصائد، لأقام الدنيا ولم يقعدها، كان لا يجامل أحداً في العلم. ترى ماذا أستفسر عن مصيرهما. فما دام التحفتين، أخذلا بعد وفاته أم أتفا واندثرا؟ لابد لي أن هو الآخر قد عامله الزمن برفق، أثري قد امتد إلى هذا القرن، فلم لا يكون أثره فأوصله إلى هذا الوقت.

مدت يدي رداً على تحية عبد اللطيف، وقد فاجأني مبتهجاً مخاطباً
— مرحبا بك أبا علي، أما زلت في طنجة يارجل؟
استولى على مقعد شكري بجواري، وجلس واضعاً رجلا فوق رجل، دون أن يكف الترحيب بشخصي، وإداء رغبته لجلة أخرى، كتلك التي ضمتنا في مطعم عن". انتقل لسؤالي عن مدى إعجابي بقصائد الشاعرة "إخلاص ريتز. ثم

قال عنها "إخلاص"، أحكمت حفظ اسمها في ذاكرتي، وحرّكت رأسي دون أن اتفّاظ بكلمة، فقد كانت تخطو في اتجاهنا

في الآن ذاته حدتُّ أن شكري قد حدثها عني، وإنما كانت لتقديمه في خط مستقيم نحوى

وقفتُ ومدّت لها يدي، فبادرتني بالقول
— أعتز بحضورك يا أبا علي، إن العراق موطن الشعر الحق
ثم التفت نحو شكري، وأنهت ما كانا يتحدثان بشأنه
— وهو كذلك، بعد ساعتين من الآن

أن سارت بنا السيارة عبر الطريق الشاطئي، كان البحر المتوسط عن يميننا، توّقعت تكون الشمس في هذه اللحظات قد جنحت إلى الغروب في الطرف الآخر من المدينة، حيث بحر الظلمات، تشرق من بحر وتغرب في بحر آخر، أسعدني تعرّفي قاله ثوابت طنجة، وانعرجت بنا السيارة لتوغل في بطن المدينة. أكد لي شكري ما

أمامنا لعبد اللطيف من أننا سنتعشى رفقة إخلاص بمطعم ريتز، وأخبرني بأن ساعتين كاملتين للفسحة.

كانت العتمة في بداية إطلالتها الأولى، فسطعت أنوار الطرق والمتجار مجلة على قارعة بانهزم النهار. بشر مثل تجمعات نمل فَرَّ من ثقب الأرض، وانتشر يدبُ الطريق. رجال ونسوة وفتیان وصبايا يتسلكون في أمن وسلام.

أخبرت شكري بأن حركة الرجال في العراق تتوقف عند صلاة المغرب، وقد تمتد في بيتهم إلى وقت صلاة العشاء.

ثم سأله

— أتوجد في عراق اليوم كهرباء، مثل هذه الموجودة في طنجة؟
وгин عاد لضحكه الساخرة، توقعت للتو ما سيقوله

— يكاد العالم اليوم يبدو كله متشابها

اليوم أسعدني جوابه، سرحت أتخيل ليالي بغداد، تلك الموجلة في الماضي، وحالها ربما فوق مؤوسنة بأصوات تسقط من نوافذ الدور ودكاكين التجار، وتلك المبثوثة صفحات حواشي الطريق، أو أركان الحارات. فكرت في زخم ما سودته يدي من لو بيضاء، مسترشداً بضوء شمعة بعد شمعة، أو بقديل هزيل يكاد يضيء نفسه بغداد اليوم كان لي مثل إنارة اليوم، لكنه قد ألهـت أضعافـ ما ألهـت من كتب. إنـ المتراءكة في مثل طنجة إذن، تمرق بها سيارات، وتضيئها كهرباء، ولعل الأتربة بعد أن عـبـدت كل مكان، وعواصف الغبار المنتشرة كالضباب، اختفت كلـها اليوم الشوارع سافرة الطرق وأضيئت، وتخـلـت المرأة عن الخمار والبرقع، وغدت تجوب الوجه، عارية الرأس، كحال شقيقتها في طنجة.

إلى عالم إذا كان الحال كذلك، فلا داعي لأن أعد نفسي منزوعاً من عالم ومقدوفاً بي العراق، يتعاملون آخر. الآن فقط أتأكد من أن المغاربة حين يتعرفونني أديباً وافداً من زمان معى كرجل انتقل من مكان إلى مكان، وليس من زمان إلى

حين نطق شكري جملته، انقضت في مقعدي وأنا أحسبه قدقرأ ما يموج في خاطري، إذ قال لي

— القادر من الزمان ليس كالقادم من المكان، شتان ما بينهما من بون

بعد ذلك انتبهت إلى أنه النقطة جملتي حين جهر بها لساني دون إرادتي، وأضاف

تافه — كل مخلوقات الله تaffer في المكان، من سلع وبضائع وأجساد آدمية. إنه سفر إحساسك ساذج، فالسفر في الزمان هو الإشكال الحق المثير، حبذا لو كشفت لي عن الحق بهذا الانتقال.

أجبته وكأني أحدث نفسي:

— الزمان المتعدد شرّ متعدد

فأسرع يقول في عجلة من أمره:

— أرجوك أبا حيـان، لا تُـعد قول هذه الكلمة، إني أخـشى عليك من نفسك

(22)

اعتدل في مقعده وأشعل سيجارته، وأضاف

— لكي يكون الرجل سوياً، عليه أن يتقبل واقعه، بعوانه وتقلباته، إن خيراً فمرحباً، وإن شراً فمرحباً أيضاً.

— قول جميل، لكنه يظل قوله على كل حال

— إنه عصارة تجربة قاسية، ففي شبابي الأول، تعرضت لهزة نفسية بسبب رفضي لواقعي، وكانت النتيجة أنني عثرت على نفسي مطوحًا بي فوق أحد أسرة مستشفى للأمراض العقلية في قرية مهجورة.

— تقول في شبابك الأول، ألك شباب ثان؟

أجابني بغضب حاد

— دعني يا أخي أنهى حديثي، لا تقاطعني، إنك لا تدرى إلى أين أريد الوصول، الثاني، ولأجـبـ أولاً عن سؤالك المقدم في حديثي، بأنـيـ أسمـيـ الكـهـولةـ بالـشـبابـ اـعـتـراـضـ؟ـ وـالـشـيخـوخـةـ بـالـشـبابـ التـالـيـ،ـ إنـ لـيـ مـسـمـيـاتـيـ الخـاصـةـ بيـ،ـ فـهـلـ لـدـيـكـ ضـحـكتـ وـأـنـاـ أـنـظـاهـرـ بـالـإـصـغـاءـ إـلـيـهـ،ـ فأـضـافـ

— مكثت بالمستشفى زهاء عامين، ولعلني اهتديت إلى علاج نفسي بنفسي، إذ أراوغ واقعي، أوهم نفسي بتقبلي، أخلق عوالم خاصة بي، وأسكبها في متون صرت سردية، وبعبارة أدق، صارت الكتابة مجلئي ودوائي، بعد ذلك تحولت لدي إلى احتجاج.

وكانه استدرك فكرة كادت تضيع، فأضاف

ليس هذا مهماً، ذلك أن ما كنت أهدف إليه، حين قلت لك بأنني أخشى عليك من نفسك، هو أن أخبرك بقصة أهل الكهف، وهي قصة لم تشغليني حين قرأتها لأول لكنني بعد تلك الليلة في شاطئ المحيط عادت تطرق رأسي و تستبد بتفكيري مرة،

— وهل لي علاقة بهذه القصة؟

أجل، لك علاقة بها، بل إنك أحد أبطالها الحقيقيين.

كان يتحدث بتقة وصدق بالغين، مما ولد في نفسي فزعاً لم أقو على إخفائه
بوسالته

— كيف ذلك؟

حكائي — القصة استوحاها صاحبها من آية قرآنية لا أحفظها، لكنه صاغها في قالب الكهوف شيق، وملخصها أن أربعة أشخاص وخامسهم كلبهم، لبوا نيااماً في أحد العالم قد تغير المهجورة، مدة ثلاثة عام أو أكثر، وحين استعادوا حياتهم، وجدوا استقبلوا بها كقديسين، عما كان عليه في زمانهم، وبالرغم من الحفاوة البالغة التي فرجعوا إلى الكهف، وقضوا فإن صدمة الزمان الجديد، كانت أقوى على نفوسهم، به

إن الآية القرآنية لا تتحدث عن وفاتهم، لكن الكاتب، ليكشف عن رؤيته لإشكال يفضلون الانتقال في الزمان، وليمض حكيته بعدها مأسوياً، جعل الرجال الأربع الموت على العيش في زمان غير زمانهم.

سكت ينتظر رد فعلي، لكنني لم أجبه، فقد سرحت أستحضر الآية القرآنية بكاملها: في ذهني، وأنا في أقصى وله من يُنزع منه اهتمامه ودهشه، ثم أضاف والرأي، — تلك وجهة نظر كاتب الرواية، وذاك رأيه، أما أنا فأخاله وجهة النظر لأيام أعيشها في بل إنني مستعد أن أتنازل عما تبقى من شبابي الثاني والثالث ثمناً أفتح عيني أجد نفسي زمان لاحق، أيام ملءَ جفوني عن شوارد هذه الحياة، وحين لأصحاب الكهف، في صحوة عصر آخر، مثلما حدث لك يا أبا حيان، ومثلما وقع الرواية تسميتهم، مارنوش ومشيلينيا ويفليخا والكلب قطمير. هكذا ارتأى صاحب العيش في زمان مثلما ارتأى أن يرفضوا العيش في غير زمانهم. أجل، قد أرفض ستكون عليه الدنيا ولو ولّى بعد أن تعرفت مستجدات هذا العصر، لكن، أن أرى ما ولعلك تقر بأن لكل منا تمنياته بعد قرن واحد، فذلك أحد تمنياتي المستحيلة،

بمقابلة "نهاوند"، أليس كذلك؟ المستحيلة، أو لنقل أحلام يقظته. إنك تحلم
— بكل تأكيد!

أجبته، فضحك، وأضاف بين الساخر والواثق مما يقول
— إنها أمنياتك المستحيلة.

إنها خفتُ أن يسخر مني لو صارحته بأنني أعيش لأفابلها، فلذتُ بالصمت، لكن قوله،
كأحد رجال أمنياتك المستحيلة، أربك مخي، حَدَّ أنني تمنيت لو كنت مخلوقاً وهمياً
فتأكد لي أهل الكهف الذين حدثي عنهم، واستحضرت الآية القرآنية مرة أخرى،
سيقولون ثلاثةٌ "حقيقة وجودهم، لكن الآية لم تحدد عددهم ولم تشر إلى هلاكهم
ويقولون سبعةٌ وثامنُهم رابعُهم كلُّهم، ويقولون خمسةٌ سادسُهم كلُّهم رجماً بالغيب،
صدق الله العظيم .". كلُّهم، قل ربِّي أعلم بعدهم ما يعلُّمُهم إلا قليل

لمعضلة أراحت الآية نفسِي، فشتّان ما بينها وبين شطحات كاتب الرواية، حقاً، إنها
ليس به أحباءٌ أن يجد المرء نفسه وبدون سابق إنذار، في عالم لم يتوقعه ولم يألفه،
أحياناً، لكن الحنين نفسه ولا خلان ولا أعداء. حتى الأعداء قد يحنّ الغريب إليهم
البعيد، فيحل اليأس بدلِه، وأيّ يتلاشى أمام الهوة الزمنية التي تفصلنا عن ماضينا
حنين يتبقى بعد موت الأمل؟

قد يحسب المرء باستحضاره مخلوقات تفصلها عنه قرون، أنه يحن إليها، لكنه في
حقيقة الأمر لا يحن إلا إلى نفسه من خلالها، هذه تجربة شخصية أعيشها، ثم
البعيد تذكرت "نهاوند" فسرت في بدني رعشة حنين إليها، مع أنها ابنة ذلك الزمان
عن ذاتي؟ الذي تفصلني عنه قرون. ولكن، هل سأحن إليها إن أنا فكرت فيها بمعرض
خفت أن يقطع شكري حل تفكيري، فتظاهرت بمشاهدة معالم المدينة من خلال نافذة
السيارة وهي تسير ببطء، لكنني لم أشاهد شيئاً، فقد بقيت مكتفيَا بما يستحضره
خيط ما ذهني. فكرت في حنيني إلى "نهاوند"، أهُوَ حنين صادق حقيقي، أم إن مرده
العراق باق، تبقى لي منأمل في لقياه؟ ذلك أنها باقية في مكان ما، مثل ما هو
يوجد في وشيراز وفاس، فعل السبب أن ما يوجد في المكان أبقى وأرسخ مما
الزمان.

الزمان إذن هو المعضلة، لكن ليس إلى حد تفضيل الموت على الحياة، كما جاء في
الجنة إلى رواية أهل الكهف المتخيلة، وإنما، لكن آدم قد انتحر حين انتقل من زمن

فهل زمن الأرض، ولكان الشيطان قد حذا حذوه. ولأظل في تجربتي الشخصية،
انتقلت من زمن إلى زمن سيجعلني أفضل الموت؟

كان على شكري أن يعيدي إلى واقعي العيني

— ألا ترید النزول، فقد وصلنا؟

لم أعرف كيف توقفت السيارة، ترجلت منها وأنا أحاول أن أبدو ثابتاً محافظاً على
همتي واتزانى، فأنا عالم منطقي.

كان الليل مسجّي يفوح فيه نسيم بحري عليل. بادرت شكري

— يسكنني صفاء ذهني خارق، إني لقادر في هذه اللحظة أن أكتب مؤلفاً كاماً

ولو ج — لكتبه بعد أن تعود إلى إقامتك، أما الآن فدعني أخبرك بأننا مقبلون على
تدبره "باراد"، أجمل مطعم وأروع حان في طنجة، إن لم أقل في المغرب كلها،
زمرة أصدقائها وارتنته "ليليان"، سيدة أمريكية مؤهلة لتكون بطلة لرواية باذخة، نحن
ندعوها "ليلي" تصغيراً وتجملاً.

دفع الباب بيده وفسح لي المجال لأنقذه. فوجئت بحديقة تظللها أشجار باسقة،
ويفرشها سجاد من عشب أخضر، وموائد بشرج قصيرة تضيء نفسها لا أكثر،
بألوان وعلى اليسار بعد صعود درجين، رصّت موائد أخرى، وطوار وأضواء تتلاألأ
مقدعاً قوس قزح، دعاني إلى حيث الطوار الخشبي الناعم، وطلب مني أن أعتني
للجلوس، بدون متوكِل الظهر، وتسلق آخر مثلي.

جاءت "ليلي" مبتسمة ضاحكة، مدت لي يدها فصافحتها، أما هو، فانحنى على
لا أصابعها يقبّلها بلطف مبالغ فيه، وكأنه ولدٌ مطيع، ودخل معها في حوار بلغت
أعرفه.

وبعد أن انسحبت قال لي:

رشاقتها — ليلي جاوزت العقد السادس، لكنها تبدو في شبابها الثاني، تحافظ على
خليلة لثري بالحركة وعزف البيانو ودرء كل ما قد يربك مزاجها. بدأت حياتها
الحياة، أمريكي، فانتهت علاقتها غير الشرعية بعلاقة شرعية، تزوجها وفارق
البقاء في طنجة فورثت عنه هذا المطعم وعقارات وأموالاً في أمريكا، لكنها فضلت

دونادي عليها يطلب شيئاً، فجاءته بكتاب أنيق، تناوله وقال لي

لفنانين، — إنه دفتر ضخم للذكرى أعدته "ليلي" لزوارها الكبار، توجد به رسومات

مرأوا بهذا المطعم، وكلمات لسينمائيين وكتاب وشخصيات من العيار الثقيل، جميعهم
لماذا لا تخط به أنت كذلك كلمات، وتوقعها باسمك الحقيقي؟
— وماذا عسانى أكتب؟

أخذ يضحك حتى كاد أن يسقط أرضاً، وطلب كأساً إضافية لنفسه، وقال دون أن
يُكَفِّ عن الضحك:

— أكتب يا أخي آية الكرسي.

— ولماذا آية الكرسي؟

أجابني وهو يواصل ضحكه:

— حتى تحبها الآية من كل سوء.

عرفت أنه يمزح، فضحك بدوره، وقلت:

— بما أنها ليست مسلمة، فسأدع أمر الكتابة لفقيه نصراوي، أو لمحمد إن كانت
ملحدة.

وضحكنا معاً.

أقرُّ بأنني أعجبت بتلقائية شكري، فهو يرفع الكلفة من أول لقاء، ويقحم الهرزل في
وقته المناسب متى أحس بر坨 الكلام الجاد.

و قبل أن يطول صمتنا، قال لي:

— لم أزر "اليلي" منذ أسبوع كامل، وقد اعتدت أن أمر بها آخر الليل لأنتناول آخر
كأس، أسميه عكاز الطريق.

(23)

إلى مطعم ريتز، أخرني شكري ونحن نهم بمغادرة مطعم باراد، بأننا سنذهب مشياً
وأنا إخال نفسي أسير حيث الأصدقاء في انتظارنا، هللت لهذا الخبر بفرح طفولي،
يطل، فما إن انحدرنا في الهويني مكتشفاً أرقعة وحواري مدينة طنجة. لكن فرحي لم
نصير، حتى وجدنا مطعم شارع ولی العهد، ثم عرجنا يساراً على شارع موسى بن
ريتز عن يميننا بالمرصاد.

قبل أن ندخل المطعم، همس لي شكري

— لا تلتقط خلفك، فحراسك على خطوات هنا!

— هم يعلمون إذن بمعاشرتك الخمر، وقد يبلغون عنك
سألته، فدعاني إلى الدخول، وقال لي بصوت خفيض
لا تكثر لذلك، فلن يجرؤ أحد منهم على حشر أنفه فيما لا يعنيه
لكن مزاجي تعكر.

كانت الجماعة جالسة حول مائدة عن يسار مدخل المطعم، في الركن الخاص
إخلاص وعبد اللطيف ورجلان لا أعرفهما، حاولت أن أدرأ عنِي الغمّ، بشكري،
بداخلي قول امرئ القيس: **اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ فرَدَّتْ**

ودعاني أسرع القيم على المطعم الشاب حافظ، يسعفنا بمائدة، فيما جرّ شكري مقعداً لتصبحاً واحدة إلى الجلوس، وجاء باخر لنفسه قبل أن ينهي حافظ ترتيب المائدين، ملأ شكري أقداحاً مستثنياً كأسى وكأس إخلاص وكأس عبد الإله، وعرفت أن الرجل أصغر الآخر اسمه حسن، دقيق الملامح، أبيض البشرة، نحيف، مستقيم الأنف، بدأ أعمارنا الحاضرين سناً، لكن عبد الإله هو الآخر أقرب إلى عمر حسن منه إلى سألني عبد اللطيف عن أحوال الحرب في العراق، فتصدى له شكري معلناً رفض سماع أخبار الحرب.

كانت إخلاص مجلس قبالي، أسعدي وجودها بيننا، كيف لا، وأنا الضمان لأنشي
تروي عجاف سنواتي الهاوية مني، لكن همتني وحبي جعلاني أتحاشى النظر إليها،
تحقيق بل تعمدتُ أن لا أجعل نظراتنا تتقابل، إنما رويداً رويداً، صرت أجرؤ على
السلطة، وإنما رغباتي الدفينة، وذلك باللتمع فيها، ليس بوقاحة حاشية الخلفاء ورجال
أو سانحة محمودة، بوقار العلماء وعفّتهم حين يسترقون النظر كلما وجدوا غفلة،
له في مخيلتي ما هكذا كنت، أخترل في نظرة عابرة، ما يقع عليه بصري، فأفرد
تصبو إليه نفسي.

المرأة شابة، ذات بياض ناصع، يميل إلى شقرة في لون سماء الغروب، كل شيء تتطق به، فيها يشدك إليها، ما ظهر بداخلها وما خفي، فهي تتجمّل في القليل مما وإنما تنظم تتنقي كلماتها وتصوغها في تعابير مستحدثة جميلة، وكأنها لا تتحدث، بنثراً فنياً

كيف السبيل لأن أضمها إلى متاعي زوجاً على سنة المصطفى، لكن من أين لي بدت بهمتها وكبرياتها وأنفها القصير أميرة بيزنطية بحق

بعلاً لها؟ بمهرها؟ أقبل معاي و وزير العدل بأداء قيمة الصداق؟ و قبل ذلك، أتقلاني أزلتها، فكرت في شخصي، وفي عامتني التي تخليت عنها، وفي لحيتي التي شبابي و شكرت لهؤلاء المغاربة بدعهم، بفضلهم انتقص عمري ضعفه، لأصير في الثاني، كما يقول شكري!

غابت عني مواضع أحاديثهم، لكن بعد أن أخرج عبد الإله من محفظته ورقة وأخذ يقرأ مابها، ركّزْتُ انتباهي لسماعه

سماويٌّ / يُرَطِّبُ / أنا المصنُوعُ / من تَبْغِي الرَّخِيصِ / وَقَهْوَتِي الْمُرَّةُ / وَمِنْ مَاءِ
نَفْسَهَا / الشَّهْرَةُ صَرْخَتِي الْحُرَّةُ / وَلَا أَحْتَاجُ مَقْبَرَةً / تُسَمِّي

ما إن توقف، حتى ارتفعت حناجرهم إعجاباً، وكأن ما استمعوا له يعد شعراً خالصاً استرققت أذني حديث عبد اللطيف حين سأله إن كانت القصيدة لأخلاق، فأخبره بأنها لشاعر مشرقي لا يقل سموقاً عن إخلاص.

مشرق يقولون عن هذا الكلام إنه سموقٌ شعريٌّ، وينسبونه إلى المشرق، هل هناك سيطوله عربي آخر لا أعرفه؟! ركتبي الحيرة، فما كنت أظن أن ديوان العرب والتتبؤ التغيير هو أيضاً، فيقع التخلّي عن خاصية الشعر الرائعة، وعن الحكم العروض، والتأمل وكشف أسرار الحياة، وعن مراعاة الوزن والقافية وقواعد ووجدت نفسي أسأل عبد الإله

— هل ما قرأته يصنف ضمن الشعر العربي؟

استقبل سؤالي بامتعاض، وكأني ألمته حنظلاً، ثم نظر إلى عبد اللطيف وإلى إخلاص، نظرة من يستشهد بأحدهما، وأجابني بكل وثوق

— إن ما أنشدته يُعدُّ من أجود الشعر العربي!

إن الانسحاب من مجلسهم أخف على نفسي من سماع هذه الترهات، فقد صدمني في الوهلة ذاتها، انتبهت إلى شكري الذي أشار علي بالصبر، من أين لي جوابه بالصبر وكلامهم مطرقة تدق رأسي. فكرت في أن أدلّي بوجهة نظرى، لكن الشك حاصرني، إذ خفت أن يكون عامل الزمن قد وجّه الشعر وجهة أخرى تغيب عنى، فيبدو حديثي في نظرهم على قدر كبير من السخف. لكن بالرغم من ذلك، لم أقو على الصبر، فقررت مجابتهم باحتراس، كأن أستدرجهم إلى أن أقف على ما أمسى عليه الشعر في زمانهم، ووجهت سؤالي إلى عبد اللطيف

— هل تذكرني بما طرأ على الشعر العربي حتى أصبح على ما هو عليه في وقتنا هذا؟

جميعاً، كنت أظن أن عبد اللطيف وحده استمع إلى سؤالي، فتبين لي أن الأمر يعنيهم إذ لا زوا بالصمت، وظلوا في حالة ترقب لما سيجيب به الرجل مصطلح — أنت تعلم يا أبا علي بأن إخواننا في العراق، كانوا سباقين إلى إطلاق القافية. الشعر الحر، أي تحرر الشعر من القيود القديمة كنظام الشطرين والوزن الواقع، ومن غير وقد وفّقاً في هذه الريادة، ذلك أن للشعر قيمة علياً ترتفع عن تحول. إن كل تجربة المعقول أن يظل حبيس ستة عشر بحراً، مكرراً نفسه، دون أي من بحور الشعر، لذلك كان إنسانية، بما تحمله من آمال ومعاناة وألام، تمثل بحراً عليه أن ينفتح على جميع بحور الحياة.

برشف من كأسه وأضاف:

فثمة الشعر. — إن الشاعرية موجودة حتى في النثر، فainما وجد الإيقاع في الكتابة ترى معي أنها مرهقة، فلماذا نقده بالبحور! ولنأخذ على سبيل المثال القافية. ألا والانفعال وغيرهما؟ تجعل الشاعر يضيع في البحث عنها على حساب المعنى هو يتحدث وأنا أعن في سرّي بني قومي العراقيين، مبدعي مصطلح الشعر الحر، الاجتماعية، ليتهم كانوا قد سخروا طاقاتهم لمحاربة الطغيان والاستبداد والفوارق وتركوا الشعر لشأنه.

الشعر وتندرت ما قالته إخلاص في أول لقاء بها هذا العشي، من أن العراق بلد أسألها الحق، فأي شعر حق كانت تقصد، القديم أم هذا الحر؟ ووجدت نفسي

— سيدتي إخلاص، أتفقين مع ما ذهب إليه عبد اللطيف؟

رسمت على محياتها ابتسامة خجل، وصمنت للحظة كأنها تدعو الحضور لسماعها، أو لعلها كانت ترتّب أفكارها، وقالت

والإنجاب، — تلك حقيقة، فمثلاً تحررت المرأة من وظائفها القديمة، كخدمة الرجل والقافية، فقد كذلك تحرر الشعر الحديث من وظائفه القديمة، ومن العمود والوزن فاقترب بذلك من الشعر تخلّي الشاعر المعاصر عن العمامة والعقال وركوب الفرس، السيارة والطائرة. لقد أصبح العالمي، وصار يرتدي البذلة وربطة العنق، ويركب ذلك أن الحضارة المدنية الصناعية. يكتشف الآفاق، ولم يعد مجرد معبر، وإنما خالق

حلَّت محلُ الحضارة الزراعية الرتيبة.

كنت أحس بكل كلمة تصدر عنها خنجرًا يُغرس في صدري. فلو كانت تعاقر الخمر يصدر لحسبت كلامها هذياناً، لكنها وهي تتحدى بثبات الرجل الفحل، المُقدَّر لما في الأدب، عنه، جعلتني أرتتاب في الأمر، ربما لم يعد الشعر يحتلُّ مكان الصدارة طيلة كعهدي به في زمانِي، قلت في نفسي. وتذكرت كيف أن الأدب ظل منظوماً الأدب، لكن ذلك التاريخ، إلى نهاية القرن الثاني، ليستقلُّ الشعر بنفسه معتلياً صدارته أعلن عنه بشار حدث منذ اثنى عشر قرناً. ثم تذكرت مصطلح الشعر المحدث الذي إنه زمنٌ طويل، كافٍ! بن برد وأبو نواس وأبو تمام في أيامِي البغدادية، يا إلهي بحوره لظهورِ الشعر الحر وغيره، إنما ليس إلى حد التخلٰ عن

مناقشتهم في لمح البصر، تناسلت هذه الأفكار في ذهني، لأزداد افتئاعاً بعدم جدواً سيفظلُّ الشعر ذو في أمور استحدثت في غيابي، ذاك دينُهم وهذا ديني. لكن، والخلق، والأوْفَى الأوزان الشطرية، في ملتي واعتقادي، هو الشعر الحق الأبلغ في وربطات أعناقها في التعبير عن حياتهم الجديدة نفسها، بسياراتها وطائراتها: وانتشلني شكري من حواري مع نفسي، ليُرفع الغم عن صدري بقوله: — الشعر الحر صرعة عصرية عابرة لن تطول

والتفت نحوِي مبتسماً وكأنه ينبهني إلى عدم تسليمي بآرائهم، وبعد أن أوقد لفافته، تابع قوله:

دائم — جمهور تيار الشعر الحر قليل جداً، مقارنة بعشاق الشعر القديم، لذلك فأنا التساؤل عما سيكون عليه حال الأغنية إن فقدت القصيدة وزنها وقافيتها

سكت وظل محدقاً في شخصي، فوصلت إلى رسالته البليغة الصامتة، لتغموري عارمة، زادت نفسي حباً وتقرباً من هذا الصديق، وأحسست بشهيتي تنفتح بنشوة للكلام. وبعد أن علمت بعمر مصطلح الشعر الحر، وبأن جمهوره قليل، شعرت بأنني أقف فوق أرض صلبة، وبأني هناك، وارتآيت أن أبدأ حديثي من حيث توقف فقلت متوجهاً بكلامي إلى عبد اللطيف شكري

تستقيم إلا — الغناء حلَّةُ الشعر، إن لم يلبسها طُويتْ. ذلك أن الألحان لا تنهيأ ولا على شعر منظوم موزون مقفى، فلا يعقل أن نتغنى بكلام منثور. ألقيت في جوفي كأس ماء، وتوجهت إلى عبد اللطيف متابعاً قولي

الواقع. ألم لم أفهم في الحقيقة ما قصدته من قولك إنَّ الشعر قيمة عليا ترتفع عن لعك تقصد خوض يكن الشعر مرتفعاً محتلاً صدارة الآداب منذ العصر الجاهلي؟ أم إذا كان الأمر كذلك، الشعر في العالم المثالية، وتخليه عن هموم وانشغالات الناس؟ ترى في هذا إفراغاً للشِّعر من فائدة قيمة ستظل للشعر إن تخلى عن هموم العباد؟ ألا لتخلوا عنها طمعاً في بحور أخرى معناه الحقيقي؟ ثم كيف صارت بكم بحور الشعر البحور نفسها التي نظم بها القدماء في كل مغایرة للعلم والمنطق؟ أليست تلك هي والحب والعداء والهجاء، وهي مجالات تستغرق مجالات الحياة، من السلم وال الحرب حياتنا إلى يومنا هذا؟

تجود ثم إن الاعتقاد والتوايا واللباس والمطايَا، لا علاقة لها بشيطان الشعر، فقد طائرة قريحة ممتظي جمل أو معتمر عمامة، بما لا تجود به قريحة راكب سيارة أو ظلت نظراتهم مصوبة نحو ي في ذهول.

(24)

سيبويه، كانت عادتي، ألا أتحدث العربية الفصحى إلا حين أكون رفقة صديقي والبلاغة، رحمة الله عليه، وربما تكرر ذلك مع غيره من علماء النحو والمنطق أشنف أسماعهم رحمة الله عليهم جميعهم، لكنني مع هؤلاء المغاربة، فطنت إلى أنني العراق. فحرست ألا حين أنطق العربية الفصحى بتعميمية الأعراب القحاح في بادية على وجدانهم، بل ومن أحيد عن هذا السبيل، وأنا أرى نفسي متمكناً من السيطرة سحق بعض آرائهم في الشعر سحقاً.

هكذا كانوا يصابون بالدهشة والخشووع، دون أن يقوى أحد منهم على قطع حبل تفكيري أو إرباكه بتدخل سمج ساذج، فاستمر حالي على هذا المنوال، وأنا أبسط بنات أفكري على طريقة مالك، إلى أن تم لي ما أردت.

بعد أن توقفت بمحض إرادتي ورويت نفسي بماء زلال بارد، داهمتني إخلاص بصوتها الأنثوي الخجول:

— أُعترف لك يا أبا علي، أنه لم يسبق لي أن قابلت أدبياً له قوة بلاغتك أو سحر حديثك!

أكملت جملتها وحملقت في وجهي كأنها ذكر وأنا أنشى

ثُمَّ وَاصْلَتْ تِجْلِمَهَا بِإِيقَاعِ مَغْرِبِيِّ مُتَفَرِّدٍ، كَانَ سَمْعِيْ قَدْ أَخْذَ يَالْفَهُ
— إِنْ كَلَامَكَ مَقْنَعٌ، أَقْصَدَ آرَاءَكَ، فَهِيَ تِسَابٌ وَكَأْنَكَ تَتَلَوُّ مِنْ كِتَابٍ بَيْنَ يَدِيكَ، تِرَاهُ
وَلَا نَرَاهُ.

فَتَدْخُلُ عَبْدَ اللَّطِيفِ، مُخَاطِبًا جَمِيعًا:

— تَلَكَ حَقِيقَةً، إِنَّ الصَّدِيقَ أَبَا عَلِيِّ لَظَاهِرَةً، عِنْدَ كُلِّ لَقَاءٍ يَجْمِعُنَا، نَكْتَشِفُ سَحْرًا
جَدِيدًا يَخْفِيهِ عَنَا.

خَفَضَتْ بَصَرِيْ دُونَ إِرَادَتِيْ، لَيْسَ حَيَاءً مِنْ مَدِيجِ عَبْدِ اللَّطِيفِ، أَبَدًا، بَلْ ضَعْفًا أَمَامَ
لِيَّنَا نَظَرَاتِ إِخْلَاصٍ، ذَلِكَمْ طَبْعِيْ مِنْذِ يَفْاعِتِيْ. قَوْيَا كُنْتُ بَيْنَ الْحَكَامِ وَالْوُزَارَاءِ، وَهَشَّا
أَنِّي لَمْ أَمَامَ الْحَرِيمَ. لَكِنْ مَعَ إِخْلَاصٍ، شَمَلَنِي ضَعْفٌ مِنْ نَوْعٍ خَاصٍ، بَالْغِ الْلَّذَّةِ، حَتَّى
وَهِيَ رَمِيمٌ، أَجَدُ سَبِيلًا لِمَقاوِمَتِهِ، فَبَقِيَتْ مَتَقْدَ الْوَجْدَانُ، "سَبَّاحُ الَّذِي يَحْيِي الْعَظَامَ
لَهُ، فَكَمَا أَنْ لَعْنِي رَدَدْتُ هَذَا فِي نَفْسِيِّ، وَفَكَرْتُ فِي أَنَّ الْوَجْدَ لَا عَمَرَ وَلَا إِرَادَةَ
هُوَاهُ الصَّبِيِّ يَتَشَبَّثُ بِحَاضِنِهِ حَدَّ الْعُشُقِ، يَتَشَبَّثُ الشَّيْخُ بِمَنْ يَسْقُطُ عَلَيْهِ

لَكِنْ نَهَاوَنَدَ كَانَتْ لِي بِالْمَرْصَادِ، فَقَدْ أَحْسَسْتُ بِطَيْفَهَا يَحْوِمُ حَوْلِيِّ، أَنْظَرْتُ إِلَيْهِ إِخْلَاصَ
كَثِيرَاتِ، وَأَحْيَا نَهَاوَنَدَ لَحْمًاً وَدَمًاً، لَمْ يَكُنْ هَذَا جَدِيدًا، فَقَدْ تَمَثَّلَتْهَا فِي نِسَاءِ
حَتَّى تَحْضُرَ مَا أَنْ يَنْتَعِشَ وَجْدَانِي وَيَتَصَابِي فَؤَادِيِّ، فَيَرْتَعِشُ مِنْ سَحْرِ امْرَأَةِ
امْرَأَةٍ تَرْوِمُهَا نَهَاوَنَدَ، كَانَهَا رَبَّةُ الْعُشُقِ، مَالِكَةُ لِزَمَامِ أَمْرِهِ، فَتَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنِ أَيَّةِ
عَاطِفَتِيِّ، وَيَكُونُ لَهَا ذَلِكَ.

بِدُونِهَا؟ اسْتَغْرَقْتُ نَهَاوَنَدَ وَإِخْلَاصَ عَلَى مَقْرَبَةِ مِنِّيِّ، أَكَانَ لَا بَدَ أَنْ أَرْجِلَ عَنْ بَغْدَادِ
عَشْرَةِ قَرُونَ؟ هَبْ أَنَا هَاجَرْنَا مَعًا، هَلْ كَانَتْ سَتَّابَتْ مَعِي فِي تَلَكَ الْمَغَارَةِ الْأَنْدَلْسِيَّةِ
الْعَرَاقِ يَرْحَمُهَا اللَّهُ وَيَدْثُرُهَا بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، إِنَّهَا الْيَوْمَ رَاقِدَةٌ فِي قَبْرٍ مَجْهُولٍ، فِي
الْسَّوْسِيِّ أَكَدُ أَوْ فِي الْأَنْدَلْسِ أَوْ فِي الْمَغْرِبِ، مِنْ أَدْرَانِي؟! أَتَذَكَّرُ أَنَّ السَّاحِرَ إِبْرَاهِيمَ
وَلَكِنْ، عَلَى مَسْمَعِي أَنَّ سَحْرَهُ غَيْرُ مُخَالِفٍ لِلشَّرْعِ، سِيَحْفَظُ جَسَدِنَا إِلَى أَنْ تَلْقَيَنِي،
كَيْفَ تَشَمَّلَنِي رَقِيَّتِهِ وَحْدَيِّ وَتَسْتَنْتَنِي هِيَ مِنْهَا؟

أَحْسَسْتُ بِصَوْتِ نَذِيرٍ خَفِيِّ فِي دَاخِلِي يُسْرِّ لِي، بَأْنَ نَهَاوَنَدَ قَدْ أَصَابَهَا مَا أَصَابَنِيِّ،
وَهِيَ هَائِمَةٌ تَبْحَثُ عَنِّي، فَانْتَفَضَتْ لِلْخَبَرِ إِلَى أَنْ تَصَبَّبَ مِنْ جَسَدِي عَرْقَ اخْتَرِقَ
لِبَاسِيِّ، إِذْنَ هِيَ مَثَلِي فِي الْعَاجِلَةِ، فِي مَكَانٍ مَا تَبْحَثُ عَنِّي. إِنَّ الْأَمْرَ لَا يَجُبُ أَنْ
يَكُونَ إِلَّا كَذَلِكَ.

يا إله السموات والأرض! كيف غابت عني هذه الحقيقة؟
سلمتُ بعودتي إلى الدنيا بعد عشرة قرون من غيابي، ونسبيت عودتها؟! مع أنني
أين غاب أعطيتُ بخنقها لإبراهيم السوسي ليعد رقته حتى تشملنا معاً، أنا ونهاوند؟!
المنطق الذي أتكى عليه لينير طريقي؟ أين كان عقلي؟
أعادني صوت شكري إلى يقظتي يستفسرني عن دواعي هيامي، فأصابني الارتباك،
ألمّ وسحبت نفساً عميقاً، ثم أحطت كاتا يدي ببطني وتظاهرت وكأن مغصاً شديداً

فكرت بأنه السبيل الوحيد لأبتعد عن مجلسهم، حتى أفكر في أمر نهاروند، ف فهي بكل تأكيد هائمة في مكان ما تخفي حقائقها

اقترحت إخلاص أن أتناول كوبا من الزعتر، مصدقة مرضي المفاجئ، فشرح لي بأن الزعتر نبات بري يغلى في إناء ماء ويشرب، وله مفعول السحر في شكري لكنني انتصبت على قدمي معلنا عودتي إلى الفندق الشفاء،

القى شكري في جوفه بقية كأسه، ووقف إلى جانبي وهو يعلق محفظته الجلدية فوق
كتفه، فاعتذررت لإخلاص حين أبدت استعدادها لمرافقتنا، ومددت لهم يدي،
بي. فصافحتهم واحداً واحداً، ثم أعدتها لتمسك بيطني متظاهراً بالألم الذي استبدّ
كذب أبيض، قلت في نفسي.

سرّي أن يتطلع شكري لمراقبتي دون أن أطلب منه ذلك، فقد كنت في حاجة إلى مؤنس أبوح له بسري، أتحدث إليه بصوت مرتفع عن مصيبي، هذه المصيبة التي تكشفت لي من تحت طبقة الغبار في ذاكرتي المhireة.

أنا كان عليّ أن أعلم قبل اليوم بأن الرقية التي أعدّها إبراهيم السوسي تشملنا لم أفك سوى ونهاوند، وبأننا سنظل في العاجلة إلى أن نلتقي، لكنني من شدة أنايني في ذاتي.

ما أَنْ غَادَرْنَا مَطْعَمْ رِيَتْزْ حَتَّى أَخْبَرْتْ شَكْرِي بَأْنِي سَلِيمْ مَعَافِيْ، وَبَأْنْ مَرْضِيْ
مُجْرِدْ تَمْوِيهْ لِأَطْلَعْهُ عَلَى مَا يَشْغَلُنِيْ.

لَمْ يَمْهُلْنِي لَأْنَهِي حَدِيثِي، بَلْ قَاطِعْنِي ضَاحِكًا
— إِنَّهَا أَيْضًا أَبْدَت اهْتِمَامَهَا بِشَخْصِكَ
— مَنْ تَعْنِي؟

— إخلاص!

— يا لك من متسرع متهور، إن ما يشغلني هو نهاوند وليس إخلاص

أرخي أذنيه لسماعي بذهول، فانسابت مصيبي على لسانى إلى أن أتمت قص
تفاصيلها.

ظل فترة من الزمن مأخوذاً، مُقْبَلاً الخبر في رأسه، وخطبني

— إنها قضية كبيرة، شائكة، تصلح لأن تكون مادة لرواية شائقة، إني أراها فوق
مستوى تفكير الإنسان العادي.

صمت قليلاً، وأضاف:

— من ذا الذي يصدق خبراً مثل هذا؟ جارية تبحث عنك منذ عشرة قرون؟!

أدار رأسه يميناً وشمالاً، وبعينه ارتياخ، وكأنه يبحث عن فضوليٍّ أو متلخصٍ
بسترقة السمع إلينا قال لي:

— إننا يا أبا حيان نتحدث وقوفاً في الشارع

— وأين تريد أن نتحدث جالسين؟

— أقترح مطعم "بيرغولا" المواجه للبحر، ودعني أصارحك بأنني صرت في حاجة
كأس إضافية تخصب مخي حتى يقوى على استيعاب هذا الخبر الجديد المثير إلى
فالكاد صدق قصتك الغربية، وها أنت تضيف إليها ما هو أغرب! إن هذا يذكرني
بالقولة الإسبانية: "كنا أربعة عشر نفراً، فأضافت الجدة مولوداً آخر".

قذف بنا شارع موسى بن نصیر، ليتألقنا شارع آخر فسيح، قال عنه شكري

— هذا شارع باستور

ثم أخذ يلقي خطبة بعيدة عن موضوع قضيتنا

— باستور، اسم مسيحي لطبيب عالم اكتشف دواء يشفى من داء كان فتاكا، وهو
عشرات الاسم الأجنبي الوحيد الذي أبقى عليه مسؤولاً مدينة طنجة، بعد أن استبدلوا
أسماء الشوارع بأسماء عربية.

كدت أصارحه بعدم أهمية ما يقول، لكنني فكرت في أن تلك طبائع بعض البشر،
يقدمون مواضع هامشية في قضايا مصيرية تشغالك، و تظاهرت بالإصغاء.

حديثه فاستأنف:

— ليتهم اكتفوا بشطب أسماء القادة العسكريين الأجانب، وأبقوا على أسماء العلماء

والمفكرين والفنانين الأجانب!

اللباقة تلزم سمعه ومسايرته، لكن شكري صديقي، فقلت له

!— لكن لماذا لم يختاروا منذ البداية أسماء عربية لشوارعهم؟

— كانت طنجة مدينة دولية، أي تحت نفوذ الأجانب المسيحيين، وهؤلاء من أقاموا
الجدع، الشوارع وتولوا تسميتها، وبذلك، فإن تعديل تلك الأسماء من لدن المسؤولين
تحرىف وتربيف للحقيقة!

سکت قلبلا و اضاف:

— ألم تطلعني يا أبا حيان على موعد كان لك مع نهاوند في جنة العريف بغرناطة؟
بنفست الصعداء، إذ سعدني أن يعود بي إلى قضية نهاوند، فأسرعت بالقول
— بلـي، إنه كذلك، فقد كنا على موعد في جنة العارف

لکھ اجائبی

— هب أن اسم جنة العريف تغير إلى اسم آخر! فماذا سيكون موقفك؟ ألا ترى في الأندلس، هذا تغييراً للحقيقة؟ ولعلمك فإن الإسبانيين بعد أن أخرجوا المسلمين من قوم نحن بتزييف أبقوا على بعض الأسماء العربية، حفظاً لذاكرة التاريخ، فلماذا التاريخ وابراكم؟

كان على أن أشاركه موضوعه، رغم أنف مصيبيتي، فقلت له:

— أوقفك على ما تقوله الآن، فتلك حقيقة كانت تغيب عنى، وأتمنى أن تكون بغداد
محفظة بأسماء أحياها ومعالمها القديمة!

كنا نسير في شارع طويل عريض بجوار البحر، مضاء بأعمدة نور لا تحصى،
بفقلت له:

— لنعد إلى واقعنا، في أي بلد يحتمل وجود نهاوند؟

أسرع في خطواته، وكأنه بذلك يطلب مني أن نوجل الحديث إلى أن نصل المطعم

(25)

فبدت لنا صالة سرنا صامتين إلى أن ولجنا مطعم "بيرغولا". صعدنا بضع درجات، رمال رحبة نصف مغطاة، ملأتها مقاعد وطاولات، وأشرفت على شاطئ ذي خاصية وقد بيضاء، امتد إلى أن انبطح لأمواج البحر. كان المشهد مثيراً لحواسى،

العجبية، ليلة جعلت أشعة الإنارة ظلامه نهاراً مضاء جعلني أستحضر تلك الليلة
ابنة "بهاء الدولة البويعي"، الاحتفالات بعرس الخليفة "القادر بالله"، حين تزوج سكينة
دجلة، وأخرى تزيّن الحارات فقد كانت الأضواء تستطع من عشرات المراكب فوق
بابل والأزرقة، جاعلة ليل بغداد نهاراً بهيجاً يأخذ

بدفء في تلك الليلة البغدادية المضاء، وشهوتها تداعب عواطفى وتسربل أحاسيسى
موقع جارية ترقب عودتى، بقيت ساهراً رفقة صديقى بدين الزمان الهمданى إلى
نسيب آذان الفجر، كنا بحى الكرخ على ضفة دجلة، أنشده مما يستحضره ذهنى من
تناقل وغزل القدماء، ويسمعني من أطابق مقاماته الجديدة، وحين نصمت للراحة،
أن ينقطع إلى مسامعنا موأويل بدوية حزينة، تصدر من مركب على مسافة منا، دون
الخليفة مغني صدى لأهازيج غنائية يحملها نسيم النهر. كان عرساً بحق، استقدم له
وقصر والد جواري وغلمنا من الهند وفارس ومصر، فتوزعوا بين قصر الخليفة
العروس وقصور الوزراء ودور الحاشية وكبار رجال الشرطة.

حدث ذلك منذ حوالي عشرين عاماً أو أقل. أجل، أتذكر العام بالضبط، سنة ثلاثة
وثمانين وثلاثمائة هجرية، ونحن الآن في عام ثلاثة وعشرين وأربعين وألف،
وأقول منذ حوالي عشرين عاماً! يا لسخرية القدر؟! ورسى بصرى في اتجاه واحد،
ضيافتها على الميناء نفسه الذي استقلبنا مهاجراً سرياً، تذكرت شرطة طنجة وكرم
بواخر تغادر تلك الليلة، فقد كانت أتعس ليلة في حياتي. أصوات منفرة تصدرها
مرمى حجر مني. الميناء وأخرى تحل في رحابه، لم أغظ طرفى عنه، فقد كان على
المراكب إليه، أما الضوء ولعل الضوء البعيد هناك، كثير الغمز، أقيم عنوة ليرشد
وزودت بمعلومات عنه في إقامة الآخر المقام للغاية نفسها، فقد سبق أن تعرفته
إرسال برقه بين لحظة وأخرى السراب، إن مصدره محتجب عنى، لكنه لا يكف عن
طوال الليل.

لا أنكر نشوء التنعم في انعكاس إشارته الضوئية في السماء و على صفحة مياه
لكنه البحر دون أن تخفت أنفاسه. لعله من أعجب اختراعات بني الإنسان وأغربها،
يستحضره لم يشغلني عن التفكير في عرس الخليفة ولا في نهاوند، ولا شغلني عما
فقد كنت مولعاً ذهني بما كان قد مرّ بي أيام شبابي في شط مدينة المحمرا بفارس،
ملتهباً وودياناً شاحبة بالمقارنة بين الصحراء والبحر. كنت أرى الصحراء عراء

الصغيرتين الحافيتين إلى أن يطاردها الجدب، فتذكري الرمال الساخنة تحرق قدمي وجزرها، وأستكمل من رأسي ينسلخ بعض جلدهما، وكنت أرقب البحر في مده والبصرة، فتصحبني في نومي، أساطير وأسرار سردها بحارون من مدینتي المحمراة تؤرقني أو توقظني مفروعاً، مكسواً عرقاً.

وبقيت على تلك الحال، إخال الصحراء صادمة، والبحر ملهم، إلى أن أوضح لي الزمان بأن كل ما يصدمنا، فتساوٍ لدبي الصحراء بالبحر.

كدت أضيق بصمت شكري، فهو لا يفتح فمه إلا ليتجرع كأساته، مما جعلني أخرجه من صمته بسؤاله

— إن نهاؤند تبحث عنِّي، فما السبيل لأعثر عنها أو لأجعلها تعثر عنِّي؟

نهش في شعر رأسه، وأجابني بصوت خفيض

— ما دليلك أنها تبحث عنك؟

ثم إنني أستند إلى قناعتي ولا تهمني قناعتك، هب يا رجل أن ما — دليلاً بصيرتي، أقوله هو عين الواقع، وفكِّر معِّي في وسيلة توصلني إليها.

— لك ما تريده.

نطق كلمته بتکاسل، ودسَّ في فيه سيجارة أوقدها بيدين مرتعشتين، وقال

— إن أقصر السبل إلى نهاؤند أن تعلن عن وجودك، أن تجعل الصحافة والإعلام يتحدثان عن انبعاثك بعد عشرة قرون من غيابك، والجملة الأصح، بعد عشرة قرون من موتك! ولربما قد تستمتع بلقاء السيدة نهاؤند. لكن يقيناً سوف لن تستمتع بالجلسات الهايئة في الأماكن التي ارتديتها أو في تلك التي لم تتعرفها بعد

أهرق كأسه في جوفه، وسافر ببصره بعيداً نحو البحر، ثم نجح مهياً صوته

لل الحديث، وكأنه سيجسم الموضوع برأي لا يُرُدُّ له أمر، وقال واثقاً من نفسه

— بإشهار وجودك، سيرتك العالم كلُّه. سيصبح خبرك حديث الناس في كل بقاع

الأرض، شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، بين المصدق والمرتاب والنافي. سيسعى

الرابع البشر إلى الظفر بمشاهدة هذا المخلوق العجيب الغريب القادم من القرن آلاف ساحراً أو الهجري. فئة منهم ستقول عنك المهدى المنتظر، وفئة أخرى ستعتبرك

والفضوليون، إنها جنباً. سيتزاحم على رؤيتك الصحفيون والأدباء والسياسيون

المجانين على اغتيالك، ضريبة الشهرة، أعني جزيتها. ومن يدرِّي، فقد يجرأ أحد

ل مجرد الحسد، أو ليشارك شهرتك.

قاطعته:

— أهذا الحد وصلت أهميتي؟

— أجل إلى هذا الحد! بل إلى أبعد مما تتوقع! فإذا كنت أنا محمد شكري، الرجل البسيط، كتبت مجرد كلام جريء عن مسیر حياتي، وعن وجوه صرفها القدر في طریقی، أتعرض لمضايقات مزعجة، من لدن الخاصة وال العامة، فما بالك بأبی حیان التوحیدی، مبدع أمهات الكتب في الفكر والمنطق والفلسفة؟ وأكثر من ذلك، فإن وجودك، الحياة استعادته من بعد موته بعشرة قرون؟! إنی لا أرى فائدة في إشهار وإلقاء نفسك في مکاره من أجل امرأة جاریة عشقها

لم أطق سمع بقية خطابه، فعجلت بالرد عليه

— لتصمت يا شكري غفر الله لك. إن ما تقوله قد يوافقك عليه رجل من العامة، الدنيا تطغى ذاته على ما عادها، أما أبو حیان التوحیدی، لن أخلع نھاوند بمباھج يرجی من وکنوزها، إنی استرخص كل مخلوق لا يخفق قلبه بالحب، ولا أرى نفعاً قطعاً لم رجل يصدد محبوبه لقاء کسب مادي، فأحرى مخافاة الشہرة والعزلة! إنک تکتو بنار العشق، ولا ذقت طعم خمرته؟!

اعتدل في مقعده، واسرع عينيه وكأن کلامي أفقه من غیوبۃ طويلة، وخاطبني

— أکاد لا أصدق ما تسمعه أذني! أبو حیان صاحب الإشارات الإلهیة، المتخذ من التصوف قضیته الكبری، تحوله جاریة إلى عاشق مستھام، تنزع عنه بردى الورع والتقوی، وتلبسه عباءة قیس بن معمر

ضرب کفافاً بکفّ وهو يتأنلني، وتابع خطابه

عشق — إنک أيها الفقيه السلفي كنت متلقاً مع نفسك في بغداد، حين لم تذكر كلمة والیوم في واحدة في جميع مؤلفاتك، ولا أشرت إلى أية امرأة في جميع ما كتبت طنجة، تضع نھاوند في کف وما عادها في کف أخرى، تعلن استرخاصك لكل مخلوق لا يخفق قلبه بحب امرأة. المحیر، إنک عالم، فقيه، متصوف! يا لسخرية القدر ! أنا حقاً لا أفهمك!

ابتسمت استخفافاً برأيه، وأوجزت جوابي في جمل مبتورة

— ما تبرمت من الورع والتقوی، ولا قایضت دینی بأية امرأة. فأنا الشخص ذاته

بماضيه في بغداد و بحاضره في طنجه. ما حدث هو أتنى أبحث عن امرأة سكنتني، مسلم جزما مني بأنني أيضاً سكنتها. فأنا مخلوق بشر قبل أن أحمل باقي الصفات، أنا وإذا كنت يا شكري. أعمل لدنياي كأنني أعيش أبدا وأعمل لآخرتي كأنني أموت غدا، لا يتعدى تراني قد عدت للبحث عنها بعد فراق دام عشرة قرون، فذلك بالنسبة لي التدوين بضعة أشهر، هي ما استغرقه سفري من بغداد إلى طنجه، أما عزوبي عن معاشرة المرأة عنها أو عن آية امرأة غيرها فلا يدعو إلى أي استغراب، ذلك أن ثرثرة منفرة، غير واقع عيني بديهي، وتدوين البداهات لدى العلماء والفقهاء بقلبها لا يضيف إلى مستحبة. فإن يخفق قلب الرجل بحب امرأة أو يشقى للظفر الواضحات من المفترضات. ولعل الكتابة الأدبية أو الفلسفية قيمة جديدة، فتفسير من أن جنس الشعر وحده ما يستوجب تذكر ما أعلنته في حضرة الوكيل العام للملك تخصيصه للنظم عن المرأة.

قطعني هازئاً:

— وجهة نظرك قديمة، بالية، مضحكه، ربما كانت مقبولة قبل عشرة قرون، أما في يحق عصرنا هذا فلم يعد هناك ما يحدّ من حرية الكتابة. فمثلاً يحق لنا أن نتحدث عادت قيمتها لنا أن نكتب. ثم إن المواضيع الأدبية عموماً، نثراً كانت أم شعراً، ما الجوهر، ولربما في جوهراً، وإنما في كيفية تناولها، أي صار الشكل مرجحاً على واحداً، يطلق عليه الكتابة لهذا السبب تداخلت الأنواع الأدبية وتمازجت لتصبح نوعاً ذات الشكل الجديد.

انقضت في وجهه:

— يستحيل أن أقبل بهرطقة كلامية كهذه، تمزج الشعر بالنشر كمن يمزج القمح بالشعير، تندوق الشكل قبل الجوهر! ما سمعت عن أحد أطربه شكل قصيدة قبل جوهراً! إنكم باجتهادكم هذا تقدمون العربية على الحسان.

أخذ يضحك وقطعني:

— إنك لم تدعني أنهي حديثي يا أبا حيان. طيب، لأزودنك علماً بأن الشكل أصبح هناك، دون أن يظل مقتصرًا على المجال الأدبي، بل امتد ليشمل أنواع المعرفة كلها. صار سمة مهيمنة على جميع أمور حياة هذا العصر، حتى العدل لم ينج منه، تصور العدل! وعلى سبيل المثال، إذا أقدمت على بسط تظلمك على القضاء، يلزمك

وجوباً اعتمد شكلٌ محددٌ حسراً تحت طائلة بطلان حقك، ففلا يحيى هذا العصر صار مثل الناقد الأدبي، يقوم الشكل قبل الحق، وكم من حق ضاع بسبب شكري تافه.

— وأين منكم قوله علي بن أبي طالب ما ضاع حق ورائه طالب؟

— صارت سبلة فارغة!

— يا إله السموات والأرض، خف عن مخلوقك ما ابنته به. أرجوك يا شكري أن تصمت، فما عدت أتحمل سماع مثل هذه الأخبار، إن عصركم هذا لعصر مجانين بحق.

أراد أن يضيف شيئاً، فأمسكته بإشارة من يدي، وقلت له:

أنت تربكني يا شكري، لعلك تقصد بالشكل والجوهر، اللفظ والمعنى؟

— تماماً، ذاك بالضبط ما قصدته، فالشكل هو اللفظ والجوهر هو المعنى، وقد أصبح اللفظ في عصرنا الحالي مرحاً على المعنى.

— شخصياً قد لا أتفق معك، ذلك أن ترجيح اللفظ على المعنى هو بمثابة ترجيح الجسد على الروح. فاللفظ كالجسد، عارض متغير فان. أما المعنى فهو كالروح، أن خالد لا يتبدل. ولذلك قيل في زماني السابق "إن الشعر تجويد للمعاني"، ذلك الشاعر وحتى العالم أو الفيلسوف، هو الذي يجيد النقاط المعنى، فتأتي بعد طريقة تجويدها.

بدا غير مقتنع بوجهة نظري، وقبل أن يتحدث أضفت قائلاً

— أفهم أنكم صرتم في هذا العصر تجمعون على ترجيح اللفظ على المعنى، هذا الجاحظ أيضاً ليس بالشيء الجديد، ففي عصري السابق وُجد من قال بهذا. أذكر أن يانقطها المسلم عليه رحمة الله، قال ما معناه، إن المعاني ملقاء على قارعة الطريق، وهو قول في ظاهره والنصراني والمجوسي، لكن الحرافية تكمن في كيفية صياغتها، كذلك يبدو وكأنه يرجح اللفظ على المعنى، لكنه في عمقه ليس

ابتسماً شكري وهو يوقد سجارتة وتلمظ رحيق كأس صبّها في حلقة، ثم تطلع إلى سقف الصالة وكأنها ستمده بما يعتزم الردّ به، وخطبني

— أنت أيضاً أربكتي يا أبا حيان، فلم أعد أعرف من منا على صواب! طيب إني أفكر في أن أطلعك على آخر مستجد في النقد العربي.

قال ذلك ورفع بصره مرة أخرى إلى سقف الصالة، فاستعجلته

— هات ما لديك، إني أثوّق لمعرفة هذا المستجد

ضحك، وانخرط في الحديث

المرتبة — قبل خمسين عاماً إن لم تخني ذاكرتي، كان المشتغلون بالنقد، يضعون في بعد ذلك توحّدت الأولى الكاتب قبل نصّه، فقد كان الكاتب أهم من النص الذي يكتبه، الكاتب، هذا الآراء على استبدال الكاتب بالنص، ليصبح النص أكثر أهمية من الغرب المسيحي، التفضيل للنص، لم يدم طويلاً، فقد قام أحدهم من عشر منظري قارئ. ضحك ودعا إلى ترجيح التلقي على النص، أي عدم جدوا النص دون وأضاف:

— ما قول الأديب الفيلسوف القادم من القرن الرابع الهجري، أزهى عصور ثقافة العرب؟

بالرغم من الكؤوس التي صبها في جوفه، أحسست به في كامل قناعته بما يقول، فارتآيت أن أعود به إلى موضوعنا مخافة فساد جلسنا، فقلت له الفكر — إن التلقي، ومنه الإصغاء كأحد مدلولاته، ليس مفهوماً جديداً وافداً على شأنه العربي، فقد كان موجوداً في بداية العصر العباسي، وكانت لنا مطارحات أوّفني بإشارة من يده، فخلته سيسكرنى على حصافة رأيي، إلا أنه فاجأني بما لم أتوقعه منه، إذ قال:

— عليّ أن أكون صريحاً معك، فقد أخذت تربكني حقاً، كل مستجد أطلعك عليه، العصر تتسبّه إلى تاريخك البعيد، لم أعد أعرف إن كنت تتعمّد ذلك أم أن مثقفي هذا يجهلون تاريخ ثقافتهم؟

قاومتُ غضبي، وقلت له

إمامي — أنت الأعلم يا شكري بأنني لم أقرأ كتاباً واحداً منذ القرن الرابع، وأن لأنّ الحديث عنه بالتلقي والإصغاء يعود إلى أيامي البغدادية، بل إني على أتم استعداد العربي منذ أزيد ساعات وساعات، ولعلمك فإن الإصغاء كان حجر الزاوية في أدبنا من عشرة قرون.

أمسك بقنية نبيذه وملا قدحاً صبّه في حلقة، وقال لي

— منذ أن التقينا وأنت ترتج بي في معضلة وراء معضلة دون استراحة

إني بصراحة لا أطيق الصنف الجاد من البشر لأكثر من ساعة، فقد تخليت عن

التدريس لهذا السبب، وكذا عزوفا عن سخافة منطق المدرسين، وأنت تجادلني مهنة بمنطقهم.

أحسست بالغضب يتسلق صدري، لكنني في ذات اللحظة صرت أقاومه، مكتفياً لدرء استفزازه. أنا لا أستقر إلا بارادتي، ردت ذلك في نفسي وخطابته إرادتي مفعلاً، وأنا أكتم غيظي بهدوء

— لكنك يا شكري أنت الذي اختار الحديث عن المفاهيم المستجدة في الأدب، ومن يطرق الباب عليه سماع الجواب.

— لكنك أطلت الحديث في أمور عقلانية لا تناسب المقام.

في ذلك وأنت من اختار المقام؟ — ما العيب

— الحلم والوهم ودهما يناسبان مجالس الشراب

— لا تنسي أن الإكثار منهمما، مضاف إليهما الشراب، يؤدي إلى الجنون

— مرحباً بالجنون، من كان دون جنون يُرفض من زمرة المبدعين. أتعرف أنت بترحاب أثناء كتابتي لروايتي "الخبز الحافي" كنت في حالة جنون، فاستقبلت الرواية في أوج منقطع النظير، وعندما أتبعتها بكتاب "غواية الشحور الأبيض"، وكنت التعقل، لم يلتفت إليه أحد.

أحسست أني أجالس شخصاً غريباً عنِّي، أكيد أن الرجل أصيب بلوثة عقلية، أو ربما جنونه طغى على تعقله، فلا معنى أن ينقلب مزاجه من أقصى درجة الوداعة إلى أقصى درك الوقاحة. تذكرت كيف كان يضرب على ظهر عبد القادر بشدة دون أدنى سبب، وكيف ولج البحر في الهزيج الأخير من الليل، بعد أن ألقى وقوفة بحذائه وسترته في وسط الأمواج المتلاطمة.

أشياء وتصرفات خرقاء صار ذهني يستحضرها، إلى أن قال لي:

— إنني أتقبل بشغف أن تحدثني عن علاقتك بنهاوند، فالظروف الذي جعلك تتعرف جميلة. إليها يدعو إلى الدهشة. أهديت الوزير كتاباً فأهداك جارية، يا لها من حكاية بسميات أخرى، في زماننا الحاضر لم يعد الوزراء يملكون جواري، أو هم يملكونها عشيقة أو صديقة.

الظلمات. لم أجبه بشيء. كان ذهني مشتتاً، تترافق به أفكار تتلاطم كأمواج بحر الشاذ، أفكر في إعلان البحث عن نهاوند لتدفء فراشي، وأفكر في مزاج شكري

ما فوق وأفكر في تمالك نفسي التي لو لم أتق شرها لكونت أقيمت فوق رأسه بكل المائدة، وانسحبت من دائرته إلى الأبد.

من جديد فاجأني وهو يضحك

الصالح — إننا نحن العرب جمِيعاً نعيش حياة مركبة، حياة انفصام. ندعوا إلى السلف ولا مع صانع النكسات والمأساة ونستاذ التبعية للغرب المسيحي. أنا لست مع هذا ثمار لم ذاك، لا مستقبل يرجى من العودة إلى الوراء، ولا فائدة ترجى من قطف نشارك في زرعها.

أخذ يضحك حتى خلته مجنوناً حقاً، ثم تحامل على نفسه ليتنصب على قدميه، وأخذ يحوم حولي متابعاً ضحكه

— أنت أباً حيان، تتعل حداء عصرياً وتتدلى على صدرك العراقي ربطه عنق في الغرب، وتختفي عظامك داخل بذلة فاخرة، فوق قميص غربي ناعم، إنك صمنت عن المشارقة في شيء، بل عن العرب عامة، ولست الوحيد القادم من لا تختلف الهجري، فجميعنا قفزنا على عشرة قرون، استبدلنا ركوب الجمل القرن الرابع الطائر، دون أن نفهم في صناعتها. لكننا نبرر ركوبها بحرق والحمار برکوب المراحل.

توقف عن ضحكه وأخذ ينعم في وجهي وأضاف، لكنه هذه المرة نطق بمودة فضحتها حجرته

— إني أفسر صمتك برفضك لشخصي، أرجوك أباً حيان، لا تغضب مني، أكن لك حقيقة، لعلي في حالة سكر، لكن عرضي وافر، وأنا في الوقت ذاته في كامل مودة العقلية، ذلك أن سكري مثل جنوبي لا يستغرقني سوى لحظات. عليك أن قوتي القدر الذي جمع بيننا، فلو كنت صاحبت غيري، ما كنت ستحظى بالاطلاع تشكر ما نحن فيه، أقصد ما يعتمل في دواخلنا. لنكف عن الوهم والجنون على حال لاحظت أنه ساه عن سماعي، فتوقفت عن الحديث. مرت فترة صمنت دون تواصل وعلى صدى صوت نسوة أدرت رأسي ملقتا خلفي، فالفيت حشداً من بشر بيننا، كان فارغاً، نسوة ورجال تكسوا فوق مقاعد ك المجتمعات النمل، وازدانت ملأ حيزاً بأشربة ومزادات وقهقات، واندحر خاطري إلى أن إداهن في حالة سكر موائد هم طغى صوتها على ضجيج المقهى طافح، فقد

انتبه شكري إلى غيابه عنى، فخاطبني بمودة:

— معدرة أبا حيان، فقد سهوت عنك، انشغلت بأم كلثوم

لم أفهم شيئاً، أو بالأحرى حسبته منشغلًا بالبنت السكرانة، وتساءلت مع نفسي كيف

عرف أن اسمها أم كلثوم إلى أن قال لي

— أم كلثوم، سيدة الطرف العربي وتدعى كوكب الشرق، وهي الآن تغني قصيدة

لأبي فراس الحمداني.

أدخلني شرحه في دهليز مظلم، فبادرته بالقول

— إنك زدتني غموضاً، أوضح رعاك الله!

ضحك وقال:

في — الصوت المسجل الذي نستمع إليه الآن، هو للفقيدة أم كلثوم، وقد سطع نجمها

التي تشدوا الغناء العربي، سطوع نجم المتibi في سماء الشعر العربي، أما القصيدة

بها، فهي للشاعر أبي فراس الحمداني

لم أقو على كبح ذهولي، ليس إعجاباً بالموسيقى أو صوت المغنية فحسب، وإنما

أيضاً بقصيدة أبي فراس الذي لحق بي إلى القرن الرابع عشر الهجري، وأرخت

أذني لأذوب في رقة معاني شعر أبي فراس، وهي تتاسب في حلقة من أنغام العود

والدف والصنج: أراك عصي الدمع شيمتك الصبر، أما للهوى نهي عليك ولا أمر

(26)

حين أحس بي شكري مشدوداً إلى السماع، سألني

— حبذا لو أعرف مدى تقبلاك لهذا النوع من الغناء، وهل أصلاً تفهم في الغناء

أسكته بحركة من يدي إلى أن انتهت السيدة من غنائهما وقلت له

— لا تنسى يا شكري أني كنت صديقاً لجهازه علماء الموسيقى في عصرى، كأبي

نصر الفارابي وأبي الفرج الأصفهاني، وبهذه الأصوات التي تشاهدنا، قمت بنسخ

جميع كتب الفارابي، كـ "الإيقاع" و "الموسيقى الكبير" وكذا "أصل العلوم" و

إحصاء العلوم"، وجميعها في علم الموسيقى واللحن، كما نسخت وحفظت "كتاب"

الأغاني" لصديقى المرحوم أبي الفرج الأصفهاني.

عاد يقول:

— أعرف أنك موسوعة، لكنني لم أسألك عن الجانب العلمي في الموسيقى وإنما عن تذوق الألحان.

فاطعه ضاحکا

جهة، — أزعم أني أفوقك تذوقاً للألحان، وذلك لأنك أحبيت بعلم الألحان النظري من وقع وبتذوق ما يهز منها مشاعري تطبيقاً من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال، إذا كنت خطأ في العزف أو في أحد الإيقاعات، فإني أكتشفه في الحال، ولعلمك فإني كنت مغرماً بعزم إبراهيم الموصلي وشقيقه إسحاق، وكذا بتلميذهما زرياب الذي أنوی اللحاق به في الأندلس.

نظر إلى باستغراب، فأضفت قائلاً

وترأً — أتعلم أن العود بعد أن كانت له أربعة أوتار من الحرير، أضاف له زریاب العود، خامساً، أسماء الأوسط؟ جعله تحت المثلث وفوق المثلث، واتخذ مضراب إسحاق الريشة من جناح النسر، بدلاً من قطعة الخشب، وجعل عوده بحجم عود الموصلی، لكنه أخف وزناً بمقدار ثلث وزن عود الموصلی.

ستقول هذه معرفة، لكن صدقني أن صوت علية بنت المهدى وطريقة أدائها للغناء،
كانا ينزعان مني مشاعري ودهشتني ويسموان بي إلى أعلى السماء، كان صوتها في
صفاء السيدة صاحبة أغنية أراك عصي الدمع ومواصفاتها

أصابت الدهشة شكري، فقال لي:

— من يصدق ما تقوله؟ من سيصدق أن أبا حيان يعرف عن الموسيقى والألحان
أكثر مما يعرفه متقدو عصرنا هذا؟

وقلت له:

— أصارحك يا شكري بأن أبا ناصر الفارابي إلى جانب العالم والصوفي كان مغنية الفيلسوف وعازفاً مبهراً، كان يعيش بداخله العالم والفنان متلازمين. وإذا كان معتبراً الموسيقي الطبيب أبو يوسف الكندي قد سبق الفارابي إلى التأليف الموسيقي، استوعب علمه وفاته في فرعاً من الرياضيات، ووسيلة لشفاء المرضى، فإن الفارابي ثقافة العجم. أذكر عندما أمر الأصوات والأنغام والتالف، وزاد عنه اطلاقاً على غaitه من تأليف هذا الكتاب كانت كتبت أنسخ كتابه "الموسيقى الكبير"، اكتشفت أن عليه رحمة الله الواسعة. نعم بسبب ما وجده من نقص وغموض في كتب الإغريق،

وابن مسكونيه دون شائبة، إلى أن الرجل، تعاشرنا في السنوات الأخيرة أنا وهو سرنا في موكب حزين نعيده إلى التراب.

أنا أتحدث، وهو يحملق في وجهي مأخوذاً، إلى أن قال لي

— هل تحفظ لحناً لفارابي أو الأصبهاني؟

— أحفظ لهما لحنان كثيرة، لكنني لم أغنى منذ زمن طويل

ضحك وقال

— أرغب أن تسمعني مقطعاً من أغاني ذلك العصر، لا يهمني الصوت، أرجوك أبا حيان.

— لكن الغناء لا يستقيم إلا بالموسيقى

— ليس بالضرورة، فأنا أريده بدون موسيقى

— لكننيأشترط حضور الموسقي في الغناء، فالعلاقة بينهما ليست وشحة فحسب،

بل هما واحد في لبوسين، وبذلك حرمت على نفسي الغناء دون آلة موسيقية

— معنى ذلك أنك تجيد العزف؟

— علماً و عملاً

— طيب، إذا جئتك بعود، هل تغني؟

— ليس وسط هذا الضجيج

التفت خلفه يستطلع من في الصالة، وخطبني مزهوأ

لم يعد صحبتنا سوى أربعة أشخاص، وفي وسعي أن أخرسهم جميعهم

ابتسمت له موافقاً، فنهض مسرعاً، غاب زماناً قصيراً إلى أن عاد يحمل آلة عود،

ناولني إياها ثم خطى إلى حيث الأشخاص الأربع، وهمس لهم كلاماً لم أسمعه

فتوقفوا عن أحاديثهم

على في تلك الأثناء، كانت آلة التسجيل قد كفت عن بث موسيقاها، فأطبقت السكينة

المكان، ولم يعد يسمع سوى هدير خفيف لأمواج تتكسر على شاطئ البحر

داعبت أوتار العود قليلاً، وقلت لشكري

— إن العود الذي اعتدت عليه في بغداد وغيرها، كانت به ست أوتار فردية، أما

هذا، فهو أحد عشر وتراً

امْحَى الفرح من وجهه، وقال في كابة

— إذن لن تستطيع العزف

:ابتسمت وطمأنته

— سأعزف أنغاماً شجية، فلا شيء تغير في العود، سوى أن كل وتر أصبح
باستثناء الوتر السادس، فقد ظل منفرداً، فبدونه لا يمكن تحقيق الغاية مزدوجاً،
اللحنية على مستوى الصندوق الرنان. أي بطن العود.

:ابتسم شكري وحرك رأسه متحجاً، فأخذت أداعب كل وتر وأنا أشرح له علمي
يصير مدوزناً — هذا العود مدوزناً على مقامات أندلسية، علىَّ أن أقوم بتحويله حتى
على المقامات المشرقية القديمة، ليتسنى لي أن أسلطن عليها

بعد لحظة تمكنت من دوزنة العود، وخطبت شكري

سأسمعك أغنية من أغاني عُليَّة بنت المهدى

وبعد أن عزفت المقدمة اللحنية، أنشدته جاعلاً كل نغمة تتماه مع كل كلمة أنطق بها،
لبُّ الهوَى كُلُّمَا دَعَاكَ
وَلَاحٍ فِي الْحُبِّ مَنْ لَحَاكَا
مَنْ لَمَ فِي الْحُبِّ أَوْ نَهَاكَ
فَرِدُّهُ فِي غَيْكَ اِنْهِمَاكَا

إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي الْهَوَى كَذَاكَا

نَالَ لَذَاتِهِ سُوكَا

أغني وأرق في الوقت نفسه تسرب الناس إلى قاعتنا، ولعل مستخدمي مطعم
بيركولا أنفسهم صاروا ضمن أولئك الناس.

ما إن ختمت وصلتي حتى دوت الصالة بالتصفيق المتواصل، فارتدى شكري علىَّ
مقبلاً رأسي ويدى وقد اغرورت عيناه بالدموع، وخطبني وهو في أقصى حالات
الانفعال:

— أنت أعظم فنان في هذا العصر، بالله عليك أبا علي، كيف سمحت لنفسك بالتنسر
على هذا الكنز الفريد؟ إن صوتك يخفي سحراً أخاداً يهز النفس ويبهر العقل.
لم أقل شيئاً ولا حتى أطلت الابتسام، كي لا أبدو مزهواً بنفسي، بل عدت أداعب
تلك أوتار العود، مستأنساً بتقسيم على الطبة الصوتية الخفيفة، إلى أن حضرتني
الأغنية التي كنت أعزفها بعد أن ودعـتْ نهاوند في بغداد

الأغنية واكتتفي شعور حاد بالأسى على فراق نهاوند، فأدركت أن تعبرني في أداء وذوق القادمة سيكون صادقاً لأن عاطفتي كانت فياضة، وبذلك سأغني بفن وأستتميل قلوب سامي.

واندفعت أعزف وأغني
أَسْتَوْدُعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا
بِالْكَرْخِ مِنْ فَلَّاكِ الْأَوْزَارِ مَطْلِعُهُ
وَدَعْتُهُ وَبِوْدِي لَوْ يُوَدِّعُنِي
صَفُّ الْحَيَاةِ وَأَنِّي لَا أُوَدِّعُهُ

وقد أعدت أداء الأغنية ثلاث مرات، لسبعين اثنين، أولهما استجابة لرغبة الحاضرين في العراق، أفضى بعضهم في الإشادة بحسن أدائي، وحسبوني مطرباً حديثاً قادماً من فقلت له وثانيهما استجابة للاحش كري الذي تحدث عن موهبة استماعه وتذوقه – بدون المتألق لا قيمة للمغني، فلكي تحصل لذة الطرف لا بد من توافر صدق صوت المغني وحسنه، ورغبة المتألق في الاستماع والتقبل، وأنا أتفق معك، فالموهبة كما تكون للمغني تكون للمتألق.

ناولته العود، لكنه رفض وأصر على الاستماع إلى أغنية أخرى، فتعالت الأصوات بتوبيده.

ابتسمت، وخطبت شكري بصوت خفيض

– لا بأس، سأختم هذه الليلة بأغنية كانت مفضلة لدى صديقي ابن فهم الصوفي أبي القاضي، كان رحمه الله، إذا سمعها هاج وأزبد، وتعفر شعره، وهي من شعر ربيعة.

احتضنت العود وعزفت مدخلاً موسيقياً من مقام لحن الأغنية نفسها، وذلك حتى أجعل الآذان تعتاد جو المقام، ثم عرجت على اللحن الخاص بالأغنية من غير أن أترك لأحدthem ذرة إحساس بانتقالي من زمن موسيقي إلى زمن موسيقي آخر، بل كطائر مفرد مغرّد محلي في سماء صافية رحبة سرت.

وأنسابت القصيدة تنفذ في شرائين الموسيقى، وكأنهما جسد وحلة لا يليقان إلا ببعضهما.

أَنِيرِي مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَفَلَ الْبَدْرُ

وَقُومٍي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأْخَرَ الْفَجْرُ
فَفِيهِكِ مِنَ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ نُورُهَا
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكِ الْمَحَاجِرُ وَالثَّغْرُ

(27)

اتصل شكري بسائق السيارة، واقتراح أن يرافقي إلى فندق السراب في الجبل، فأومنأت برأسى موافقاً.

ونحن نهم برركوب السيارة، قدمت رجل اليمنى على اليسرى وكأنى سأجعل السائق خلفي، ثم استدركت خطأي فعدت لأرج السيارة بشكل سليم، فضحك وقال لي — تبدو كأنك أنت السكران

:ضحك بدورى، وقلت له

ذاك كان حالى مع صديقى الناسخ ابن عدى النصرانى، هو يشرب وأنا أسكر وكانت بطنه صغيرة مثل بطنه، لكنها قاحلة كالصحراء، لا ترتوي أبداً عوضه،

أقلعت بنا السيارة، وكم يخاطب نفسه بصوت مسموع قال

— علىَّ أن أنتظر إلى صباح غد لتأكد

ـ قبل أن أستفسره عن الشيء الذي يريد التأكد منه، أسرع مضيفاً

ـ تأكد إن كان ما عشت هذه الليلة واقعاً عينياً أم مجرد لدغة حلم

ـ لم يكف عن الضحك، وهو يضيف

ـ لو أنك أخبرتني سابقاً بأنك تجيد العزف والغناء لصدق نصف الخبر

ـ وما هو النصف الآخر الذي لم تصدقه؟

أخرج من قرابه صندوق سجائره، ألصق بفيه واحدة وأغلق نافذة السيارة عن يمينه

ـ كي لا تطفئ الريح عود ثقابه، فأتم له ما أراد، وخطبني

ـ مشاهدتي بأم عيني عزفك وغنائك، هي النصف الآخر من الخبر

ـ ففتح نافذة السيارة ليتسرب دخان سيجارته إلى خارجها، والتقت نحوه يخبرني

ـ أدخلـ إني يا أبا حيان مستهام بالغناء، عاشق للأصوات الجميلة وللعزف الرفيع،

ـ هذه في منزلي تسجيلات متعددة لأهم المطربين والعازفين عرباً وعجماء، لكنني

ـ عليه من الليلة وأنت تحلق بي في مملكت الفن الراقي، جعلتني أقزم كل ما أتوفر

تسجيل.

أرجو أن تثق بي يا أبا حيان، فقد دوّختي، أحياناً كان يخيل لي وأنت محظى
أو هي العود، عازفاً منشداً، أن أقواماً من الجنّة مخفية عن الأنوار تنظم عزفك،
انه السحر. مختبئ بين ثنياً الأوتار، وأنت تستنطقها فرداً فرداً، وجماعات جماعات
مثلاً يعتق الخمر بعينه. لعل سباتك الطويل في تلك المغارة الأندرسية عتق صوتك
والله صوتك، مسکر الأصيل بعد أن يرقد لأمد طويل في مخزن هادئ منعزل؟ هكذا
قد يحدث لبني البشر كالخمر المعتق، أين منك مطربٍ هذه الأيام؟ إني لا أدرى ما
حين يكتشفوا عذوبة صوتك وسحر عزفك!

لكني اكتفي زهو فطري، وأنا أستمع إلى شكري يشيد بمهارتي في العزف والغناء،
كدت أحتج لم أدع تثمينه يوقظ غروري، أو لربما لا مسه خفيفاً. ومن باب الدعاية،
يحصد على تشبّيهه لصوتي بالخمر، لكنني عدلت عن رأيي خشية إفحامي في نقاش
ما تبقى من ليالٍ القصيرة، فيضيع مني مخططى للبحث عن نهاوند.

ووُجِدَتْ نفسي أصارحه، دون أن أزيغ عن سياق الحديث

— عندما كنت أعزف قصائدي وأنشدها، كنت أستحضر نهاوند وأخاطبها، كنت
أنها تسمعني وتراني، فأغنى لها، وأشاهدها وحدها وهي تشير على بيدها أحس
هذا المقطع، أو لأكرر هذه الجملة الموسيقية الحزينة. ولكن، حين تشتد لأعيد
تصفيقاتكم وتتعالى أصواتكم، أستقيق على واقعي، وأدرك أنها قصيدة عني وأني
أغنى لجماعة من السكارى ومستخدمي الحان، فيتضخم حال وضعى النفسي المأزوم
بالاغتراب، فأسكبه في القصيدة المغنى نفسه، وأعود لاستحضارها

أَنْيَرِي مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَفَلَ الْبَدْرُ

وَقَوْمِي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأْخِرَ الْفَجْرُ

إِنَّهَا الْقَصِيدَةُ نَفْسَهَا الَّتِي كَانَتْ تَسْتَهْوِيْهَا، فَلَا تَمْلِي سَمَاعَهَا مَرَاتٌ وَمَرَاتٌ

السيارة تلتوي بين منعرجات الجبل على مشارف بحر الظلمات نحو إقامتى،

وشكري بعد أن أنصت في ذهول لما صارحته به، قال لي

— إِذَا كَانَ وَرَاءَ كُلِّ مَبْدَعٍ شَيْطَانٌ، فَأَنْتَ وَرَاءَكَ شَيَاطِينٍ

سكت ينتظر ردّي، وحين لم أجبه، أضاف

— صدق المعاصرون متاؤلوك بالدرس إذ نعtoo بأدب الفلسفة وفيلسوف الأدباء،

في لكنهم أغفلوا الحديث عن علمك بالموسيقى والغناء، ربما لأنك لم تتحدث عنهم
مؤلفاتك، ولا القدماء أشاروا إليهما على ما أظن!

هو يتحدث، وأنا مأخوذ بجمال الليل، وعبر بحري بارد، يتسرّب من نافذة السيارة
المفتوحة على يميني، فانتبهت، وأسرعت بالقول:

لا — إني أجهل ما قيل عني بعد وفاتي، لكن ما أعلمك عن نفسي، إني سوّدت أوراقاً
تحصى عن علم الموسيقى والغناء، وعن ليالٍ في الإمتاع والطرب كنت سيدها،
ويقيني أنها لم تتجو من قبضة النار مع غيرها من مؤلفاتي، وإنني لأخال أن ما
وصلكم منها، لا يمثل سوى نزر قليل مما تبقى محفوظاً لدى خلاني
ظل شكري مشدوداً لما أرويه عن نفسي، فأضفت قائلاً

— إن ما يهمني اليوم هو مصير نهاوند، وأريدك أن تساعدني في البحث عنها
أدار برأسه نحوي، وقال محتاجاً

— نهاوند نهاوند، ألا تحاول نسيانها، إنها بعيدة عنك مسافة عشرة قرون، يستحيل
أن تظل على قيد الحياة.

اعتلت في جلستي، وصرخت فيه

— عن أي استحالة تتحدث وأنت تشاهدني حياً أرزق، إن الذي استعادني للحياة من
جديد، قادر على استعادتها من جديد.

قاطعني

عملة ثمينة — لو أن الأمر كما تقول لعمّ خبرها العالم بأسره. اسمع يا أبا حيان. إنك
إعلان وجودك، فريدة، وفي حياتك الجديدة هذه، سوف تلتقي بنهاوندات، إن مجرد
الظفر بالتعرف إليك حدث فريد في تاريخ البشر، سيجعل نساء الدنيا تتسابقن إلى
قاطعنه

— ما كنت زير نساء حتى أسخر علمي لاستمالة النساء. أنا مكتف بامرأة واحدة
ساقها القدر في دربي، فاصطفيتها عن بقية نساء العالم، وحبي لها ليس حاجة
عضوية تتشد الإشباع حتى أسعى إلى أخرىات. إبني في سني وتجربتي وثقافي
تخطيت مرحلة الانجداب الجنسي إلى ما هو أعلى وأسمى

— ترید القول بأنك عاشق عذري؟

ابتسمت مدركاً أنه لم يفهم ما أرمي إليه، فأجبته بصيغة تهكم، سائلاً إياه

— أدرك حقيقة الحب العذري؟

صدرت عنه ضحكة متغطرسة وكأني سأله عن لون الماء، وأجاب مزهواً بعلمه

— الحب العذري واضح كالشمس، فهو حب مثالي، مأساوي، يرجح بطلاه متعة على متعة الجسد، فيرتبطان بعلاقة تشبها العفة والطهارة إلى غاية حصول الروح الزواج. إنه واقعك أنت مع نهاوند، أتريد مزيداً من الشرح؟

لم أقو على كبح امتعاضي، قلت له

— إني لا أسعى إلى الزواج من نهاوند، فهي أصلاً زوجي، ثم إنك لم تصب في شرحك، بل كررت ما سال الحبر عنه في الكتابة والكلام، أي نقلت ولم تجتها، وليناك نقلت ما هو مفيد. ولعلمك يا شكري، فإن العاشق العذري رجل أنانى، مريض، شهوانى، يبالغ في حب نفسه، متوهماً أن ذلك الحب هو لمعشوقته قبل أن أسوق له أمثلة على ما أقول، قاطعني محجاً

— الآن دخلت في الهرطقة، تتفى الحب العذري من أساسه، تتفى قصة جميل وبثينة وقيس وليلي وعروة وعفراء، لا، لا، إنك أنت من ابتعد عن الصواب.

أسرعت بالرد:

— دعني أنهىرأيي وقل بعد ذلك ما شئت، ثم إني لا أنفي قصص من ذكرتهم من الشعراء. غير أن ما يستمد من قصائد جميل، أنه لم يكن يحب بثينة بقدر ما كان يحب نفسه، ولا كان يرغب في الزواج منها أصلاً، وإلا، ما كان ليتغزل بها في التي أشعاره علانية وهو المدرك لتقاليد قبيلته التي تمنع زواج من يشبع بالمرأة حبه عن يريدها زوجاً. فلو كان جميل قد أحب بثينة وأراد الزواج بها، لكن كثم وتقاليدها، الناس، لا أن يقوم بإرادته الحرية ليعرقل زواجه، متحدياً أعراف قبيلته وترغب في مفضلاً أن يظل عاشقاً على أن يصبح زوجاً، وإذا كانت بثينة تحبه صحيحاً ما ينسب الزواج منه، ما كانت لتتباهى بعشقه وتعلنه أمام رفيقاتها. فليس متعة جسدية روحية يحسها رجل يختلي بأمرأة في عصمة غيره، إن لم تكن متعة جسدية روحية يحسها رجل يختلي بأيا حيانته، إنما بالله عليك، قل لي، في أي خانة

— دعني أهزبك ولو مرة واحدة يا أبا حيانته، إنما بالله عليك، قل لي، في أي خانة تصنف حبك لنهاوند؟

— ليس من الضروري أن نصنف عواطفنا في خانات، وكأنها أراء في الشعر أو

الموسيقى. بالنسبة لي، أحب نهاؤند وكفى، فبعد أن اتخذتها زوجا، وعرفتها، وعاشرتها، عشقتها فلم أطق فراقها

— ألم يكن جمالها سبب عشقك لها؟

الغرباء — جائز، بيد أن في الحب دوما إبهام، فما يراه المحب بعينيه قد لا يراه العاشق بأعينهم، ولعل رأي هذا يقترب من رأي صديقي الجاحظ الذي قال: "إن الموصوف كثيراً ما يعشق غير النهاية في الجمال، ولا الغاية في الكمال، ولا بالبراعة والرشاقة، ثم إذا سئل عن حجته في ذلك لم تقم له حجة".

هكذا هو حبي لنهاؤند. ولعلمك يا شكري، فإني أميل إلى تصديق المقوله الشائعة بأن في حياة كل رجل امرأة واحدة.

ضحك وأخذ يردد الجملة نفسها، وطلب من السائق أن يتهمل في سيره، وقال لي لا داعي لمزيد من الشرح، أنا أشاطرك رأيك.

سرح يفكر، وكأنه يبحث عن شيء غاب عنه، وقال

حبها — أنا أيضا من طينة من تصدق عليهم تلك المقوله، فالمرأة الأولى التي استقر البيضاء في قلبي ظلت الأخيرة، وغيرها كثيرات، لكنهن مرن كالسحب الصيفية

فتح نافذة السيارة وألقى بعقب سجارتة خارجها، وسألني

— هل ترغب في سماع قصة حبي الأول، تصور أني لم أبح بها لأي شخص، ولم عنها شيئا، لكنني في هذه اللحظة تتفتح شهيتي للحديث عنها، قد يكون حنيني أكتب يدعوني لتلك الأيام أو شوفي إليها، أو لعل افتتاعي بحصافة رأيك في الحب هو الذي لأحدثك عنها.

— هات ما لديك يا شكري، أسعد لسماعك

نطقت جملتي بمودة لا تخطئها الأدن، فمن غير اللائق أن أطلعه على مكنونات قلبي، ولا أن أمنحه وقتاً ليبوح بلوائع عشقه، فقال

— بدأت حكاياتي مع زبيدة منذ حوالي ثلاثين عاما، لا، أكثر قليلا، فقد كنت حديث الالتحاق بمدرسة المعلمين في تطوان. آه زبيدة

غمراه الضحك إلى أن انخرط في السعال، وأضاف

— أتعرف ما يضحكني؟

لا أعرف!

أجبته، وصمت قليلاً ليطعنني على مصدر ضحكته.

— بالطبع لا تعرف، بالسخرية القدر، ضحكتُ من نفسي، إذ صرت مثلك، أتحدث عشق قديم كاد الزمان يتلفه. ما علينا، كانت زبيدة قد جاءت إلى منزل والدي عن لحضور حفل خطبة شقيقتي مليكة، معناه أنها إحدى صديقات أختي. في تلك السويعات من ذلك المساء التطاواني البعيد، وقبل أن يقع بصرني عليها، كنت قد اتخذت مكانٍ فوق مقعد خشبي شاغر دون إرادتي، فقد كان قصيراً وبدون متكاً بأني للظهور، لكن ما أن لمحتها وانتبهت إلى وجودها على خطوة مني، حتى تأكّد لي ما كنت لأختار غير ذلك المقعد.

وغمري زهو الشباب وأنا أطوف بعيني أستجلي وجوه النساء الحاضرة في الحفل، هذه عبوس ذات وجه مستدير كوجه الفلاحات، وتلك شبيهة ببقرة عجفاء، والأخرى لتنتمي أقرب إلى رجل منها إلى امرأة، إلا زبيدة، كانت بأنوثتها تنثر الدهشة، تشدق متلبساً فيها رغم أنفك، لها عيناً ظبية مشرقتان ضاحكتان، صوبتهما نحو يتي تجذبني بالقرس فيها، أراحتهما عنّي وانشغلت بلا شيء.

نفسي، إنها الخطوة الأولى، قلت في داخلي، وستليها خطوات أجراء، وانشغلت بتقويم مركز اجتماعي هل أنا قادر على استمالتها، وحسبني أنني أيضاً كنت شاباً وسيماً ذا أحسد عليه، كنت طالباً في مدرسة المعلمين.

كان على غير عادته يتحدث ببطء شديد، وكأنه يرتجل حكاية يسردها لأول مرة، فاغتمنت لحظة توقف خلالها متذكرةً، وسألته:

— أحسد لأنك طالب علم؟

— بل أحسد لأنني أتقاضى راتباً شهرياً، وأنا بعد أخطو نحو العشرين من عمري أجانبي، وأضاف:

— قبل أن ينتهي الحفل وتغادر زبيدة المنزل، أقسمت جازماً بأنها سمة في شبكتي، فقد همست لي مرتبكَة:

— سأترك عنواني لدى شقيقتك مليكة.

سررتُ وقبل ذلك، وبالرغم من أن الظرف لم يتح لنا وقتاً لتبادل أحاديث مسائية، فقد ضخم في عبر أذنها، جملة تختصر مؤلفاً كاملاً في العشق، وهمست لي بمُؤلف كبير الهوى، مختصر في جملة قصيرة.

تملكني الضحك انتشاء بأسلوب شكري السجي وسألته في عجلة من أمري

— ماذا قلت لها، وماذا قالت لك؟

— أنت التي كنت أبحث عنها قبل أن أولد، لن أُعشق غيرك.

صرخت بهذه الجملة مرتين حتى تلقطها أذن زبيدة، ذلك أن الحاضرات كن يرددن أغنية مع صوت الراحل "محمد فويتچ" المنبعث من أحد التسجيلات، وفي غمرة تعالى تلك الأصوات النسائية، صرخت بدورها تجنيبي

— اطلب عنواني من مليكة، واكتب لي

وتناولت منذ تلك اللحظة وأنا أذوب عشقاً في تلك الأغنية، كلما تناقلت إلى أذني إلا بعقب معها تلك الأصوات الصافية لأولئك النسوة الحاضرات في الحفل، ممزوجة لا العطور والأضواء، ودهشتني، وفرحي، وقلبي الصغير ينشغل، لأول مرة، بشيء يوصف، يسمونه الحب الأول.

وأخذ يردد مقطعاً من تلك الأغنية باللهجة المغربية

قولولي ماله غير حله... قولولي مال الاشقر آش جراله

توقف عن الغناء وكنا قد اقتربنا من فندق السراب، فعدت أسأله

— ماذا بعد ذلك، كيف التقينا؟

— لم نلتقي، أو بالأحرى التقينا بعد عشرين عاماً، قال ذلك وسكت. كانت السيارة تلتوي بنا بين منعطفات الجبل، بطيئة في حركتها، وكان ضوء القمر الساقط على صفحة البحر أخذاماً مثيراً لشجوني، فمزقت الصمت بسؤاله

— لم أفهم شيئاً، ألم تراسلها؟

— أبداً، بقىت أنتظر أن تحصل أختي على عنوانها أياماً طويلاً، ثقيلة، وكأنني في انتظار يوم القيمة، إلى أن حلّت الصدمة الأولى.

أسرعت بسؤاله

— أي صدمة؟

— رفضت أن نتعارفا

أجابني، ثم تابع حديثه

— بعد أيام أخرى وقلبي تنهشه النار، عادت أختي تخبرني بأن زبيدة تزوجت، وسافرت لتقيم في مدينة سبتة المغربية السليبة

توقف وكأن بحجرته غصة، ثم أضاف برنة حزينة

— أبا حيان، لا تقلل من شأنني فتخلع على حكما كالذي أصدرته على العشاق
أخفيك أني العذريين، ذلك أن حبي لها ظل عذرياً مثالياً، دون أن أطلع عليه أحداً، لا
منشغل بها، حاولت أن أنساها، لكن أي نسيان، ففي كل لحظة، كنت أجد نفسي
أغمض عيني أو أهرب منها إليها، فاستسلمت لقدي. صار حلمي تعويضاً لواقعي،
مروضاً يركض بي إلى أتركمها مشرعين، فأخال نفسي فارساً مغواراً أمنطي جواداً
صدره سيفي، وأهرب حيث زبيدة، فأنتشلاها من أحضان زوجها بعد أن أغرس في
ثم أخال أشياء أخرى، بها بعيداً إلى منزلتي في جبل درسة المطل على بيوت طوان،
إن المرأة تنسيك في: وهكذا دوايلك، إلى أن التقطت أذني ذات يوم، حكمة تقول
الأخرى.

هلالت لهذه الحكمة، وهمت باحثاً عن امرأة تنسيني زبيدة، تلغيها من وجدي،
راحمت تطردتها من أحلامي. التقى بالمرأة الأولى، وبالثانية، والخامسة، ولا واحدة
دون أن زبيدة، فزادت قناعتي بأنني كنت أفتش عنها في كل امرأة أتعرف إليها،
شراعي. أجدها في امرأة واحدة، فعاد مرکبی لمذهب الريح. فقدت سيطرتي على
بعد صارت تتقاذفني نساء الليل واحدة لأخرى، وحانات طنجة تعصرني واحدة
أخرى.

شكري يروي سره، وأنا أرخي أذني لسماعه في أقصى حالات اهتمامي، فقد كنت
أحس صدقه في كل كلمة ينطق بها، واسترسل في سرده

بسبب — في تلك الأيام كنت قد عينت مدرساً في طنجة، لكنني لم أقو على التدريس
أبا حيان، محتني وكأساتي، فأُسندت لي مهمة أقل عناء، معيد في الإداره. لن أخفيك
بعد ذلك متعة أذني في تلك السنوات الأولى من عملي انكببت على القراءة، لأكتشف
هي مستعصية، إن لم الكتابة، إنك أعلم مني بحالها، فأنت الكاتب المقتدر، تدرك كم
وأقعده في كتابات تمرئية، تمنحها نفسك لن تمنحك نفسها. هكذا، صرت أقيم الليل
عنها جميعها، لكنني بما إلى أن راكمت قصصاً ومسرحيات وروايات لم أفرج
ونفوذاً لم يتكرم عليّ بهما نشرته منها أكسبني مصالحتي مع ذاتي، حقق لي سلطة
لي موقعي في جغرافية الإبداع، إلى أحد، ولا يستطيع أن ينزعهما مني أحد. أصبح
رأيهم وليس رأيي. المفيد أني ما عدت أن قيل عنني، الكاتب المؤرخ للمهمنين، هذا

نهاراً، إلى أن قابلت زبيدة. أجل التقيت بها، اقرب الشراب إلا ليلاً، أؤمن حين لا آخر للبن، وصارت شمسي في منحدر غروبها، هي لكن بعد أن كان الصيف قد ضيع بمودة تحسد عليها، لم تنج من قبضة فصل أيضاً بالرغم من أن الزمن عاملها بكمشة أولاد، تجر وراءها خيبة زواج فشل في الخريف، فقد جاءتني بكاهل متقل تعانبني أيامه الأولى، وفقتْ أمامي

لماذا لم تراسلي، فقد ناولت شقيقتك عنواني مرتين؟

— سألتني دون مقدمات وكأننا لم نفترق سوى أمس، وبإرادة مشلولة انبرى لسان حال يحثها على إعادة السؤال، متمنياً أن تكون أذني قد أخطأت سماعها

تلك كانت الصدمة الثانية، أن أعلم أن شقيقتي من حال دون تحقيق سعادتي. خطأ وكانت فادح، أو تافه، بالنسبة لي اليوم سيان. إنما لولاه لكنت ربما شخصاً آخر، زبيدة امرأة أخرى، أتسوّب ما أقوله يا أبا حيام؟

— إني معك قلباً وقالباً، يالمضاضة ظلم ذوي القربى! إن ذلك كان مكتوباً في لوحك قبل أن تولد.

أجبته، فعاد يضيف

— ليتني ما علمت بذلك الخبر، فقد وصل بعد فوات الأوان. كان أثقل مما أتحمل، تصور، مجرد خطأ يرتكبه شخص يُحول مجرى حياتك الهدئة إلى شقاء دائم. كنا قد وصلنا إلى فندق السراب، وكان الأفق يعلن انهزام الليل

(28)

فجمعت بين فتحت عيني، فوجدت الظلام يخيم على غرفتي. لعل نومي كان ثقيلاً بدت لي بعيدة النهار وجاء من الليل. فكرت في آخر ليلة قضيتها مع محمد شكري، مجرد حلم. لا و كان شهوراً مرت عليها فغيبت بعض تفاصيلها عن ذهني، قد تكون أدربي

مفتاح حاولت أن أغفو ثانية، فلم أحس بأدنى رغبة في النوم، امتدت يدي تبحث عن للمرة الكهرباء، لم تجده في مكانه، فكرت في أنه كان على يميني، أعدت الكرة أفرش الثالثة والخامسة دون جدو. داهمني بعض القلق، بعد أن اتضح لي أنني لأتحقق الأرض ولا وجود لسريري، لا وجود أيضاً لوسادتي. مسَّتْ وجهي بيدي

الحالة منذ من وجودي أنا أيضا، فازداد ذعرى، إذ حسبته وجه رجل آخر لم يقرب
شهور أو سنين.

اشتد نبض قلبي، وارتفع هديره إلى أن وصل أذني، تشتت ذهني. أسئلة كثيرة
تراحت، فانحبت في داخلي. أغمضت عيني وسط الظلام على أسترجع رشدي،
يُعقل أن القى بجسدي فوق سريري وأنام، فأصحو لأجد نفسي أفترش الأرض، لا
لحيني، وكأني لم ألحقها منذ سنين وتطول.

أكون بداخل قبري؟ من أين لي أن أدرى! رفعت يدي لأمس سقف قبري. لا، هذا
ليس به سقف.

لعله قبر ضخم يسع قامة رجل واقف أو مدد

تحاملت على نفسي إلى أن انتصب واقفا، ففطنت إلى أنني خائر القوى. بصعوبة
أقف على رجلي. أرسلت يدي في كل اتجاه دون أن يعترضني سقف أو جدار، لكن
قدمي تعثرتا بقطعة قماش صلب حسبتها وسادتي أو جزءاً من سريري، وحين
لأنقطعها تبين لي أنها سرج حصان، وبجانبها قطع حديدية لم تكن سوى انحنىت
الحصان ركاب سرج.

من جاء بها إلى غرفتي؟

لم أفهم شيئاً، أو بالأحرى أجّلت أن أفهم

لكني حين تعثرت رجلاً بالخنجر، وتحسست مقبضه وغمضه والجرين الماسيين
المرصع بهما، تطوير صوابي من شدة ذعرى.

لم يبق ما يمكن تأجيله، باعثتني أجوبة متخفية تفضح ما احتبس في داخلي

صرخت مستجداً بإله السموات والأرض، عسى أن يدراً عنى كابوس هذا الحلم،
فأنا لست في المغارة بل في غمرة وهم الحلم.

عفى الله عن المغارة منذ أن أخرجوني منها، وأركبوني الباخرة العملاقة محاطاً
بحارسين، وكأني من قطاع الطريق.

كل شيء كان واضحاً جلياً. مفوضية شرطة المبناء، الحاج ابراهيم ضابط الشرطة
الممتاز ذو العينين الصغيرتين المطلتين من وجه طويل بشارب ممزوج بالشيب،
والشرطي البدين المكرش الذي جرني من قفayı لأنني كلب، والآخر النحيل أصفر
الوجه من تولى تدوين محضر استنطافي. لا لست في المغارة. إني في حالة حلم

عاير سأصحو منه قريبا، سيكون لي معه شأن.

جرجرت رجلاي خطوات باحثا عن منفذ أغادر منه الغرفة، سأكسر بابها حتى وأنا أبني في حال الحلم، لكن جبيني ارتطم بأحد الجدران لينبهني ألمي إلى صحي، إلى الألم حقيقة قائمة في أقصى حالات وعيي وإرادتي وشعوري، في كامل إحساسي والخوف والقلق والتذكرة.

إذن، لا غبار على حقيقة وجودي في المغارة بمدينة المنقب، سرج حصاني وركابه إليه وخجري وثيابي يشهدون بذلك، ولكن، لم لا أكون بأحد السجون؟ نقلني القضاة أثناء نومي، وأحضروا أغراضي من المغارة! كل شيء محتمل الوقوع

أن أكون سجيننا بداخل حجرة في أحد السجون، محتمل جدا، إنما أن يتولى القضاة حبسى دون محاكمة، فهذا بعيد الاحتمال، لكن الشرطة يمكنها ذلك، ولو من قبيل القضاء الانقام، فهي الوحيدة التي لم يقنعوا دفاعي عن نفسي، وبعد أن أحالتني على سلامتي من كل متلبساً بجريمة الهجرة السرية، تلقت أمراً بحراستي والحفظ على الارتباط، على الأقل من مكروه وأنا أقيم في أضخم فندق في البلد! شيء يدعوه إلى وجهة نظرها.

المغارة لا، لا يعقل أن أكون في المغارة، فأغراضي كوسائل إثبات على وجودي في أعمدة لن ترجح على شهود عيان عاشرتهم في طنجة، وما شاهدته وما خبرته الظلمات. الكهرباء المثبتة على جوانب طرق معبدة. فندق السراب المطل على بحر أخرى. دركات ثلاث تقضي بك إلى داخل مطعم ريتز في شارع موسى بن نصیر هناك في تتصعد بك إلى مطعم بيركولا المواجه للميناء والبحر الأبيض المتوسط وأنشدت الصالة المشرفة على البحر، قمت بدوزنة العود الذي جاءني به شكري، من جيلي، ضمتنا الحضور أحلى أغاني عليه بنت المهدى البغدادية، آه عليه! إنها وصديقي أبو مجالس عامة وأخرى خاصة رفيعة. غنت لنا وغنينا في حضورها أنا الغناء بالرغم من ناصر الفارابي، لكن ابن مسكويه الحاضر دوما، لم يكن له في الآن فهو أيام طنجة، تلك إجادته الاستماع، تلك حكاية قديمة حقيقة، أما ما يشغلني مجرد حلم؟ التي تتماهى بين الحقيقة وال幻梦， هل يمكن أن تكون في مطعم بيركولا، ارتمى علي شكري مقبلًا رأسى ويدى، اغزورقت عيناه بالدموع وهو يخاطبني

— أنت أعظم فنان في هذا العصر.

الملتوي، أسرّ في تلك الليلة ذاتها، بعد منتصفها، والسيارة تختال بنا في طريق الجبل غيري لي قصة حبه الأول، تلك الحكاية المثيرة التي لم يبح بها لأحد.

إذن عشت في طنجة، واقع يشهد به وكيل الملك والوكيل العام ووزير العدل نفسه، من أين لي بهؤلاء الشهود؟

أعياني وقوفي، فتهاكك على الأرض، جلس القرفصاء، وهمت مفكرا، زكمت أنفي على رائحة رطوبة عطنة، هي الرائحة ذاتها الموجودة بالمغاربة القديمة. عدت لأقف في المغاربة قدمي، ودلفت بين أرجائها باحثا عن منفذ بها، فلم أمس سوى ما لمسته في مرأة ثانية؟ السابعة، أ تكون هي ذاتها؟ بماذا يمكن لي تفسير عثوري على نفسي بها أيعقل أن أحمل من فوق سريري بفندق السراب بطنجة ويلقى بي داخل مغاربة لا منفذ بها في مدينة أندلسية ثانية؟

إما أني عشت في طنجة حقيقة وعودتي للمغاربة حلما، وإما أني لم أغادر المغاربة أبدا فتظل أيام طنجة حلما

ذلكم هو المنطق القوي، هو ما يدل عليه سرج حصاني الذي حملني من فاس إلى طنجة، وخجري الذي رافقني من بغداد إلى هذه المغاربة في الأندلس، وسرابولي لأستريح وثيابي ولحيتي الكثة الطويلة، بمعنى أني لم أغادرها منذ أن ولجتها بإرادتي بها ليلة واحدة.

لا يعقل أن أنم عشرة قرون، لا يعقل أن يعيش المرء حاضرين في زمانين يبتعدان عن بعضهما عشرة قرون!

الآن، ولو أني كنت في حالة حلم، أقتصر إلى سبب رفض المغاربة تصديق قدومي إليهم من عصري العباسي البائد، أنا نفسي لم أقبل بذلك!

إن الحقيقة الصارخة القاسية هي التي أواجهها هذه اللحظة، هي استيقاطي في محاصراً المغاربة بعد نومي بها ليلة أو ليلتين، ولربما قام أحدهم بسد منفذها فبقيت بداخلها.

أما صحوتي السابقة وخروجي من المغاربة فقد كان مجرد حلم، تماماً مثل أنس طنجة، فلم أتعرفهم سوى في الحلم.

من يؤكد لي حقيقة وجود رجل يدعى محمد شكري مقيم في طنجة؟

إنه شخص هلامي من الشخصوص الحاضرة في الحلم، وبالرغم من ذلك فإن مرافقته
أدفأته أيامي وليلي، وكأنني عاشرته حقيقة
وراء ما يؤكد أن ما حدث كان حلماً، هو قوله ذات ليلة إن الحضارة الحقة تأتي من
أني البحر، من لدن الغرب المسيحي، ونحن العرب مجرد مستهلكين لها، الغريب
صدقت ذلك!

أتذكر في السياق نفسه، جواب وزير العدل بعد أن سأله
ـ من تعني بغير العرب؟

ـ أقصد الغرب المسيحي، فمنذ النهضة التي شرع فيها قبل خمسة قرون، ونحن
ظاهرة لأبحاثه واكتشافاته، ويكتفي إخبارك بأنك أنت شخصياً أبو حيان التوحيدي
وقع التبيه إليك، وإلى مؤلفاتك من لدن الغرب قبل العرب
يا لضعف الإنساني وهشاشة عقلي في غمرة الحلم، فقد سلمت بهذه الأخبار وهي
تنافي المنطق!

من يصدق أن من كان وراء اكتشاف قيمتي العلمية والفكرية ونبه إلى مؤلفاتي هو
الغرب المسيحي؟ مهزلة! بهتان!

أما الشخص الآخر وكيل الملك، أحد الشخصوص الهلامية في مشهد الحلم، فقد توغل
في الهميان، حين زعم أن الأندلس سقطت في قبضة النصارى إمارة، خرافة،
لدغة أحلام! هذيان حقيقي!

أحمدك يا ذا الجلال والإكرام، أن ما وقع كان مجرد حلم، وأن الأندلس مفخرة
والشعراء، إنها العرب لا تزال عدوة مغربية إسلامية منبثاً للعلماء والأدباء
هناك، مثلما العراق الحبيب قوة شامخة هناك.

أي معتوه هذا، سيخطر بياله تعرض العراق للدمار والنهب؟ ومن قبل من؟ من لدن
دولة غير موجودة! أوجدوها في حلمهم وسموها أمريكا! أو بالأحرى أنا من
استبطها في حلمه، أنا من خلقهم جميعاً في حلمه! يا لخرافة أحلام المغاراث
عمرها من يقوى على هزم خلافة إسلامية عربية مسيّحة بأشقاء مسلمين عرباً؟ دولة
سومر إلى كما قيل في الحلم، خمسمائة عام، تهزم العراق، منبع حضارات الدنيا من
حضارة الإسلام؟ خرافة، هراء، كلام قيل في لحظة لا وعي
استقمت واقفاً وخطوت إلى الأمام ورجعت إلى الخلف، ثم عدت فجلست على

الأرض وأنا لا يشغلني سوى هذا الحلم.

لكن الأحلام لا تنداعي بهذه التفاصيل الصغيرة الدقيقة الواضحة، وكأنها الواقع المعيش.

لعل الأمر يتعلق برؤيه وليس بحلم. أحداث الرؤى ترسخ في أذهان أصحابها دون أن تتباين أو تتلاشى كالأحلام.

بكل تأكيد هي رؤية حقيقة، من تلك التي يخص بها الله عباده من الصفة الصالحة الزاهدة في الدنيا.

ألم أكن زاهدا في حياتي العراقية والإيرانية؟

لكن الآخر الموجود بداخلي يلح أن اعتبرها مجرد حلم، ذلك أن الرؤى غالباً ما سلام على تتحقق، وإذا ما كتب لهذه أن تتفذ إلى الوجود فتتجسم واقعاً عيناً، حينذاك مستضعفة، الأندلس، سنغادرها لتصبح حضارتنا في خبر كان، سنتحول إلى قبائل أنا في صف بشرا، حيوانات ترعاها حضارة مسيحية جديدة، لا لأن تكون رؤيا، أنها رؤيا، الآخر الموجود بداخلي، أقول معه، أن من يملك ذرة منطق، لن يصدق لتجارب لن يصدق أننا العرب مصدر العلم والوعي سنصبح منقرضين، ظاهرة عابر منفلت، حلم غيرنا، أبداً أبداً، ليست رؤيا، ليست عالماً ممكناً، إنها مجرد حلم مضحك، يدعو إلى الشفقة!

إني في المغاربة الأندلسية، ليس لي من مؤنس سوى أحالمي، حلم طنجة كان الوحيد لأظل حيا، أما ما يحدث في الواقع، هو أن خلاني المغاربة في متفسري يبحثون عنـي، سوف يهتدون إلى مكاني، وسأنضم إليـهم لنـكمـل رـحلـتـنا إلى اـنتـظـاري المـسلـمةـ العـربـيةـ، سـنـتـبارـىـ فيـ سـرـدـ أحـلـامـنـاـ، فـجـمـيـعـنـاـ أـقـمـنـاـ فيـ مـغـارـاتـ يـشـبـهـ غـرـنـاطـةـ بـعـضـهاـ الـبعـضـ.

تنفيذاً آه نهـاـونـدـ، الحـبـيـةـ الـبـغـدـادـيـةـ الـغالـيـةـ، لاـ رـيبـ أـنـهاـ فيـ طـرـيقـهاـ إـلـىـ غـرـنـاطـةـ مـسـامـعـهاـ لـاـنـقـافـنـاـ، سـأـلـتـقـيـ بـهـاـ صـبـاحـ يـوـمـ جـمـعـةـ فـيـ جـنـةـ الـعـرـيفـ، سـأـقـصـ علىـ تـفـاصـيـلـ حـلـميـ الـمـغـرـبـيـ، وـكـيـفـ تـعـرـفـ إـلـىـ مـحـمـدـ شـكـرـيـ وـنـبـأـ ضـيـاعـ الـأـنـدـلـسـ، وـتـعـرـضـ الـعـرـاقـ للـدـمـارـ وـالـنـهـبـ، سـتـضـحـكـ مـثـلـيـ.

لكن حتى أنتقـيـ بـهـاـ، عـلـيـّـ أـنـ استـجـمـعـ قـوـتـيـ لـأـعـودـ إـلـىـ قـرـعـ الجـدـارـ يـاـلـهـ مـنـ حـلـمـ غـرـيـبـ.

بحثت عن خنجرى، أمسكت به وطفقت أفرع الجدار وأصرخ، لكن لا أحد انتبه إلى قرعى أو سمع صراخى، فاستبدلت بخنجرى سرج حصانى، نزعت الركاب عنه به ذا الجدار وذا الجدار، محدثاً ذرياً يخترق سمع الأصم، لا أتوقف وصرت أفرع أن يكلّ مثني، وأعيد القرع والصراخ مرات تضيع في العد، إلى أن صار إلا بعد بأن هذا الجحر المسكون بالظلم والأحلام، سيكون لا محالة قبري يقيني بعد أن استسلمت لقدي، وسقطت على الأرض ناطقاً بشهادتي، ذوى في أذنى لطرق من الخارج، بعد لحظات تأكد لدى الطرق بوضوح لا لبس فيه، صدى بالدموع إعلاناً عن ولادتي من جديد، إذن أنا هي أرقى. وقف، وعدت ففاضت عيني الجدار وأصرخ لأفرع — أنا أبو حيان، أغاثوني.. أغاثوني.

(1)

مسمراً فوق مقعدي بقيت طيلة المسافة الفاصلة بين الميناءين الإسباني والمغربي، المتوازيين على دون أن أهتم بأنني أجبرت على الجلوس بأمر من الشرطين تلك الهوة السحرية التي حرستي، فاهتمامي الوحيد كان مصوبًا إلى ما بداخلي، إلى باعدت بيبي وبين كل ما يحيط بي

من كان الطقس دافئاً مشمساً، والأمواج متراخية غافية، كأنها تخشى إيقاظ البحر سباته، وبعض راكبي الباخرة يصعدون إلى شرفات سطحها ناشدين تأمل الأفق أو التزود بمحنة مشاهدة البحر، أو ربما كان الطقس نقىض ما توقعت، مكهرًا مضطرباً، والبحر في أشد هيجانه، تتعالى أمواجه وتتلطم، فتعترض سير السفينة ساعية في ابتلاعها

من أين لي أن أعرف كل هذا؟

من أين لي أن أعرف ما كان يقع خارج دائرة نفسي، وكل اهتمامي كان منصبًا على مصيبة؟

كنت أحس أن خيطاً رقيقاً يربط ماضي بحاضر ي SIN قطع بين لحظة وأخرى، فأنفصل عن أحد الزمانين، وأدور في أبدية لا نهاية لها

هكذا كنت في حالة خارقة من الذوبان في دواخلي، وحين كنت أجرؤ على التفكير

ما عادوا فيما يجري حولي، أجده منفراً مقرزاً، فالاماكن لم تعد هي الأماكن والناس ما أفتته هم الناس، والروائح لم تعد هي الروائح، والكلمات، والإشارات، وكل حواسى، اختفى واندثر، وحل مكانه الهمام.

الباخرة العملاقة نفسها، لم يستوعبها عقلي، فقد ظننتها قسراً خرافياً تسحبه الشياطين بخيوط غير مرئية فوق أمواج البحر.

وقلت لنفسي، لا يمكن لهذه أن تكون باخرة، فليس بها رجال ذوو قامات مديدة وسواudes مفتولة يتذابون على التجديف، أو أشرعة ما تدفعها إلى السير بهذه السرعة!

إن لم يكن عالم السحره والشياطين، فهو عالم آخر أجهله تماماً وعرا، انتصبت واقفاً بأمر من الشرطين وخطوت رفقتها، انحدرنا في سلام ضيقه شاسعة فذهب ظني إلى أنها ستفضي بنا إلى بئر سحique، لكنها أسلمتا إلى باحة فولادية السقف والأرض والجدران.

كدت أختنق من رواح قوية عافتها نفسي، ومن هدير كدوبيّ رعد متواصل صادر إحدى زوايا تلك الباحة، شموع قصيرة مثبتة في سقفها لاطفئها أتعى الرياح، من العدوة هي الشموع ذاتها التي أفرزعني في الليلة السابقة بعد أن أُلقي على القبض في الأندلسية فحسبتها عيون شياطين، وتراءت لي كوة ضخمة مرعبة تقضي إلى فولادياً لم الخارج، لكن بعد أن غادرناها تبين لي أنها باب كبير، وأن ما ظننته سجنا يكن سوى بطن السفينة الخرافية العملاقة.

واستقبلاني فضاء مزعج مضاء بسُرَّاج مثبتة هنا وهناك، لا تبدد الظلام القائم فحسب وإنما تُحِيلُّ نهاراً متألقاً.

سرت محاطا بالشرطين، أستدير برأسى يميناً ويساراً، فضغطت بشدة على عنقي جواد لأنبيين إن كنت حقاً أعيش هذا الواقع وأنني لست في حلم، وانتقض قلبي مثل امرأة أخرى جموج حين شاهدت "نهانوند"، لكن، منذ الوهلة الأولى، تبين لي أنها نهانوند" ظلت "تشبهها، فلم أغضّ الطرف عنها إلا بعد أن تعثرت في سيري، لكن الخفية إلا من خلال مشعة في ذهني، فتذكرت أنه لم يسبق لي أن تحسست مفاتنها الحياة كما يفعل مرافق أصابع يدي ليلاً في مضجعي، وليس أمام الملاً ودبب حركة عن مفاتنها بتلقائية، ورجال المرأة الشبيهة بها. نسوة آخريات كن يسرن وقد كشفن

خجل أو وجل أز الوالحاصم وشواربهم وقصوا من شعر رؤوسهم دون

إلى ولجنا داراً كبيرة كتب فوق مدخلها "مفوضية شرطة الميناء"، عرفت أنني أدخل
دار الشرطة، وأن الرجال أصحاب الأحزمة الجلدية والقبعات الغربية هم من
الشرطة، وأشاروا علي بالجلوس فوق مقعد خشبي إلى جانب رهط من الناس،
فجلست.

جاء شرطي بدين وأمسك بقفاي، ثم جرني من بين الجالسين إلى مكتب فسيح،
اسمه وأمرني بالجلوس فوق مقعد أمام "الحاج إبراهيم"، ضابط الشرطة الممتاز، كان
وصفته منحوتين على لوح صغير بني اللون وضع أمامه، بينما جلس هو خلف
منضدة توزعت فوقها أوراق وصكوك وأدوات لا أعرفها؟

وبدون مقدمات قذف الرجل في وجهي بذات الأسئلة الغربية التي أقيمت علي من لدن
شرطة الباخرة، بعد أن تسلمتني من شرطة الأندلس.

— ما اسمك؟ كيف تسللت إلى إسبانيا؟ أين تقim؟

وجه كرر أسئلته أكثر من مرّة، لكنني بقيت أحدق في عينيه الضيقتين المطلتين من
إلى مستطيل، حليق، صقيل إلا من شارب موحّظ بشيب دون أن أجيبه، فالتفتَ
كأنني كلب، مرافقي الواقفين بجانبه، أحدهما بدين مكرّش، هو الذي قادني من قفاي
استنطافي، وخطبهما الثاني نحيل رثُ الهيئة أصفر اللون، تولى كتابة محضر
— لا أبداً، ليس مجنونا كما تظننا، إنه يدعى الجنون، لا غير.

ـ وتدخل الشرطي البدين الذي رافقني في الباخرة، مخبراً رئيسه
أو ـ حاولنا يا سيدي جر لسانه إلى العربية وإلى لغات أخرى، حتى ظنناه أطروشـ
ووجهينا أصم، أبكمـ فاستعملنا لغة الإشارات، فلم يرد بشيء، بل ظل يحملق في
وكأنه لا يرانا، تماماً كما يفعل الآن.

ضرب "الحاج إبراهيم" بقبضة يده اليمنى على المنضدة حتى كادت تتطاير الأوراق
من فوقها، وقطّب حاجبيه فازدادت عيناه الضيقتان انسداداً، وقال لي
ـ لن يجديك هذا الصمت، فستحبس، وتُجْوَع، ويُدَقَّ رأسك إلى الأرض إلى أن
تعترف!

حركت رأسي كمن يفهم دون أن أُنبِسَ بكلمة، فسادت فترة صمت خفيفة، تبادل
يقال، الرجال خلالها نظرات ذاهلة، أكدت يقينهم بأنني كنت أسمع، وأستوعب ما كان

أقصر ولعلهم فكروا في أن التهديد بحبسي وتجويعي وضرب رأسي إلى الأرض هو قيل، السبل لتدفق من فمي أجوبة ترضي ماربهم. كنت أسمع في الحقيقة كل ما بدوا خلي، على لكنني لم أحفل بأي تهديد، فرعبي الوحيد كان منصباً على ما يجري بالوحدة، بوعي الكامل انشغالي بشأنى النفسي المفجوع بالغربة، بإحساسى الشنبع بوجودي في غير مكاني، وفي غير زمانى.

وحين حركت رأسي إشارة إلى كوني أسمع وأفهم، كانت تراودنى فكرة التحدث إليهم، علني بذلك أكتشف بعض الغموض عن نوایاهم، أو عن مصيرى مثلًا، "وجهت كلامي إلى رئيسهم الحاج إبراهيم ونطقت:

— سيدى أطال الله عمرك، ما كنت يوماً لصاً ولا شريراً ولا جباناً، ومادمت لا إلى أخفي سوءاً ضد الله ولا ضد عباده، فلن يرعنى أي تهديد، ولعلمك، فقد جئت وأهل المغرب، ينتابنى شوق عارم إلى ملاقة فلاسفة وفقهاء من ديار أهل المغرب والحكمة، وكان ظني الأندلس، لا أقل ولا أكثر، إننى قدمت مهاجرًا ناشداً المعرفة لكننى وحسبى ما وجدت أنى سأجد قوماً يكرمون وفادة الغريب ويقدرون حق قدره، بالاغتراب سوى ما غشى صدري بالغم، ورأسي بالكمد، ونفسى

ما أن أتمت جملتى الأخيرة حتى رأيت الذهول قد طغى على وجوه الرجال، وأخذ ينظر بعضهم إلى بعض في تساؤل من التبس عليه الأمر، وقد فغرت أفواههم، وحظت أعينهم وكأننى فهت بكلام غريب منهم، لا يصدر عن إنسان عاقل بهندي أنا أيضاً أصبحت بالارتباك، والتبس على الحال، فظننت أن الأمر قد يتعلق الغريب مما جعلني ألقى نظرة فاحصة على نفسى، وتتابعت قولي

قمصاناً — إن أحدهم في ثغر "المُنْقَب" سترني بهذه الثياب، فو الله ما عرف جسدي أنكم ولا سراويل بهذا الشكل، ولا حتى غادرت بيتي يوماً عاري الرأس، أعرف سر تريدون أجوبة مني على أسئلتكم، أنا أيضاً أرغب في أجوبة منكم تستجل لي هذا الغموض المحيط بي، فتُرِيحُ عن صدري غمه، وعن رأسي كمده، وعن نفسى غربتها، فهل تبدلون فأفصح، أو أبدأ فتفصّلون؟

ظلت الدهشة مرسومة على محياهم إلى أن تحدث "الحاج إبراهيم" متلعلماً، محاولاً اصطدام جملٍ عربية سليمة:

البلينج — حاشا يا سيدى أن تكونوا لصاً أو ما شابه. في الحقيقة فاجأنا كلامكم

من واجبنا الفصيح، أدهشنا صوتكم العذب الرنان، إننا على استعداد لمساعدتكم، بل على أسئلتي أن نوضح لكم ما التبس عليكم، إنما قبل ذلك، أريد أجوبة صريحة.

حركت رأسي بالإيجاب، فنطق

— ما هو اسمكم وما هي جنسيةكم؟

لم أقو على إخفاء ما غشى وجهي من استخفاف بسؤاله، منطقياً ولغوياً، فأجبته

— اسمي "أبو حيان التوحيدى علي بن محمد بن العباس"، وجنسى ذكر، عربي مسلم

— أنا أسأل عن جنسيةكم وليس عن جنسكم

وبالاستخفاف الممزوج بالامتعاض نفسه أجبته

— أنا يا سيدى رجل واحد فرد، وأنت تخاطبني بصيغة الجمع، فهل ترى في

شخصي جمعاً من الرجال، أم أن هناك سبباً أجهله وراء هذا الخطاب؟

(2)

تدخل الشرطي النحيل الأصفر الملائم، موجهاً كلامه إلى رئيسه

— أسأله من أي بلد هو قادم، أقصد عن اسم بلد

فاستجاب له رئيسه، معيناً سؤاله بصيغة معقولة

— من أي بلد قدمت؟

استرخت أسارير وجهي وأنا أجيبه

— من "بغداد" يا سيدى

التفت "الحاج إبراهيم" إلى معاونيه، وكمن يخاطب نفسه قال لهما

— يقول من "بغداد!"، أما كان أولى أن تسلمه السلطات الإسبانية مباشرة إلى بلدك

عوض أن تحيله علينا

ثم نظر إلى

— ألا يك أوراق تثبت أنك عراقي؟

مرة أخرى يجانب سؤاله الصواب، لكنني أجبته

— لم يسبق أن حصلت وثيقة تثبت ولائي للعراق ولا إلى بلد آخر؟

— وكيف تريدين أن أقتنع بأنك عراقي؟

على الرغم من غموض سؤاله، لم أسرر منه، كنت أرغب في أن أكون صريحاً

بِوَصَادِقًا، فَقَلْتُ لَهُ

الْوَطَنَ — وَمَا مَرَادُكَ يَا سَيِّدِي لَكِي تَتَأْكِيدَ إِنْ كُنْتَ عَرَاقِيَاً أَمْ فَارِسِيَاً أَمْ حِجَازِيَاً، أَلِيْسَ

حِيثُ أَقَامَكَ اللَّهُ؟! مَعَ أَنِي أَجَهَرْتُ بِأَنِي عَرَاقِي، صِرَاطَةً أَوْدَ لَوْ أَعْرَفْ؟

أَطْرَقْ صَامِتًاً وَكَانَ كَلَامِيْ فَاجَاهَ، فَتَابَعْتُ حِدَثِي

— سَبْقَ يَا صَاحِبَ السُّلْطَةِ أَنْ أَخْبَرْتُكَ بِأَنِّي مُسْلِمٌ، وَفِي مُلْتِي وَاعْتِقَادِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ

وَرَفِيعًا فِي دِيَارِ الْإِسْلَامِ سُوَايَةً، إِلَّا إِذَا كَانَ لَكَ شَكٌ فِي إِسْلَامِيْ، فَفِي هَذِهِ الْحَالِ،

وَالْفَرْوَعَ لَأَيِّ غَمْوُضٍ، أَعْلَنَ أَمَامَكَ بِأَنِّي مُسْلِمٌ حَنْبَلِي، عَالَمٌ مُتَقَوْهُ فِي الْأَصْوَلِ

وَالْحَدِيثِ، وَأَمْوَارِ الْفَقِهِ عَامَةً، مِنْ مَذَاهِبِ وَنَحْلِ وَمَسَالِكِ وَمَعَالِمَاتِ

طَلَبَ مِنِي أَنْ أَصْمِتَ قَلِيلًا، وَأَشَارَ عَلَى مَعَاوِنِيهِ بِالسُّكُوتِ، وَوَضَعَ رَاحَةَ يَدِهِ عَلَى

جَبَيْنِهِ، وَسَرَحَ سَاهِمًاً وَكَانَهُ يَوْجَهُ حَالَةً شَاذَةً فَرِيَدَةً تَقْتَضِي حَرَصَهُ وَصَبَرَهُ، أَوْ كَانَ

مَا أَوْجَهَهُ بِهِ يَجَانِبُ فِي نَظَرِهِ الْمَنْطَقَ وَالصَّوَابَ

بَعْدَ بَرَهَةٍ، خَاطَبَنِي وَهُوَ يَحَاوِلُ أَنْ يَبْدُو هَادِئًا

إِنَّ — إِنِّي يَا سَيِّدِي لَا أَشَكُ فِي إِسْلَامِكَ، وَقَدْ أَعْجَبْتِي تَقْافِنَكَ وَرَاقِتِي دَقَةً أَجْوَبْتُكَ،

مَا أَرْغَبُ فِيهِ صِرَاطَةً هُوَ أَنْ أَعْرَفَ كَيْفِيَةَ مُجِئِكَ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَطَرِيقَةَ دُخُولِكَ إِلَى

إِسْبَانِيَا؟

طَأْطَأَتْ رَأْسِي موافِقًاً مُسْتَحْسِنًاً سُؤَالَهُ، وَخَضَتْ فِي الْحَدِيثِ

— قَدَمْتُ إِلَى الْمَغْرِبِ كَحَالِ جَمِيعِ الْوَافِدِينَ عَلَيْهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ قَصْدُكَ أَنْ تَعْرِفَ

الطَّرِيقَ الَّذِي سَلَكْتَهُ، فَلَا أُرَى بِأَسَا مِنْ إِطْلَاعِكَ عَلَى تَفاصِيلِ رَحْلَتِي بِكَاملِهَا

أَسْرَعُ يَقُولُ بِلِسَانِ تَشْوِبِهِ بِشَاشَةِ مَعِينَةٍ

— تَمَامًا تَمَامًاً، ذَلِكَ مَا أَرْغَبُ فِيهِ، اسْتَمِرْ اسْتَمِرْ

وَتَابَعْتُ حِدَثِي

— يَمْمَمْتُ وَجْهِي شَطَرَ دَمْشَقَ، فَإِلِيَّسْكَنْدَرِيَا، فِيرْقَةَ، فَالْقِيرْوَانَ، فَتَلْمِسَانَ، إِلَى أَنَّ

دَخَلْتُ حَاضِرَةَ فَاسَ، سَلِيمًاً مَعَافِي وَلَهُ الْحَمْدُ

أَجَدَهُ وَقَدْ أَنْسَتِي فَاسَ مَا كَانَ قَدْ تَخلَّ رَحْلَتِي مِنْ مَحْنَ وَنَوَائِبَ، إِذَا وَجَدْتُ بِهَا مَا لَمْ

فِي حَوَاضِرِ غَيْرِهَا، مَرْتَفَعَاتِ مَزْدَانَةِ بَشَجَرِ الْغَابِ، وَنبَاتَاتِ الْكَرْوَمِ، وَالْتَّينِ

وَالْمَوْزِ وَالْزَّيْتُونِ، وَاللَّيْمَونِ وَالنَّفَاحِ، وَالْمَشْمَشِ وَالْبَرْقُوقِ، وَالْعَنْبِ وَالْكَرْزِ، وَاللَّوْزِ

وَسَاكِنَتِهَا، وَوَجَدْتُ الْكَلَ وَالْجُوزَ، اسْتَطَبَتْ هَوَاءُهَا وَجَانَهَا، وَرَاقِتِي مَبَانِيهَا وَأَرْقَّهَا

الأصحابي رضي الله عنه على دين الإسلام ومذهب إمام الهجرة سيدنا مالك بن أنس. كان "الحاج إبراهيم" يحرك رأسه استلطافاً لكلامي، و كنت أروي أخباري وأنا أتلصّص ببصري بين معاونيه، لأستطلع وقع ما أقصه عليهم، فاستنتجت عدم ارتياحهما لما أعرف به، لكن رئيسهما "الحاج إبراهيم" كان أكثر ما يهمني، وأضفت:

— اصطفيت من آل فاس خلاناً وأصحاباً أكرموا وفادتي، وقدروني حق قدرني، أذكر قليلة أخذ من بينهم الفقهاء، الجوطي والدجاج والسليماني والكغاط والشبيهي، وفي أيام أذلني في يألف بعضنا البعض، فصرت أطلعهم على الصغيرة والكبيرة مما كان قد سفري من بلد إلى بلد، وما كان عليه طبعي وحالى في بغداد: "قاطعني" الحاج إبراهيم

— سيدى! جميل ما تقصه عن مقامك في فاس، وما كان عليه طبعك في بغداد، لكنني أكثر شوقاً لأعرف كيف دخلت إلى إسبانيا فقلت له:

— المهم، أن أصدقاء فاس عرّفوني بقافلة كانت قد قدمت من سجلماسة في طريقها إلى غرناطة، وكان بها تجار نبهاء وفقهاء نبغاء، فانضممت إليهم لأرافهم في والحمير، قافتلهم المكونة من خمسة وستين رجلاً، وعدٍ من النساء والخيول والبغال ودواب أخرى حملت صبية، وتكتست فوقها أمتعة ومؤن وأغراض أخرى.

وعاد "الحاج إبراهيم" إلى مقاطعة قصتي

— باختصار، وصلتم إلى طنجة؟!

— أجل، كانت حاضرة طنجة محطة مستهدفة لنبحر منها إلى بلدة "طريف" لكننا توقفنا في حاضرة "قصر كاتمة" ل Polyester من ضجر الطريق وعناء بالأندلس، وهي بلدة يشقها نهر يدعى لووكوس، أرضها منبسطة خصبة معطاء، تحف السفر، خضراء وجنان متقلة بالكرم والفاكه على مدار فصول العام، أهلها بها بساتين كرام، فصيحو اللسان، حاضرو البديهة، سريعوا النفاذ إلى القلوب، ومن أجود الأشهر والسّمر وقصّ ما استجد من العلوم والأخبار، وما أستحضره عنهم، عاداتهم، سرده على مسامعنا أحد رجالاتهم من بيت آل القنطري، أنه قابل شخصياً، منذ ما غماره، حوالى خمسين عاماً المدعو "حاميم المتّبّي"، البربري الذي ظهر في قبيلة

مرتين في اليوم، فأنشأ بها ديناً وفرأنا بربرياً، واقتصر في دينه الجديد على الصلاة والعجب الغريب، وأبطل الحج إلى بيت الله، كما أوجب صوم الأربعاء والخميس، لكنهم في قصر "كتامة" أن عدداً كبيراً من برابرة شمال المغرب اعتنق هذا الدين، لا ريب فيها، ويمكنك تصدوا له، مثلاً تصدوا لنشاط الخوارج. ما أقصه حقيقة والدنهاجي والفاسي استفسار بعض أهالي كتامة من النقاة، كالصرصري وبوعاج الفهري.

ثم رحلنا عن البلدة في صباح باكر بعد أن أدينا فريضة صلاة الفجر في مسجدها

الأعظم المهيّب، وقد قيل لنا إنه كان كنيسة رومانية في عصر بائد

؛ وقاطعني الرجل أصفر الوجه الذي يدون أقوالى

! — اختصر كلامك يا أخي، فلدينا عشرات المهاجرين السريين

؛ فتصدى له الحاج ابراهيم مقاطعاً

— اصمت! ودع الرجل يتحدث بالكيفية التي يريد لها

ثُمَّ ابتسم في وجهي وخاطبني

— نحن معك إلى أن تنتهي كل أقوالك

؛ فاستأنفت حديثي

"أصيلاً" هكذا يمنا في اتجاه طنجة، لكن القدر كان يخفي علينا أننا سنتوقف في "النهر" والشّرّ لله، يومين كاملين، بسبب وعكة صحية حلّت برفيق لنا، لكنه قام منها سليماً أمنيتي أن أقف و "أصيلاً" فرية بهيجـة، تشرف على بحر الظلمات الصاخبـ، كانت أمنيتي، وكبرت على مرمى حجر من هذا البحر الهادر وأتأمله عن كثب، فتحققـت ومسامي سعادتي وأنا أحـس بهـديره يـمـلـأ أذـني، ونسـائمـه تـتـسلـلـ إـلـىـ رـئـتي

أقـمنـاـ فيـ هـذـاـ النـهـرـ يـوـمـيـنـ سـيـظـلـانـ موـشـومـيـنـ فـيـ ذـاكـرـتـيـ ماـ حـيـيـتـ،ـ فـحـيـنـ نـزـلـنـاـ فـيـ تـلـكـ السـوـيـعـاتـ الـأـوـلـىـ مـنـ بـزـوـغـ خـيـوطـ الشـمـسـ لـمـشـاهـدـةـ مـرـوجـ الـبـحـرـ،ـ وـكـانـ صـخـبـهـ كـرـوـمـ هـدـأـ،ـ وـأـطـرـافـهـ قـدـ انـكـمـشـتـ،ـ مـخـلـفـةـ طـحـالـبـ بـلـورـيـةـ،ـ وـأـعـشـابـ مـبـلـلـةـ،ـ كـائـنـهـ قـدـ لـرـوـأـحـ خـضـرـاءـ فـيـ أـحـدـ بـسـاتـينـ جـنـةـ الـخـلـودـ،ـ يـاـ لـهـاـ مـنـ نـسـائـمـ رـطـبـةـ نـدـيـةـ هـيـ نـقـيـضـ عـيـنـاتـ،ـ الصـحـارـيـ،ـ فـمـنـ شـدـةـ مـاـ اـسـتـطـابـتـهـ نـفـسـيـ وـاـنـشـرـحـ لـهـ صـدـريـ جـمـعـتـ مـنـهـ عـصـيدـ،ـ فـسـاعـدـنـيـ الـفـقـيـهـ "أـبـوـ عـصـيدـ"ـ عـلـىـ رـبـطـهـ عـنـدـ مـخـلـفـ سـرـجـ حـصـانـيـ،ـ نـعـمـ "أـبـوـ للـدـرـاوـيـشـ وـالـمـعـوزـيـنـ".ـ ذـاكـ الـفـقـيـهـ الـإـمـامـ الـمـبـرـزـ فـيـ أـصـيلـاـ،ـ رـجـلـ مـتـصـوـفـ،ـ يـبـسـطـ يـدـهـ

سمك يدعى روِيْكُلْ، من بين مریديه وأصدقائه أتذکر وجهاً وديعاً خجولاً لصياد بينما يهتم أبو عصید رجل لا يعرف عن الدنيا سوى أنواع السمك وأقصاب صیدها، يرتبطان بعلاقة مودة لافتة. بأشعار المتصوفة والأنساب والترجم، وبالرغم من ذلك أنهما معاً من أشد وأقرب من عاشروا ومما ذكره أبو عصید في ليلة سمرنا الأولى، عمر "خلال سنوات نفيه في أصيلاً"، بعد السلطان الإدريسي "يحيى بن إدريس بن موسى بن أبي العافية"، وحسداً منه على ما "أن كان حاكماً للمغرب كلها، لكن الحاكم من حب المغاربة، نصب له مكاناً إلى أن نفاه إلى كان يتمتع به هذا الأمير الشاب".
ـ تغر أصيلاً.

السلطان دلنی هذا الفقيه على دار بجوار حمام ومعبد يهودي، كانت محل إقامة هذا وقد مساء محلاً الذي كان على قدر من العلم بالفقه والحديث. وكان روِيْكُل يزوره كل عن شيخه الذي أخذ عنه بشرائط من الأسماك الطازجة. وفي الليلة الثانية، حدثي الفقيه بن محمد"، الملقب "بإمام كتاب البخاري" الإمام أبي محمد عبد الله بن ابراهيم سنة، أسعدني في الحقيقة أن أستمع إلى الأصيلي"، وكان قد توفي منذ حوالى ثلاثة عنه ما تيسر لي من بعض مریديه ومعاشريه في بعض أخبار هذا الإمام، بعد أن سمعت إقامته هناك منذ حوالى خمسين عاماً ببغداد، ومكة، والمدينة، أثناء

أخباراً عنه، إذ توقفنا ترحّماً على قبره في حديقة مسجية خارج أسوار المدينة، فتبادلنا الشافعي وأبي بكر الأبهري أكدت له أن الإمام كان صديقاً مقرباً من الإمام أبي بكر وأبي بكر الأجربي. وفي المدينة ومن شيوخه الأفذاذ في مكة الإمام زيد المروزي بأن الإمام الأصيلي، بعد أن عاد من قاضيها الإمام أبي مروان المالكي، فأخبرني القضاء في سرقسطة وقرطبة، وبعد مدة، عاد المشرق إلى أصيلاً، رحل عنها ليتولى واحدة في منزل خاص بها، وعاشرهن بالعدل مرفوقاً بثلاث زوجات، أسكن كل غيرها، إلى أن قضى، فدفن هنا في مسقط والقسطاس، دون أن يفضل واحدة على رأسه.

له توقفت عن إتمام حديثي حين انحني الشرطي الأصفر الوجه على أذن رئيسه، وهمس استئناف بكلمات غير مسموعة، لكن الرئيس ثناه عن همسه بإشارة من يده، وطلب مني إلى أن الرجل ما عاد سردي، مبدياً ابتسامة متکلفة، غير أن ما كان يسود المقام نبهني أقوالي، تلك طباع رجال الشرطة يطيق سماع ما أزوذه به من أخبار، أو لعله لم يصدق

والحيطة. ولربما طريقة سردي التي بدت في كل البقاع، فعملهم يجلبهم على الارتياح إلى سمعي وليس مضمون أخباري، مما له سجية مرسلة، هي أقوى ما كان يشده إن أخبرته برحيلنا عن "تغر أصيلاً"، جعلني أختصر كلامي، وهو عين ما حدث، فما الثلاثة الفاصلة بين أصيلة وطنجة، واستئجارنا والعوائق التي اعترضتنا في قطع الأنهر أن تصبح أكفاناً لنا في لجة البحر، حملتنا من "طنجة" لمراكب خشبية ذات أشرعة كادت حتى قاطعني مستفسراً إلى "طريف" بالأندلس،

— منذ متى تم هذا السفر إلى الأندلس؟

أجبته صادقاً

— منذ بضعة أيام، أي في أقل من أسبوع واحد

هنا ارتفعت أصوات الجميع بالضحك والقهقهة، فعاد الرئيس لاستفساري قائلاً

— أريد معرفة التاريخ، لا يهم اليوم أو الشهر، أريد العام بالضبط؟

يالغرابة السؤال! قلت في نفسي، وأجبته

— قلت لك إن ما حدث كان منذ بضعة أيام، أي في هذا الشهر، وفي هذا العام ذاته،

السنا في ذي القعدة من عام ٤٠٠ للهجرة؟

لامحهم انتشار الاستخفاف على محياهم جميعهم، ولم يعد عسيراً على عيني أن تقرأ في رباطة علامات دالة على أنني في نظرهم شخص مجنون، لكنني واصلت حفاظي على جأشي، وتوجهت بالحديث ليس إلى الرئيس وحده، وإنما إليهم جميعاً

— أؤكد لكم أنني سليم معافي، وفي كامل قواي العقلية والجسدية، فإن وقع التباس فيما أرويه عن رحلتي، فإن مردہ إلى عدم فهمكم

وتدخل "ال حاج ابراهيم" بعد أن أطال النظر في وجهي

العام — طيب، تقول إنك قدمت من العراق في هذا العام، وركبت البحر إلى الأندلس في ذاته. أيمكنك أن تخبرنا عن ظروف بلدك؟ من تركت يحكم العراق مثلاً؟

أسرعت بالإجابة

بال قادر " — تركت الخليفة العباسي "أبا العباس أحمد بن المقدار" المعروف لدينا ولديكم الحقيقي ليس الخليفة بالله، حاكما على العراق، لكن ما هو خاف عليكم، هو أن الحاكم نفوذه على "فارس" و "الأهواز" و وإنما "بهاء الدولة" البوبيهي، فهذا الرجل بعد أن بسط بعد أن تزوج الخليفة من ابنته "سكينة" عام "كرمان" استبد بالسلطة دون الخليفة، خاصة بصدق بلغ مائة ألف دينار

وقطعني "الحاج ابراهيم" متربماً من حديثي، بعد أن بحث في أوراق أماته

— اسمع يا سيدي، إننا لسنا في عام ٤٠٠ للهجرة، وإنما في عام ١٤٢٣، ثم التفت إلى

ـ معاونيه وخطبها آمراً

ـ أعدا له محضراً بأقواله واتركاه ينام إلى الصباح، لنقدمه إلى النيابة العامة ضمن المهاجرين السريين.

ـ وقال أحد معاونيه ضاحكاً متعجباً

ـ يقيناً إن الرجل سجين كتاب قرأه عن التاريخ القديم فتوقف دماغه هناك

ـ وتركـتـ لم يـجبـهـ الرـئـيسـ، بل غـادـرـ المـكـتبـ دونـ أـنـ يـفـوهـ بشـيءـ، أـمـاـ أناـ، فـقدـ جـمدـ لـسانـيـ
ـ أمرـ إـرادـتـيـ لـمشـيـةـ اللهـ، ولـيـقـولـواـ أوـ يـفـعـلـواـ بيـ ماـ شـاعـواـ

ـ لـلاـشـتـغالـ، أـنـ الـعـالـمـ، بـعـدـ أـنـ أـفـرـدـواـ لـيـ مـقـعـداـ خـشـبـاـ وـأـغـلـقـواـ الـبـابـ وـأـنـسـحـبـواـ، عـادـ فـكـريـ
ـ بـأـنـيـ سـجـينـ زـمـانـ يـبـتـعـدـ عـنـ الفـقـيـهـ، المـنـطـقـيـ، الفـيـلـسـوـفـ. يـحـاـوـلـ شـرـطـيـ بـسـيـطـ إـقـنـاعـيـ
ـ مـنـ مـنـاـ فـاقـدـهـ، مـنـ جـبـلـ عـلـىـ !ـزـمـانـيـ بـأـكـثـرـ مـنـ أـلـفـ عـامـ!ـ يـوـهـمـنـيـ بـأـنـيـ فـاقـدـ لـلـعـقـلـ
ـ وـمـنـطـقـهـ؟ـ الـارـتـيـابـ وـالـتـشـكـ؟ـ أـمـ مـنـ يـحـكـمـ إـلـىـ عـقـلـهـ

ـ باـخـتـلـافـ وـحـسـبـيـ أـنـيـ أـوـجـدـ فـيـ مـكـانـ غـيرـ مـكـانـيـ، فـعـادـةـ مـاـ يـفـسـرـ اختـلـافـ المـكـانـ
ـ فـهـذـاـ وـالـلـهـ لـنـ الزـمـانـ، إـنـمـاـ أـكـونـ فـيـ زـمـانـ جـاءـ بـعـدـ زـمـانـيـ بـأـكـثـرـ مـنـ أـلـفـ عـامـ،
ـ هـنـاـ فـيـ الـمـغـرـبـ يـسـتـوـعـبـ عـقـلـ كـائـنـ بـشـريـ، لـقـدـ حـدـثـ التـبـاسـ مـاـ!ـ بـكـلـ تـأـكـيدـ. لـعـلـهـ
ـ يـنـكـلـمـونـ الـعـرـبـيـةـ، يـعـدـونـ السـنـوـاتـ بـطـرـيـقـةـ مـخـلـفـةـ عـمـاـ نـعـدـ نـحـنـ فـيـ الـعـرـاقـ؟ـ لـكـنـهـ
ـ وـيـقـولـونـ عـنـ أـنـفـسـهـمـ إـنـهـمـ مـسـلـمـونـ، يـبـسـمـلـونـ وـيـسـتـغـفـرـونـ اللهـ

ـ وـ "ـيـاـ إـلـهـيـ، أـكـادـ أـصـابـ حـقـيـقـةـ بـتـلـفـ الـعـقـلـ، مـاـذـاـ لوـ أـحـضـرـتـ لـهـمـ الشـيـخـيـنـ "ـالـقـنـطـرـيـ"
ـ أـحـضـرـتـ "ـالـدـنـهـاجـيـ"ـ مـنـ حـاضـرـةـ "ـقـصـرـ كـتـامـةـ"ـ وـهـيـ عـلـىـ مـسـافـةـ يـوـمـ وـاحـدـ لـاـ أـكـثـرـ، أـوـ
ـ لـيـشـهـدـوـاـ بـالـحـقـيـقـةـ، لـهـمـ الـفـقـيـهـ "ـأـبـاـ عـصـيـدـ"ـ مـنـ "ـتـغـرـ أـصـيـلـاـ"ـ وـهـيـ عـلـىـ مـقـرـبةـ نـصـفـ يـوـمـ،
ـ آـدـمـ أـنـ يـعـيـشـ أـكـثـرـ مـنـ بـوـجـودـيـ فـيـ زـمـانـهـمـ وـوـجـودـهـمـ فـيـ زـمـانـيـ، ثـمـ كـيـفـ لـلـمـرـءـ مـنـ بـنـيـ
ـ كـنـتـ مـخـتـفـيـاـ؟ـ فـيـ أـعـالـيـ أـلـفـ عـامـ؟ـ وـعـلـىـ سـبـيلـ اـفـتـرـاضـ أـنـ مـاـ زـعـمـوـهـ حـقـيـقـةـ، فـأـيـنـ
ـ السـمـاءـ أـمـ فـيـ بـاطـنـ الـأـرـضـ؟ـ

ـ رـأـيـتـ لـوـ هـرـاءـ، هـرـطـقـةـ، إـنـيـ أـنـيـ أـنـتـاكـ الـحـقـيـقـةـ وـهـمـ الـأـغـبـيـاءـ، وـلـنـ أـنـتـازـلـ عـنـ
ـ بـكـثـرـةـ مـنـتـحـلـيـهـ، كـمـاـ أـنـ اـنـضـمـ إـلـيـهـمـ السـوـادـ الـأـعـظـمـ مـنـ النـاسـ. إـنـ الـبـاطـلـ لـنـ يـصـيرـ حـقـاـ

ـ الـجـاحـظـ"ـ فـيـ "ـهـكـذـاـ عـلـىـ أـنـ أـفـكـرـ وـأـنـ أـفـأـوـمـ، فـأـنـاـ فـيـلـسـوـفـ، عـالـمـ مـنـطـقـيـ، أـنـاـ نـاسـخـ لـكـتـبـ

شرطِ أملسِ المحيَا زمانِي هذا الحاضر، وليس في الزمان الذي قبله، ولن أعبأ بمنطق
كأنه جارية هرب عنها الزمان.

لم أدر المدة التي استغرقها حواري الداخلي، إلى أن فتحوا على باب الغرفة لأعرف أن الوقت صباح.

(3)

بمتكاً يريح الظهر، اقتادوني، فأدخلوني مكتبا آخر، وأمروني بالجلوس فوق مقعد خشبي.
الخلاف لجميع مقاعدهم مُنْكَأٌ مريحة وكانها مقاعد حاشية.

مسمعي تناول شاب طويل القامة، أملس الوجه، شبيه بغلام، أوراقاً وأخذ يتناول على فناولني تصريحاتي بلغة منفرة، خلتها سوطاً يجلبني، وطلب مني أن أجسم أو أوقع، القلم لا يجف، مما أكدّ قلماً غريباً دون أن يسعفي بدواء، وحين نبهته أخبرني بأن سمق بصفد حديدي، لم يسبق لعيني أن لي أذن في عالم غريب عنِّي. بعد ذلك غلوّاً يدي إلى أن أدخلونا هودجاً ضخماً بنوافذ أبصرت مثيلاً له، واقتادوني ضمن أسرى آخرين، إلى أن توقف عند مدخل بناء أبيض اللون، زجاجية، فتحرّك بنا وكأنه حسان أرعن، بالعرق، لكنني حين قرأت على مدخله: "المحكمة ظنته أول الأمر سجناً، ففضح جبيني طمأنينة ما، إذ فكرت بأن التعامل مع القضاء أضمن لسلامة الابتدائية"، دبت في قلبي الشرطة أو السجن بدني من مواجهة.

إلى أن أنزلونا مثى مثى في حراسة مشددة، وكأننا ثوار أو قطاع طريق، وساروا بنا تكّدّس بها وجداً أنفسنا ننحدر في سلام من بعض دركات أفضت بنا إلى غرفة عَطِّنة المجهول بشر سيقوا قبلنا إليها، وسُدّ علينا الباب لنظر في مواجهة

— من أي بلد أنت؟

— من العراق سيدى، أجبته

حراك رأسه بطريقة توحى بذهوله، وخطبني

— تقول في تصريحاتك المدونة في المحضر، إنك قدمت من بغداد عبر المدن التي
ذكرتها، وإن اسمك هو "أبو حيان التوحيدي"

— أجل سيدى أطال الله عمرك، أعترف بذلك

سكت برهة مفكراً، وكم يحاول اختزال الاستطاق قال لي

— سأكون مضطراً لأن آمر بإداعك مستشفى الأمراض العقلية إلى أن تعود إلى
ال حقيقي، ومقر رشك، لكن إذا ما عدلت طوعاً عن ادعاء الحمق، واعترفت باسمك
من العقاب إقامتك، ووسيلة دخولك إلى إسبانيا، فسأكون رحيمًا بك، وستتجو

سكت قليلاً وأضاف

— أما إذا كانت لك عاهة عقلية، كأن تكون مختلاً، فيجب أن تعرف بمرضك؟

— وما هو دليلك يا سيدى على أنني لم أتعزز بالحقيقة، أو أني مصاب بعاهة عقلية
كالجنون؟ لا قدر الله.

قالت في عجلة من أمري، وأضفت

— إني يا سيدى لا أتستر على شيء، لا عن أخبار ولا عن مرض، وقد اعترفت باسمي
وكذلك الحقيقي وباسم بلدى الحقيقي، وبالسبل التي سلكتها، إلى أن حللت بالمغرب،
بالأندلس.

انتقض صوته واشياً تبرمه من جوابي

الخرافية، — إنك جاوزت المراوغة حد اليقين بأنك شخص معtoه، فمن سيصدق أقوالك
ثغر أصيلاً، "تسافر من فاس في قافلة متوجهة إلى غرناطة"، وتحل "بقصر كتابة" و
الإدريسي المنقرضة منذ قرون، وتسمع أخباراً من أفواه رجال عايشوا أحد ملوك الدولة
ثم تقول بأنك لست مجنوناً؟

أجبته

به، فأي تعبير — إن الجنون إليها الحكم لا يقوى أحدٌ منا على إخفائه إن كان مصاباً
عادياً لاحظت، أو لغوي شائن أو غير منطقي صدر عني؟ وأية حركة، أو تصرف غير
لاحظ غيرك، أنه قد طرأ على سلوكك؟

توقفت للحظة أسترجع أنفاسي، ورأيت الذهول مرسوماً على مهيا الحكم، فتابعت

حديثي لمزيد إقناعه، وقلت له:

— إنني يا سيدِي أتصرف تصرف العقلاء، وإذا كان قد صدر مني سلوك غير سوي، مجنون، فليس معنى ذلك أنني أحمق، فقد يصدر عن العاقل بعض ما لا يصدر إلا عن نفسي علماً بأن الحمقى يطغى انحرافهم على اعتدالهم، وفي وضعٍ فإني متّسقٌ مع وعيٍ، ولم أُخْفِ شيئاً من أخباري ولا من حياتي.

فاجأني مقاطعاً:

— إذا كانت الحال كما تقول، أي أنك رجل عاقل متّسقٌ معقول، فلماذا تزعم أنك "أبا حيان التوحيدِي"؟

— إنها الحقيقة، بغض النظر عمّا إن كانت لي أو عليّ، وهل تعرف يا مولاي شخصاً غيري يحمل هذا الاسم؟

لم يقو على طمس ابتسامة ماكرة دالة على استخفافه بمنطقِي، وأجاب على — بطبيعة الحال أعرف "أبا حيان التوحيدِي"، وليس هناك من المتعلمين المطلعين يتكرر اسمه، تاريخ الأدب من يجهل أبا حيان التوحيدِي المتوفى منذ قرون. أجل، قد حتى أنك تزعم بأن هذا وارد، أما أن تتنسب إلى زمانه وتتّحَل اسمه وصفته وحياته، مجنوناً! من يقوى على تاريخنا الحالي هو عام ٤٠٠ هجرية، ثم تقول بأنك لست تصدق هذا الهراء؟

أن الشك تمنيت لو تفتح الأرض من تحتي، فتصهرني بداخلها، لأرتاح مما أنا فيه، ذلك عاد يموج برأسِي، دون إرادتي وجدت أسئلة تتّسَّاب على لسانِي

— سيدِي، أنا أجهل صفتَك تحديداً، وأعلم أن دورِي ينحصر في إمدادك بأجوبة، لكن وضعِي الغامض لديك ولدي أيضاً، يحتم على استفسارك لأنْتَ تعرّفَ رأسِي من قدمِي، الحقيقي الذي فوالله ما عدت أفهم أكثر مما أجيِّب به، فهل تدلني رعاك الله على التاريخ العراق؟ وكيف يمكن نعيشِه اليوم، سواء هنا في بلادِ المغرب أم ذلك الموجود في بلادِ ماضِي واندثارِه، والآخر حاضر للمرء في نظرِك أن يجمع قيد حياته بين زمانين، أحدهما حال؟ أو ليس هذا هو بؤرة خلافنا؟

حرك الرجل رأسه موافقاً، وقال

— طيب، صفتِي وكيلِ الملك، أي أنني أ مثلَ النيابة العامة، وأدافع عن الحق العام، فهلا عرفت معنى وكيلِ الملك؟

— معناه في تقديرِي أنَّ الملك أذابك عنه بمقتضى وكالة ضمنية، وبمعنى آخر فقد تكون

إقاضي القضاة

عاد يقول في نفاذ صبر

— أُمازالت تدعى الجهل بالرغم من ثقافتك الواسعة

هذا — أنا لا أدعى شيئاً، لكن يستحيل أن أفتتح بأني أحسب على ماضٍ يبتعد عن الحاضر بأكثر من ألف عام، وإذا أردتني أن أصدق، فعليك أيضاً أن تصدق

— أصدق ماذا؟

— تصدق أقوالي في الأوراق التي بين يديك، فإذا لم تقنع، فأنا متلك لا أستوعب هذا الفارق الزمني الذي تصر عليه

هو — أنت إذن متشبث بزعمك، طيب، لتعلم أن التاريخ الذي نعيشه اليوم في المغرب، أما الدولة التاريخ نفسه الذي يعيشه إخواننا في العراق، فنحن في عام ٢٠٠٣ ميلادية، قيامها عشرة قرون، العباسية التي تزعّم انتسابك إليها، فقد اختفت، واندثرت، ومر على أما زلت مصرًا على رأيك؟ وحلّت محلها دول أخرى، بخلفاء وسلطانين وحكام آخرين، — مهما يجذب فأنّا أُعترف بالحقيقة، متمسّياً لو لم تكن هذه هي الحقيقة، كأن نكون في حلم، أو على الأقل يكون أحدهنا في حالة حلم.

زنك امتدت يد وكيل الملك إلى قطعة جماد رمادية اللون، من خشب لامع، أو لربما من وعاء في أو حديد، فلم أقو على تمييز معنها، لكنها كانت مشدودة بحبـل رقيق إلى حقيقياً بداخلها يحاوره لونها، وضعها بين فيه وأذنه، وأخذ يتحدث إليها كما لو أن رجلاً ودّت لو قلت له، بأن المجنون الحقيقي هو الذي يحاور جماداً، لكنني اكتفيت بذهولي، ولذت بالصمت.

(4)

معقوف الأنف، بعد زمن قصير، وقع طرق خفيف على الباب، فأطل منه رجل كهل، الشيب، قدرت أنه رمادي الشعر، حليق الوجه إلا من شارب متّسخ، غالب عليه بياض وبعينيه تساؤل يخفي في عمري وقامتي ونحافتي، ألقى تحية احترام على وكيل الملك، تضليله، لكن وكيل الملك طمأنه، مرحبا، قائلاً

— إذن، أنت الكاتب محمد شكري، لقد طلبت حضورك قصد استشارتك لا غير، فأنت كاتبنا المعروف، من رموز هذه المدينة، تفضل، استرح

بعد أن استوى محمد شكري فوق مقعد أسعفه به "محمد أشبهار" الكاتب الذي يدون

أقوالي، ظل تساؤله بادياً على وجهه، فبادره وكيل الملك بالقول

— إنك من دون شك، تعرف من هو "أبو حيان التوحيدى". ولعلك عارف بأخباره، أو

مطلع على بعض كتبه، أليس كذلك؟

أجابه شكري بصوت يفضح ارتباكه

وكثيرة — نعم سيدى، أعرف بعض أسماء كتبه، أما عن شخصه، فأذكر أن أفلاماً كبيرة وقع سالت منها بعقربيته وعلمه الغزير، خاصة منذ حوالي عشرين عاماً، حين بالأحرى على الاحتقال من لدن كبار المتقين بذكرى مرور ألف عام على وفاته، أو اختفائه، ذلك أن لا أحد من المؤرخين يعلم تاريخ وفاته.

قبل أن ينهي محمد شكريشهادته، اقتحم المكتب رجل طويل القامة، حسن الطلعة، المفتين الأفذاذ، واثق الخطى، فبدا من هيئته، وثقته بنفسه، أنه أحد كبار الحاكمين أو أنا، فقد كنت واقفاً سلفاً. ولم وزاد في تأكيد تخميني وقف الجميع احتراماً لقدومه، إلاّ فوق مقعد بجوار وكيل الملك، وأشار عليهم يعودوا لجلوسيهم إلاّ بعد أن استوى الزائر يد وكيل الملك، ووضعها أمامه فوق المكتب بالجلوس، فتسنم أوراق تصريحاتي من قبل أن يطلع عليها، بادره وكيل الملك بالقول، وهو يشير إلى متقد المدينة

ونتاج — إنه الكاتب المغربي الشهير محمد شكري، فقد دعوته لأستأنس برأيه في حياة عام، أقول الحقيقى، المرحوم "أبو حيان التوحيدى" الحقيقى، المتوفى منذ أكثر من ألف التوحيدى"، وبأننا نعيش في عصر الدولة لأن الضئن المائى أمامنا يزعم أنه "أبو حيان الإسبانية علينا بتهمة الهجرة السرية، وبعد أن اطلعوا العباسية، وقد أحالته السلطات لكم إشكال هذه النازلة الغربية على تصريحاته، سيتبين

والآخر، انكب الوكيل العام على تفحص أقوالي المدونة في أوراق أمامه، وبين الحين حين أمر كان يرفع بصره ليتأملني، ثم يعود لمحضر تصريحاتي، واستبشرت خيراً الاستطاق الشاب "محمد أشهاـر" بإحضار مقعد لي، وطالبه باستئناف كتابة محضر

وتدخل وكيل الملك، مخاطباً الكاتب محمد أشهاـر

ناول السيد الوكيل العام، ما هو مسجل لديك من أقوال المتهم

أز عجيـ أن يقول عـيـ إـيـ متـهمـ، لكنـيـ لـذـتـ بالـصـمتـ

بعد أن تصفح الوكيل العام ماراج من استطاق في غيابه، توجه نحوـيـ بالـسـؤـالـ التـالـيـ

— هل أنت مصـرـ علىـ أـقوـالـكـ، وـعـلـىـ أـنـكـ "ـأـبـوـ حـيـانـ التـوـحـيدـيـ"ـ؟ـ

حركت رأسـيـ بالإـيجـابـ وأـضـفـتـ

في — إنني يا سيدِي أثبت بكل ما قلْتُه، ولعلمك، فإني أجزع من التقوّق والتخاذل
لي السيد وكيل الأقوال، سواء أكانت لغيري أمْ لي شخصياً، إنما بالله عليك، كيف ينسب
الملك صفة متهم؟ أي ذنب اقترفت؟

ارتسمت على محياه ابتسامة مواربة وهو يجيبني:
إن ما — إنك متهم بالهجرة السرية إلى إسبانيا، وهي ليست جنائية حتى تصاب بالفزع
التوحيدِي يشغلنا حقيقة، هو جريمة انتحال الصفة، أي انتحالك لشخصية "أبي حيان".
ثم التفت إلى محمد شكري وطلب منه الحديث.

جال محمد شكري ببصره في وجوه الحاضرين، وكأنه يلتمس سماعه، وقال
رغبة السيد — لم أفهم شيئاً لحد الآن. ولعلكم فإني جاهل بأمور القانون، أما إذا كانت
على أتم الاستعداد الوكيل العام أن أزودكم بما أعرفه عن "أبي حيان التوحيدِي" فإني

حرّك الوكيل العام رأسه بالإيجاب، فتحدث شكري

— عرف عن أبي حيان الشجاعة والصراحة والمجاهرة برأيه في الناس، كباراً
وصغاراً، دون حرج في نشر مساوئهم ومحاسنهم، اعتقاداً منه بضرورة ذم المساءء
ومدح المحسن، وكان أديباً وفليسوفاً وخطيباً لا يشق له غبار.

ثم وهو يتأملني أكمل حديثه

— لكن هذا الرجل يبدو من لهجته عراقياً، ولغته ممتازة جداً، لكنه، على ما أرى
كتباً وأسمع، رجل أحمق، ذلك أن "أبا حيان" تلاشت عظامه منذ ألف عام، وقد ترك
القدماء وذخائر كثيرة، أذكر من بينها "المقابسات" و "الإمتناع والمؤانسة" و "أخبار
الحكماء".

وطفق يتذكر، لكنني لم أقوَ على تحمل كذبه، فتوجهت بكلامي إلى الوكيل العام فاضحاً
إياه.

محتوياتها. — أُعترف أنَّ الكتاب الأول والثاني من مخلوقاتي، وإنني على استعداد لسرد
يسبق لي أنَّ أَلْفَتُ كتاباً أما كتاب "أخبار القدماء وذخائر الحكماء"، فلا علم لي به، ولم
شكري، بل أتذكر أنَّ الشيخ "أبا سعيد" بهذا العنوان، ولاشك أنه من مختلقات السيد محمد
وناقشنا عناوينها دون أن يخطر ببالنا هذا السيرافي" كان يحتفظ بنسخ لبعض كتبه،
العنوان.

قاطعني الوكيل العام بإشارة من يده، طالباً من الكاتب "أشهار" أن يسرع في تدوين
أقوالنا، والتفت إلى "شكري" سائلاً

— هل تعرف من هو الشيخ "أبو سعيد السيرافي"؟ أقصد هل هو مذكور في تاريخ الأدب؟

رفع محمد شكري بصره إلى سقف المكتب في حالة تذكر، ثم خفض بصره وأجاب
— لا يasicدي، لا أتذكر من يكون هذا الشخص.

بتطلع الوكيل العام نحوي وسألني

— من يكون هذا الشيخ؟

أسرعت أجيب

النحو عصرنا، شيخي ومعلمي، أخذت عنه — إنه "أبو سعيد السيرافي" من أشهر علماء النحاة والمتكلمين والكلام وأصنافاً من العلوم والمعارف، كان رحمة الله عليه من كبار بخطه، ناهيك عن تبحره في المعتزلة، فقد شرح كتاب "سيبوبيه" في ثلاثة آلاف ورقة محمد شكري الذي يدعى الحساب والهندسة والمنطق، إني أستغرب كيف أن السيد السيرافي؟ اطلاعه على كتبى، لا يعرف من يكون المرحوم فاطعني الوكيل العام قبل أن أتم جملتي، وسأل محمد شكري

— هل العلماء الذين تتلمذ عليهم أبو حيان معروفون في كتب الأدب.

ردَّ محمد شكري

— بكل تأكيد.

فالتفت نحوي وسألني

— وعمنْ غير "السيرافي" أخذت علمك؟

الكثير من — تعلمت كذلك على يد الشيخ "أبي سليمان السجستاني" المنطقي، كما أخذت والذي لم أتخلُ ، "ال المعارف على يد القاضي الشيخ "أبي حامد أحمد بن بشر المروروذى أتخل عن الاستشهاد عن السير في موكب جنازته بحي الأعظمية في بغداد، متلماً لم عنه رحمه الله، أنه كان ضد بمؤثراته وأقواله في كتابي "البصائر والذخائر"، استحضر ذلك، السلف الصالح الذي كان يخاطب الألقاب الكبيرة والتخييم في الخطاب، مستنده في رسول الله بـ "يارسول الله ويَا مُحَمَّد".

الضبط كان الوكيل العام، مثل جميع الحاضرين، يتبع حديثي باهتمام بالغ، ويبحث كاتب الأسماء حتى لا الشاب محنـد أشهـار على تدوين كل التفاصـيل، بل كان يسعـفه في كتابـة يقعـ في خطـأ.

واستمر حديثي عنـ أخذـت عنـهم عـلومـي.

ظل الوكيل العام صامتاً إلى أن تأكد من توقيفي عن حديثي، فخاطبني
— إنك أيها السيد ظاهرة غريبة، وقضيتك من المعضلات الفريدة المعروضة على
الغموض، القضاء، وبمساعدةك لنا، قد نصل بإذن الله وعونه إلى استجلاء مكمن هذا
البعيد وحاضرك وإلى فك هذا اللغز المثير، وقد نعثر على الحافة الضالة بين ماضيك
أبو حيان التوحيدي" "الحالى هذا، إني أرغب في تصديقك، لكن حتى لو ثبت لدينا أنك
تصل إلى الأندلس في عام ذاته! فكيف تفسر لنا قدرك على ألف عام، إذ لا يعقل أن
عام ١٤٢٣. فأين ذهبت الألف ٤٠٠، وبعد يومين أو ثلاثة أيام يلقى عليك القبض في
عام ونيف، أليس هذا محيراً؟

التقت إلى محمد شكري وسأله:

— هل يمكن لي افتقاء بعض مؤلفات "أبي حيان" بالابتياع أو الاستعاره؟

أجابه شكري

وعنه — إني يا سيدي الوكيل العام، أحافظ في بيتي بكتب قيمة كتبت عن مؤلفاته
إليك طرفك، شخصياً، كما أتوفر على بعض كتبه، وبإمكانني أن آتيك بها قبل أن يرتد
سأستعيدها منه في ولی صدیق شاعر، هو أحمد الیدری، يمتلك أيضاً بعض كتبه،
قبالة "شركة احتكار التبغ"، وأنا في الحال، فيبتانا لا يبعدان كثيراً عن المحكمة، فهو يقيم
تأذن لي بالانصراف لآتيك بها؟ شارع تولستوي بحوار مقهى روکسي، فهل
لتنفضل، سنبقى في انتظارك.

غادر محمد شكري المكتب، فطلت نظرات الحاضرين مصوبة نحوه بطريقة فضولية،
لأحس وكأنني بينهم إبليس أعيش الدهر الأبدى، مما جعل نفوري منهم يشتد ويتضخم،
وأخذت وكأن سحابة قائمة السوداد، لم تكتف بتغليفي فحسب، وإنما اقتحمت دواخلي،
تمتصني لأنلاشى وأختفى، مثلاً تخفي الأضغاث دون استئذان صاحبها.

هل أنا حلم؟ هل أنا سراب؟ هل أنا وهم؟

أو وددت لو كنت أحد هذه المخلوقات الاصطلاحية، فأعيش مثلها دون إرادة أو وعي
الملك إحساس، لكن مشاعري الإنسانية وإحساسي بوجودي بين الوكيل العام ووكيل
الذي ومحند أشهبار كاتب الضبط، والشرطة الموجودة خارج المكتب ومحمد شكري
غرناطة، أو ظلت تغيّب لإحضار ما سماه بمؤلفاتي، وـ "نهاوند" التي تنتظر قدوسي إلى
فتتبهني إلى أنني كائن تنتظر عودتي التي لم تتحقق. كل هذه الحقائق كانت تصفعني،
بعضهما عن بعض زمان يحسب حقيقي قائم في مكانين، أو بالأحرى في زمانين يفصل

بالقرون.

بغداد، فكرت في كتبي ومؤلفاتي، تلك التي أضرمت فيها النار غير آسف قبل مغادرتي التي تغيب إنها أيضاً حقيقة ثابتة، فأي كتب ينسبها محمد شكري إلى شخصي؟ تلك الإحضارها، هل كتبت بعد رحيلي فنسبت إلى زوراً؟

(5)

السوسي"، أشهر في غفلة عن إرادتي، طفا إلى سطح ذاكرتي وجه العرّاف "ابراهيم من استحضارِي لـكل من فقهاء وعرّافـي بلاد سوس. يا إلهي، كيف ظل مختفيـ بالرغم يجالس سـوى السلطـان المـغرـبي التـقيـت بهـم بـحاضـرة فـاسـ. الآن أـذـكـرـ كلـ شـيءـ، كانـ لاـ وكـبارـ شـيوـخـ القـبـائـلـ لاـ يـستـقـلـهـمـ إـلاـ المـغـراـويـ المعـزـ بنـ عـطـيةـ، وـحتـىـ الحـاشـيـةـ السـلطـانـيـةـ الـوـاقـعـةـ مـنـ أـلـفـهـاـ إـلـىـ يـائـهاـ، وـأـنـاـ بـحـضـرـةـ وـكـيلـ إـذـنـ لـهـ السـلـطـانـ بـذـلـكـ. تـحـضـرـنـيـ تـلـكـ كـانـتـ غـائـبـةـ عـنـيـ بـسـبـبـ كـراـهـيـتـيـ لـلـسـحـرـةـ وـالـعـرـافـيـنـ، وـكـانـواـ مـنـقـسـمـينـ حـولـ كـنـتـ أـمـقتـ السـحـرـةـ، فـأـعـلـنـتـ عـنـ رـأـيـيـ هـذـاـ لـأـصـدـقـائـيـ الفـاسـيـنـ، وـكـانـواـ مـنـقـسـمـينـ حـولـ كـنـتـ أـمـقتـ السـحـرـةـ، السـوـسـيـ بـيـنـ مـدـافـعـيـ شـاهـدـيـنـ لـهـ بـالـتـقـوـيـ وـالـكـرـامـاتـ، وـنـابـذـيـنـ يـرـمـونـهـ بـالـمـرـوـقـ هـذـاـ الفـقـيـهـ النـبـيـ وـالـخـروـجـ عـنـ الشـرـيـعـةـ، فـانـضـمـمـتـ أـوـلـ الـأـمـرـ إـلـىـ الـفـةـ الـأـخـيـرـةـ، مـسـتـدـاـ إـلـىـ قـوـلـ وـهـوـ حـدـيـثـ ، "((صـ)) مـنـ أـتـىـ كـاهـنـاـ فـصـدـقـهـ بـمـاـ يـقـولـ فـقـدـ كـفـرـ بـمـاـ أـنـزـلـ عـلـىـ مـحـمـدـ (صـ) بـالـشـرـيـعـةـ وـرـغـبـتـهـ النـبـيـلـةـ صـحـيـحـ روـاهـ الـبـزارـ. لـكـنيـ وـافـقـتـ بـعـدـ أـنـ تـأـكـدـ لـيـ تـمـسـكـ الرـجـلـ وـكـذاـ تـحـصـيـلـهـ لـإـذـنـ خـاصـ مـنـ فـيـ أـنـ يـطـلـعـ عـلـىـ عـلـومـيـ فـيـ التـصـوـفـ وـالـمـنـطـقـ وـالـنـحـوـ، عـظـمةـ السـلـطـانـ لـمـقـابـلـتـيـ.

هـذـاـ وـبـعـدـ أـنـ سـيـقـهـ رـقاـصـ أـخـبـرـنـيـ بـقـدـومـهـ فـيـ موـعـدـ حـدـدهـ، حـضـرـ إـلـىـ مـقـرـ إـقـامـتـيـ فـيـ فـنـدقـ ضـيـوفـ فـاسـ، مـصـحـوـبـاـ بـحـارـسـيـنـ مـنـ قـوـاتـ دـارـ الـمـخـزـنـ، لـكـنـ الـحـارـسـيـنـ بـقـيـاـ اـنـتـظـارـهـ بـالـبـهـوـ إـلـىـ أـنـ عـادـ إـلـيـهـمـ قـبـيلـ أـذـانـ الـفـجرـ.

الـلـيـلـةـ أـجـلـ، اـسـتـقـبـلـتـهـ فـيـ غـرـفـتـيـ وـأـنـاـ فـيـ أـقـصـىـ مـاـ يـكـونـ عـلـيـهـ الـحرـصـ وـالـيـقـظـةـ، كـانـتـ وـطـالـ سـمـرـنـاـ بـارـدـةـ، فـسـقـيـتـهـ مـاـ كـانـ مـتـوـافـرـاـ بـغـرـفـتـيـ مـنـ عـصـيرـ الـقـرـفةـ وـالـزـنجـبـيلـ، بـتـيـنـ وـزـيـتونـ فـاسـيـنـ وـبـلـحـ وـتـشـعـبـ حـدـيـثـاـ إـلـىـ أـنـ رـفـعـتـ الـكـلـفـةـ بـيـنـنـاـ، فـكـذـبـنـاـ عـلـىـ مـعـدـيـنـاـ سـمـاعـهـ مـنـ فـنـونـ الـنـحـوـ وـالـمـنـطـقـ فـكـيـكـيـ، وـأـنـاـ أـسـمـعـهـ مـاـ اـسـتـهـوـاهـ وـرـغـبـ فـيـ مـزـيدـ مـنـ بـيـنـ الـكـرـامـاتـ وـالـمـعـجزـةـ وـالـسـحـرـ، وـالـكـلـامـ، كـمـاـ روـىـ لـيـ مـاـ زـادـنـيـ عـلـمـاـ بـالـفـوارـقـ تـمـتـازـ عـنـ الـكـرـامـةـ بـالـتـحـديـ، أـمـاـ السـحـرـ فـلـاـ يـؤـتـىـ إـلـاـ فـالـكـرـامـةـ لـاـ تـقـعـ إـلـاـ اـنـقـافـاـ، وـالـمـعـجزـةـ

باليهوديين من دجال فاسق يستعين

كسحر وشُنف سمعي بخوارق كثيرة متنوعة قام بها لإبطال أنواع متعددة من السحر، جميع تعطيل الزواج، وسحر التفريق بين الزوجين، وسحر الخمول، ونماذج لعلاج المحبة أنواع هذا السحر بآيات قرآنية وأدعية شرعية، وخاص في حديثه عن سحر السحر الحلال للجمع بين الرجل والمرأة المتحابين، كما صارحني بتقوفه وبراءته في البعيد عن الشرك بالله.

القصيدة وهو اجلسها رافقني أني وجدته متحدثاً بارعاً ملماً بخبايا النفوس والمشاعر النفسية نهاؤند"، ولربما لرغبة دفينه "الخفية، مما جعلني أضعف فأبوح له بعشقي وتعلقـي بـ رُقْيَةٍ أو كرامة تحفظ العهد والحب بيني وبينها زَلَّ لها لسانـي، فانزلقت منه أسئلة عن أقابـلها بالأندلس، شريطة أن لا يكون لهذه الرُّقْيَةِ أو الكرامة لـتظل في انتظاري إلى أن نوعـان: نوع بالشرك بالله. فاستبعد اـشغالـه بما يخالفـ الشرع، وأكـد لي أن الرـقـى عـلاقـةـ وأسمعنيـ حـديثـاً يـخـالـفـ الشـرـعـ، فـيـخـدـلـ فـيـ بـابـ الشـرـكـ، وـآخـرـ جـائزـ لـابـتعـادـهـ عـنـ الشـرـكـ، اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـ: "لاـ شـرـيفـاـ صـحـيـحاـ روـاهـ مـسـلـمـ فـيـ كـاتـبـ السـلـامـ، عـنـ رـسـولـ اللهـ صـلـىـ بـأـسـ بـالـرـقـىـ مـاـ لـمـ تـكـنـ شـرـكـاـ".

— ولكن الأمر يتعلق أيضاً بالمدة التي ستبقـاـهاـ فـيـ الأندلسـ؟
ـ سـأـسـأـلـيـ، وـبـعـدـ أـفـكـرـ قـليـلاـ، أـضـافـ

ـ عـزـ وجـلـ، — سـأـعـملـ حـسـابـ ذـلـكـ، سـأـنـجـزـ لـكـ رـقـيـةـ مـنـ أـهـمـ وـأـنـجـعـ مـاـ أـهـمـيـ وـجـبـانـيـ بـهـ سـتـحـفـظـ عـقـلـكـ وـبـدـنـكـ بـعـدـ سـنـوـاتـ مـنـ الدـعـوـاتـ وـالـخـشـوـعـ وـالـأـرـقـ وـالـإـرـهـاـقـ، وـهـيـ رـقـيـةـ مـاـ طـوـحـ بـكـ الزـمـنـ بـعـيـداـ عـنـ بـغـدـاـ.

ـ أـسـرـعـتـ أـجـيـبـهـ، كـاـشـفـاـ لـهـ سـرـيـ

ـ لـكـنـ أـبـقـىـ بـعـيـداـ عـنـ "ـنـهـاـونـدـ"ـ إـلـىـ أـنـ أـعـوـدـ إـلـىـ بـغـدـاـ، إـنـهـاـ فـيـ طـرـيقـهـ هـيـ أـيـضاـ إـلـىـ غـرـنـاطـةـ، وـهـنـاكـ سـأـقـابـلـهـاـ.

ـ عـادـ يـفـكـرـ ثـمـ خـاطـبـنـيـ

ـ لـأـعـدـتـ لـكـ فـيـ — لـوـ أـنـكـ تـحـفـظـ الـآنـ بـمـاـ كـانـتـ تـسـعـمـلـهـ "ـنـهـاـونـدـ"ـ، مـنـدـيـلـ أـوـ خـاتـمـ مـثـلاـ، تـلـقـيـاـ الـحـالـ رـقـيـةـ مـمـاثـلـةـ تـحـصـنـهـاـ وـتـحـفـظـ عـقـلـهـاـ وـبـدـنـهـاـ مـثـلـكـ، إـلـىـ أـنـ أـسـرـعـتـ أـفـتـحـ صـنـدـوقـ ثـيـابـيـ، يـفـضـحـنـيـ حـبـورـيـ وـدـهـشـتـيـ، وـأـخـذـتـ أـلـقـيـ بـقطـعـ الثـيـابـ فـوـقـ الـأـرـضـ قـطـعـةـ، إـلـىـ أـنـ وـقـعـتـ عـيـنـيـ وـيـدـيـ عـلـىـ تـكـةـ ثـمـ بـخـنـقـ، فـأـشـرـتـ بـهـمـاـ إـلـىـ الـعـرـافـ اـبـرـاهـيمـ السـوـسـيـ دـوـنـ أـفـوـهـ بـأـيـ كـلـامـ. فـاـبـتـسـمـ وـقـالـ لـيـ

— ناولني البخنق

أخذه مني ومرّ به على أنفه يشم رائحته، ثم أخرج ورقاً صقيلاً من قرابه، أخذ يدعوك
البخنق به، قبل أن يخط رقته بذات الورق.

عن ما إن مرّت أحداث هذه الواقعة بذهني حتى انتقضت في مقعدي، وكأن يداً خفية
مع الساحر الأنثار امتدت إلى فأمسكت بتلاببي، وهزّتني هزاً تتبهني إلى ما حدث لي
مندهشاً إن كنت بأنتمي، "ابراهيم السوسي" في فاس، مما جعل الوكيل العام للملك يسألني
كنت شواطاً من نار فطمانته بحركة من رأسي على سلامتي، لكنني في داخلي
ما كيف احتجبت هذه الواقعة عن ذهني، وفكري كله كان مصوباً إلى ما بداخلي وإلى
ماضيٌ تخل رحلتي؟! كيف لم تخطر بيالي، مع أنها تكاد تكون الحلقة المفقودة بين
وقدراتي وحاضرتي؟ أنا العالم المنطقي الفيلسوف الصوفي، المسخر لجمع حواسي
أستحضر كل من الطبيعية والمكتسبة بحثاً وتدقيقاً عن مصدر همي وغمي وكمدي،
طنجة" و "تغر طريف" قابلتهم في "حاضررة فاس" و "قصر كاتمة" و "تغر أصيلاً" و "تغر
ابتليت به في تلك الليلة يغيب عن ذهني أبرز وجه وأخطره لرجل ساحر كاهن فقيه،
الليلاء، ليكون السبب في تغيير مصيري وقدري؟

أجل كل ما أعينيه لن يكون مرده إلا لتلك الرقيقة التي أعدّها لي "ابراهيم السوسي"،
وأمرني بحفظها بحوار قلبي.

إنه السحر بعينه، السحر الذي جعلني أقفز على ألف عام

وهي ولعل "نهاوند" بفضل هذا الساحر المغربي، قد قفزت هي الأخرى على ألف عام،
كيف سيقتنع دون شك قد استعادتها الحياة مثلي، و لعلها تبحث عنني في مكان ما. إنما
النوع من السحر؟ الرجال بهذه الواقعة الحقيقية؟ من سيصدقني؟ من يصدق آثار هذا

(6)

يساعده ظل رأسي متصدعاً إلى أن حضر محمد شكري، دخل وبديه مجموعة كتب،
مُشرِّبٍ في حملها رجل قصير القامة، متراهل الجسم، أشقر الشعر أشعثه، ذو وجه
بُحْرَة.

ووضع الكتب فوق مائدة الكاتب محنـد أشهـار، وقدم شكري إلى الحاكـمينـ مـرافـقهـ قـائـلاـ
قبلـ — إنه "الروبيـوـ" صـاحـبـ دـكـانـ بـيـعـ السـجـائـرـ وـالـصـحفـ الـمجـاـورـ لـبيـتيـ، وـهـوـ صـديـقـيـ
ردـ عـلـيـهـ أـنـ أـتـلـعـمـ الـقـرـاءـةـ وـالـكـتـابـةـ، فـابـتـسـمـ الـجـمـيعـ مـحـركـينـ رـؤـوسـهـمـ بـتـحـيـةـ خـفـيفـةـ،

"الروبيو" بحركة مماثلة دون أن يخفي ارتباكه وغادر المكتب.

طلب الوكيل العام من الكاتب محد أشهاي نقل الكتب إلى جواره، وأخذ يقرأ عنوانينها بصوت سمعناه جميـعاً

— "البصائر والذخائر"، "الإمتاع والمؤانسة"، "المقابلات"، "الإشارات الإلهية".

توقف عن القراءة، وخطـبنا

— إن الإطلاع على مضمـمين هذه الكتب يتطلب شهوراً

ولم أطق صبراً، فقاطـعت الوكيل العام

— سـيدي، إـنـي أـرـفـضـ أـنـ تـسـبـ هـذـهـ الـكـتـبـ إـلـىـ شـخـصـيـ،ـ ذـلـكـ أـنـنـيـ أـضـرـمـتـ النـارـ فـيـ وـمـنـاقـشـتـهـ؟ـ مـؤـلـفـاتـيـ جـمـيعـهـاـ قـبـلـ أـنـ أـغـادـرـ بـغـدـادـ،ـ ثـمـ مـاـ جـدـوـيـ إـلـاطـلـاعـ عـلـىـ الـكـتـبـ اـنـتـفـضـ الـوـكـيلـ الـعـامـ فـيـ مـقـعـدـهـ وـخـاطـبـنـيـ مـرـغـيـاـ

بـمضـاميـنـ —ـ أـنـتـ لـسـتـ إـذـنـ "أـبـاـ حـيـانـ التـوـحـيدـيـ"ـ الـحـقـيقـيـ،ـ وـلـذـلـكـ تـنـتـصـلـ وـتـبـرـ جـهـلـكـ عـلـمـاءـ تـقـاتـ،ـ فـكـيـفـ تـبـرـأـ مـؤـلـفـاتـهـ،ـ فـلـاـ تـنـسـ أـنـ الـكـتـبـ الـمـنـسـوـبـةـ إـلـيـهـ وـقـعـ تـحـقـيقـهـاـ مـنـ لـدـنـ مـنـهـاـ وـتـدـعـيـ أـنـكـ "أـبـاـ حـيـانـ التـوـحـيدـيـ"ـ؟ـ

—ـ إـنـيـ لـاـ أـتـبـرـأـ،ـ وـإـنـماـ أـحـيـطـكـ عـلـمـاـ بـأـنـيـ جـعـلـتـ جـمـيعـ مـؤـلـفـاتـيـ حـطـبـاـ لـلـنـارـ دـوـنـ أـنـ أـبـقـيـ عـلـىـ وـاحـدـ مـنـهـاـ!

—ـ وـمـاـذـاـ كـانـ الدـاعـيـ لـإـحـرـاقـ كـتـبـكـ وـبـيـدـكـ؟ـ مـاـ سـمـعـنـاـ عـنـ شـخـصـ قـامـ بـإـحـرـاقـ مـؤـلـفـاتـهـ خـتـمـ هـذـهـ الـجـمـلةـ الـأـخـيـرـةـ بـضـحـكةـ جـوـفـاءـ،ـ فـأـجـبـتـهـ

وـبـذـلـكـ فـإـنـ —ـ نـعـمـ يـاـ سـيـديـ،ـ هـنـاكـ الـعـشـرـاتـ مـنـ الـعـلـمـاءـ الـذـيـنـ أـضـرـمـوـاـ النـارـ فـيـ كـتـبـهـمـ،ـ لـيـ فـيـ إـحـرـاقـهـ أـسـوـةـ بـأـئـمـةـ،ـ اـقـتـدـيـتـ بـهـمـ وـاهـتـدـيـتـ بـهـدـيـهـمـ.

—ـ مـنـ هـمـ هـؤـلـاءـ الـأـئـمـةـ وـالـعـلـمـاءـ الـذـيـنـ أـحـرـقـوـاـ كـتـبـهـمـ؟ـ

ـ سـأـلـنـيـ الـوـكـيلـ الـعـامـ،ـ وـطـلـبـ مـنـ الـكـاتـبـ أـنـ يـدـونـ جـوـابـيـ بـدـقـةـ فـأـسـرـعـتـ أـجـيـبـهـ الطـائـيـ"ـ —ـ "أـبـوـ سـلـيـمـانـ الدـارـاتـيـ"ـ،ـ الـذـيـ جـمـعـ كـتـبـهـ فـيـ تـنـورـ وـسـجـرـهـ بـالـنـارـ.ـ وـمـثـلـ "ـدـاوـدـ"ـ فـيـ باـطـنـ الـأـرـضـ فـلـمـ الـذـيـ أـلـقـيـ كـتـبـهـ فـيـ الـبـحـرـ،ـ وـ "ـأـبـيـ عـمـرـوـ بـنـ الـعـلـاءـ"ـ الـذـيـ دـفـنـ كـتـبـهـ إـنـيـ يـاـ مـوـلـايـ حـينـ أـحـرـقـتـ بـيـوـجـدـ لـهـ أـثـرـ،ـ وـشـيـخـيـ "ـأـبـيـ سـعـيدـ السـيـرـافـيـ"ـ سـيـدـ الـعـلـمـاءـ مـعـيـ عـلـىـ أـنـ إـلـيـسـانـ حـينـ يـنـحـدـرـ كـتـبـيـ كـنـتـ أـعـانـيـ مـنـ حـالـةـ نـفـسـيـةـ مـتـرـدـيـةـ،ـ وـقـدـ تـنـقـقـ آـمـالـهـ،ـ وـلـاـ يـلـبـثـ أـنـ يـدـرـكـ مـعـنـىـ الـعـبـثـ إـلـىـ غـرـوبـ عـمـرـهـ وـتـتـكـشـفـ لـهـ تـفـاهـةـ الـدـنـيـاـ،ـ تـبـدـدـ إـلـىـ كـتـبـيـ،ـ كـنـتـ أـرـاـهـاـ تـجـسـيـداـ مـعـبـراـ عـنـ بـكـلـ حـدـتـهـ وـقـسـوـتـهـ.ـ هـكـذاـ،ـ حـينـ كـنـتـ أـنـظـرـ مـجـدـ أـدـبـيـ،ـ وـلـذـلـكـ لـمـ أـرـ دـاعـيـاـ لـلـتـمـسـكـ بـهـاـ أـوـ إـخـفـاقـيـ فـيـ الـظـفـرـ بـمـاـ كـنـتـ آـمـلـهـ مـنـ

فيها الحرص عليها، فقامت بإضرام النار.

— إذا كانت الحال كما تقول، فمعنى هذا أنك لست مؤلف هذه الكتب التي بين أيدينا؟
وتدخل محمد شكري، مستأذنا في الكلام:

التي — سيد الوكيل العام، المعروف عن أبي حيyan التوحيدى، والذي تؤكد هذه الكتب من نسخ ظلت في بين أيدينا نفسها، أنه أضرم النار في جميع مؤلفاته، إلا ما نجا منها كتاباً على ما أذكر حوزة أصحابه، ولذلك لم يصل إلينا منها إلا حوالي عشرين فرد الوكيل العام كمن يخاطب نفسه:

— من الحكمة إذن التريث، وعدم مناقشة المتهم في مضمون هذه الكتب إلى أن يتم الاطلاع على ما نختاره منها، مع مزيد من البحث.

والتقت نحوى، تعلو وجهه ابتسامة تعبر عن قناعة مؤجلة بشخصى، وقال لي

— هل توافق على مقالة السيد محمد شكري؟

حركت رأسى بالإيجاب، وقلت

— فعلا، فقد سبق لي أن قمت بنسخ بعض مؤلفاتي، وأهديتها إلى ثلاثة من شيوخي هذا وأصدقائي ومريدي، غير أن عددها كان لا يزيد عن عشرة كتب، أو ربما ضعف أحظى العدد، لا أذكر. أما أكثر المخطوطات والبحوث والدراسات، بل جميع ما كنت به، من كتبى وكتب غيري، فقد أضرمت فيه النار استجابة لراحة نفسي

جال الوكيل العام بيصره في وجوه الرجال، يستطلع ذهولهم، وخطبني

— أما زلت تذكر من أهديتهم كتابك؟

الوحيد الذى — واحدا واحدا، وفي مقدمتهم الوزير "أبو الفضل بن العميد"، ذلك أنه غريب مؤثر، فاعل عوضنى عن تلك الكتب، لكن مقايضته غير المتوقعة كانت من نوع على استعداد لسرد تلك فيما حدث بعدها في مسیر حياتي كلها. وإذا سمح المقام، فإني الواقعه التي لم أورخ لها ولا دونتها في أي كتاب.

— تفضل، إننا على استعداد لسماع هذه القصة.

نظرت بدورى إلى وجوه الرجال الصامتة، فرأيت وجه محمد شكري أكثرهم ذهولاً
ـ وقلقاً، فقد كان ينظر إلى كالمأخوذ، فبسملت وقلت

يحمل — كل شيء ابتدأ في ذلك الصباح البغدادي الرائق، حين نقر باب منزلى رسول منه الكتاب، في يده كتاباً من "الوزير أبي الفضل بن العميد"، فتحت له الباب و وسلمت إحدى بناته، فقد كانت فرماقت سيدة تقف خلفه، لم أحفل بوجودها، إذ حسبتها زوجته أو

لكنه قبل أن يهم كسائر النساء تحجب وجهها وجسدها بعباءة وخمار أسودين،
بالانصراف، بادرني بقوله

— إن سيدتي الوزير، يهديك سيدتي "تهاوند"، وأشار إلى مرافقته

جارية، لن أزعم أني لم أرتبك، فلم تكن العادة أن يُهدى رجل من عامة الناس امرأة أو إلى الدخول، لكنني أخفيت ارتباكي وتصرفت كما لو أن الأمر عادي، فدعوت المرأة وأوصدت باب داري ووَدَّعت الرجل بعد أن حملته شكري وامتناني إلى سيده الوزير، فوجده في داخل الدار، والمرأة تقف بجواري، ألقيت نظرة سريعة على كتاب الوزير، أمهات المؤلفات، لكن يوصيني خيراً بـ "تهاوند"، ويهديني إليها جراء ما أمعنته به من لتملاً رأسي بالتساؤل، ذلك أني عبارة "أجمل محظياتي" الواردة في الكتاب استوقفتني، درجة، فهي لا تُشَرِّفُ بهذا اللقب إلا بعد أن أعلم أن المحظية في سلم الحريم، أعلاهُنَّ الجواري، لكنها ستكون لدى امرأة بدون ألقاب! قلت في نفسي يقع تفضيلها على جميع والتقت إليها لأستبط من الخبر حقيقة المعنى. في تلك اللحظة رمقتها وهي تضع بدخولها في خمارها فوق حاشية سجادتي الشيرازية، بعد أن خرجت من عباعتها إعلانا حتى لا أقع على عصمتى ومتاعى، فأصابنى الدوار من فرط المفاجأة إلى أن تماسكت ناعمة البشرة كمرمر الأرض، ذلك أني وجدتها عفراً، فاتنة الحسن، ممشوقة القوام، آسر، إنها نموذج جمال فارسي، بيضاء كعاج هندي، وبعينيها الواسعتين كحل طبيعي المحظيات في قصور الخلفاء.

بيدي، يا إلهي، مجرد مؤلفين من بنات أفكارى، وكتاب الحيوان للجاحظ كنت قد نسخته زكريا وبعض كتب أرسطو المترجمة من السريانية إلى العربية على يد صديقى أبي الافتتان والدهشة يحيى بن عدى النصرانى، وهو أنا أجازى بامرأة مغلفة بالسحر حدّ حسناً فعلت بإهدائى الوزير "أبى الفضل" تلك الكتب، وإلا ما كنت لأقف شاهداً على ما تحدثه المرأة في أحوال الرجل.

توقفت عن الكلام متأملاً تلك الأيام، فضحك محمد شكري، وطلب مني أن أستمر في فاستأنفت حديثي، وابتسم الوكيل العام وهو يشير على بيده أن أوصل سرد قصتي، القول:

سعيدة — ظلت "تهاوند" منتصبة بجواري نخلة باسقة، ومن انشار حمياها عرفت أنها وألقيت به فوق بقدرها، أنا أيضاً بقيت مأخوذاً، لكنني نزعت عقالي من فوق رأسي، بأصابع يدي، البساط الفارسي نفسه، وصرت دون إرادتي أتلمس شاربي وأقتلهمَا

أليس القدر هو الذي سخّرها والنشوة تشتعل في فؤادي، فكلنا محکوم بإرادة الله ومشيئته، مملوكة لي، وسخّرني مالكاً لها؟ تلك مشيئه الله.

(7)

— كم مدة بقيت مع "نهاوند"؟

سألني محمد شكري

— ثلاث سنوات هي كل ما تناولته أيامي مع "نهاوند"، وقبلها لاشيء يستحق نبش أحواله، تفاصيله. ثلاث سنوات تغير خلالها طبعي وديبني، حتى شيطان ترسلي انقلب والجبن، أضحي يكشف لي عن مكمن المكارم والشجاعة بعد أن كان يفضح لي اللؤم برشدني إلى المحسن لأمدحه عوض أن يدلني على المسيء لأنمه عنها، تلكم حقائق مبهرة. فقبل "نهاوند"، كان طبعي أن أتبع نقاد الناس وأن أحفر مكانة الهجاء في درجة أني كنت قد بلغت الذروة في الذم والهجاء، حتى زاحم ترسلي رائقة، لتصير معها نفسي شعر "جرير" و "الفرزدق". لكن بمجيء "نهاوند" صارت أيامي على تحويل مصائرنا من تحس بالطلاؤة في كل شيء. تلك خاصية العشق، فهو قادر الأرض سوف لن ينعم به في طريق النار إلى طريق النور، فمن لا ينعم بالنور في السماء.

القادمة هكذا صرت أرى الأشياء أنا الكهل النازل من الظهيرة، وهي الحسناء الربيعية من علم ومعرفة، من الضحى، وتمنيت لو تمدني بولد ذكر أصدق عقله بما حبانني به الله والده أبي الفضل بن فأسعدتها أن يكون لي معها نسل، لكن مولانا "أبا الفتح وريث وعقابا بي على كتابي "مطالب العميد"، أجهض حلمنا حين استعادها إليه نكایة في الوزيرين" الذي فضحت فيه والده.

في بعد رحيلها أظلمت الدنيا من حولي، فصرت كمن ضل طريقه، ولم أعد أطريق البقاء أحدد المشرق، أضرمت النار في مؤلفاتي جميعها، وقررت الرحيل بعيدا، دون أن وجهة معينة، إذ ازدحمت في رأسى فارس مع الهند مع السندي، وحين حضرتني عن الأندلس، أمسكت بها، وألغيت ما عداها، وأخفيت قراري عن جميع بنى البشر، إلا وصيفتها نهاوند، التي حين علمت بعزمي على الهجرة إلى الأندلس، سربت لي مع كأن مفعولا خبراً، مفاده أنها ستظل في انتظاري إلى أن أعود ويقضي الله أمراً مفاده أنها أفلحت في يوم آخر، ومع الوصيفة ذاتها، أبلغتني أجمل خبر تلقيته في حياتي،

وسترافقهن ضمن قافلة تتأهب للسفر في الانضمام إلى حرير أحد التجار من معارفها، إلى غرناطة، طالبة أن أظل كاتماً سر سفري.

كتاباً موجزاً، من فرط سعادتي لم أنم تلك الليلة، لكن قبل أن تغادرني الوصيفة، حملتها ولا إلى متلقيه، قلت فيه مبهمة لمن قد يصادفه سواها، من غير أن أشير فيه إلى مرسله، العريف بالمدينة المقصودة، إلى بالحرف الواحد: "كل صباح يوم جمعة، عند مدخل جنة أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً".

كنت على يقين كامل، من أنها بفطنتها وذكائها ستعرف أن موعد لقائنا سيكون في صباح يوم جمعة عند مدخل حدائق جنة العريف في غرناطة، ففي هذا الوقت، ينشغل النسوة في هذا الناس بالاغتسال وارتداء الحلل النظيفة، استعداداً لصلاة الجمعة، كما أن على جنة العريف إلى أن الوقت يتبدلن الزيارة مما يتتيح لنا التردد كل صباح يوم جمعة نلتقي.

— جميل، رائع.

صاحب محمد شكري وأضاف
كيف تم لقاءكم في غرناطة؟

"المُنْقَب الساحلية،" — لم نتقابل، إذ رأيت الدرب دوني، فقد ألقى القبض عليّ في مدينة قبلي، ولربما هي الآن تتردد كل قبل أن أبلغ غرناطة، ولعل "نهانوند" قد وصلت إليها صباح على حدائق جنة العريف منتظرة قدومي.

— تقول إنها تتردد الآن على جنة العريف. أتعلم أن الآن هذه قد مرّ عليها عشرة قرون؟

علق شكري وسألني، لكنني لم أجده، فعاد يسألني من جديد:

— أكتب شيئاً عن سنواتك الثلاث مع "نهانوند"؟

ذلك أن — سبق وأن قلت بأنني لم أدون شيئاً عنها، إبني فوق مرتبة الكتابة عن النساء، الحديث عنها في الشعر وحده في اعتقادي، دون الترسل، ما ينظم عن المرأة، لكن هبيتهم المجالس الرجالية الخاصة، لا يضر بمقام الفقهاء، أو ينال من

— وهل نظمت فيها شعراً؟

سأل محمد شكري في عجلة من أمره.

صمت الجميع وكأنهم تضامنوا مع سؤاله، فاعتدلت في مقعدي، ورفعت رأسي إلى المكتب، باحثاً عن مقاطع تناسب المقام، وأنشدتهم مما أحفظه عن أحد شعراء سقف

قصر كاتمة

آهٌ مما أضرَّ بي من غرامي
واشتياقي ولو عتي وغيلي
سادتي هل إلى الوصال سبيلٌ
إِنِّي لم أجدْ له من سبيلٍ
فارحموا منْ شكا لغير رحيمٍ
كم له في ذوي الھوى من قتيلٍ
ناله عزُّکم وذَلَّ لدیکم
فاعجبوا منه للعزيز الذليلٍ
وبشوقی بعثتُ قلبي رسولاً
فارفقوا لا يُحلُّ قتل الرسولٍ

حرك الوکیل العام رأسه مبتسمًا، وخطبني

— لنُعْدُ إلى الموضوع، أین اختفت الألف عام وأنت مازلت هو أنت؟
حتتی أكثر — أتعرف يا سیدی بأنني محاصر بهذه الواقعۃ التي تکاد تتلف عقلی، والتي
الأمّارة بالسوء، "ومن من مرة على الانتحار، ولو لا إیمانی بالله ما كنت لأنقی شر نفسي
بحتسب"، صدق الله العظيم يَتَّقَ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا
ذلك وضعت رأسي بين راحتي يدي، وطفقت أفكر باحثاً عن الحلقة المفقودة في حیاتي،
أو من بالسحر التي كان للعراف "ابراهیم السوسي" يَدُ فيها دون شك، لكنني شخصياً لا
لكن الوکیل العام مزق حبل تفكیري حين عاد لسؤاله
— أین تظنها اختفت الألف عام؟ ماذا حدث لك في إسبانيا؟ أتذکر واقعة معينة لها صلة
بهذا الموضوع؟
— نعم أتذکر.

قلت، وخضت رأسي مفكراً، متذکراً تفاصیل ما حدث في العدوة الأندلسية، فأسرع
الوکیل العام يحثني بأسلوب لبق على الحديث
الساحل — نتكلم، اسْرُدُ كل ما تتذکره من أيامك في إسبانيا، منذ أن رکبت البحر من
ما تجود به المغربي إلى أن ألقى عليك القبض هناك، فلنا متسع من الوقت لسماع كل
ذاكرتك، تفضل، توکل على الله.

غادرت — حين وَطَئَتْ أقدامنا أرض الأندلس في بلدة "طريف"، وکنت ضمن القافلة التي

ودليلاً لنا إلى غاية بلدة فاساً، استأجرنا ثلاثة فرسان بخيولهم وأسلحتهم، ليكونوا حارساً أيام، وبها قد نستعين بدليل آخر يرافقنا إلى "المُنْقَب"، التي قيل لنا إنها تبعد مسافة ستة مسافة يوم واحد "غرناطة" التي لا تبعد بسوى

لمكاره أو كان الصباح بارداً، فسارت قافلتنا في حفظ الله ورعايته، دون أن نتعرض الصاعدة مخاطر، إلا ما كان من وعورة بعض الطرق والممرات والمسالك الجبلية النازلة المشرفة على البحر أحياناً، والقاصية عنه أحياناً أخرى.

الشاهد مررنا بقرى ومداشير ووديان وأنهار، تثير الإعجاب والدهشة، لدرجة أن بعض أيقظت بفؤادي مشاعر كانت آسنة، حتى أني نظمت عنها شعراً

الأندلسية فراده نعم، أفرّ بجمال منتزهات فاس وعجائب ساحل بحر الظلمات، لكنَّ لهذه كان البحر الرابض وطعماً آخر، مذاق شراب ساحر يسكر بمجرد وقوع البصر عليه، والطبيعة إجلالاً، حتى دوماً بين تلك الجبال والهضاب والسفوح، يزيد الانفس تجلياً سماوي نزلت لتخف عن المطر المتتساقط فوق رؤوسنا، بدت لنا زخاته دموع فرح محن الطريق ونوابئه

إلاَّ في ربما اندثرت اليوم تلك المدن والمداشير والوديان والأنهار، أو هي قد لا توجد طرية، إذ لم يمر على بطون الكتب، لكنها بالنسبة لزمني الخاص بي مازالت لدى طلية! رحلتي هذه سوى بضعة أيام، بالفطاعة القدر

سكت عن الكلام بعد أن انتبهت إلى أنني خضت في حديث قد لا يروق الوكيل العام، وقبل أن أبادره بتقديم عذري، قاطعني مبتسما

تفاصيل — أرجو أن تستمر في حديثك بالكيفية التي تريحك، إننا جميعاً نستمتع بجميع العقول، استمر لا رحلتك، إنك أيها الشيخ متحدث باهر ماهر، تعرف كيف تستحوذ على تتوقف؟

شكريه وأضفت:

والإرهاق، وجداً استقبلتنا مدينة "المُنْقَب" بمساءٍ شاتٍ، عاصفٍ بالرياح والزوابع والتعب كل الكائنات من دور وبحر الظلام قد سبقنا، ناشرًا رداءً الأسود عليها، فحجب عنا سوأق جارية بسيول المياه وهضاب، حتى الأرض من تحت حوافر دوابنا تحولت إلى أوتاد خيامنا فوق ذلك الزمهرير المتدقق المناسبة من أعلى الجبال، فاستحال علينا دق واحد من البقاء فوق ظهر دابته، والماء فوق رأسه المصم لآذان، مثلما استحال على كل مفرٌّ متدقق وتحت أقدام مركوبه مكرٌّ

عَذَّ بعضنا هذا الاستقبال نذير شؤم، لكنني شخصياً كنت قد اعتدت أن لا أتوjos شرًا
إلاً من بني آدم، وليس من غصب الطبيعة.

صغيرة ظللنا وقتاً من الزمن نتهرس على حالنا كالأيتام، إلى أن اهتدينا إلى مغارات
وبغالنا وحميرنا تحت تزدان بها الجبال، أرشدنا إليها حراسنا الفرسان، فقيّدنا خيولنا
للقطع بسيف أو خنجر، وأبل مطر عاصف في ظلام سميك، كأنه شيء مادي قابل
عن حراسة الدواب لدرجة أن كلابنا خشته، فلحقت بنا إلى المغارات متخلية
مفاصلني كنت آخر من اهتدى إلى مغارة نائية منعزلة، دخلتها والبرد موشك على تجميد
يرتدية إلا أكباد القوم وقبض أنفاسي، فاستبدلت بثيابي المكسوة بالماء فقطاناً فاسياً لا
هذا، لكنني قلت في نفسي، إن عند استقبال ضيوفهم، وليس أثناء نومهم، كنت أعرف
للضرورة أحکاماً

و فوقها وفاتني أن أقول، إني قبل أن أرتدي الققطان الفاسي، كنت قد لبست تكة عراقية
البرد، فنهضت غلالة عراقية أيضاً، وبالرغم من ذلك ظلت أوصالي تصطك من هجمة
صوفياً بقب كبير غطيت به وأضفت فوق الققطان، بقيراً وشملة عراقيين ثم جلباباً فاسياً
فاكتتفني دفء معقول، لعله كان السبب رأسي بعد أن دثرته بكوفية وطحة عراقيتين،
خنجري بجاني حتى داهمني سبات في أني ما إن توسلت سرج حصاني ووضعت
محهولة على مفرق رأسي، فأوقفت تشغيله في عميق، وكأنه حسام مهند أهوت به يد
الحال.

حسبت وحين استعادتني الحياة، وجدت الظلام ما زال مخيماً على المغارة، ففزعت، إذ
كاملاً دون نفسي قد صحوت قبل طلوع النهار، مستبعداً أن أكون قد نمت ليلاً ويوماً
نائية فلم لا يكون أن يتولى رفافي إيقاضي. لكن الشك لعب برأسني، فمادامت المغارة
مرافقٍ قد ضلوا الطريق إليها فتركوني نائماً

طواف قمت أبحث عن المنفذ الذي تسللت منه، فزكمت أنفي رائحة رطوبة عطنة. وبعد
أو يتيح لي وتطواف، تأكد لي أن المغارة مغلقة، ولا شيء بها يسرّب الضوء أو الهواء،
ضوضاء الخروج منها، ذُعرت، فامسكت بخنجري، وطفقت أفرع به الجدار وأحدث
لنجدتي وصراخاً عسى أن يُقيِّض الله لي انتباه أحد مرافقي، فيسرع

قرعت وقرعت، وصرخت وصرخت وصرخت، مما انتبه أحد إلى قرعى أو
صراخي، فاستبدلت بخنجري سرج حصاني، نزعت عنه الركاب وصرت أفرع به سمع
وذا الجدار، محدثاً دويًا يخترق سمع الأصم، كنت لا أتوقف إلا بعد أن يكل ذا الجدار

بأن ذلك متنبي، فأعيد مواصلة الدق والقرع والصراخ، وأعيد وأعيد، إلى أن صار يقيني قلبي الذي الجر المسكون بالظلم، سيكون الشاهد الوحيد على نهاية حياتي، وأن الغناء، سيتوقف بعد تتبع دقاته، متى نتسارع دقات الطبل إعلاناً لخاتمة وصلة لحظات لتختتم وصلة وجودي.

إنَّ عِلْمَنَا لَوْ أَحْاطَ بِمُوتَنَا مَتَى سِيكُونَ، لَكَانَ ذَلِكَ مَفْسَدَةً لَنَا، وَمَحْنَةً شَدِيدَةً عَلَيْنَا، "فالجهل بالشيء راحة، والعلم بالشيء تعب".

سبق أن قلت هذا متكلساً متخيلاً، وها أنذا أعيش حقيقة وواقعاً، ألم斯 بجميع حواسِي مفسدي ومحنتي ونهاية حياتي.

أفكار مثل هذه وحدها، كانت تطرق رأسي، فشعرت بالوهن، ولم تعد قدماي تحملان سقطت نقل جسدي، ولا عادت يدي تقوى على الإمساك بالركاب لقرع الجدار، وبعد أن خارج، على الأرض مستسلماً لقربي ناطقاً بشهادتي، دوى في أذني صدى لطرق من الحد عليه في فأرخت سماعي لأتبين الأمر بإحساس من يستمع إلى منطق حكم بإقامة جنائية كبرى بالإعدام أو البراءة.

تأكد لي الطرق من الخارج بوضوح لا لبس فيه، فأحسست بعيني تغورقان بالدموع إعلاناً عن ولادي من جديد، أنا إذن رجل حي يرزق، هناك سعي حيث في الخارج وإنقاذِي، كنت أعرف أن شهامة رفافي المغاربة لن يجعلهم يتخلون عنِي في مغارة خلُعٍ مهجورة، ويحلو لهم سفرهم إلى غرناطة. ما كانت شيم مريدي سُنَّةً مالِكٍ أصحابهم، وقد عاشرتهم وخبرتهم زماناً تضيع أيامه في العد.

قدمي، لم أدر كيف غشيتني عافيتها، واشتدَّ بأسِي، لأجد نفسي وقد انتصبت واقفاً على من قوة فتناولت ركاب سرجي وسط ظلام القبو، وصرت أقرع الجدار بكل ما أوتيتُ مستعادة خارقة، وأصرخ بذات القوة نفسها:

— أنا "أبو حيان التوحيدِي"، أغيبُونِي، أغيبُونِي !!

الهجرة ازداد هدير المعاول المنبعث من الخارج حقيقة قائمة كاسمي وصراخي، كشمس الحياة وبغداد وفاس، وبقدر ما كانت دقات الحفر تقترب، كنت أقرب من

المغاربة، ذلك لم أدر إن كان الجدار قد تحطم، أم إن أولئك الرجال انبعثوا معي بداخل أصواتاً ترطن بكلام غريب أن نوراً كلمح البرق كان قد أعمى عيني فلم أتبين منهم إلا بي وتقنادي في مجاهل لم أتبينها، لم تسمعه أذني من قبل، بعد ذلك شعرت بأيُّدٍ تمسك بمكتبكم هذا إلى أن استعدت بصري بداخل مكتب شبيه

أسئلتهم تتقاذف من بعد أن سقوني ماءً ولبناً، وألعموني رغيفاً حدّ الارتواء والشبع، بدأت الطريق الذي سلكته إلى حولي، مرّة عن كيفية وجودي بذلك المكان، ومرّة أخرى عن يتحدث بعربى ما، هو الذى الأندلس، ومرّة عن أسماء وأوصاف رفاقي، كان أحدهم كلمة واحدة من كل ما أخبرتهم به، تولى وساطة الترجمة، فشرح لي أنّهم لم يصدقوا ضخماً كان مقاماً بمكان وجود المغارة منذ ولا هو نفسه صدق ذلك، وذكر لي أنّ بناء المختصين في علم الآثار الإسلامى، وأنه يستحيل على سنين بعيدة، لا يضبطها سوى تلك المغارة والبقاء بها حياً، فعدني الجميع مجنوناً وقال أيٌ كان من بني آدم ولو ج مجرد شبح أحدهم عنى أنّى

(8)

بعرّاف مقتدر يدعى ذلك ما حدث بالأندلس، لكن قبل ذلك وأنا في فاس، كنت قد التقى بـ أو نقل حرباً كما تسمونه في "إبراهيم السوسي"، فأعاد لي رقية، كما نسميتها في العراق، بعيداً عن بغداد، فهل لهذا السحر علاقة المغرب، وأخبرني بأنها ستحفظ بدني مادمت السنين؟ هل أفلح ذلك الساحر إلى هذه الدرجة؟ لعله كان ببقائي على قيد الحياة كل هذه نائماً بتلك المغارة مدة عشرة قرون، هذا ما أرتات فيه، غير أنّ ما السبب في بقائي نفسي، هو أنني أبو حيان التوحيدى، وأعرف خلاني ومعارفي وتاريخ وآداب أعرفه عن وفلسفة المسلمين قديمها وحديثها إلى زمانى الذي عشت، والمتوقف في عام ٤٠٠ عبده تولاه هجرية. أما ما جاء بعده فهو لدى في عداد الغيب. "إن الله إذا أراد نجاة بلطف من عنده". صدق الله العظيم.

"ظلت عيونهم جاحظة مشربة نحوى في خشوع وذهول، لكن الشاب "محمد أشهبار" عرف أنها الكاتب، وفي غفلة مني ارتمى على يعاقننى، فترك بخدي شيئاً لزجاً ساخناً، دموعه، وأن ما فعله جاء تعبيراً عن تصديقه لروايتي

أجل، صدق أصغر الرجال أنّى أبو حيان التوحيدى القاسم من دهور ولت وانقضت، و إلا ما كان ليليل خدى بما فاضت به عيناه دون إرادته

أراحتي ما فعله الشاب، خف عن كاهلي بعض تقل همومى، دلني على أن منطق الرجال لم يطرأ عليه سوى تغيير طفيف، وأن الأحساس ما زالت توazi الأدلة ووعي دليله العقليه، فمن يستعص عليه الاحتكام إلى البرهان العقلي يسخر أحاسيسه لتكون كي واكتتفني شعور قوي بأن دورهم آت لاريـب فيه، وأن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت

هذا الواقع، تلين مداركهم، فما دام الطرق مشتداً، فإن عقولهم لن تتفتح ليتقربوا تصديقه، فأنا واقعي هذا الأسطوري المحير، وهو واقع والله يستعصى هضمه ويصعب إليهم من حقبة زمنية أعرفها نفسي أكاد لا أنقله، بالرغم من أنني صاحب الشأن، القادر البائدة التي أنا وحدي الأقدر على ويجهلوها، الشاهد الأوحد عليها، على أيامي تلك الحاضرة التي لا أعرف منها سوى هذه الوجوه الآدمية الإحاطة بها، وأيامي هذه القليلة المحيطة بشخصي.

ظل ذهني منشغلًا في حواره الباطني إلى أن نطق الوكيل العام للملك، يخاطبني حيان — إنني يا سيدِي أود لو أصدق كل كلمة تصدر عنك، فإذا كنت أنت حقاً الشيخ "أبا أن أتحدث التوحيد" كما يدلني قلبي، فسأكون من الشاكرين له عز وجل، إذ قيض لي ومكانتك إلى شخصية فريدة قادمة من زمن بعيد، شخصية في علو قدرك وعلمه الرفيعة في التاريخ العربي الإسلامي.

توقف يفكُر وقد غشيت محياه سحابة حزن، وبصوت أحش خاطبني وكيل الملك — إنني أحس بقشعريرة تسري في بدني، ذلك أنني من فرط الذهول أكاد لا أصدق ما القادر من بطن "أسمع وأشاهد، يا إلهي، كيف أتولى استطاق العالم" أبي حيان التوحيد وકأنه مجرم آثم؟ إنني التاريخ، وأمره أن يقف دون حركة، ويجعل بيديه مغلولة خلفه وأعتذر يا سيدِي، ألتمس منك المغفرة

وتدخل الوكيل العام

— والله ما عدت أقوى على الاستيعاب، وأظن أنني في حاجة إلى بعض الوقت

توقف قليلاً وكأنه شارد الذهن، ثم أضاف

تجبرني — بالنظر إلى مهمتي الجسيمة رئيساً للسلطة على هذا الإقليم، فإن مسؤوليتي لها مثيل في على التدقيق والتمحيص، خاصة وأنا أمام واقعة غريبة وفريدة، لم يسبق تاريخ القضاء.

وأدّار وجهه نحو وكيل الملك يخصه بخطابه

هذا المحضر يجب أن يحفظ وبطريقة قانونية، والتعليق المناسب هو التقاضي

والتفت نحوِي مبتسمًا

تاريخ قديم — إنها إجراءات عادلة لقبر الملف، ذلك أن هجرتك إلى إسبانيا قد تمت في يطبق بأثر رجعي، بعيد، والقانون لا يسري إلا على الجرائم المرتكبة في ظله، أي لا "تبعد رسولاً وهي قاعدة مستمدَة من القرآن الكريم: "وما كنا معذبين حتى

ما إن توقف الوكيل العام حتى صرخ محمد شكري

— هنيئاً سيدتي أبا حيان

فتبغه هناف بالترحيب.

لكنني بالرغم من صواب القرار، والفرح الذي عم فطفا على وجوه الحاضرين، ظلّ نحو ذهني منشغلًا بقضتي الأساسية، تلك التي طغت على كل ما عداها، وبعد انحداري لم ألفه ولم خريف عمري، أجد نفسي أبدأ المسير لأنعلم كيف أواجه عالماً جديداً غريباً مستمدّة من الإسلام، بدت لي يألفني، فحتى قوانينه التي يتحجّج الوكيل العام بقوله إنها كان المسلم في بلاد الإسلام يُعاقب صادمة، إذ كيف بالله يعاقبون على الهجرة، متى علانية؟. ألم يهاجر الرسول سرّاً من مكة إلى على الهجرة سواء أكانت سرية أم كتابه إلى الهجرة في أكثر من آية؟ "ومن يهاجر في سبيل الله المدينة؟ ألم يدع الله في مُراغماً كثيراً وسعة". "ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يجد في الأرض يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيمًا".

أمر يستعصي على الفهم، ما علمت بوجود دين أو مذهب يقيم الحد على المهاجر شأن بني السرّي، ما أعلمه يقيناً هو أن الله سبحانه وتعالى في قضية الهجرة، رفع من والأنصار الذين اتبعوه آدم وسواه برسوله حين قال: "لقد تاب الله على النبي والمهاجرين من القابع الذي لا يهاجر، فنيته في ساعة العسرة". إن للمهاجر في الإسلام مرتبة أعلى والعيش أو الفرار من الضيم والذل. فهل في لا تتعذر طلب العلم أو البحث عن القوت رسوله هذا ما يخالف كتاب الله وسنة.

على كان الوكيل العام ي ملي على الكاتب محنـد أشـهـار تعـليـل نـجـاتـي من قـسوـة العـقـاب الموضوعـ، جـريـمة هـجرـتـي السـرـيـة البـشـعـة في نـظـرـهـمـ. وـفـكـرـتـ فيـ أـنـ أناـقـشـ الرـجـلـ فيـ وـهـوـ رـئـيـسـ وـأـنـ أـعـلـنـ لـهـ بـأـنـ قـوـانـيـنـهـ تـخـالـفـ الشـرـعـ، لـكـنـيـ خـفـتـ أـنـ تـغـضـبـهـ أـفـكـارـيـ صـدـرـهـ تـجـاهـ مـحـكـومـهـ السـلـطـةـ، فـيـنـقـلـبـ لـيـنـهـ إـلـىـ مـاـ لـاـ تـحـمـدـ عـقـبـاهـ. فـالـحـاـكـمـ عـادـهـ مـاـ يـضـيقـ لـوـ أـهـانـهـ، تـلـكـمـ طـبـائـعـ إـنـ عـارـضـهـ، مـثـلـمـ يـتـسـعـ صـدـرـهـ أـمـامـ مـنـ هـوـ أـعـلـىـ سـلـطـةـ مـنـهـ حـتـىـ المـغـارـبـةـ، فـقـدـ عـرـفـتـهـ نـابـعـةـ مـنـ إـلـاسـلـامـ، الـحـاـكـمـ لـوـ يـعـلـمـونـ! ثـمـ إـنـيـ أـجـهـلـ قـوـانـيـنـ هـؤـلـاءـ عـامـ، وـجـائزـ أـنـ تـكـوـنـ قـدـ اـنـقـلـبـتـ إـلـىـ غـيـرـ مـنـبـعـ إـلـاسـلـامـ لـكـنـ ذـلـكـ مـرـأـةـ عـلـيـهـ أـكـثـرـ مـنـ أـلـفـ بـيـزـنـطـيـةـ أـوـ مـجـوسـيـةـ، أـوـ قـدـ يـكـوـنـ مـذـهـبـ الـمـدـعـوـ حـامـيـمـ وـمـذـهـبـ مـالـكـ، كـأـنـ تـكـوـنـ ظـهـرـ فـيـ غـمـارـةـ قـدـ اـنـتـشـرـ، فـسـادـ رـبـوـعـ الـمـغـرـبـ، إـذـ لـاـ يـعـقـلـ أـنـ الـمـتـبـيـ، الـبـرـبـرـيـ الـذـيـ بـلـ يـظـلـهـ إـلـاسـلـامـ، إـلـىـ جـرـيـمةـ يـقـامـ عـلـيـهـ الـحـدـ تـحـوـلـ الـهـجـرـةـ فـيـ

كانت هذه الخواطر تموج مسرعة في ذهني، فسكتُ عن الكلام وأنا أحдж الحيرة المرسومة على وجوههم جميعاً تتضاعف، لكن خواطر أخرى مضادة افتحمتني لتشيني من عما اعتبرته حدة في لهجتي، إذ فكرت في أنني ما دمت سأصدق القول في موقفى أن أغير الهجرة، وهو موقف عقلاني سليم، يساير الشرع، فليفعلوا بي ما شاءوا، دون من منطقى وصراحتى، حتى لو كان لهم منطق مخالف، فالصدق يحمل في كنهه أبوحيان "براھینه" ويكشف عن قوة صاحبه فيمنه التقدير والاحترام والنفوذ، فأنا التوحيدى" المجبول على قول الحق.

و قبل أن أتحدث إليهم بالصراحة التي اعترتها، قاطعني الوكيل العام في أدب جم عزيزاً – سيدى أبا حيان المحترم، لتعذر نفسك من هذه اللحظة، ضيفاً مكرماً مشرقاً المدينة التي شرفتها و غالياً، ستنتقل الآن إلى الإقامة في أفحى فندق في المدينة، هذه جديد، وهي المدينة نفسها التي بقدومك قبل أن تغادرها إلى الأندلس، وعدت لتشرفها من الله في الربع الإسباني كله غادرها وليها طارق بن زياد، لينشر كتاب

ـ وتدخل السيد محمد شكري مخاطباً الوكيل العام للملك

ـ سيدى، إذا سمحتم، فإننى أدعوك يا شيخ أبا حيان للإقامة في شقتك، إلا إذا كان لكم رأيٌ مخالفٌ

أحابه الوكيل العام:

ـ إن الشيخ أبا حيان سيحل ضيفاً على وزارة العدل، وليس على الخواص، فالرجل في حاجة إلى راحة كاملة.

ـ وتدخل وكيل الملك مخاطباً رئيسه الوكيل العام:

ـ هل تأذن لي يا سيدى أن أحجز له جناحاً في فندق "المنزه"؟

ـ لا أبداً، أنا أفكر في إقامة "السراب" فهو فندق آمن، ثم هو مطل على المحيط – لا أبداً، أنا أفكر في إقامة "السراب" فهو فندق آمن، ثم هو مطل على سيكون في منأى الأطلسي، بحر الظلمات كما سماه أبو حيان واستهونه مروجه، فهناك تفرد له عن كل مضايقه، يجب أن يخصص له أجمل جناح مشرف على البحر، وأن وزير العدل حراسة خاصة، إنني سأصحابه بنفسى إلى الفندق، بعد أن أتصل بالسيد لأطلعه على هذا الحدث السعيد.

ـ صمت قليلاً وأضاف:

ـ القضاة أو هذا، وأن لا يتسرب إلى علم – أمركم جميعاً بأن يدفن هذا السر في مكتبنا بشخصه من المحامين أو غيرهم، فالشيخ أبو حيان يجب أن يستريح، وكل ما يتعلق

الوحيد عنه إلى طلبات وغيرها يجب أن أعلم به حفظاً لسلامته وراحتة، فأنا المسؤول حدّ هذه الساعة

ـ وتدخل محمد شكري موجهاً كلامه إلى الوكيل العام

ـ رأيك يا سيد عين الصواب، وحذراً لو أذنت لي أن أبسط لك بعض ما تناقلته الأخبار عن حياة أبي حيان.

ـ حرك الوكيل العام رأسه موافقاً، دون أن يقوى على إخفاء امتعاض لاح على محياه، فأضاف شكري

ـ القلائل الذين — أبو حيان، لا يحب الأضواء ولا تستهويه حياة البذخ، وهو من الأدباء فعلت في مؤلفاتي "الخبز" كتبوا التاريخ الباطني المskوت عنه في بغداد، تماماً مثلاً لحياة المهمشين والمنبوذين الحافي" و "السوق الداخلي" و "وجهه"، حيث أرخت ومتلماً كتب مؤلفاً كاملاً ذم فيه صديقه والشاشين من ساكنة طنجة وتطوان والعرائش، عباد، انتقاماً منها ورداً على إساعتها له، عرضت الوزيرين ابن العميد والصاحب بن محمود درويش رداً على إساعته إلى، بل أيضاً ألقت كتاباً مستقلاً أنا كذلك بالشاعر للهجوم على الكاتب الأمريكي بول بولز، الذي أقام طويلاً في طنجة، فضحت خصصته نوایاه الاستعمارية السيئة، إذ كان يحب المغرب دون المغاربة فيه.

ـ منبوذاً من قبل هكذا كانت حياة أبي حيان، شبيهة بحياته، فكلانا لم يتزوج وكلانا عاش المسحوقين والمهمشين أقربائه وبني قومه، كما نشتراك في خصوصية حمل هموم الأدبية جاء من لدن الآخر الغرب والتعبير عنها، كما نلتقي في كون الاعتراف بقيمتنا الأجنبية، وليس من لدن بني قومنا.

ـ وقادعه الوكيل العام

ـ إلى أين تريد الوصول بالضبط؟

ـ أرغب في مجالسته بحكم ما نشتراك فيه معاً

ـ حلًّـ أيها السيد محمد شكري، شتان بين ما تفكـر فيه وما هو واقـع الحال. إن الشـيخ العربي في ضيفاً على ساكنة الأرض قاطـبة، جـاءـنا معـطـراً بـعـقـ التاريخ الإـسلامـي هذه المسـافة الزـمنـية طـراـوـتهـ التيـ كانـ عـلـيـهاـ مـنـذـ عـشـرـةـ قـرـونـ، إنـ اـنـبعـاثـ حـيـاـ بـيـنـناـ بـعـدـ وـفـسـفـتهـ، فـتـلـكـ أـشـيـاءـ ثـانـوـيـةـ تـأـتـيـ الطـوـيـلـةـ، لـظـاهـرـةـ فـرـيـدةـ مـحـيـرـةـ لـلـأـلـبـابـ، أـمـاـ عـلـمـهـ وـفـكـرـهـ عـلـىـ لـسانـهـ مـبـاشـرـةـ، وـلـيـسـ عـلـىـ لـسانـكـ أـنـتـ فـيـ مقـامـ آـخـرـ، وـقـدـ نـطـلـعـ عـلـيـهـاـ فـيـ كـتـبـهـ أوـ قـبـلـ أـنـ يـنـتـهـيـ الوـكـيلـ العـامـ مـنـ حـدـيـثـهـ، اـسـتـسـمـحـتـهـ فـيـ الرـدـ عـلـىـ مـحـمـدـ شـكـريـ وـقـلـتـ

أخطأطهم جميعاً

غير — لم يسبق لي البتة أن سجلت التاريخ الجوانى المسكوت عنه في بغداد، ولا في من بغداد، ولا عاشرت المنبوذين والمهمشين، أو عبرت عن همومهم في أي مؤلف أمام السيد مولفاته، ويكتفى على سبيل المثال العودة إلى كتابي "المقابسات" الموجود الوكيل العام.

وأشرت بيدي إلى الكتاب وأنا أقول

الخاصة لأطلع — إن لم يكن قد طاله التزوير، ففي هذا المؤلف مثلاً، قمت ببساط آرائي بغداد، وهي قضايا تتعلق الناس على القضايا الفكرية التي تستغرق اهتمام المتلقين في والدينية، وتبرز صورة من التعاون بالمسائل والأبحاث الفلسفية والمنطقية والاجتماعية المسلمين ونصارى ويهوداً وملحدة ومجوساً، بين متلقين منتمين إلى ملل دينية مختلفة، في جو من التسامح والود، أشرت إلى آرائهم يتحاورون ويتقابلون العلم والمعرفة وهم جميعاً شخصيات سامة، فلافلة ومناطقة، دون وعائقهم دون أن أحمل أسماءهم، منبوذ أو مهمش واحد أن يوجد من بينهم جميعاً.

وأنا أتحدث، رممت وكيل الملك يمسك بكتاب "المقابسات" ويتصفحه، وكأنه يريد التأكد مما قلته، فاسترسلت في حديثي

فقد — أما عن صديقي الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد رحمة الله عليهما، وهذا أشرقت الشمس وغابت، وأشرقت وغابت مدة خمسين عاماً على هجومي عليهما، صفائها معناه أني كنت في طور الشباب الأرعن، لكن أيامنا ما انفك أن عادت إلى كما كنا، خمسة الأول، بعد تلك الخصومة التي استغرقتنا عامين لا أكثر، فعدنا لنصير والخوارزمي وبديع الزمان أصدقاء كأصابع اليد الواحدة، أنا وابن العميد وابن عباد قصر ابن عباد، اجتمعنا لدى ابن الهمذاني، تجدد صفاونا، فأصبحنا إذا لم نجتمع في العميد في قصره بحي الكرخ على دجلة.

بعد أن أنهيت كلامي، وقف وكيل الملك وخطا نحوه، فصافحني وهو يكرر اعتذاره لي، بادلته التحية، ودعوته إلى الجلوس في مكانه

في هذه اللحظة، انتصب الوكيل العام واقفاً وقال لنا

— أيها السادة، أشكركم جميعاً، وأعلن عن إنتهاء الجلسة

فأسرع السيد محمد شكري يقول لي

— سيدى أبا حيان، إني أتوق إلى مجالستك، فهل تأذن بزيارة لك في فندقك؟

— ليس اليوم، ول يكن بعد أن أنا قسطاً من الراحة.

غادرت المحكمة في موكب الوكيل العام، وأنا أحـس صداعاً في رأسي وتصدعاً في فكري مفاصلي، فكرت في أنـي لو أـمـلـأـ رـئـيـ بـهـوـاءـ نـقـيـ فقد أـسـتـعـيـدـ بـعـضـ عـافـيـتيـ،ـ كـمـاـ التـفـكـيرـ فـيـ حـاجـتـيـ المـاسـةـ إـلـىـ العـزـلـةـ،ـ إـلـىـ أـخـلـوـ إـلـىـ نـفـسـيـ عـلـّـيـ أـقـوىـ عـلـىـ أـكـثـرـ مـنـ عـشـرـةـ قـرـونـ،ـ مـصـبـيـتـيـ هـذـهـ الجـديـدـةـ،ـ فـلـمـ يـعـدـ لـدـيـ شـكـ فيـ أـنـيـ فـعـلاـ قـفـزـتـ عـلـىـ عـشـرـةـ قـرـونـ قـدـ وـلـتـ!ـ كـلـ مـنـ يـاـ لـهـ مـنـ وـاقـعـ مـرـ صـادـمـ!ـ فـبـعـدـ لـيـلـةـ وـاحـدـةـ أـسـتـيقـظـ لـأـجـدـ أـجـعـلـ عـقـلـيـ يـسـتوـعـبـهـ؟ـ كـيفـ لـيـ أـعـزـيـ قـابـلـهـمـ يـؤـكـدـونـ هـذـهـ الحـقـيـقـةـ!ـ لـكـ كـيفـ لـيـ أـنـ حـقـ؟ـ يـاـ إـلـهـيـ،ـ لـاـ أـقـوىـ عـلـىـ التـفـكـيرـ فـيـ ذـلـكـ،ـ كـانـتـ نـفـسـيـ فـيـ وـفـاءـ "ـنـهـاـوـنـدـ"ـ؟ـ وـهـلـ تـوـفـيـتـ كـانـتـ إـحـدـىـ طـبـاتـ هـجـرـتـيـ بـعـدـ أـنـ ضـاقـ بـيـ الـمـشـرـقـ بـاـفـقـادـهـ،ـ مـنـايـ وـمـلـاـذـيـ الـأـخـيـرـ،ـ بـقـيـتـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ.ـ تـرـىـ مـاـذـاـ كـانـ مـصـيـرـهـاـ مـنـ بـعـدـيـ؟ـ هـلـ اـسـتـعـادـهـاـ وـلـعـنـيـ مـنـ أـجـلـهاـ الـعـمـيـدـ؟ـ هـلـ مـنـعـوـهـاـ مـنـ السـفـرـ إـلـىـ غـرـنـاطـةـ؟ـ أـمـ تـرـىـ سـافـرـتـ فـظـلـتـ تـنـتـظـرـنـيـ وـرـثـةـ اـبـنـ جـمـعـةـ فـيـ حـدـائقـ جـنـةـ الـعـرـيفـ؟ـ مـنـ أـينـ لـيـ أـعـلـمـ بـوـقـائـعـ مـرـتـ عـلـيـهـاـ قـرـونـ!ـ كـلـ يـوـمـ عـظـامـ الـوـزـيـرـ مـتـلـاشـيـةـ فـيـ التـرـابـ،ـ وـورـثـتـهـ كـذـلـكـ.ـ وـخـلـانـيـ فـيـ بـغـدـادـ وـفـاسـ،ـ وـرـفـقـيـ إـنـ يـدـلـانـيـ فـيـ رـحـلـةـ الـأـنـدـلـسـ،ـ كـلـهـمـ الـيـوـمـ يـرـقـدـونـ عـظـامـاـ نـخـرـةـ بـعـدـ أـنـ طـوـاهـمـ الرـدـىـ!ـ مـنـ وـعـلـىـ بـيـتـيـ فـيـ عـلـىـ مـاـ حـلـ بـهـمـ قـيـدـ حـيـاتـهـمـ،ـ وـعـلـىـ بـغـدـادـ الـعـبـاسـيـةـ،ـ وـالـأـنـدـلـسـ الـأـمـوـيـةـ،ـ الـضـفـةـ الـأـخـرـىـ بـحـيـ الـكـرـخـ،ـ الرـصـافـةـ عـلـىـ دـجـلـةـ،ـ وـبـيـتـ الـوـزـيـرـ أـبـيـ الـفـتـحـ بـنـ الـعـمـيـدـ فـيـ الـوـزـيـرـيـنـ،ـ كـلـ شـيـءـ صـارـ طـعـاماـ وـحـفـلـاتـ اللـهـوـ وـالـسـمـرـ،ـ وـالـمـحاـوـرـاتـ الـفـكـرـيـةـ فـيـ بـيـتـ إـلـاـيـ،ـ أـنـاـ الـأـوـحـدـ الـأـبـقـىـ مـنـ كـلـ بـشـرـ تـلـكـ لـدـيـدـانـ الـقـبـورـ،ـ بـعـدـ أـنـ مـضـىـ بـهـمـ رـكـبـ الـأـيـامـ،ـ نـارـ،ـ وـهـمـ آـدـمـيـوـنـ مـنـ تـرـابـ،ـ لـيـتـيـ قـضـيـتـ فـيـ ذـلـكـ الـحـقـبـةـ الـزـمـنـيـةـ،ـ كـأـنـيـ إـبـلـيـسـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـقـادـمـيـنـ مـنـ الـمـسـتـقـبـلـ،ـ أـوـ بـالـأـحـرـىـ،ـ الـذـيـنـ عـدـتـ الـزـمـنـ الـبـائـدـ،ـ دـوـنـ أـنـ أـتـعـرـفـ يـجـمـعـنـيـ بـهـمـ غـيـرـ الشـكـلـ الـبـشـرـيـ وـالـشـبـهـ الـأـدـمـيـ،ـ هـلـ أـنـاـ قـادـرـ إـلـيـهـمـ مـنـ الـمـاضـيـ،ـ مـاـذـاـ فـيـ عـمـرـيـ عـلـىـ أـنـ أـتـجـانـسـ مـعـهـمـ،ـ وـأـنـصـهـرـ فـيـ عـادـاتـهـمـ وـحـضـارـهـمـ؟ـ بـعـدـ هـذـاـ الـانـهـارـ أـضـحـوـكـةـ بـيـنـهـمـ،ـ دـمـيـةـ نـاطـقـةـ تـسـتـدـرـ الشـفـقـةـ وـتـثـيـرـ الـذـهـولـ،ـ إـنـ إـلـيـسـ لـاـ يـسـتـحـيـلـ!ـ سـأـكـونـ يـسـتـطـيـبـ الـعـيـشـ إـلـاـ فـيـ زـمانـهـ وـتـقـافـتـهـ وـمـحـيـطـهـ.

تـذـكـرـتـ كـيـفـ كـنـتـ أـدـعـوـ النـاسـ فـيـ مـجـالـسـيـ إـلـىـ طـرـحـ وـسـاوـسـ الـمـاضـيـ،ـ وـمـخـاـوفـ أـقـوىـ الـمـسـتـقـبـلـ،ـ وـعـيـشـ الـحـاضـرـ فـحـسـبـ،ـ جـلـبـاـ لـاعـتـدـالـ الـنـفـسـ.ـ أـنـاـ القـائـلـ بـهـذـاـ،ـ لـكـ،ـ هـلـ أـمـ هـذـاـ الـيـوـمـ عـلـىـ عـيـشـ الـحـاضـرـ فـحـسـبـ؟ـ وـأـيـ حـاضـرـ،ـ أـهـذـاـ الـذـيـ اـبـتـلـيـتـ بـهـ فـيـ طـنـجـةـ حـاضـرـ،ـ لـاـ يـجـبـ الـبـغـدـادـيـ الـمـعـشـشـ فـيـ ذـاـكـرـتـيـ بـأـنـاسـهـ وـأـمـاـكـنـهـ وـرـوـاـحـهـ؟ـ فـكـلاـهـاـ لـدـيـ

تركت أحدهما في العراق منذ أن يكون إلا حاضراً راهناً، وإن كان مجزأاً إلى زمانين، قرون، أنا أعيش إذن الماضي عشرة قرون، ولحقت بثنائيهما في المغرب بعد عشرة أسميه بالحاضر، وأن أعيشه بتوافق والمستقبل في زمن يطلق عليه الحاضر، وعلىّ أن إلا إذا أؤتي صاحبه نور العقل وقبس النفس، بين الظاهر والباطن، لكن التوافق لا يكتمل النفس أمام ما أنا عليه من حيرة وقلق وتمزق داخلي فكيف لي بجلب نور العقل وقبس حضوري؟ وغيابي حتى وأنا في

جُمِيعاً، يَا إِلَهِي، عَلَيَّ أَعْلَنْتُ عِجْزِي عَنْ اسْتِيعَابِ حَضَارَتِهِمْ، أَنْ أَجْهَرْ بِهِ أَمَامَهُمْ
الْفَائِلُ بِهِذَا فِي فَالْنَّظَاهِرِ بِالْعَجْزِ فِي مَوْضِعِهِ، كَالْإِسْطَالَةِ بِالْقَدْرَةِ فِي مَوْضِعِهَا، أَنَا
الْمَغْرِبِيُّ، إِنَّمَا حَاضِرِي الْبَغْدَادِيُّ، وَأَوْكَدَهُ بَعْدَ عَشْرَةِ قَرْوَنَ فِي حَاضِرِي هَذَا الطَّنْجِي
كَحَالِي الْيَوْمِ فِي طَنْجَةٍ، لَيْسَ تَرْفَاً فَكْرِيًّا، كَحَالِي فِي بَغْدَادٍ، بَلْ كَوَافِعِ حَسِي مَلْمُوسٍ،
أَنَا عَاجِزٌ، عَاجِزٌ عَنِ اتِّساقِي فَشَتَانُ مَا بَيْنَ الْكَلَامِ عَنْ قَبْضِ الْجَمْرِ وَقَبْضِهِ حَقِيقَةٍ، إِذْنُ
الشَّبَحِ مِنِي إِلَى بَنِي إِلَّا سَانُ، وَتَجَانِسِي مَعْهُمْ، وَكَذَلِكَ مَعَ نَفْسِي، أَحْسَ بِأَنِّي أَقْرَبَ إِلَى
يَقُولُونَ عَنِ ابْنِيَّتِي إِنَّهُ خَبْرُ سَعِيدٍ، إِنَّهُ لَيْتَهُمْ يَدْرُكُونَ هَذَا، مِنْ أَينَ لَهُمْ أَنْ يَدْرُكُوهُ، وَهُمْ
ضَيْفُ حَلَّ عَلَى سَاكِنَةِ الْأَرْضِ قَاطِبَة.

انتشلاني الوكيل العام وأنا غارق في بحر همّي، وقال لي

عمره — سيدى الشيخ أبا حيان، إن هذه العربة التي نركبها تسمى "سيارة" وهي اختراع
حوالى مائتى عام، تجري بسرعة تفوق ركض الحصان عشرات أضعاف المرات،
أسبوع فمسافة الطريق التي يسيراها الإنسان على ظهر الدابة أو مشيا على قدميه مدة
كامل، تجتازها السيارة في ساعات، أقصد في أقل من يوم واحد.

سکت قلیلا و سالنی:

– كيف كنتم تقيسون الوقت في العراق؟ هل تقيسونه بالساعة؟

أَحِبْتَهُ

— إن قياس الوقت على الأرض اختراع عراقي منذ العصر البابلي. وحضرتني سورة
بيونس في القرآن الكريم فرفعت صوتي، مرتبلاً

الستين — "هو الذي جعل الشمس ضياءً، والقمر نوراً، وقدره منازل، لتعلموا عدد في اختلاف الليل والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون، إن يتقون" صدق الله العظيم والنهاهار، وما خلق الله في السموات والأرض، لآيات لقوم — آسف سيدى، نسيت أنى أتحدث إلى فقيه عالم

— أستغفر الله.

أجبته.

لم أحسست بإنهاك غشيني وأنا أعتمر مقعدي في الجانب الخلفي من السيارة، ولذلك المرتفعة في السماء، أحفل بما كان يشير إليه الوكيل العام من معالم المدينة، أو أبنيتها بالدورار، لذا ظل بصري فالتفاتي إلى ما يوجد عن يميني أو عن يساري، يصيني أخبرتهما بحالتي هذه، أوقف الوكيل منخفضاً، أو مصووباً إلى الطريق أمامي، لكنني حين وكانها استجابت لإرادته الخفية، ودعاني إلى العام السيارة في لمح البصر، فرست وكيل الملك إلى الخلف، فعادت العربة تسير بنا في طريق بجانبه، بينما انتقل الجلوس شبيه بنهر آسن، وعلى جانبيه تدفقت أشجار قصيرة، واستقامت ملتو مرصوص ناعم، ما فتئت أن فسحت المجال لعشب بري أخضر غطى أديم الأرض أخرى فارعة الطول، أزرق شاسع امتد على اليمين، فنبهني وكيل الملك إلى أن أنعم النظر على اليسار، وبحر المتساقط على صفحة مياه البحر، ترسله الشمس المحترضة، قبل تلاشيهما بين السماء والبحر أفق.

وقال لي:

— إنه المحيط الأطلسي، بحر الظلمات كما كان يسمى قديماً.

فسألته عما يوجد خلف هذا البحر، إن كانت له نهاية، فأسرع الوكيل العام يحيني — توجد قارة تسمى أمريكا، وقد اكتشفت منذ حوالي خمسة قرون، أي في تاريخ مغادرة العرب للأندلس، بعد أن سقطت في يد النصارى.

تنافت هذا الخبر وكأنه حجر ألقى به فوق رأسي، وقاطعته دون أن أدعه يسترسل في مرده.

— تقول سقطت في يد النصارى! ألم تعد الأندلس عربية مسلمة؟

أجابني بمنتهى السكينة، وكأنه يخبرني بشروق الشمس أو مغيبها، دون أن يدرى أنه ألوقد ناراً في رأسي وصدرى:

— الأندلس ضاعت، تساقطت إمارة بعد إمارة، كان آخرها غرناطة

— يا إلهي، أكاد أجن، لا أستوعب هذا الخبر، الأندلس تعود إلى العجم؟!

فتدخل وكيل الملك

— إن الخبر ليس جديداً، فقد راحت الأندلس منذ خمسة قرون، ورحلت بعد سقوطها يوم مسلمة أجیال وأجيال، فمن ليس له اهتمام بالتاريخ، لا يعلم أن الأندلس كانت ذات

عربية، فلماذا ياسidi هذا الحزن؟

— إنكما لا تدركـان وقع هذا الخبر الصاعق على نفسي، فقد كان يقيني أن بلاد الإسلام

تنسع وإذا بها تتكمش.

سرحت مفكرا ثم أضفتُ

فمنذ — إن حكاياتي مع الأندلس تعود إلى خمسين عاماً، إذا استثنينا العشرة قرون،
ربه أطلعـني صديقي الوزير الصاحب بن عباد على كتاب "العقد الفريد" لابن عبد
آخر صار الأندلسي، وأنا لا يغمض لي جفن توقاً لملاقـة أهل الأندلس، وعاماً بعد
أذكر أن صديقي اهتمامي يزداد بأخبار وأشعار وموشـحات وفقـه وعلم أهل هذا البلد،
حضورـي: "هذه الصاحب بن عباد حين اطلع على كتاب "العقد الفريد" قال عنه في
أخبار بلاد الأندلس، بضاعتـنا رـدت إلينـا"، فقد كان يظن أن الكتاب يـشتمـل على شيء من
المحبـة المتبادلـة بين أصحابـ فإذا به يستغرـقـ أخبارـ بلـادـ المـشـرقـ، وهذا دـلـيلـ يـؤـكـدـ
نـكـتبـ إـعـجاـباـ بـكـمـ وـبـأـخـارـكـ، الأـرـوـمـةـ الـعـرـبـيـةـ الـواـحـدـةـ منـ الـمـشـرقـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ،
أـجـمـلـ أـرـضـ عـرـبـيـةـ إـسـلـامـيـةـ، فـأـنـاـ أـحـتـاجـ وـتـكـتـبـونـ إـعـجاـباـ بـنـاـ وـبـأـخـارـنـاـ، لـكـنـ أـنـ تـضـيـعـ
لـوقـتـ كـثـيرـ لـاستـيـعـابـ هـذـاـ الـوـاقـعـ!

وتذكرـتـ العـرـاقـ، فـأـسـرـعـتـ بـسـؤـالـ عـنـهـ

— ويـحـكـمـاـ، أـلـاـ أـخـرـتـمـانـيـ بـمـاـ حلـ بـالـعـرـاقـ؟ـ أـلـاـ يـزالـ خـلـافـةـ إـسـلـامـيـةـ،ـ أـمـ إـنـ الـعـجمـ
انـقـضـواـ عـلـيـهـ هـوـ الـآـخـرـ،ـ فـمـسـحـ أوـ مـجـسـ؟ـ

أـجـابـنيـ الـوـكـيلـ الـعـامـ

— اـطـمـئـنـ يـاـ سـيـديـ،ـ الـعـرـاقـ مـازـالـ أـرـضاـ عـرـبـيـةـ إـسـلـامـيـةـ،ـ مـنـ أـغـنـىـ بـلـادـ الـمـعـمـورـ،ـ لوـ
أـحـسـنـ حـاكـمـهـ تـدـبـيرـ خـيرـاتـهـ.

فقدـانـهاـ —ـ الـحـمـدـ لـلـهـ،ـ الـحـمـدـ لـلـهـ،ـ لـكـنـ هـذـهـ الأـنـدـلـسـ الـعـرـوـسـ الضـائـعـةـ،ـ سـيـصـيـبـنـيـ خـبرـ
الـشـتـاتـ وـالـاسـتـبـادـ بـالـخـبـلـ،ـ تـبـاـ لـنـزـوـاتـ الـحـكـامـ،ـ وـالـلـهـ مـاـ ضـاعـ هـذـاـ الـفـرـدـوـسـ إـلـاـ بـسـبـبـ
ظـهـرـيـ بـغـدـادـ عـلـيـهـ أـقـرـأـ عـنـ سـقـوطـهـاـ،ـ وـعـنـ كـلـ مـاـ اـسـتـجـدـ بـبـلـادـ الـعـرـبـ،ـ مـنـذـ أـولـيـتـ
قـيـدـ الـحـيـاةـ،ـ فـيـ عـامـ ٤٠٠ـ هـجـرـيـةـ إـلـىـ الـيـوـمـ،ـ عـسـانـيـ بـذـلـكـ أـحـقـ الـبقاءـ عـاقـلاـ عـلـىـ
وـرـأـيـ منـ قـدـميـ،ـ وـعـسـانـيـ أـعـثـرـ لـنـفـسـيـ عـلـىـ بـعـضـ السـلـوـىـ،ـ أـتـعـرـفـ فـوـقـيـ مـنـ أـسـفـلـيـ،ـ
أـعـدـ أـتـبـيـنـ شـيـئـاـ فـإـنـيـ مـنـ فـرـطـ الـضـبـابـ الـمـحـيـطـ بـعـقـلـيـ وـبـصـرـيـ،ـ بـمـاضـيـ وـحـاضـرـيـ،ـ لـمـ

فـالـلـفـتـ الـوـكـيلـ الـعـامـ نـحـويـ،ـ وـبـنـظـرـةـ قـاتـمةـ قـالـ يـوـاسـيـنـيـ

—ـ بـالـلـهـ عـلـيـكـ يـاـ سـيـديـ،ـ إـذـاـ كـنـتـ لـاـ تـقـوـىـ عـلـىـ تـقـيـلـ وـاقـعـكـ هـذـاـ وـأـنـتـ الـمـنـطـقـيـ الـفـيـلـسـوـفـ

المؤمن بالله، فمن يَا ترى يَقبله؟

ما وَهَا عالِيَاً توقفت بنا السيارة في ميدان فسيح منير تتوسطه بِرْكَةُ بُنَافُورَةٍ يتتصاعد
السيارة، بأننا في مدخل مرتعشاً مثيراً للدهشة، فأخْبَرَنِي وكيل الملك، ونحن نترجل من
نصيحة الوكيل العام، فقلت فندق السراب، لكنني كنت أستجمع أفكارِي لأرد على
أخاطبه قبل أن نهم بالدخول إلى الفندق:

— أشكُرك على نصيحتك بأن أقبل أمر واقعي، إنني فعلاً أسعى في تحقيق ذلك، لكن
النفس، فعل القبول أو الرفض، إذا كان مصدره العقل، فإن هناك فعلاً آخر يصدر عن
ال الخليفة الأموي ولا يتحكم فيه العقل، ولعل أبسط ما يمكن أن أمثل به، هو ما عبر عنه
الشام قائلاً عبد الرحمن الداخل، حاكم قرطبة، حين بعث إلى أخيه في:

أيها الراكبُ الْمِيمُ أرضي
اقرِّ من بعضِيَ السلام لبعضِي
إن جسمِي، كما تراه، بأرضِ
وفوادي ومالكيه بأرضِ
قدَّرَ البَيْنُ بَيْنَنا، فاقتربنا
وطوى البَيْنُ عن جُفونِي غَمْضِي
قد قضى الدَّهْرُ بالفارق علينا
فعسى باجتماعنا، سوف يقضي

داء الاغتراب والنوى، إذا كان هذا العظيم الشجاع، الجامع بين السيف والقلم، يشكو من
عنه الزمان والمكان فما عسى أن يفعله فقير مثلِي، فقد الأحبة والخلان، هرب

(9)

مقبل عمره، قصير القامة، ظلا ينظران إلى دون أن يفوها بكلام، فتقدم نحونا رجل في
امتزجت باحترام وتقدير لنا، فقال له أنيق الملبس، سماح الوجه، تغمَّر محياه بشاشة
الوكيل العام عنِي:

— إنه الشيخ أبو حيان التوحيدي.

سألني إن صافحنا واحداً واحداً، فذهب يقيني إلى أنه لا يعرف شيئاً عنِي، خاصة بعد أن
كنت أحمل حقائب أو متاعاً، فأشار إليه الوكيل العام وهو يقول لي

"— إنه السيد عبد السلام، صاحب "السراب".

فعرفت أن مالك الفندق، خرج لاستقبالنا، بناء على موعد سابق مع الوكيل العام، إذ بادره بالقول وهو يدعونا لنتقدمه:

— أعددت لضييفكم الشيخ، أجمل جناح مطل على البحر، قصي عن الضوضاء، وبإذن الله، سوف يكون متھجاً بإقامته.

التحق بنا رجل يحمل في يده مفاتيح، لم يبادره أحد منا بتحية، ولا بادرنا هو بها، ففهمت أنه أحد الخدم في فندق السراب.

وفكرت في أن ازدراء الأسياد للفئة الدنيا لم يطرأ عليه تغيير منذ عشرة قرون كأنه سرنا يتعقب خطانا الرجل المُزْدَرِي ملفوفاً في صدرية بيضاء، وسراويل سوداء، بِرُكْكَةٌ شاسعةٌ قط فارسي مطبع وأمين، فمررنا بحديقة حفت بها دور بيضاء، وتتوسطتها المنحدر عن يميني، يتلألأً بها ماء شديد الزرقة، فكان على بصرى أن يتوقف صوب الموج، صخبه الرتيب لينعم في زبد أبيض يفصل سواد البحر عن رمل الشاطئ، إنه والفتريات، إنها رائحة شاطئ وصل إلى أذني، مثلما امتلأت خياشيمي برائحة الطحالب المرحوم "أبي عصید"، البحر ثغر أصيلاً نفسه، حين سرت على يابسته رفة صديقي نباتاته العطرة وحده ظل كالأبد، مستريحاً بصخب موجه، وروائح

ونيف، أدرت ليتني كنت أفهم لغة البحر لأسأله عما حل بالدنيا خلال هذه القرون العشرة تقارب ثمانية قرون، في رأسي حساباً عن المدة التي بقيها العرب في الأندلس، فوجتها هذا التحول، فبعد أن إنها ليست بالوقت الهين، فضحتك من نفسي ساخراً منها على أصبحت أده بالقرون، لكن كنت أعد الوقت بالساعات أو الأيام أو حتى بالشهور، الإبحار في الكابة، ورافني الفندق إصغائي لهدير البحر بساعات برد، أوقف نفسي عن حكاية ضياع الأندلس، ظلت مطربة تدق الذي تمطى فوق ربوة ساجدة للبحر، لكن رأسي.

لمس أدخلنا صاحب الفندق إلى سكن يسع قوماً من الناس، توقد أضواوه وتطفأ بمجرد يوم، سأكون أزرارها، لم يكن ليخطر بخلدي جماله ولا رونقه، ولا فكرت في أني ذات إلا، لكن، حين من ساكنيه، فقد حسبته هدفاً لزيارة جاءت من قبل الفرجة عليه ليس مبالغة لم أقو على أبلغني الوكيل العام أنه مخصص لإقامتى بمفردي، أصابتني دهشة إخفائها.

صار يدلني على محتوياته، هذه قاعة جلوس تفضي إلى شرفة استراحة مطلة على

عن البحر، وهذه غرفة نوم بنوافذ مشرعة على البحر، وتلك غرفة أخرى لا تقل رونقاً مثيرة أختها، وهذا حمام به قبر مرمر في بياض لين المعز، وبجانبه ميضاً يتحول وفق للاستغراب، وتلك معدات للحلاقة وقص الشعر ومشطه، وصنابير ماء أنفجر من الضحك إرادتك من بارد إلى دافئ إلى ساخن. ففقط انتشلت شروحته وأنا أكاد

— يلزمني تلقي دروسٍ لأعرف الاغتسال في هذا الحمام الخيالي.

أن ارتفعت أصوات الجميع بعدوى ضحكي، فتذكرت بأن صدري لم يعرف انشراحًا منذ بي استيقظت من سباتي في مغارة مدينة المنقب بالأندلس، قلت لهم والضحك يستبد نفسي — لأفترض أني تمكنت من غسل بدني في هذا التأبُّوت الأبيض، فبماذا أذر رأحتها وأستر عورتي وأنا لا أملك سوى ما أرتديه من أسمال رثة، تعاف الأنوف فعمت قهقهاتنا من جديد أرجاء الحمام.

قال لي الوكيل العام وهو يجفف ما بعينيه من دمع ابتهاجه، ونحن نغادر الحمام

— بعد لحظات ياسidi، سيلحق بنا أحدهم يحمل لك ألبسة لتنتقى ما يروق لك منها

— قلت له وأنا أوزع نظري بين شخصهم:

— أسيكون لي مثل ما ترتدونه؟ شريطة أن يكون لباساً سائداً بين عامة الرجال؟

— طبعاً طبعاً، إنه لباس عام، يرتديه الرجال في كل بقاع الأرض، بما فيها العراق يترين لم أقو على حبس ضحكي، وأنا أخال نفسي ملفوفاً في هذا اللباس الشبيه بما كان وزراء، ما إن أخبرتهم به الغلمان والجواري في حفلات اللهو والغناء بقصور الخلفاء بما خلته عن نفسي، حتى دوت الصالة بالقهقفات.

لم أتوقف عن الضحك، وأنا أشير بيدي إلى قطعة ثوب متليلة من عنق السيد عبد كان لها السلام، صاحب الفندق، وشبّهتها بحبل المشنقة، وأنا أسأل عن لزومها، وإن الحرارة دور في درء السحر أو الوقاية من عين الحسود أو من البرد أو

فأجابني الوكيل العام

— لم أكن أظنك يا سيد الفقيه العالم على هذا القدر من المرح والدعابة

— قلت أرد عليه

— أشكرك، وأخبرك بأنني بعد معاشرتي لخلان فاس، ولأصدقاء قصر كتمة ولأصحاب الله ثغر أصيلة، أصبح يقيني أن المغاربة من أظرف المسلمين وأخفهم روحًا، لكن، المتليلة من دروك، لم تجبني، ما الغاية من حبال المشنقة هذه؟ وأشارت إلى الأثواب أعناقهم.

فأجاب صاحكاً

— إنها للزينة لا غير، وتسمى "ربطات العنق".

سكت قليلاً وأضاف

— وهي ابتكار أوروبي.

فأسعفه وكيل الملك شارحاً

— حضارة أوروبا هي السائدة في هذا القرن، فكراً ولباساً و غيرهما، والأندلس امتداد للقاربة الأوروبية، صانعة هذه الحضارة.

عن كاد تذكري بالأندلس، هذه الهاربة من بين أصابع اليد العربية يصعبني، فيدرا رباط "نفسي مرحها، لكنني استبعدتها عن ذهني وحصرت تفكيري في غرابة ابتكار "العنق"، فسألت الرجال مازحاً

— لعله ابتكار نسائي، أوحى به الحبل الذي تقاد به الدواب، أو تلجم به. إنما أود لو أعرف إن كانت المرأة تتزين به هي الأخرى.

فضحوكوا وأجمعوا على النفي.

وأضافت

— هذه قرينة على أن "ربطة العنق" من ابتداع المرأة، وذلك لتحكم به قبضتها على عنق الرجل متى شابهما نزاع.

عَمَّ الضحك من جديد، فاستأنفت بسط تداعياتي بذات السخرية المغلفة بالجد

تمليها — إن المبتكر مثل الفيلسوف، تفكيره في الأصل مجرد رجع أو استجابة لحاجة الرجل ابتكرت له هذه الضرورة المادية أو النفسية، أو هما معاً، والمرأة حتى تُذَلَّ في سرها فلغایات أخرى، الرابطة القريبة من شكل الأفعى، لزينة عنقه ظاهرياً، أما أضعفها تشبيهه بالحيوان.

ظل جو المرح هو السائد إلى أن دخل رجل محمل بعدد من الألبسة والأحذية، في قياسات مختلفة، حتى يتمنى لي اختيار مقاسات تناسبني.

(10)

النافذة، أزاحت بعد أن استعادتني الحياة، وصحوت من نومي، هرولت مسرعاً إلى ذاته الذي كنت قد ستارتها وأشرعت بابها، فاستقبلاني شاطئ فسيح بهيج، هو الشاطئ سمننا، فعرّجت على تسمّت رائحته بالأمس، وتنكرت الألبسة التي كانت موضوع

وجوارب وغيرها، الصالة لأجدها في مكانها، أقصصه وبذل وأحدية وربطات عنق وكأني أتعلم لغة جديدة، فضحت من نفسي على الأسماء الغريبة التي كان عليّ حفظها لاماً، ووقفت أمام المرأة الكبيرة، ارتديت سراويل وقميصاً أبيض ثم انتعلت حذاءً أسود ذنبي قد زادت عن المعتاد، ماداً لو قمت أتخرج على نفسي، لاحظت أن كثافة شعر اللحية من جذورها؟ فكرت ملياً، فنزعـت القميص بـقصـ شيء من هذا الشعر؟ أو اقتلتـ وتوجهـت إلى الحمام، أخذـت المقصـ وشذـبتـ اللحـية عن بـدنـي بعدـ أن فـتحـتـ أـزرـارـهـ الوـكـيلـ العـامـ وـجـمـيعـ مـرـافقـيهـ، بلـ كلـ منـ قـابـلـتـهـ فيـ طـنـجـةـ، وهـذـبـتهاـ، ثمـ تـذـكـرـتـ كـيفـ أـمـلـسـيـهـ، فـلـمـاـ أـسـتـشـنـىـ مـنـهـ؟ـ أـغـایـةـ الـدـینـ أـنـ يـحـتـقـظـ الرـجـلـ بـلـحـيـتـهـ؟ـ كـانـواـ حـلـيقـيـ الـوـجـهـ نـفـسـيـ، وـأـنـاـ أـبـلـ لـحـيـتـيـ وـأـدـعـكـهاـ بـالـصـابـونـ مـتـبـعاـ إـرـشـادـ وـكـيلـ الـمـلـكـ، حينـ تـسـاعـلـتـ فـيـ وـبـعـدـ أـنـ دـلـنـيـ عـلـىـ كـيـفـيـةـ الـحـلـاقـةـ، لـكـنـنـيـ أـبـقـيـتـ عـلـىـ شـارـبـيـ مـؤـجـلاـ إـحـفاءـ إـلـىـ يـوـمـ آـخـرـ، فـكـدـتـ أـقـعـ أـرـضاـ عـدـتـ لـارـتـدـاءـ الـقـمـيـصـ، وـفـقـتـ أـمـامـ الـمـرـأـةـ الـكـبـيرـةـ الـرـابـضـةـ فـيـ الصـالـةـ، صـفـاتـ الـوـقـارـ مـنـ شـدـةـ الضـحـكـ عـلـىـ نـفـسـيـ، فـقـدـ جـرـدـتـ حـافـةـ الـمـوـسـيـ مـحـيـاـيـ مـنـ كـلـ قـسـمـاتـ وـجـهـيـ، فـقـدـ بـداـ لـيـ وـالـورـعـ، بـقـيـتـ زـمـنـاـ أـمـامـ الـمـرـأـةـ أـنـعـمـ النـظـرـ وـأـعـيـدـ مـدـقـقاـ فـيـ بـمـخـلـوقـاتـ الـقـرـنـ الـحـادـيـ كـأنـهـ وـجـهـ شـخـصـ آـخـرـ قـرـيبـ مـنـ وـجـوهـ الـمـغـارـبـةـ وـشـبـيـهـ أـبـدـوـ كـهـلـاـ عـوـضـ الشـيـخـ الـذـيـ وـالـعـشـرـينـ الـمـيـلـادـيـ، لـقـدـ أـعـجـبـتـ بـنـفـسـيـ حـقـاـ، سـرـنـيـ أـنـ كـنـتـهـ.

إنـ الـقـسـمـاتـ الـحـقـيقـيـةـ لـوـجـهـ الـمـرـءـ، لـاـ تـتـبـيـنـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ يـزـيلـ لـحـيـتـهـ تـذـكـرـتـ الـوـزـيـرـ الصـاحـبـ بنـ عـبـادـ، قـبـلـ أـنـ تـسـوـءـ عـلـاقـتـاـ، أـيـ قـبـلـ أـنـ أـكـتـبـ مـؤـلـفـ مـثـالـبـ الـوـزـيـرـيـنـ، الـذـيـ خـصـصـتـهـ لـذـمـهـ هـوـ وـالـوـزـيـرـ اـبـنـ الـعـمـيدـ، فـقـدـ كـنـتـ فـيـ ذـلـكـ رـدـ الـمـسـاءـ، فـيـ ضـيـافـتـهـ بـقـصـرـهـ الـفـاخـرـ، رـفـقـةـ الصـدـيقـ "بـدـيـعـ الزـمـانـ الـهـمـذـانـيـ" حـينـ الـآـسـنـ، فـيـمـاـ لـاـ بـرـوحـهـ الـمـاـكـرـةـ عـلـىـ دـعـوـتـيـ إـلـىـ الـابـتكـارـ وـالـتـجـدـيدـ لـلـخـرـوـجـ عـنـ الـمـأـلـوـفـ بـيـخـالـفـ الـشـرـعـ، وـقـالـ لـيـ

— لـمـ لـاـ تـُحـفـيـ لـحـيـتـكـ اـبـتكـارـاـ، مـادـامـ الـفـعـلـ لـاـ يـخـالـفـ الـشـرـعـ؟ـ

فـعـلـقـ "بـدـيـعـ الزـمـانـ الـهـمـذـانـيـ" تـرـلـفـاـ لـلـوـزـيـرـ

— إـنـ الـلـحـيـةـ سـنـنـهـ أـشـرـفـ الـمـخـلـوقـينـ مـحـمـدـ رـسـوـلـ اللهـ (صـ)، وـإـرـتـهـاـ مـعـصـيـةـ لـاـ تـغـفـرـ، إـلـاـ بـالـتـوـبـةـ وـالـعـدـولـ عـنـهـاـ.

فـأـسـرـعـتـ بـالـرـدـ

— إـنـ الرـسـوـلـ قـدـ سـنـنـهـ مـنـ بـابـ الـإـجـازـةـ عـرـفـاـ مـشـترـكـاـ بـيـنـ الـأـقـوـامـ، مـنـ مـسـلـمـيـنـ

ونصارى ويهود ومجوس، وإن إحفاءها ليس ابتكاراً ولا بدعة، ولا تدخل في باب تجاوزاً أن المعاصي، صغيرها أو كبيرها، والدليل هو أنه لم يأت فيها وعيد، وإذا سلمنا فإن الصغائر إزالة اللحية من المعاصي فستكون من الصغائر، وعلى رأي المعتزلة، بتجنب المعاصي تغفر بتجنب الكبائر، أي أن المعاصي الصغيرة، يستحق غفرانها الكبيرة.

كنت أعلم أن الوزير الصاحب بن عباد شغوف بأراء المعتزلة، وهو في سرره على رباب"، "مذهبهم، لكن ما إن أكملت قولي حتى استوى في مقعده، ونادى على الجارية امرأة كاملة، وهي من أجمل جواريه، لا يحضرها سوى في المجالس الخاصة الضيقة، ناصعة البياض، سلمها أسللة، ظريفة الأنف، ضيقه الفم واسعة العينين، كحيلة الشعر، بفتح نبيذه، وأشار عليها أن تملأه، وخطبنا الصغائر إذا لستما مختلفين في الرأي، لكنهما لم تكملا شرحه، فكما قال أبو حيان. إن

ناقص، ذلك أنه إذا اقترفت من مجتبى الكبائر، كانت مغفورة، وهو قول حق، لكنه فإن معصيته تصير من اجتمعت الصغيرة والصغيرة من ذات الشخص المجتب للكبائر، على انفراد، ثم آخر وآخر، الكبائر، كالرجل الذي يسرق درهماً على انفراد، ودرهما يؤخذ بالذنب، إذا تاب عنه وعاد إليه فإن فعله يكون من الكبائر، ومن ثم فإن الشخص السراب"، فكرت دارت هذه الحادثة في ذهني وأنا أقف أمام المرأة في إقامتي بـ "فندق التي كانت محور النقاش مع في المعاصي الصغيرة التي أرتكبها تباعاً، فقد أزلتُ لحيتي وأنا اليوم في طنجة اعتزم قصَّ الوزير الصاحب والهمذاني، منذ أكثر من عشرة قرون، ثانية، ثم إني أتعمد أن أظل عاري الرأس، شعر رأسي تمثلاً بالمغاربة، وهي معصية ثلاثة، ويعلم الله ما قد أرتكب من الصغائر، لكنها من أية عمامة أو عقال، وهي معصية بغداد، من سبق ومن لحق بهم، وأخص منهم جاريتي العزيزة والهمذاني وجميع خلان كانت برفقتي في عزلتي المغربيَّة هذه، لتدفع وحدتي، وتسمِّم برأيها "تهاوند"، فيا ليتها الحليق إلا من شارب يغلب عليه بياض الشيب في وجهي.

لاشك أنها استحضرت أوقاتنا البهيجَة وهي تترَّحَّم على روحي، واهمةً أنني صرت في عداد الأموات.

الحقيقة أنها لم تكن واهمة، فقد كنت فعلاً ميتاً، من يختفي كل هذا الدهر، لا يمكن أن يكون إلا ميتاً.

الأبدى، لكن الموتى تفارق أرواحهم هياكلها، تغادر إلى الخلود الدائم المتصل الأزلي في الذي لا أول له ولا آخر، أما روحى، فهى دون شك بقيت مثلاً بقى جسدي بقيت تضاعيف العاجلة، دون أن يطرأ عليهما أي تغيير، فكل ما حدث لي، هو أنتي اطلعت على ما طيلة عشرة قرون مختفياً محتجباً عن العالمين العاجل والدائم، وليتى كان يحدث فيما أو في أحدهما، لكن لا هذه ولا تلك.

مجلسه إن من طبيعة الإنسان جنوحه إلى أن يعلم ما يحدث في غيابه، ولو بعد قيامه من على هذه ولا على وهو على قيد الحياة، أخرى لو يعلم ما سيؤول إليه بعد وفاته، لكن لا ماضي بعيد الحزین تلك، فلم يتسع لي أن أطلع على سوى ما يموج في ذهني، على إليه حنين الإبل في نجد المليء بالضيق وال الحاجة، وبالكرب والشدة، لكن مع ذلك أحن

(11)

أسمر البشرة سمعت نقرًا على الباب، أسرعت لفتحه، فوجدت رجلاً في مقتبل عمره، عنق غامقة اللون، داكنها، ترسم على محياه بشاشة محببة، تتدلى على صدره ربطه بأدب جم وانحناة من رأسه شبيهة بإحدى ربطات عنقي التي لم أتزّين بها بعد، حياني وأخبرني:

الفندق مع – إن السيد الوكيل العام يقرئكم السلام، ويخبركم بأنه يوجد في استراحة الصباح السيد وزير العدل وآخرين، وسوف يزورونكم بعد أن تنتهيوا من فطور يسموه، قلت لعله تحقيق جديد مع قاضي القضاة، أو وزير العدل، كما يحلو للمغاربة أن العربية بطريقه في نفسي، وفكرت في هؤلاء المغاربة الذين أصبحوا ينتهكون اللغة يكون رد سيبويه أو فجة، إذ يخاطبون شخصاً مفرداً بصيغة الجمع، تصورتُ ما قد تحريف وهم على قيد الحياة السيرافي، لو كانا قد علما ما سيصيب اللغة العربية من باشغالات تداركت سهوه عن الرجل الواقف أمامي، ودعوته إلى الدخول، لكنه اعتذر يبلغ السيد الوكيل له، شارحاً أنه مستخدم في "فندق السراب"، شكرته وطلبت منه أن العام، أني في انتظاره متى شاء، وأوصدت باب الإقامة.

وقاضي بعد لحظات، عاد النقر على الباب، فهرولت مسرعاً لاستقبال الوكيل العام مأكولات، القضاة، لكنني حين فتحت الباب فوجئت برجل يجر مائدة مزданة بأصناف لضيوفه تكفي نفراً من الناس، دعوته إلى الدخول وأنا أسأله إن كانت مخصصة ألقيت نظرة . القادمين، فضحك وأكَّد لي أنها لي بمفردي، ولأنناول منها ما طاب لي

واللبن والبيض، سريعة على المائدة، فلم أميز من محتوياتها سوى الرغيف والماء إليها، وأخذ يدلني فسألت الرجل قبل أن ينصرف عن باقي الأصناف، وأنا أشير مستغرباً جهلي لها:

— هذا شاي أخضر، وهذه قهوة، وهذا عصير برنتقال، وهذا جبن، ثم رفع بصره نحوي ومخاطبني:

— إذا احتجتم إلى شيء آخر فنادوني، اسمى محمد العربي وأجبته:

— أنادي من النافذة؟

ضحك في ذهول، وأشار إلى قطعة جماد فوق المائدة بجانب المرأة:

— اطلبوني بواسطة التلفون، على الرقم تسعة

شكته وانسحب.

أقليت جلس، وسحبت المائدة المتحركة نحوي، فشربت كل السوائل باردها وساخنها، ثم الأقداح في أحشائي بالرغيف والجبن والبيض، إلى أن أتيت على كل شيء، فبقيت الفندق، لكن ما والأطباق فارغة، فكرت إن كان يصح لي غسلها أو ترك أمرها لصاحب فلم لا أتولى تنظيفها، وهو دامت الإقامة تتواتر على ماء متصل لا ينقطع إلا بإرادتي، ما حدث.

أجزم بأن الطارق، بعيداً لحظات، عاد النقر على الباب للمرة الثالثة، هرولت لفتحه، وأنا رحبت بالرجال الأربع، هذه المرة، لن يكون إلا الوكيل العام، وفعلاً أصاب جزمي فوق أرائك مريحة، دون أن وصافحهم واحداً واحداً، ودعوتهم إلى الدخول، تنازروا يتوقف لساني عن الترحيب بهم.

بادر الوكيل العام قاضي القضاة بالقول:

إلا بصعوبة، — والله يا معالي الوزير، لم أتعرف شيخنا أباً حيان، حين فتح لنا الباب،! وبعد أن أزال لحيته انقص عمره عشرين عاماً إن لم أقل ثلاثين الوزير شكته في حياء، وأنا أحزن في ذاكرتي كلمة معالي الوزير، مقرراً أن أخاطب والألفاظ، أنا أيضاً بهذا الاسم، وذلك حتى أضيق من هوة اختلافنا حول المفاهيم محوري، فاختلاف معاني الألفاظ أمر يضيق له صدري ويربكني أكثر مما يربك المغاربة فعزمت على أن أجعل حواسي متقطعة لالتقاط ما استجد في اللغة لدى الوجه، كان معالي الوزير قد اتخذ مكانه قبالي وجهه، رجل أبيض البشرة ممتئ

ارتدى بشوش خجول، أملس المحييا إلا من شارب كث غلب عليه بياض الشيب، وقد شبّهين ربطه عنق غامقة مخططة بالبياض، وراقي أن يكون هو ومرافقه الأربع وأحذية، دون بمستخدمي "فندق السراب"، يرتدون جميعاً بدلاً وأقمصة، وربطات عنق وماس، أو غير ذلك، أن يتميز الوزير عنهم بعمامة من حرير أو خنجر من فضة وذهب على الأقل، قد انتفت فكرت في أن الفوارق بين الفئات الاجتماعية، ولو ظاهرياً وتلاشت.

بين استمر الوزير في أحديث عابرة لبقة، حول الطقس وموقع مدينة طنجة الجغرافي بحرین، خلته يتربص للزج بي في امتحان يكشف له حقيقتي، لكنه ظل بريئاً من يمدني بمؤلفات تخميناتي، بل عبر لي عن سروره الأبلغ بلقائي والتحدث إلى، ووعد أن العشرة قرون تطلعني على ما طرأ من تحولات في التاريخ والعلم والفكر، خلال إذ قال لي الأخيرة، ثم تدارك وكأن الغيب كشف له ما كان يموج في خاطري، والتاريخ، لسد — إن الكتب قد ترهقك، لذا أقترح أن أبعث لك بشخصية سامة في الفكر العلوم والفكر، لكن الفجوة التي تفصلك عن الحاضر، هناك بكل تأكيد مستجدات في مستهلكون ومجتررون لعلم وفكر بالنسبة لنا نحن العرب عموماً، ستكتشف بنفسك أننا غيرنا أكثر مما نحن منتجون له

بوسالته:

— من تعني بغير العرب؟

— أقصد الغرب المسيحي، فمنذ النهضة التي عرفها قبل خمسة قرون ونحن ظاهرة الأدباء، لأبحاثه واكتشافاته، ويكتفي إخبارك بأنك أنت شخصياً أديب الفلسفة، وفيلسوف وإلى مؤلفاتك من لدن العالم المنطقي النحوي "أبو حيان التوحيدي"، قد وقع التنبية إليك، سبقوا إلى اكتشاف قيمتك، الغرب قبل العرب، ومن أذكر من المستشرقين الذين ليكشف لنا الشيء الكثير عنك، المستشرق "لويس ماسينيون"، الذي بحث في سيرتك إلى مؤلفاتك، والمستشرق "آدم ميتز" والمستشرق "مارجليلوت" الذي كان أول من انتبه للحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، فأفاض "الذي ألف كتاباً علمياً دقيقاً في العلمية في الإشادة بقيمتك

بوعدت إلى استفساره

— من هم الذين سميتهم بالمستشرقين؟

العلم، — الاستشراق علم قائم بذاته، كعلم المنطق والفلسفة وغيرهما، وأصحاب هذا

مستقلة عن تراثهم، غربيون مسيحيون، تعلموا لغتنا، فبحثوا في تراثنا القديم، كظاهرة فترجموه واعتمدوا بعضه مصدرًا لبناء فكرهم وحضارتهم.

مستحسنًا لم أخف إعجابي بهذا الوزير الشاب، ذي الثقافة الواسعة، فصارحته بذلك، مبادرته بإسعافي بشخص يطلعني على ما استجد في غيابي، فقال أستحضر منه — أود إخبارك بأنني استمتعت حقاً بكتابك "الإمتاع والمؤانسة"، وما زلت رسم في ذهني بعض النوادر والفكاهات، كما قرأت بعض الدراسات عن مؤلفاتك، وما زلت فهل حقاً تجمع بينهما؟ أنك تجمع بين متقاضين هما، فلسفة التشاوم، وفلسفة الفكاهة، المتقاضين؟ كيف يمكن في نظرك للشخص أن يجمع بين هذين أجوبته بصدق وحماس:

من لدن — إنني مندهش يا معالي الوزير، ذلك أن الاستفسارات نفسها التي وجهت إليّ لم أكن أتوقع أو الأصدقاء في بغداد، أجدها توجه إليّ من جديد بعد عشرة قرون. إنني في القرن، هذه حقيقة أنددهش يخطر بذهني، أن مؤلفاتي ستحظى بالقبول، وتصمد كل هذه أضرمت النار في كتبتي لعدم جدواها، لها اليوم، ويكتفي حجة على ما أقول، أنني كنت قد من موقع فكري أو أدبي، فقد عشت حياتي وذلك لكوني لم أظفر منها بما كنت أنشده مقابل دراهم كانت تسد رمقي بم三菱ة كلها أعمل ورافقاً وناسخاً لكتب غيري،

ظللت عيون الحاضرين جاحظة مشربة تتأملني، فأضفت قائلاً

جمعي بين — أليس ما أعلنه مفارقة مدهشة؟ ما علينا، ولا عذر إلى سؤالك، إن ما قيل عن وهناك في مؤلفاتي، كان فلسفة التشاوم وفلسفة الفكاهة لا أتفه، فالتشاؤم المنتشر هنا أن أتخذه مذهبًا على مجرد صدى لتجاري وخبراتي، لوئته بمزاجي الخاص، دون المخلوقات، وأن انجذابه نحو غرار فلاسفة التشاوم، ولا أحد يجهل أن الإنسان أشقي والترويح عن نفسه، فكلنا نجمع بين الفكاهة، حاجة طبيعية للتفيس عن شقائه، تجمع بين الليل والنهار والحر والبرد، لكنني لم المتقاضات، لأننا جزء من الطبيعة التي الجد بالهزل، والهزل بالجد، في ذات العمل الواحد، كما فعل يسبق لي أبداً أن مزجت رجعت إلى مؤلفاتي كـ "الهوامل والشوامل" مثلاً، أو "الإشارات الإلهية" الحاجظ، وإذا الصداقة والصديق" فستجدها عاكسة لتمزقات داخلية عشتها، أو لإحساس بالغربة" أو الإمتاع "والحيرة، أو خيبة أمل في الناس، أما إذا عدت إلى مؤلفات لي أخرى، كـ الناس، وضرورة تذوق والمؤانسة" أو "النوادر"، فستجدني أؤكد بها قيمة الفكاهة في حياة الإنساني الطبيعي النفس لفرح والهزل وحتى المجنون، وذلك درءاً للشقاء.

يريد تقبيله، ما إن أنهيت كلامي حتى انتصب الوزير واقفاً وانحنى عليّ ممسكاً برأسِي، عاد إلى مقعده وخطبني فحاولت أن أثنيه وأنا أستغفر الله، إنما بدون جدوى، إلى أن عمق – أصارحك أيها العالم الجليل، بأن تقبيلي لرأسك ليس احتفاء بمجيئك إلينا من ولربما الوحيدة من التاريخ، بقدر ما هو تقدير لقيمتك الفكرية النادرة، فأنت من القلائل، الأدب والسمو في الفلسفة المفكرين المسلمين العرب، الذين يجمعون بين السمو في وهو أقل ما قيل، إنك "فيلسوف والمنطق والنحو والفقه والحساب، حتى لقد قيل عنك، الكبيرة الأدباء وأديب الفلاسفة"، وغيرها من الأوصاف.

وكانت المفاجأة حين سأله:

– إلى متى يا معالي الوزير، سأظل سجين هذه الإقامة الجميلة، كطائر في قفص من ذهب؟

إلى لم يقو الوزير على إخفاء ما غشى محياه من حيرة وارتباك، فصوّب نظرة حادة ينقده من مرافقه، كأنه يشهدهم على انكشاف سرّ ما، أو يستجد بهم ليسعفوه برأي مهممة أو عزت لي ورطة وقع فيها، لكن ضيوفه كانوا أكثر حيرة منه، إذ تبادلوا نظرات حين أجابني بصدق بأن في صدورهم أمراً يخونه عنِّي، لكن الوزير بدَّ مخاوفي الرجال:

بالي أن – إنني أيها الضيف العزيز الغالي لم أتوقع منك هذا السؤال، ذلك أنه لم يخطر سراً إذا ما أخبرتك يكون لك إحساس بالمضايقة إلى درجة الظن بأنك سجين، ولا أخفيك دراية بقصتك هذه المحيرة، وأنا بأن لا أحد من رجال الدولة سواعي يعلم بوجودك، أو له عليها، ظلت وقتاً من الزمن بين المصدق شخصياً، حين أطلعني السيد الوكيل العام وغير المصدق.

لِنَقْلٌ على بالله عليك، رجل ينبعث حياً بعد أكثر من ألف عام انقضت على وفاته، أو سباته أو غيابه، فمن ذا الذي يقوى على تصديق مثل هذا الخبر؟

العام، هكذا في أقصى حالات الحيرة والذهول بقيت على اتصال تلفوني مع السيد الوكيل النفسي بصوت ولزمتني الحالة نفسها وأنا في منزلي، إلى درجة صرت معها أفكر مع بالجنون، لكنها مرتفع، وكأنني ممسوس، مما جعل زوجي تصاب بالفزع، وتتهمني الليلة ذاتها، أي ليلة أذررتني بعد أن أطلعتها على واقعك هذه المربيكة للعقل، وفي منزلي لمزيد من البحث أمس، رجوت ثلاثة من مساعدتي في الوزارة أن يحضروا إلى العام ورئيس مديرية الشؤون والنقضي، وهؤلاء السادة هم: المفتش العام والكاتب

أسرعنا بالقدوم للتعرف إليك، هذا كل الجنائية، الحاضرون معنا الآن، وفي أول الصباح ما في الأمر.

وتدخل المفتش العام

— سيدني أبا حيان، إن إقامتك التي تراها سجنا، هي من أرقى فنادق طنجة.

و قبل أن يضيف شيئاً، قاطعه الكاتب العام للوزارة

— لعل الشيخ أبا حيان يعني بالسجن، حالته النفسية كالعزلة أو الاغتراب، وليس المكان فابتسمت للرجل كنـاية عن موافقـي، وأـنا أـستمع إـلى الوزـير الذي شـرع في حـديثـه وـهو يـبـتـسـمـ في وجـهـي

لـأـولـ مرـة، — لمـ يـعدـ ليـ أـدـنـىـ شـكـ فيـ أـنـكـ "أـبـوـ حـيـانـ التـوـحـيـديـ"ـ،ـ الحـقـيقـيـ،ـ وـلـذـلـكـ فـإـنـنـيـ الـوـاقـعـةـ سـأـطـلـعـ السـيـدـ الـوـزـيـرـ الـأـوـلـ بـصـفـتـهـ رـئـيـسـ الـحـكـوـمـةـ الـمـغـرـبـيـةـ،ـ عـلـىـ هـذـهـ

وـ اـتـسـعـتـ اـبـتـسـامـتـهـ إـلـىـ أـنـ قـارـبـتـ الضـحـكـ حـينـ أـضـافـ

وـ قـدـ —ـ إـنـيـ أـعـلـمـ مـسـبـقاـ بـأـنـ السـيـدـ الـوـزـيـرـ الـأـوـلـ لـنـ يـقـتـنـعـ إـلـاـ بـصـعـوبـةـ لـخـبـرـ هـذـاـ أـيـضاـ تـغـيـيـتـ يـشـهـنـيـ بـالـهـدـهـ،ـ حـينـ زـفـ نـبـأـ مـلـكـةـ سـبـأـ إـلـىـ سـلـيـمانـ حـجـةـ عـلـىـ تـغـيـيـهـ،ـ فـأـنـاـ وـهـمـيـ عـنـ الـمـجـلـسـ الـحـكـوـمـيـ الـمـنـعـقـدـ فـيـ هـذـهـ الـلـحـظـةـ فـيـ الـرـبـاطـ،ـ تـحـجـجـ بـمـرـضـ وـسـأـحـظـيـ حـقـاـ اـفـتـلـعـتـهـ حـتـىـ أـزـورـكـ،ـ وـأـتـعـرـفـكـ،ـ وـأـتـزـوـدـ بـمـعـلـومـاتـ عـنـكـ وـمـنـكـ شـخـصـيـاـ،ـ بـشـرـفـ كـبـيرـ،ـ وـأـنـاـ أـقـدـمـ لـلـحـكـوـمـةـ تـقـرـيرـاـ عـنـ هـذـاـ حـدـثـ الـجـمـيلـ

وـ تـدـخـلـ رـئـيـسـ مـديـرـيـةـ الشـؤـونـ الـجـنـائـيـةـ مـوجـهاـ كـلـامـهـ إـلـىـ الـوـزـيـرـ

الـأـمـنـ —ـ إـنـ الشـرـطـةـ الـقـضـائـيـ يـاـ مـعـالـيـ الـوـزـيـرـ،ـ وـبـدـوـنـ شـكـ،ـ قـدـ أـبـرـقـتـ إـلـىـ مـديـرـيـةـ الشـيـخـ التـوـحـيـديـ الـوـطـنـيـ فـيـ الـرـبـاطـ،ـ بـهـذـاـ حـدـثـ،ـ ذـلـكـ أـنـهـ أـوـلـ مـنـ تـولـىـ التـحـقـيقـ مـعـ

وـ تـدـخـلـ الـوـكـيلـ الـعـامـ لـلـمـلـكـ مـوضـحاـ

أـيـنـ لـهـمـ —ـ إـنـيـ أـعـرـفـ بـالـمـسـتـوـىـ التـقـافـيـ لـرـجـالـ الشـرـطـةـ الـقـضـائـيـةـ فـيـ هـذـاـ الإـقـلـيمـ،ـ فـمـنـ مـلـخـصـ مـاـ كـتـبـوهـ أـنـ يـعـلـمـواـ أـنـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ،ـ يـحـيـيـ الـعـظـامـ وـهـيـ رـمـيمـ.ـ ذـلـكـ أـنـهـ فـيـ يـزـعـمـ أـنـهـ مـنـ مـوـالـيـدـ "ـفـيـ مـحـضـ تـحـقـيقـهـ،ـ أـنـ شـخـصـاـ مـجـنـونـاـ يـدـعـيـ "ـأـبـيـ حـيـانـ التـوـحـيـديـ حـالـةـ تـلـبـسـ،ـ بـجـنـحةـ الـهـجـرـةـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ الـهـجـرـيـ فـيـ بـغـدـادـ،ـ وـقـدـ أـلـقـيـ عـلـيـهـ الـقـبـضـ فـيـ السـرـيـةـ،ـ إـنـهـمـ يـجـهـلـونـ اـسـمـ "ـأـبـيـ حـيـانـ التـوـحـيـديـ".ـ

وـ قـاطـعـهـ الـوـزـيـرـ

نـفـسـهـ،ـ فـقـدـ —ـ إـنـيـ أـتـقـقـ مـعـكـ،ـ فـلـاـ عـلـمـ لـمـديـرـ الـأـمـنـ بـهـذـاـ خـبـرـ،ـ كـمـ لـاـ عـلـمـ لـلـوـزـيـرـ الـأـوـلـ أـبـيـ حـيـانـ "ـأـجـرـيـتـ اـنـصـالـاـ بـهـمـاـ هـذـاـ الصـبـاحـ،ـ مـاـ يـؤـكـدـ دـعـمـ اـنـتـبـاهـ الـشـرـطـةـ لـ

التوحيدِي" ، وبذلك سيكون للقضاء شرف وميزة السبق إلى التعرف إليه.

والتقت نحوي مضيفاً

قد — إن ابتعاثك يا سيدِي أَهم حدث في هذا العصر ، فإذا كان علماء ومتقوّلُ العالم ترى سيكون سوّداً آلاف الصفحات البيضاء ، احتفاء بالذكرى الألفية لوفاتك ، فكيف يا الأكبر ، ويَا والدي الروحي ابتهاجهم وحفاوتهم بابتعاثك حياً — إِنِّي يا سيدِي ، ويَا شقيقِي الصادقة ، إِذَا ما سئلت يوماً عما المتنمِي — ولتسْمح لي أن أخاطبك بهذه المشاعر "جلوسي إلى" أبي حيان التوحيدِي : استقدتَه في وزارة العدل ، فسيكون جوابي

لدي ذكرني هذا الظرف بأصدقاء فاس وقصر كتامة ، فقد كان وداعي لهم مؤثراً ، تركَ المحبة إلى كل انطباعاً مُحَموداً لن تمحوه السنون . إنه حال المغاربة قاطبة ، فهم يزجون عبد الرحمن الأموي وافد مشرقي ، وكأنهم ورثوا ذاك الحنين الفياض ، الذي حمله معه التاريخ ، فإِنِّي لا أزال إلى غرناطة ، وقصتي معهم إن كانت جذورها تنسحب إلى جوف أَتَظَلُّ بأَغصانها ، في فندق السراب بمدينة طنجة .

وتدخل الكاتب العام للوزارة مخاطباً الوزير

— في وسعنا يا معالي الوزير أن نرتب لشيخنا أبي حيان زيارات لبعض مناطق المغرب ، حتى لا يحس السأم ببقاءه في طنجة :

ونظر نحوي يستطع رأيي ، فأجبته

— رغبتي أن أزور بغداد

من جديد ، نزل الخبر عليهم كسيف قاطع ، فأضفت أعلل رغبتي

— إِنِّي عراقي مولداً ونشأة وعيشًا ، وحنيني إلى بلدي لا يضاهيه حنين ، فمن حقي أن أزوره ، إلا إذا كان هناك اعتراض !

رد الوزير

العراق ، — أبداً أبداً ، لا اعتراض لأحد على رغباتك ، فمن حقك زيارة العراق ، وغير مدمرة إنما بعد انتهاء الحرب ، فلعلك على علم بأن العراق يتعرض لحرب

أسرعت بسؤاله وقد أفرزعني الخبر

— حرب في العراق؟ مع من تتحارب؟

أجاب الوزير موضحاً

— قُلت إن العراق يتعرض لحرب ، ولم أقل يتحارب ، ذلك أن دولاً غريبة بزعامة عليه لستائر أمريكا ، طمعاً في ثروة النفط ، افتعلت خرقه للشرعية الدولية ، فشنَّت حرباً

بهذ الرزيت.

انتقض عقلي لغموض و هول ما سمعت ، فقلت مستقراً :

ثم إن — لم أفهم مدلول عبارة الشرعية الدولية ، ولا كلمة النفط ، فماذا تعني بهما؟ اتخذ العراق أكبر خلافة إسلامية عربية ، وهو محاط بجيران مسلمين ، فأي موقف الجيران؟

أجابني الوزير بهدوء ، وكأنه غير معني بما يحدث :

هذا — ما عاد العراق كعهدك به ، خلافة إسلامية لا تغرب عنها الشمس ، إنه في عصرنا بينها شأن مجرد قطر صغير ، محاط بأقطار متاثرة هنا وهناك ، في نزاع دائم فيما يخص أطفال الحي .

صمت قليلاً وأضاف بالهدوء نفسه :

فالبلاد — الموضوع معقد جداً . إنه شبيه بما حدث بين إمارات الأندلس قبل ضياعها ضد بلد عربي العربية اليوم ، أمست كنظيرتها الأندلس ، تحتمي بالأجنبي ، أو تؤازره التي تدمره اليوم ، آخر . والعراق نفسه في عصرنا هذا الذي نعيشـه ، وبدعم من أمريكا ومن يطلعـ على كل خاض حرباً شعواء مع جارته إيران . سأبعث إليك كما وعدتك ، إلى العراق محفوفـ مستجدـ يغيبـ عنك ، وما يهمـنا في هذهـ الساعةـ ، هوـ أنـ السـفرـ بمـخـاطـرـ حـقـيقـيةـ .

توقف الوزير عن حديثـهـ ، دونـ أنـ يوقفـ نظرـاتـ صـوـبـهاـ نحوـيـ ، كـأنـهـ يـقيـسـ بهاـ درـجـاتـ مـبـدـياـ قـنـاعـتـيـ ، وبالـرـغمـ مـاـ كـانـ يـعـتمـلـ فـيـ دـاخـلـيـ مـنـ قـلـقـ وـحـيـرـةـ ، فـقـدـ حـرـكـتـ رـأـسـيـ قـنـاعـةـ مـلـبـسـةـ ، مـاـ جـعـلـهـ بـيـتـسـمـ وـيـضـيـفـ

— مـاـدـامـ غـيـابـكـ عـنـ العـرـاقـ قـدـ اـسـتـغـرـقـ عـشـرـةـ قـرـونـ وـثـلـاثـةـ وـعـشـرـينـ عـامـاـ ، فـلـاـ بـأـسـ إـنـ زـادـ بـضـعـةـ أـشـهـرـ أـخـرىـ ، إـلـىـ أـنـ يـهـدـأـ الـوـضـعـ .

خـيـمـتـ فـتـرـةـ صـمـتـ قـصـيرـةـ ، فـتـدـاعـيـ إـلـىـ ذـهـنـيـ مـحـمـدـ شـكـريـ ، وـتـذـكـرـتـ طـرـيـقـتـهـ المـسـلـيـةـ عـلـىـ فـيـمـاـ يـبـسـطـهـ مـنـ أـفـكـارـ بـصـوـتـ حـادـ مـرـتفـعـ ، دونـ أـنـ أـنـسـيـ أـنـهـ كـانـ المـطـلـعـ الـوـحـيدـ لـيـ فـيـ بـعـضـ مـؤـلـفـاتـيـ ، العـارـفـ بـأـنـيـ كـنـتـ قـدـ أـضـرـمـتـ النـارـ فـيـهـاـ ، وـلـنـ أـجـدـ غـيـرـهـ مـؤـنـساـ بـمـقـدـورـهـ دـعـوـتـهـ هـذـهـ العـزلـةـ المـضـطـرـبةـ . قـلـتـ هـذـاـ فـيـ نـفـسـيـ ، وـسـأـلـتـ الـوـكـيلـ الـعـامـ إـنـ كـانـ لـزـيـارـتـيـ ، بـعـدـ أـنـ يـرـحلـ مـعـالـيـ الـوـزـيرـ .

لـكـ مـاـ إـنـ سـمـعـ الـوـزـيرـ اـسـمـ شـكـريـ حـتـىـ انـفـجـرـتـ حـنـجـرـتـهـ بـسـؤـالـ بـاغـتـ بـهـ الـوـكـيلـ الـعـامـ — مـنـ أـينـ هـذـهـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الشـيـخـ أـبـيـ حـيـانـ وـمـحـمـدـ شـكـريـ؟ـ

أجاب الوكيل العام في شبه ارتباك:

التحقيق — لا تجمعهما يا سيدي أية علاقة، كل ما حدث أن السيد وكيل الملك، وأثناء

كتب الشيخ التمهيدي مع الشيخ أبي حيان، استقدم محمد شكري لاستئناف برأيه في

— من أين لشكري أن يمتلك رأياً في مؤلفات الشيخ أبي حيان حتى يُبديه؟

تساءل والغضب يتسلق وجهه، لكن لا أحد تجرأ على إجابته، فأضاف بربنة تقل حدة عن سابقتها:

— التحقيق يكون سرياً، سترى كيف سينتشر هذا الخبر غداً صباحاً في أكثر من صحيفة.

فقال له الوكيل العام:

سبق يا سيدي أن أصدرت أمري إلى الحاضرين أثناء التحقيق، بكتمان سر هذه القضية.

(12)

المطلة على البحر، حلّّ المساء، وأنا وحيد في إقامتي، فافتقرشت وسادة في الشرفة الدنيا، اكتسحني يقين وصرت أقرب الشمس قبل مغيبها، وأستحضر في الآن ذاته هموم ما كانت تجمعهما، جازم بأن وزير العدل يضمّر عداءً لمحمد شكري، لعل صدقة إجراء التحقيق معه، وينعته فانقلب إلى عدوة، وإلا ما كان ليحتاج على حضوره أثناء بوصفت يحط من شأنه.

متوازنة، إذ جعلني هذا أفكّر في الصدقة بين العالم والحاكم، تلك التي يستحيل أن تكون العالم الحق، يدين التزلف من شيم السلطان، الترحيب بالتزلف والاستذداد بالإذلال، بينما ويرفض الإذلال.

تذكرت ما حدث لي مع الوزيرين أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد، فقد كنت على كمن يلقى حبراً كلما استمعت إلى آرائهما، عكس الفقيه "ابن مسكويه"، الذي رفقاء، مسلوبها خلافى، كبير النفس مع العامة، صغيرها أمام الحكم، قوى الكبرياء مع رباء مثل ما فعل هذا أمام الوزراء، ما أبصرت عيناي عالماً سخر عواطفه وأحساسه والإعجاب المنقطع النظير لأبي الرجل، فقد أوصله تزلفه حدّ إبداء المحبة الصادقة، تجارب الأمم" و "تهذيب الأخلاق" من أجل "الفضل بن العميد، لدرجة أنه خصّ كتابيه العميد وفترة حكمه، دون أن يرى في ذلك أية نقية، إشاعة السمعة الرائعة عن ابن كل ذلك ليصبح معلماً لولده أبي الفتاح، وليظفر بعدها بوظيفة وكأنه منزه عن الأخطاء،

مكتبة بغداد، ولينزل إلى الدرك الأسفل من الإهانة، ليصير نديمه قيم ومؤمن على سهراته ومذاته ببلاطه وجليسه في

أخرى مع ياله من رجل وضيع النفس، جرفته تلك الحياة السرالية، ليرتبط بعلاقة ليسلق نخلة أخرى الوزير المهلبي، الذي تسلقه كما يتسلق سارق التمور نخلة، فجاوزه برعاية منه جعلته أعلى وأنضج، هي عضد الدولة، أكبر أمير بوبيه، إلى أن حظي القصر الذي كان يتصدر قاعة الجلوس في قصر البركة، لا أدرى كيف صار ذلك شك قد صهرته في متمطياً فوق دجلة، إن لم يكن قد جرفه النهر، فإن الأرض دون باطنها، مثلما غيّبت ابن مسكويه

أفز بسكيينتي أما أنا، فلم أطق إذلال الوزيرين، عافتهما نفسي لتكبرهما ولتعجرفهما، ولم المنتصر، وهو الخاسران، وتوافقني النفسي، إلا بعد أن تعاليت على مقامهما لأصيير أنا قلمي كان أبتر من سلطانهما وما كتابي "مثالب الوزيرين" إلا حجة قاطعة على أن ضحكت وأنا أتذكر ما قلته لمسكويه حين أطلعني على ما دونه عن ابن العميد — لكنك يا مسكويه، لم تشر ولو بطريقة مواربة إلى عشق ابن العميد للغلمان فانتزع أوراقه من يدي، وقد اعترى وجهه غضب شديد ولاذ بالفرار.

أتكون علاقة محمد شكري بوزير العدل المغربي، شبيهة بعلاقتي بالوزيرين العراقيين؟ عدت لأرقب الشمس، كان قرصها قد بدأ يغوص في البحر. فاصطبح الأفق باحمرار واقعاً شاحب، مع زرقة أرجوانية داكنة، أضفى عليه خرير ارتظام الموج على اليابسة بعيداً عن سحرياً، صبغ نفسي بمشاعر أجحت حنيني إلى بغداد ونهاوند، وإلى وجودي زماني ومكاني.

نصير، فكرتُ في الأجيال التي ركبت هذا البحر، أجيال طارق بن زياد، وموسى بن ركبته في والشureau والقراءنة والمغامرين واللصوص، وفكرت أيضاً في نفسي حين رفاق القافلة في العلم ذلك الزمان البائد. أجل، كنت في كامل انشراحٍ وتألقٍ، أفقَ الأربعة، أو خامسهم، دون أن يغيب عن الحديث، وأ OEM بهم الصلاة، وكأنني أحد الأئمة ذاكرتي رجوعي المأساوي إلى مدينة طنجة.

تماهي هربت من نفسي إلى تأمل انكسار الأمواج على الشاطئ، بعد أن تأكد لي انفصال أقتتنص واحدة وذاتي. بدت لي كل الأمواج متشابهة، لكنني، بين الفينة والأخرى، كنت التفكير في ذاتي، تكون غريبة عن أخواتها، فأمثال بها نفسي، هكذا قسراً عدت إلى اثنان، وبانفصالي عنها وحاولت من جديد أن أفصلها عنِّي، أقنعت نفسي بأنني وذاتي

يأسها. فعجزت مرة أخرى أستطيع أن أجد حلاً لعجزها، وأن أنسف بعض ضروب وبينما أنا كذلك، إذ بجرس التلفون يقطع حبل تأملـي، فعدت مهـولاً إلى الصالة، رفعت قطعة الجمامـد إلى أذني، فوصلـني صوت حاد النبرـات

— أُنـعمـت مـسـاء سـيـدي أـبـا حـيـانـ. أـنـا مـحـمـد شـكـري فـي بـهـو الفـنـدقـ، أـتـأـذـن لـي بـزـيـارـتـكـ فـي غـرـفـتـكـ، أـمـ أـنـظـرـكـ فـي مـكـانـيـ؟

— تعالـ إلى إقامتـيـ.

أـجـبـتـهـ:

ملـتـهمـتـينـ ماـ إـنـ فـتـحتـ لـهـ الـبـابـ لـيـبـدوـ أـمـامـيـ بـشـعـرـ رـأـسـهـ الأـشـعـثـ، حـتـىـ جـحـظـتـ عـيـنـاهـ

شـخـصـيـ، فـأـدـرـكـتـ أـنـ مـظـهـرـيـ أـذـهـلـهـ، دـعـوـتـهـ إـلـىـ الدـخـولـ وـأـنـاـ أـقـولـ لـهـ

— لـاتـشـرـحـنـ لـيـ ماـ طـرـأـ عـلـىـ شـكـلـيـ، فـأـنـاـ أـيـضـاـ ذـهـلـتـ أـمـامـ المـرـآـةـ، وـأـنـاـ أـشـاهـدـ نـفـسـيـ

بـلـبـاسـكـمـ هـذـاـ.

لغـزـ أـشـرـتـ عـلـيـهـ بـالـجـلوـسـ، لـكـنـهـ ظـلـ وـاقـفاـ مـأـخـوذـاـ، كـأـنـهـ يـحاـوـلـ تـفـسـيرـ حـلـ مـبـهمـ، أـوـ

أـنـ يـغـادـرـهـ. مـحـيرـ، وـأـعـدـتـ الإـشـارـةـ بـيـدـيـ إـلـىـ المـقـعـدـ الـذـيـ كـانـ يـعـتـمـرـهـ وـزـيـرـ الـعـدـلـ قـبـلـ

كـتـفـهـ، وـظـلـ فـاسـتـوـىـ فـوـقـهـ، وـوـضـعـ بـجـانـبـهـ حـقـيـقـيـةـ جـلـدـيـةـ صـغـيـرـةـ كـانـتـ تـنـتـلـىـ مـنـ فـوـقـ

يـحـدـقـ فـيـ وـجـهـيـ. وـدـوـنـ أـكـبـحـ ضـحـكـةـ صـدـرـتـ عـنـيـ، سـأـلـتـهـ

— أـتـرـانـيـ أـخـتـلـفـ عـنـ بـنـيـ الـبـشـرـ؟

وـهـوـ حـيـ — أـبـداـ أـبـداـ وـالـلـهـ، بـلـ أـرـاكـ شـدـيدـ الشـبـهـ بـشـاعـرـ عـرـبـيـ أـعـرـفـهـ، اـسـمـهـ أـدـونـيـسـ،

مـحـتـالـاـ، يـرـزـقـ، دـعـنـيـ أـشـرـحـ لـكـ، عـنـدـمـاـ رـأـيـتـكـ بـالـأـمـسـ فـيـ مـكـتبـ وـكـيلـ الـمـلـكـ، حـسـبـتـكـ

الـإـنـسـانـ الـقـدـيمـ عـنـ أـوـ مـجـنـوـنـاـ، كـنـتـ أـكـثـرـ مـنـ اـسـتـبـعـدـ حـقـيـقـتـكـ اـسـتـنـادـاـ إـلـىـ نـظـرـيـةـ اـخـتـلـافـ

الـنـظـرـيـةـ مـسـتـحـوـذـةـ الـمـعـاصـرـ. وـحتـىـ بـعـدـ أـنـ اـتـضـحـ أـمـرـكـ، وـتـأـكـدـتـ حـقـيـقـتـكـ، ظـلـتـ هـذـهـ

وـأـنـاـ أـرـاكـ الـآنـ، اـنـتـهـيـ عـلـىـ فـكـرـيـ، شـاغـلـةـ ذـهـنـيـ، بـيـنـ الرـافـضـ لـهـ وـالـقـابـلـ بـهـاـ، لـكـنـنـيـ

الـبـشـرـيـ لـمـ يـطـرـأـ عـلـيـهـ تـغـيـيرـ مـنـدـ وـجـودـ يـقـيـنـيـ إـلـىـ خـرـافـيـةـ تـلـكـ النـظـرـيـةـ، وـإـلـىـ أـنـ جـنـسـ

سـيـدـنـاـ آـدـمـ وـزـوـجـهـ حـوـاءـ عـلـىـ سـطـحـ الـأـرـضـ.

عـدـتـ إـلـىـ الضـحـكـ وـقـاطـعـتـهـ

— أـلـنـتـ عـلـىـ يـقـيـنـ أـنـ آـدـمـ تـزـوـجـ مـنـ حـوـاءـ؟

أـرـبـكـهـ سـؤـالـيـ لـوـهـلـةـ، فـضـحـكـ وـأـجـابـ

— إـنـ الـمـسـكـيـنـ لـمـ يـكـنـ لـهـ مـنـ اـخـتـيـارـ، فـقـدـ كـانـتـ الـأـنـثـىـ الـوـحـيـدـةـ فـيـ الـدـنـيـاـ، وـكـانـ عـلـيـهـ أـنـ

يـقـبـلـ بـهـاـ رـغـمـ أـنـفـهـ.

— هي أيضاً كان عليها أن تقبل به رغم أنها، فقد كان الرجل الوحيد في الدنيا.
— لا شك أن الله أبدعها على أحسن تقويم وبذلك عمرت الأرض بهذه الألوان البشرية
عدت لمقاطعته:

— أمن الضروري أن لا ينصب حديثي معكم عشر المغاربة، إلا عن الخوارق أو
الساعة؟ لأن النظريات؟ أما كان أجدى أن نترك لسجيتنا حديثها فيما يريحها من أمور
أو أي شيء آخر يعيينا تدلي على واقعكم المعيش، أو علاقة أولي الأمر منكم بالرعاية،
فوق الأرض ويقصينا عن ما تتناقله بطون الكتب؟

ضحك محمد شكري ودس يده في جيب سترته، فأخرج علبة صغيرة من الورق المقوى
في حجم كف اليد وقال لي:

يكفي — إنها علبة دخان تحوي عشرين لفافة، أستهلك منها علبتين في اليوم، وثمة من
أن أفتى بواحدة، أو بأقل من واحدة في اليوم. ولعلمك، فهي ليست محرمة، فقد سبق
فانتشر تدخين بعض المترمتن بمكر وحيتها، لكن سرعان ما أبطل الواقع هذه الفتوى،
السجائر انتشار النار في الهشيم. مما جعل أحد الشعراء يقول:

قالوا تعاطي الدخان قبح
فقلت لامبه قباحه
يُصِيرُ المرءَ فِي نَسَاطٍ
وَفِيهِ عَوْنٌ عَلَى الْفَصَاحَةِ
وَلَمْ يَرِدْ بِالْحَرَامِ نَصٌّْ
وَالْأَصْلُ فِي شَانِهِ الإِبَاحَةِ

بها بنفسه، تناول من علبة لفافة أصدقها بفيه، وأوقد في عقبها ناراً، وصار يمتص ما
ويستخرج من فتحتي منخاره وفمه دخانا ينشره في الفضاء، وقال لي
في — إن ما أقوم به يسمى في قاموسنا المتداول بالتدخين، وأنا أدمنه منذ أن كنت
سيتقد العاشرة من عمري، إنه يساعد مزاجي على الروakan والخصوصية، ستري كيف
تقبل تدخين ذهني، وتغمريني حالة إشراق تسعنفي بفتوى أو مشروع يبعد عنا السأم، هل
لفافة من باب التجريب؟

— لم لا، مadam الأمر كما تقول، فلأجريب

وضعت لفافة في فمي، فأوقدتها لي بعد تقبّل، وطلب مني أن أدعها تتسلل إلى
وايقا دواخلي، فامتثلت لأمره، وإذا بسعال مفاجئ يبطش بي حد الاختناق، فانتصبت

أَسْتَوِي فَوْقَ وَهَرَولْتُ إِلَى الْحَمَامِ، غَلَّتْ وَجْهِي وَحَلْقِي، ثُمَّ عَدْتُ إِلَى الصَّالَةِ، وَقَبْلَ أَنْ
مَقْعُدِي، بَادِرْتَهُ قَائِلاً:

أَنْتَ فِي — بَعْدَ هَذِهِ التَّجْرِيَةِ الْمَرِيرَةِ أَعْلَنْتُ لَكَ، بَأْنِي وَالتَّدْخِينِ شَيْئاً مُتَضَادَانِ، لَتَتَعَمَّ بِهِ
أَوْ بَطْشَ سَعَالِ حَفْظِ اللَّهِ وَرِعَايَتِهِ، أَمَّا أَنَا فَإِشْرَاقَاتِي الْذَّهَنِيَّةِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى غَثْيَانٍ
لَمْ يَكُفْ عَنْ ضَحْكِهِ، كَأَنَّ مَا أَلَمَّ بِي يَدْعُونِ إِلَى الْانْشَارَاحِ وَالْقَهْقَهَةِ، فَعَلِقَ مَزْهُواً بَعْدَ أَنْ
أَخْذَ نَفْسَاً مِنْ سِيْجَارَتِهِ:

فَمَذَاقُهُ مَرٌّ — التَّجْرِيَةُ الْأُولَى عَادَةً مَا تَكُونُ مُنْفَرَّةً، كَحَالِ تَتَالُولِ النَّبِيِّ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ،
فِي أَفْوَاهِنَا إِلَى مَذَاقِ الْعَلْقَمِ، لَكِنَّ النَّشْوَةَ الَّتِي يَحْدُثُهَا تَشْفُعُ فِي إِعَادَةِ تَتَالُولِهِ، لِيَتَحَوَّلَ
الْعَسْلُ.

فَقَاطَعْتَهُ:

— لَسْتُ عَلَى مَذْهَبِ أَصْحَابِ الْقِيَاسِ، وَلَا مِنَ الْمُتَحَجِّجِينَ بِالضَّارَّةِ النَّافِعَةِ

— لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ.

أَكَدْتَ لِي جَمْلَتَهُ هَذِهِ طَبْعَهُ الْحَادِ، وَأَضَافَ

— أَنْعَاقُرُ الْخَمْرَ يَا أَبَا حَيَانَ؟

لَدَوْاعِي لَمْ أَجِبْهُ، وَتَعْمَدْتُ، وَأَنَا أَنْظَرُ إِلَيْهِ، إِطَالَةً صَمْتِي، عَلَهُ يَقْدِمُ شَرْحًا أَوْ مَبْرَرًا
وَكَأَنَّهُ فَقِيهٌ سَؤَالَهُ، أَوْ يَعْتَذِرُ مِنَ الْأَسَاسِ، لَكِنْ بَعْدَ أَنْ ظَلَّ هُوَ الْآخِرُ مُحْدَقًا فِي وَجْهِي
ضِيَافَتِي، فَأَجَبْتُهُ يَحْثُثْ نَلْمِيَّدًا عَلَى جَوابِهِ، أَشْفَقْتُ عَلَيْهِ مِنْ غَرْوَرِهِ، وَهُوَ فِي
— لَيْسُ مَعَ الْعَامَةِ، وَلَا مَعَ الدَّهَمَاءِ.

انْفَرَجَتْ أَسْارِيرُ مَحِيَاهِ، وَخَاضَ فِي الْحَدِيثِ

— كَنْتُ سَتْخِيبُ ظَنِّي وَتَصْدِيمِنِي إِنْ كُنْتُ أَجَبْتُ بِالنَّفِيِّ، ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسُ مِنْ طَبَاعِ
أَمَا الْمُشْتَغَلِينَ بِالْفَلْسَفَةِ وَالْفَكِيرِ الْإِحْجَامِ عَنْ مَعَاوِرَةِ الْمَدَامِ، وَلَوْ مِنْ بَابِ التَّجْرِيَّبِ
انْهَدَارِيِّ فِي اقْتِصَارِكِ عَلَى الْخَاصَّةِ دُونَ الْعَامَةِ، فَهَذَا مَا اهْتَدَيْتُ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَيْضًا بَعْدَ
ثُمَّ ارْتَقَتْ إِلَى الْخَاصَّةِ، الشِّيخُوخَةِ، فَقَدْ كَانَتْ بِدَائِتِي مَعَ الْمَهْمَشِينِ، ثُمَّ ارْتَقَتْ إِلَى الْعَامَةِ،
بِالْقَرْفِ فَخَاصَّةُ الْخَاصَّةِ، بَعْدَ أَنْ صَارَتْ مَجَالِسُ الْعَامَةِ تُصَبِّيَنِي.

فَقَاطَعْتَهُ:

— تَرَعَّمْتُ أَنَّ التَّدْخِينَ يَمْنَحُكَ صَفَاءَ الْذَّهَنِ، وَيَلْهُمُكَ إِشْرَاقاً يَبْعُدُكَ عَنِ الضَّجَرِ وَالسَّأَمِ.

تَرَى بِمَاذَا أَلْهَمَكَ وَأَنْتَ مُشْرِفٌ عَلَى تَدْخِينِ ثَلَاثِ سَجَائِيرِ؟

— لَا تَتَعَجَّلِ الْأَمْرَ يَا سَيِّدِي، فَقَدْ كُنْتَ بِصَدْدِ إِخْبَارِكِ بِأَنِّي أَعْدَدْتُ فِي ذَهَنِي خَطَّةً

محكمة للتسلي من فندق السراب هذا.

— وإلى أين إن شاء الله؟

— إلى قلب مدينة طنجة، ألم تسألني أن أدلّك على واقعنا المعيش؟

— بلـى، سـأـلـتـكـ!

— إذن علينا أن نغادر الفندق دون أن ينتبه أحد من المسؤولين أو الخدم. وفي المدينة ستفـقـ بـنـفـسـكـ عـلـىـ وـاقـعـنـاـ.

— افرض أنـهـمـ اـنـتـبـهـوـاـ،ـ فـهـلـ يـعـتـرـضـونـ سـبـيلـنـاـ؟ـ

بـوـجـودـيـ —ـ بـكـلـ تـأـكـيدـ،ـ فـرـجـالـ الشـرـطـةـ السـرـيـونـ،ـ يـطـوـقـونـ مـدـخـلـ الـفـنـدـقـ،ـ وـهـمـ عـلـىـ عـلـمـ أيـ حـتـىـ زـيـارـتـيـ معـكـ،ـ فـقـدـ تـلـقـوـاـ إـذـنـاـ خـاصـاـ مـنـ الـوـكـيلـ الـعـامـ لـلـمـلـكـ يـسـمـحـ لـيـ بـزـيـارـتـكـ،ـ لـكـ كـانـتـ مـتـوـقـفـةـ عـلـىـ إـذـنـ الـوـكـيلـ الـعـامـ.

ماـ العـلـمـ إـذـنـ؟ـ سـأـلـتـهـ فـأـجـابـنـيـ

الـرـئـيـسـ،ـ كـمـ —ـ أـلـمـ أـقـلـ لـكـ إـنـيـ أـعـدـتـ خـطـةـ مـحـكـمـةـ،ـ اـسـمـ،ـ أـنـ سـأـغـادـرـ الـفـنـدـقـ مـنـ بـابـهـ الشـاطـيـ،ـ أـوـ عـبـرـ النـافـذـةـ لـوـ كـنـتـ قـدـ وـدـعـتـكـ،ـ وـأـنـتـ سـتـتـسـلـ مـنـ جـهـةـ النـافـذـةـ المـطـلـةـ عـلـىـ وـتـسـيـرـ بـمـحـاذـاتـهـ إـلـىـ أـنـ تـجـازـ مـنـزـلـاـ ذاتـهاـ.ـ سـتـتـزـلـ درـكـاتـ السـلـمـ المـفـضـيـةـ إـلـىـ الشـاطـيـ،ـ فـتـرـجـ يـسـارـاـ مـوـلـيـاـ ظـهـرـكـ لـلـبـحـرـ.ـ بـعـدـ بـعـضـ صـيـفـيـاـ مـضـاءـ يـمـلـكـهـ أـحـدـ الـأـمـرـاءـ الـعـرـبـ،ـ صـحـبـةـ سـائـقـ سـيـارـةـ خـطـوـاتـ سـتـجـدـنـيـ فـيـ الطـرـيقـ الـعـمـومـيـ.

تـناـولـ حـقـيـبـتـهـ،ـ وـعـلـقـهاـ بـكـنـفـهـ،ـ وـقـالـ لـيـ

— أـتـمـنـيـ أـنـ لـاـ تـقـشـلـ خـطـتـتـاـ،ـ لـاـ تـنـسـ أـنـ تـحـمـلـ مـعـكـ مـفـتـاحـ الإـقـامـةـ

خـطـاـ إـلـىـ الـخـارـجـ،ـ ثـمـ التـقـتـ نـحـويـ وـأـضـافـ

حاـوـلـ أـنـ تـرـتـديـ سـتـرـةـ فـوـقـ قـمـيـصـكـ،ـ فـقـدـ تـكـوـنـ اللـيـلـةـ بـارـدـةـ.

(13)

مـصـحـوـبـاـ بـنـسـائـمـ عـشـبـ الـبـحـرـ،ـ كـانـتـ اللـيـلـةـ فـعـلاـ بـارـدـةـ،ـ سـرـتـ فـوـقـ رـمـالـ الشـاطـيـ الـمـبـلـلـةـ،ـ فـانـتـبـهـتـ إـلـىـ أـنـيـ مـغـلـفـ بـأـحـاسـيـسـ وـضـوءـ الـقـمـرـ،ـ وـصـخـبـ الـأـمـواـجـ،ـ وـالـتـوـحـدـ،ـ وـالـظـنـونـ،ـ وـالـحـزـنـ،ـ أـوـ مـنـ الـفـرـحـ وـالـكـآـبـةـ.ـ لـقـدـ سـبـقـ أـنـ مـضـادـةـ،ـ مـتـاقـضـةـ،ـ لـعـلـهـ مـزـيجـ مـنـ السـعـادـةـ،ـ اـسـتـطـعـتـ أـنـ أـسـتـحـضـرـ مـكـانـهـ وـزـمانـهـ،ـ فـقـدـ كـنـتـ فـيـ اـعـرـتـتـيـ أـحـاسـيـسـ شـبـيـهـةـ بـهـذـهـ،ـ بـلـ ذـلـكـ هـوـ الـمـكـانـ،ـ وـكـنـتـ فـتـىـ يـافـعاـ،ـ ذـلـكـ هـوـ الـزـمـانـ،ـ لـيـسـ فـيـ مـدـيـنـةـ الـمـحـمـرـةـ الـفـارـسـيـةـ،ـ فـمـاـ أـيـسـرـ تـذـكـرـ الـأـحـاسـيـسـ حـيـنـ تـعـاوـدـنـاـ هـذـاـ أـيـةـ غـرـابـةـ.

من خيل لي أن ريحًا عاصفة تدوي داخل رأسي، وتعسل ذاكرتي، فترىح ما تراكم بها البعيدة، تلك طبقات النسيان، وتفتقّت بصيرتي، لنفرد لي مشاهد لواقع عينية من حياتي التي كانت في طي العدم، كما لو أني كنت أعمى، فصرت بصيراً

وانزلق اسمها من لساني، فتوقفت وسط الشاطئ وخطبت نفسي، ماذ؟ قلت شهربان؟ لفظت اسمها؟ لم أصدق، كيف لي أن أصدق وأنا منذ عشرات السنين، وقبل عشرة إلى قرون، أحفر عن اسمها في ذاكرتي، إلى أن تملكتي اليأس وصار يقيني بأنه امْحى المنسيّة الأبد، وفجأة يطفو على سطح ذاكرتي، لتنتقد معه كل تفاصيل أيامِي

ازدلت وثوقاً من حالي الخارقة، وفي لمح البصر مرّ سجل حياتي في ذهني أرسلني أجل كنت في ضيافة الحاج عبد الحسين التوحيدِي، أعز أقرباء والدي، كان قد وحده تولّى إليه لأنّه لتعلم الفارسية والسيسانية، رجل على قدر من التقوى والعصامية، والحساب، أستطيع أن تدرّيس ولديه قواعد العربية والفارسية والسيسانية، وعلوم الدين الجهوري وهو يتلو القرآن، أتنسم رائحة طيبة المعلوم من عمّامته السوداء، أما صوته أذني، وكأنني لم أغادر بعد مدينة أو يوم بنا الصلوات، فإنني أكاد أسمعه الآن يرن في المحرّمة.

يتولى كنت ولديه نتّاوب على جلب الماء من العين الرابضة عند سفح الجبل، كان متطوعاً، ليس إبّثاراً أحدنا كلّ صباح هذه المشقة، لكنني أغفيتها منها، وتحمّلتها وحيداً أو كرماً مني، وإنما لغاية في نفس يعقوب

بما كنت أستيقظ مع نسمات الفجر الأولى، فأستر جسدي ببقيري الصوفي، وألف رأسي الماشية يشبه العمامة، وأسرع لأسبق الريح نحو العين، قبل أن تنفع ماءها حواجز والدواب

في هناك، كنت أنتظر مجيء شهربان، فتلوح رفقة صبيات كما يلوح القمر مكللا بنجوم وجودي، ليلة ظلماء، فأقترب منها ثم أبعد ثم أقترب، محاولاً أن ألفت نظرها إلى انفراد؟ لكنني وتكرر إقبالي وإدباري، فتجرأت وقلت في نفسي، ماذ لو تقابلنا على وأدعك ما تلمسه حققت حلمي في خيالي، فلا رقيب على خيالي، أفتح أزرار قميصها الحسين لأداء الصلوات، أصابع يدي وراحتها، وحين أصطف مع رفيقي وراء عمي عبد

وأعود لأحلام يقظتي أدعوا الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، الجبل، وتحقق ذلك الحلم البعيد المنال، ليس في خيالي، وإنما على أرض العين في سفح زكية، وكأن بين شجيرات الصفصاف والصنوبر والعرعار، ونباتات برية ذات روائح

كل شيء أعد عنوة ليتم مشهداً كنا بطليه.

ما أروع أن تتحول أمانيك إلى معيش حقيقي، إن ذلك شبيه بالشيء النادر الحدوث، لكنه تحقق لدى مع شهربان.

وابتسمتْ لي، في ذلك الفجر العذري، وجدتها وحيدة تملأ جرتها، وحين تقابلتْ نظراتنا، لكنها كانت ارتبتْ وانقض قلبي، وبكلمات مني، مرتعشة مضطربة، لا معنى عرف أنها هامت بي، بلية في إثبات هيامي بها، وبكلمات منها مرتعشة مضطربة، تكون فارسية من المحرّمة ومثلّما سرّها أن أكون عربياً وافداً من بغداد، سرني أن نخفي عند سفح الجبل، صرنا نلتقي كل فجر، نخفي ما نحمله من أواني السقي، مثلّما اسمها شهربان، قامتينا بين الأشجار والنباتات البرية الباسقة، لم أكن أعرف بعد أن فاحم، تدلّتْ إلى لكنني عرفت، بل وزرعت عن رأسها بخنقها لتنكشف لي خصلات شعر أمامها وجهها لوجه، أن خلتها ستصل إلى الأرض، وفتحت أزرار القميص وأنا أنتصب مطوقاً برعشة محمومة.

في تلك اللحظة بالذات، فُدر لي أن أكتشف عذاب متعة تحقيق الحلم

الوقت توقفت في الشاطئ، وفكرت في شكري الذي ينتظر التحافي به، لكنني فكرت في أ يكون طيفها ذاته في شهربان، وفي الهوة التي تفصلني عنها، وفي حالي الخارقة هذه، يحوم الآن حولي، فيسعف ذاكرتي باستحضار ما غاب عنى

كنت عدت إلى تلك الأيام في المحرّمة، استحضرت ذلك الطقس الخريفي البارد، حين وأصبح بالغناء، أنسّل من بين الأصدقاء، فأندحرج نحو الشاطئ، أسيّر فوق رمله المبتلّ عزّة، وأبكي، وأبكي، أو بترنيمات لأبيات من شعر أبي ربّيعة أو جميل بثينة أو كثير أعيش العشق الحقيقي، دون أن مستعجلار حيل الليل لقدوم الفجر، لأقابل شهربان، كنت من فقدان شهربان أعرفه، ولعل مصدر بكائي كان عشقي، أو شدة خوفي زمان وها أنا ذا أعاود السير ليلاً، على رمل شاطئ مبتلّ، عارف بأحوال العشق، في مكان غير زمانه ومكانه، كأنني الأزل ينتقل من عصر إلى عصر

(14)

إلى أن لاحت أوليت ظهري البحر، فظل المنزل الأميركي عن يسارِي، سرت بجواره الخلفي، ثم عاد وجلس سيارة واقفة في الطريق، ترجل منها محمد شكري وفتح لي ببابها ضخم جموح، تُرسل عيناه شرارة إلى جوار السائق، فانطلقت بنا السيارة وكأنها حيوان

ضوء يحيل الظلام نهاراً

مزدانة أراد أن يقول شيئاً، فأسكنته ليتركتني في سرحاني، لكن ما إن ولجنا أبنيه
منشغلًا بليلة بالألوان، حتى صار يدلني على معلم لم أعرها اهتماماً، فقد كان ذهني
حداً فاصلاً بين كانت أطول ليالي عمري، تلك التي تأخر فجرها عشرة قرون، لتكون
عصرين.

هل استغرقت تلك الليلة حقاً عشرة قرون؟

عليّ أن أصدق قبل أن أطلب من الآخرين تصديقي

ما إن توقفت السيارة، حتى قفز محمد شكري خارجها، وفتح لي الباب، وخطبني
ـ مرحبا بك صديقي أبا حيان في قلب مدينة طنجة، الشارع يسمى "موسى بن نصير"
ـ والمطعم الذي سندخله يسمى "الريتز".

عاد إلى صاحب السيارة، سمعته يشكره، ثم رجع حيث أقف، ودعاني لولوج المطعم
ـ وهو يقول لي:

بعد أن اتخذت هذا المطعم مقراً لي، جعلت منه ملتقى للمثقفين من معارفي وأصدقائي،
ـ أتقبل أن تكون أحدهم؟

حركت رأسي موافقاً ضاحكاً، فتقدمني ينزل دركتين لنصير وسط المطعم، انحنىت
ـ فالتمس برأسى مثله محياً ثلاثة أشخاص ملأوا إحدى الموائد. وقف أحدهم وصافحنا،
ـ شكري منه بأدب جم، أن ينتظر إلى أن يفرغ من أمر له معى، وصار يدلني
ـ الذي نراه في الزاوية حان صغير، والقنيبات المرصوصة فوق الرف أثبنة مغربية
ـ لم أتمالك دهشتى، فسألته:

ـ خمور تعرض في مطعم علانية؟

ـ ماذا يدهشك في هذا؟ جل البلاد الإسلامية تُسوق الخمور جهراً، أما كان في العراق
ـ خمور وحانات؟

العدوية ـ بلـى، هناك حانات من زمن جلجامش، ومنها حانة بغدادية كانت تديرها رابعة
ـ إلى حانات قبل أن تتتصوف، أذكر أن أبا نواس كان يؤمها، كما كان يسافر من بغداد
ـ بطرق سرية، ويقام خارج مدينة الحيرة، أما الخمور فلا تعرض في الأسواق، بل تباع
ـ وبطانته الحـ على بائعها ومقتيها، باستثناء حاشية الخليفة

ـ أنت تتحدث عن العراق قبل عشرة قرون. الأمر يختلف اليوم، دعنا من هذا الآن،
ـ وتعال أطلعك على الصور التي تزدان بها جدران المطعم

يكاد تابعت الفرجة على صور تجمعه بأدباء وشعراء وسياسيين. صور عجيبة حقيقة، أصحابها ينطرون، توقف عند صورة لرجل دمث الملامح، وقال لي عنه قليلة. — إنه الشاعر عبد الوهاب البياتي من العراق، قضى نحبه في دمشق منذ سنوات ثلاثين عاماً. انتقل لقد ظل صوته رعداً مدوياً، وكان نسراً جريحاً، أعرفه عن كثب منذ بعدها إلى صورة أخرى، وقال لي عن صاحبها

فراره — مناضل معارض عنيد، ابن مدينة طنجة، حكم عليه بالإعدام، لكن رفاقه دبروا تثير الإعجاب إلى خارج المغرب، وبعد عقد ونصف، عاد ليصبح وزيراً أول، حكايته الراهنة والدهشة، وقد تفيد في فهم أوضاع السياسة العربية الإسلامية.

لم أتمالك نفسي وأنا أنعم في صورة هذا المناضل المغربي، فقلت

— إنه يشبه بال تمام صديقي أبي زكرياء يحيى بن عدي النصراني البغدادي

أشار إلى مائدة تحف بها أربعة مقاعد منزوية في ركن عند مدخل المطعم، وأخبرني إنها مائذتي الموقوفة علىٰ، لا يجلس بها أحد سواي.

قرون أسايره وأستمع إليه، لكنني كنت منشغلًا في الوقت ذاته بحال العراق، بعد عشرة جملته القصيرة من رحيلي عنه. فقد قال لي، إن الأمر يختلف اليوم، دون أن يدرى أن أجوبتها غامضة، رغم ما قد هذه دوّختي، وفجّرتْ في دواخلي بركاناً من أسئلة ستظل أقف عليه من كل مستجد في العراق.

ما كدنا نجلس حول مائذته المفضلة، حتى وقف علينا رجل في مقتبل عمره، خمرى فوق بسمة اللون، طويل كنخلة لم تثمر بعد، شاربه قصير داكن السواد، محفوفٌ بعنایةٍ لا تفارقه:

فهو يعرف — إنه عبد الحفيظ، النادل القيم على جميع الزبناء، لكنني أنا مستثنى منهم، معدتي، ولعلمك، عني كل شيء، نبذلي المفضل، وعاداتي، وأصدقائي، حتى ما تشهيه فإن معدتي تشبه معدة عصفور، فهي تفضل الشراب على الأكل.

يضحك ويتحدث، ويطلب من عبد الحفيظ أن يأتينا بما لديه، ويسأله في حضوره — أتجرب نبذاً مفضلاً لدبي؟ ودونما اكتتراث أجبته

— أريد ماء.

— صديقي يرغب في أن يفتح الجلسة بالماء، اسقه ماء، ذاك شأنه

قال للنادل قبل أن ينصرف، ورحب بالرجل الذي سبق أن صافحنا، وأشار إلى شخصي قائلاً

— هذا أبو علي، صديق من العراق.

ثم انحني علىّ، وهمس لي

— حتى لا ينكشف اسمك، ثم إن الشاعر البياتي الذي شاهدنا صورته، كان يفضل أن
نلقبه بأبي علي، أليس اسمًا عراقياً؟

ـ حركت رأسِي بالإيجاب، فعاد إلى رفع صوته معرفاً صديقه الشاب

ـ إنه عبد القادر، كاتب مغربي متميز، ولعله درس الفلسفة بكلية الآداب، إن لم تخني
إذكري!

ـ ليت لي مثل ذاكرتك

ـ علق عبد القادر، فضحك شكري وقال لي

ـ والأخرى — الرجل صادق فيما يقول، ذلك أنني أمتلك ذاكرتين، إحداهما ذاكرة الأمي
ففي هذا العمر ذاكرة المتعلم، وقد لازمتني ذاكرة الأمي إلى أن بلغت سن العشرين،
الأمي تسعفي في حفظ بدأت أتعلم القراءة والكتابة. أما قبل ذلك، فقد كانت ذاكرة
جاهلا، بل كنت أكثر إطلاعاً ولباقة الأسماء والأرقام والحكايات، لكنني وأنا أمي لم أكن
وأناولُها لمن يقرأ لي مقالات منها، في حين من متعلمي هذا الزمن، كنت أفتني مجلات
يقرأون شيئاً أن هناك متعلمين جاهلين، لا
ـ ضحكتنا جميعاً.

ـ غاب أحضر النادل قنينة شراب مع أقداح زجاجية مكتنزة، وقنينة ماء خاصة بي، ثم
ـ لردد جوع فترة زمنية قصيرة، عاد بعدها يحمل صحوна صغيرة بمائولات قليلة، لا تكفي
ـ رجل واحد، زيتون وباذنجان وفجل، ورداً على ذهولي عقب شكري

ـ لاتحسينَ هذا أكلا، إنه مجرد مزّة معتادة لفتح الشهية لا غير

ـ ناحيتي، حين صبَ عبد القادر كأس نبيذه، أسرعت أنا فملأت قدحي بالماء وقربته
ـ ببعض وكأني بفعلِي هذا أعلن رفض شرب الخمر، فابتسم الرجل وألقى في جوفه
ـ يهاجم الشيب كل شرابه. في تلك الهنيئة دخل المطعم شاب مربوع القد، أميل للبدانة، لم
ـ واحداً واحداً، فدعاه شكري رأسه بعد، وقد طفح محياه بطيبة لا تخطئها العين، صافحنا
ـ مرحباً، وقال عنه:

ـ هذا رجل حلو المعشر، طموح، بدأ حياته مدرساً صغيراً إلى أن أصبح أستاذًا للآداب
ـ العربية، اسمه عبد اللطيف.

ـ وأشار إلى، وهو يقول لضيفه الجديد

— أبو علي، أديب وفيلسوف من العراق.

صبّ كأساً لضيفه وخطبني:

— تأكد يا أبو علي من أنه لا وجود لأحد من العامة في جلستنا هذه.

سكت قليلاً، ثم وكأنه لم يُطق صبراً عاد يستفسرني

— إلى متى ستظل تشرب الماء؟

— إلى أن يشاء الله، بعد ذلك سأتبر أمرى

:أجبته

اسم مرّ زمن شرد فيه ذهني عما كان يروج بينهم من أحاديث، إلى أن استرقت أذني الحديث عن أبي حيان التوحيدى، فتساءلت في حالة استفار، ظناً مني أنهم بصدق واقعى

— بالله عليكم، عمَّ تتحدثون؟

أسرع شكري يجيبني

بول "عن مرارة الاغتراب، وقد استشهد عبد القادر بثلاثة فلاسفة هم "كيركىجور" و الاغتراب تيليش" و "أبو حيان التوحيدى"، صنفهم فلاسفة حاولوا التخلص من مأزق النفسي، عن طريق الإيمان بالله.

وأضاف عبد اللطيف

— جعلوا الإيمان ملجاً ومنقداً من الاغتراب

صمتوا في انتظار وجهة نظري، فقلت لعبد اللطيف

قد تصدق نظريتك عن الفيلسوفين الأجانب، فأنا جاهل بهما، لكن بالنسبة لأبي حيان،

فيودي لو أعرف مصدر استنتاجك هذا

رد عبد اللطيف

ستجد "الأمر في بساطة شرب كأس ماء، فبتقليلك لصفحات كتاب "الإشارات الإلهية ناشدا التعلق التوحيدى ينادي ربه ويناجيه بنبرة صادرة عن قلب خاشع ذليل، متضرعاً، واغترابه بحب الإيمان، وذلك دون شك، محاولة منه للفرار من يأسه

فتدخل عبد القادر

الصمود، — إن ألبير كامي سمى أمثال هؤلاء بـ "الفلاسفة المنتحرين"، لأنهم رفضوا

الطبيعة، شأنهم في هربوا من مواجهة مصيرهم بالعقل والمنطق، واستسلموا لما وراء

ذلك شأن من يتثبت بالسراب انتقام الغرق

لكن ما حركت رأسي موافقاً، مع أني لم أتفق في داخلي مع استنتاجهم السطحي الساذج،
بأنني أدهشني هو اهتمامهم بشخصي، إذ لم يخطر ببالني ولربما ببال من عاصري،
قرؤن سأظل حاضراً في المشهد الفكري العربي الإسلامي طيلة هذه القرون، عشرة
أني مرت والناس ينشون في أفكار ي وشخصي، دون أن يأخذ موتى سوى جسدي، مع
كتبي، إذ لم أكن أنسد المجد كما فعل المتتبّي والمعربي، لدرجة أني أضرمت النار في
هكذا تعمدت كان يقيني أني جئت إلى هذه الدنيا في صمت، وسأرحل عنها في صمت،
تمرّدت على صخب العيش في الظل، دون أن أسعى إلى سلطان أو مجد، أ يكون لأنني
عدت إلى الدنيا، لكنني إلى الدهماء وعلى الأصوات النشاز؟ سأتعرّفُ الحقيقة مادمت قد
الأولى تلك، لم أكن أغير ذاتي أي حد هذه الساعة ما أعلمه يقيناً هو أني في حياتي
هذه الذات التي لم تر إلا العثرات بعد اهتمام، ففي إحرافي لكتبي كنت أحرق ذاتي،
والفناعة بالوحدة العثرات، وإلا الاستئناس بالوحشة.

(15)

انتشلني شكري من ذهولي الداخلي صارخاً:

— أنت غائب عنّا يا أبا علي، لا تشاركنا الشراب ولا الكلام، ولا حتى الاستماع
— معذرة، فقد كنت شارداً في هموم الدنيا، إنما صدقوني بأنني أريد أن أستقيد. فعم
تتحدثون؟

أجاب عبد اللطيف

— مازلنا ننبش حياة أبي حيان الذي قهر اغترابه بلجوئه إلى مرسة الإيمان، محاولا
التصالح مع ذاته. فما قولك وأنت من بلد أبي حيان؟
دققت النظر في وجوههم جميعاً، وأنّا اعتزم دحض ما أجمعوا عليه، فقلت لهم
غريباً عن — لم يلجا أبو حيّان إلى الإيمان لقهر اغترابه ومصالحة ذاته، فهو لم يكن
وانتهى مسلماً مؤمناً. ذاته حتى يصالحها، بل كان متوفّحاً معها، فقد نشأ مسلماً مؤمناً،
نقيضه، كحال الملاحدة حين إن اللجوء إلى الشيء لا يكون إلا من خارجه أو من
بإله، وأبو حيان لم يكن ملحداً، فإذا كان قد يهربون من الفلق إلى الثبات، أي إلى الإيمان
تقدّم به العمر وخبر الحياة، إلى إيمان أقوى، وهو ما انتقل من إيمان ضعيف، بعد أن
مؤلفاته "الإشارات الإلهية"، فإن ذلك ليس هروباً ولا لجوءاً ولا أفسح عنه في آخر
كم أو جديداً للإيمان، فأحرى أن يكون انتحاراً، كما زعم فيلسوفكم النصراني كم اكتشافاً

كِمْ كِمْ، لا أذكر اسمه، ولعله مات منتحراً

فأسرع عبد القادر يقول:

— أَلْبَيرْ كَامِيْ، لَا تَقْلِنَا يَا أَبَا عَلِيٍّ إِنَّكَ لَا تَعْرِفُهُ، فَهُوَ كَمَا نَقُولُ، قَدْ ماتَ مُنْتَحِرًا يَقِينًا

فَتَدْخُلُ شَكْرِي وَسَالْنِي

وَمَا قَوْلُكَ فِي اغْتِرَابِ أَبِي حِيَان؟

إِيمَانُه الشَّدِيد — الرَّجُلُ فِي مَسِيرِ حَيَاتِهِ كُلُّهَا لَازِمُهِ إِحْسَاسُهُ الشَّدِيدُ بِالْغَرْبَةِ، مُتَّلِماً لَازِمُهِ
كَانَ مُسْلِمًا قَوِيًّا مُتَمَكِّناً مِنْ كُلِّ بِاللّٰهِ، وَلَا تَنَافِرٌ بَيْنَهُمَا، ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا عَادِيًّا، بَلْ
الاكتفاءُ بِالْحَجَّ الْعُقْلِيِّ إِذَا ضَاقَ الْفَضَاءُ عَنْ "عِلُومِ عَصْرِهِ"，لِدَرْجَةِ أَنَّهُ أَلْفَ كِتَابًا أَسْمَاهُ
الْمَجَالِسُ الْعُلُمِيَّةُ بَيْنَ مُؤْيِدٍ وَرَافِضٍ وَمُتَرَدِّدٍ، وَذَهَبَ فِي الْحَجَّ الشَّرْعِيِّ، فَأَحَدَثَ بَلْبَلَةً فِي
فَوْقِ فَرَائِضِ السَّنَةِ، وَهِيَ أَفْكَارٌ جَرِيَّةٌ لَا يُسْتَطِعُ تَنَالُهَا إِلَّا قَوْلُهُ إِلَى أَنَّ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ
بِبِرَاهِينِهِ وَحِجَّهِ، أَمَّا ظَاهِرَةُ اغْتِرَابِهِ، فَلَا يَمْكُنُ فَصْلُهَا عَنْ عَصْرِهِ، مُسْلِمٌ عَالِمٌ، قَوِيٌّ
أَتَسْمِيهِ عَصْرَهُ؟ أَتَعْلَمُونَ بِمَا

صَمَتَ الْجَمِيعُ مُنْتَظِرًا مَا قَدْ أَضَيَّفَهُ، فَتَابَعَتْ حَدِيثَيْ

وَالْإِهْمَال — فِي عَصْرِ التَّوْحِيدِيِّ، عَانَى أَهْلُ الْفَكْرِ وَالْعِلْمِ مِنَ الْإِحْسَاسِ الشَّدِيدِ بِالْعَجزِ
التَّوْحِيدِيِّ عَنِ الْإِغْتِرَابِ، وَالْفَاقَةِ، تَوَلَّ جَلَّهُمْ أَعْمَالًا وَضَيْعَةً لِسَدِ رَمْقَهُمْ، فَجَاءَ مَا كَتَبَهُ
الْقَمَّةُ تَقَافِيًّا وَالْهَاوِيَّةُ صَدِّيَّ يَمْثُلُ رُوحَ ذَلِكَ الْعَصْرِ، وَبِإِيْجَازٍ كَانَ عَصْرُ التَّوْحِيدِيِّ
سِيَاسِيًّا.

وَفِيلُسُوفًا، فِي الْحَقِيقَةِ، كَانَ بُودِي أَنْ أَعْرِفَ مَوْقِفَكُمْ مِنْ آرَاءِ أَبِي حِيَانِ مُفْكِرًا وَأَدِيبًا

وَلَيْسَ مُغْتَرِبًا فَحَسْبٌ، وَكَانَ الرَّجُلُ مَا عَرَفَ فِي حَيَاتِهِ سُوَى الْغَرْبَةِ

حَرَكَ عَبْدُ الْلَّطِيفَ رَأْسَهُ بَيْنَ الْمُوَافِقِ وَالْمُتَرَدِّدِ، فَأَشَرَتْ لَهُ بِيَدِي أَنْ يَقُولَ مَا لَدِيهِ، فَقَالَ

لَاقْتَةً — لَا شَكَ أَنَّ رَجْحَانَ صَفَةَ الْفِيلُسُوفِ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَيْهِ، وَهِيَ الَّتِي أَبْرَزَتْ بِطَرِيقَةٍ
بِالْإِغْتِرَابِ، بَلْ هِيَ ظَاهِرَةُ الْإِغْتِرَابِ لَدِيهِ، ذَلِكَ أَنَّ الْفَلْسَفَةَ فِي جُوهرِهَا، تَرْتَبِطُ أَسَاسًاً

إِلَّا وَقَعَ التَّنَطُّرُ إِلَى نَتَاجِهِ. وَمِنْ ثَمَّةِ، فَإِنَّ أَيِّ حَدِيثٍ عَنْ فَكِرِ أَبِي حِيَانِ، لَا يَتَسَقَّ

كَتَبَاتِهِ، وَلَعِلَّهُ لِهَا السَّبَبُ كَانَ يَكْثُرُ مِنْ اغْتِرَابِ الْوَجُودِيِّ الْفَلْسَفِيِّ الَّذِي تَنَوَّى خَلْفَهُ كُلِّ

الْفَلَسَفَةِ الْكَبَارِ، فَالْإِبْدَاعُ الْفَلْسَفِيُّ هُوَ نَتَاجُ مَوْقِفِ الْعَزْلَةِ وَالْوَحْدَةِ، شَأنُهُ شَأنُ غَيْرِهِ مِنَ

الْفِيلُسُوفِ وَالْوَاقِعِ عَزْلَةً، نَتَاجٌ مَسَافَةٌ بَيْنِ

الْفِيلُسُوفِ وَصِبْرًا، فَقَاطَعَتْهُ مَضْطَرًا

الْفِيلُسُوفُ — يَا سَيِّدِي عَبْدَ الْلَّطِيفِ، مَا كَانَتِ الْفَلْسَفَةُ نَتَاجُ عَزْلَةً، وَلَا نَتَاجٌ مَسَافَةٌ بَيْنِ

في برجه العاجي، والواقع، وكأنك تريد أن تقول إنَّ الفيلسوف هو ذلك الرجل القابع
يتأمل الحياة من بعيد.

بل كانت عزلة لِنْبُقَ عند أبي حيان، فهذا الفيلسوف الأديب، لم تكن عزلته مادية واقعية،
داخله، يعبر عن تجاربه نفسية سامية داخل دائرة الواقع، أي أنه كان يتأمل الواقع من
عبارة أدق، كان يمارس التفاسف الحياة، وعن أحواله النفسية كما هي في صيرورتها،
بوصفه تجربة معيشة.

حيان لا اسمحو لي، لا أريد أن أطيل عليكم، لكن، ألا ترون معى أن ما وصلنا عن أبي
تعرفون أحداً ترجم يتعدى بعض مؤلفاته؟ إبني أتساءل، وأسألكم في الوقت ذاته، إن كنتم
له أو أدمج حياته في كتاب أو رواية، أريد أن أعرف منكم؟
برد عبد اللطيف

فقيه — حديثك أستاذى أبا علي مقنع جداً، فقد جعلتنا نحس بأننا تلاميذ في حضرة
إإن جميع ما متمكن، وكما في علمك، فإن الكتابة عنه جاءت بعد أن تلاشت آثاره، لذلك
فلا أحد أكد يقيناً قيل عن حياته متضارب، يقوم على الاستنتاج والترجيح والتخمين،
أم جار عليه حب امرأة، حياته البيولوجية، كأن يكون من أصل عربي أو فارسي، تزوج
 يؤكّد أنه لم يكن يطمح فيبقاء فكره الزواج، إنه نفسه أهل الحديث عن ذاته، مما
آخر على إحساسه بلا جدو الطموح أعماله بعد مماته. وما إحراق كتبه إلا تأكيد
فتدخل عبد القادر مضيفاً

— إن الإحساس بالإحباط يقتل الطموح فعلاً، وقد عرف عن أبي حيان، أنه عاش حياة
الإحباط واليأس والاغتراب.

— حافظ، حافظ، قنية أخرى مع كأس ويسكي مضاعف.

قال شكري، والنقت نحوي:

عصير — بالله عليك، يا أبا علي، شاركتنا يا أخي كأس شراب، إنه لديك في العراق من
أكرر عليك التمر، ولدينا هنا من عصير الكرم، وشنان بين مذاق التمر ومذاق العنبر،
من العامة للمرة الضائعة في العدد، أنتا في جلسة خاصة لا يشاركتنا فيها أحد.

— صمت قليلاً وأضاف

— من تقاليدنا في المغرب، أن لا يردد الضيف هدية مضيفه

لم أعرف كيف باعثي الضحك، ولا كيف حرّكت رأسي رافضاً

فوضع الكأس أمامه، وقال بخيبة فضحتها حجرته

— ما شئتَ لا ما شاءَ شكري.

ظل شكري في ذروة حبوره، إذ أخذ يضرب بشدة على ظهر عبد القادر، مفجراً فرحاً جرعة صبيانية، إلى أن منعه الرجل من مواصلة ضربه، فتناول كأس مدامه، ورشفه في طولية، ثم أعاد قدحه إلى مائته وخطاب صديقه أستسمح أبا علي إن أنا أفشيت سرّاً خطيراً مدهشاً

فصح أفرعنى قوله، هذا رجل أحمق، بعد أن لعبت تعاويد الكؤوس برأسه، سيقدم على سرّي لأصير من جديد موضوع تساؤلات، أنا في غنى عنها، قلت في نفسي لكنه أشار بيده يطمئنني، وقال

حياته، — هناك مخطوط أثري فريد، عبارة عن سيرة ذاتية كتبها أبو حيان التوحيدي قيد على، فإذا عثر عليه مؤخراً في بغداد، وقد شاءت الظروف أن يطلع عليه صديقنا أبو الشاكرين رأى أننا أهل لسماع شذرات من هذا المخطوط، فسنكون له من

ملاً ثلاثة أقداح لصديقه ولنفسه، وصمت ينتظر ردِّي.

أثارت عيونهم جميعاً أسئلة خفية ظلت معلقة تستطلع حقيقة الخبر من كذبه

لم أعرف بماذا ابنتُ، فالرجل بطريقه مواربة يريدى أن أتحدث عن نفسي، وكأنى أبو علي يتحدث عن أبي حيان.

ياله من مأزق، إنَّ حياتي تخصني وحدي، ولا معنى لأنشر تفاصيلها على آذان أناس لا تربطني بهم سوى صلة مجلس شراب عابر

لكن شكري، وكأنه اكتشف ما يموج بداخل رأسي، قال

إنها من الشأن — حياة أبي حيان، ليست ملكاً عيناً موقوفاً عليه، أو على ذويه أو بلده، العام المشاع بين الناس، تراث إنساني مشترك بين جميع الأمم.

كلام جديد، لكنه حق ومنطقي، رفعتُ كأس الماء وألقيتُ به في حلقي، وقلت لهم

— لا وجود لمخطوط أثري عن سيرة أبي حيان، لكنني أعلم عنه أشياء قد لا تعرفونها أنتم.

(16)

واقفاً على رجليه، مرحباً توقفت عن إتمام حديثي، بعد أن فاجأني محمد شكري بانتصاره بغير تارة إلى معددين فارغين، بامرأتين وقفتا على رؤوسنا، وهو في حالة ارتباك، لتشاركانا المائدة، وفي الآن ذاته كان يسرد ويطلبُ منّا تارة أخرى أن نفسح المجال لهما

اسم الآخر، دون أن يذكر وجه قرابتة بالمرأتين أسماء الجميع ليتعرف كل منا دون لعلهما زوجاه أو شقيقته! قلت في نفسي، وأنا أحسر لمعرفة نوع هذه العلاقة، لافتتيهما بعد إرادتي، انقضت في معدني من هول ما شاهدت، وبعد أن أفقد لهما رجلان لا يختلفان عن ثقاب، صب لهما كأسى نبيذ، فتناولتهما، وتجربتهما، وكأنهما أثاره هذا المشهد الرجال في شيء، لكن الأغرب من ذلك، أن لا أحد غيري صوفيا، إنهم جاريتان، قلت عنهم في داخلي، لكن شكري أبلغ السيدة السمراء، وتدعى بأنني أديب وفيلسوف من العراق، وقال لي عنها بالمقابل

— إن السيدة صوفيا روائية باللغة الفرنسية حركت رأسي مبتسمًا، لكنني في الحقيقة لم أفهم شيئاً، إذ لم أقو على مزج امرأة تعاقر الخمر جهراً، برواية للأحاديث الشريفة الذي قلب وبعد برهة زمنية اهتديت إلى التسليم بالأمر الواقع متعللاً بالفارق الزمني أن أرى الشمس تسطع العالم رأساً على عقب، وبعد هذه المسافة الزمنية، لم يعد غريباً من مغيبها، وتغرب من حيث مشرقها

المخلوقين جلست صامتاً مسكوناً بهواجس ظلت تناوشني، فارتآيت أن أسلّي نفسي بهذين الداكنة السمرة المسمة اللذين اقتحاماً مجلسنا في بطن الليل، استرقت النظر إلى المرأة مظهراً أيضاً، فقد قصت شعرها صوفياً، إنها لا تتشبه بالرجال سلوكاً فحسب، بل عادها لم تختلف عن الرجال، فقد العاري، وتربيت بقميص وسرافيل ضيقة، حتى في إلا أنها تمادت في غيها دون أن تعبأ أمرها شكري أن لا تخلط أحاديثها بالفرنسية، نحو "ماريا"، فراقتي أنوثتها، إذ كشفت بأمره، ثم بطرف جفن استرقت نظرات أخرى اعتلتها تنورة قصيرة زاهية بلونها السماوي، بشرتها عن ساقين ناعمتين بيضاوين، أرسلته وراء ظهرها، لو لم أكن متعلقاً "بنهاوند" لتنميتها زوجاً بيضاء وشعرها فاحم، سحر خاص بعينيها العسليتين، جعلني أتحاشى إطالة النظر إليها، فإلى تلك ثانية لي، اللحظة لم أكن أعلم بعد درجة قرابتها من شكري كل شيء كان يطوفني بالدهشة والغرابة وبأسئلة كثيرة طرقت رأسي، فشغلتني دون أن أجد سانحة لاستفسر عنها

تتناقله نفسي كنت أبدو وكأنني أستمع إلى أحاديثهم، لكنني في الحقيقة كنت أستمع إلى ما مجلس واحد معنا، من هواجس، تلك الهواجس المرتبطة بحضور المرأتين الغربيتين في بیننا وبينهما إلا ما تميزتا به فقد كانتا تتحدىان وتعارقان الشراب كالرجال تماماً، لا فرق

من نعومة البشرة.

صارت الجلسة تمنعني نشوة تذكى أحلام يقظتي الموغلة في أعماق التاريخ.

وخطر لي أن أشاركم الحديث، فتوجهت بسؤالى إلى صوفيا

— سيدتي، عمن من الفقهاء تروين الأحاديث؟

حملقت في وجهي مستغربة، وكأني فهت بكلام غامض، فأسرعت أعيد سؤالي بصيغة رأسها مغايرة، وأنا إخال لهجتي قد عاقدتها عن فهمي، والتبس الأمر عليّ حين حركت توجهت إلى يمينا وشمالاً، وأشارت عينيها تأكيداً لعدم فهمها، لكنني لم أتخاذل، بل شكري، أستفسره بتصريح العباره:

— ألم تقل عن السيدة صوفيا إنها راوية، أم تراني خانتي أذناي؟

تأملني برهة، ثم أجابني مبتسماً، وكأنه تدارك الموقف

— كنت أعني روائية لا راوية، و "روائي" كلمة حديثة يقصد بها من يقوم بكتابه نصوص حكاية من نسج الخيال.

ثم فجأة، افتعل نوبة من الضحك، وخطاب مرافقيه

بأسلوبه — مزاح أبي على لا يفهمه إلا خاصة الخاصة من الأدباء العراقيين، فقد أراد روائية، لكنني الماكر إصلاح خطأ وقعت فيه، إذ قلت عن صوفيا راوية عوض أن أقول علي؟ نجحت في الرد عليه بأسلوبه الماكر ذاته، أليس كذلك يا أبا حركت رأسي موافقاً وأنا أحس بهم يتৎفسون الصداء، وأكثرهم صوفيا التي سايرتهم في فهم ما لم تفهمه

أكذوبته لو لا نباهة شكري وشطارته لافتضح أمري، قلت في نفسي، وقد تأكد لدى أن أحاديث عابرة البيضاء قد انطلت عليهم جميعهم، ففكرت في أن لا أشاركم بسوى بسؤالها الذي فاجأته احتراساً من وقوعي في حفرٍ جديدة، لكن السيدة صوفيا أربكتني به:

— كم لغة تتحدث يا مسيو علي؟

فأسرع شكري يشرح لي

— إن كلمة مسيو فرنسيّة، وتعني السيد

إلى أحكمت تسجيل الكلمة الجديدة في ذاكرتي، وأدرت سؤالها في رأسي، وأنا أنظر

أجبتها شكري، عليه يسعفي بجواب يقيني زلة لسان جديدة. وبعد أن طال صمته،

مُلِمْ ببعض — إضافة إلى لغتي العربية، أتحدث الفارسية والسيسانية والكردية. كما أنتي

لغة تتحدثين؟ أسرار اللغة البيزنطية والمسمارية والبابلية، وأنت سيدتي، كم
فتدخل شكري يجيبني

— اللغة الفرنسية هي ورقة توتها الوحيدة، فهي غير متمكنة من صياغة جملة عربية
واحدة بطريقة سليمة.

خلت أن كلام شكري سيغضبها، لو لم تضحك وتقول:
— تلك حقيقة، وأنا سعيدة بها.

شكري، ليستأثر أما عبد اللطيف وعبد القادر، فكلما هم أحدهما بفتح فيه، إلا وأسكنه
من موضوع إلى وحده بالحديث، ومثلاً تنتقل جراة من مكان إلى آخر، ظل ينتقل
آخر، معلنا غبطته بكل فكرة تصدر عنه، وسألني

— أتعرف معنى لاسم صوفيا؟

فعلاً لم أعثر على تفسير له، فقلت:
— لعله اسم مصدره الصوفية!

ضحك وهو يمسّد شعر المرأة، وكأنه سيمتدحها، وقال

— اسم هجين، تذكر لأصله العربي "صفية" ليتشبه باسم لاتيني مسيحي، مثله مثل اسم
ماريا، الذي هو "مريم" في أصله العربي.

(17)

رفع شكري قدحه وأمر الجميع بالصمت، وخطبني

— سوف تصادف نماذج كثيرة من أمثل صوفيا وماريا، رجال ونساء يشترون في
كونهم ضحايا، وإذا عرف السبب بطل العجب

— لم أفهم!

قلت له، فابتسم وتجرأ على تناول سيجارة من صندوق "صوفيا" المختلف عن صندوقه،
و قال لي

— المغرب، هذا البلد الأمين، ظل نصف قرن رازحاً تحت جميع أنواع الاحتلال
إلى أن الفرنسي، لكنه لم يذعن، فتقاومه، بالمفهوم الشامل، بقيت متراصدة ومستقرة،
أعطي استقلاله، وهنا بدأ العجب

وقاطعه عبد اللطيف

— لم أكن أعلم أنك محل سياسي، إن كلمة "أعطيه"، هي الكلمة الحق.

مخضرم، — لست محلاً سياسياً. أنا أُنْقَلُ الواقع، وأعرى الضحية والجلاد، فأنا رجل
ظلّ عشت عقدين ونصفاً في ظل الاحتلال العسكري، وأزيد من أربعة عقود في
الاحتلال الثقافي.

وتدخل عبد القادر قائلاً

— أشاطرك الرأي، فقد خرج العسكري من الباب، وعادت ثقافته من النافذة، أهذا ما
إِنْتَ تَرِيدُ قَوْلَهُ؟ أَمْ لَأُقْدِحَ أَلِيَّاً العَبْرِيَّ!

أبي — لا، لن أُسْقِي أحداً قبل أن أنهي حديثي. ولعلمكم، عفوأً، ولعلم صديقي وضيفي
عمرى، إلا على، أعلن له، بأننى في مسیر حياتي الطويلة العريضة، والتي كلما تقدم
سياسية حزبية، وبدت لي قصيرة، أعلن عدم انتماي في السابق والحاضر لأية هيئة
وليس النكرات وبأني أُمِّقتُ الحزبيين، الشیوخ الكبار البهلوانيين، حروف الجر
النتيجة، أن صوفياً المجرورات، فھؤلاء اغتصبوا طفولتي وسرقوا كھولتي، لتكون
هكذا يبطل العجب أصبحت سعيدة بجهلها تركيب جملة واحدة مفيدة بلغتها الأم،
والآن، سأَمْلأُ أَفْدَاحَكُمْ لشرب نخب مأسينا، لشرب على شرف عظمة حروف الجر،
تلك التي انتصرت على إصابة المجرور بالكسر

رفع الجميع كؤوسهم إلى السماء، فتساءلتُ عن السبيل لجعل هذه الجلسة تقصر أو
تمضي بسلام، فقد فسدت أو كادت، فبسبب الكؤوس التي لعبت برأس شكري، لم أجد
معنى لخطبته، ولا معنى لمجالستي شبانا صغاراً في مقام شراب، ولا معنى لوجود
لا حريم غريب مشاع بيننا، ولا معنى لإرغامي على انتقال شخصية أديب عراقي، بل
البساط أو معنى لأن أظل كل هذا الوقت معلقاً فوق مقعد، وأنـا المعتمد على افتراش
حاكم السجاد أو الأرض العارية، لا أن أسلق الكرسي وكأنـي في حضرة

تملكني ضيق مشوب بحزن وأنا أتحسس نفورى من يحيطون بي، فكان علي أن
أصدقاء فاس، فهم أيضاً مغاربة، لكن الحال معهم كان مختلفاً، كان لبعضهم استحضر
مجالس شراب، إنما تلك كانت قليلة ومحاطة بسرية تامة، تتخللها موسيقى مغربية
مطرزاً خالصة، عربية وأمازيغية ويهودية، كانوا يفترشون سجادةً يسمونه زربية،
وتتوسط الجلسة بألوان زاهية، حيث تفردُ كل شخص منهم وسادة مطرزة ليتكىء عليها
قوارير من قش أو مائدة خشبية ذات أرجل قصيرة يسمونها "طيفوراً"، توضع فوقها
غيرـها من أرحةـنـباتـاتـ مرـشـاتـ فـضـيـةـ يـتطـيـبـونـ بماـ بهاـ منـ رـحـيقـ الـورـدـ أوـ الزـهـرـ، أوـ
ذـاتـ روـائـحـ زـكـيـةـ

واحد يدار لقد علق بذاكرتي من أشربتهم "الصّامت" و "الماحية"، يحتسونهما في قدح عليهم بالتناوب فرداً فرداً، ويسمون القدح القشي "غرّافاً".

هذه، يزداد ما ألل ذلك العادات، وما أدفأها! فمن كثرة انتشاري بها، ونفوري من قعدتنا وببغداد، إلى زمانهم يقيني بانتمائي إلى الماضي، إلى ذلك الجيل من أصدقاء فاس ويحضر هنا، فإني لست وتقافتهم. ولذلك، ولو أنني الرجل نفسه الذي حضر هناك والوجودانية في زمن الشخص ذاته الحاضر هنا. أ يكون الرجل هو حمولته النفسية واحد؟!

أن لعل مرد اشتداد غربتي إلى أنني ابن ذلك الزمان الذي مرت عليه عشرة قرون. ولو إلى نظر الأمر يتعلق بالمكان وحده، لخفت وطأة هذه الغربة، و لتقلّصت حدتها، ولو وإلى خلاني في يُبقي لنفسي بريق أمل، ويشيع فيها حلم عودتي إلى بيتي في الرصافة، بغداد.

لكن، أمام هول ما أنا فيه، فلا أرى لي سوى مخرجين، كلاهما مرّ، تحمل أو جنونٍ: وأعادتنـي السيدة صوفيا إلى صخب الجلسة، بسؤالها الموجه إلينـا جميعـا
— مـارأـيكـ في تـغيـيرـ هـذـاـ المـكـانـ؟
ـ فأـسـرـعـتـ أـجيـبـهاـ

ـ !ـ أـتـمنـىـ تـغـيـيرـ الزـمـانـ، لاـ المـكـانـ وـحـدهـ

ضـحكـواـ جـمـيعـهـمـ متـوهـمـينـ بـأـنـيـ أـمزـحـ، لـكـنـ مـحمدـ شـكـريـ فـطـنـ إـلـىـ قـصـديـ، إـذـ خـاطـبـنـيـ
ـ وـقـدـ بـدـأـ عـلـيـهـ وـهـنـ الشـرابـ منـ خـلـالـ حـنـجـرـتـهـ
ـ بـتـسوـيدـ — الزـمـانـ منـ أـعـدـ قـضـاـيـاـ الإـنـسـانـ وـأـخـطـرـهـاـ، وـقـدـ قـامـ عـلـمـاءـ، أـكـثـرـهـمـ غـرـبـيـوـنـ،
ـ بـالـجـنـونـ وـلـاـ آـلـافـ الصـفـحـاتـ عـنـهـ، لـكـنـ ظـلـ لـدـيـهـمـ بـدـوـنـ عـلـاجـ، إـشـكـالـ مـحـيـرـ، يـُصـيبـ
ـ يـصـابـ، يـَقـهـرـ وـلـاـ يـُقـهـرـ

ـ وـهـمـسـتـ إـلـىـ شـكـريـ وـنـحـنـ نـتـهـيـاـ لـمـغـادـرـةـ المـطـعـمـ

ـ .ـ لـنـ أـقـوىـ عـلـىـ الـذـهـابـ إـلـىـ مـكـانـ آـخـرـ.ـ أـفـضـلـ الـعـودـةـ إـلـىـ إـقـامـتـيـ

ـ .ـ الـمـكـانـ الـآـخـرـ نـادـ لـيـلـيـ، بـهـ مـوـسـيـقـيـ وـغـنـاءـ وـبـنـاتـ لـيـلـ

ـ .ـ لـاـ، لـنـ أـقـوىـ.

ـ .ـ لـكـ مـاـ أـرـدـتـ.

ـ أـيـدـيـهـمـ أـجـابـنـيـ شـكـريـ وـالتـفـتـ إـلـىـ مـرـاقـيـهـ يـخـبـرـهـمـ بـرـغـبـتـيـ فـيـ الـعـودـةـ إـلـىـ فـنـدقـيـ، فـمـدـواـ
ـ وـطـبـعـتـ عـلـىـ لـأـوـدـعـهـمـ وـلـهـاـ وـاحـدـاـ، لـكـنـ صـوـفـيـاـ لـمـ تـكـنـ بـمـصـافـحـتـيـ، بـلـ مـالـتـ نـحـويـ

الملأ وها تضحكان، دون وجهي قبلة، ثم تبعتها ماريا وفعلت الشيء نفسه، فقللتني أمام فمن كثرة ذهولي أحسست باحتقان الدم أن تثيراً أي تساؤل أو تعليق من رفاقنا، أما أنا، في شرائي.

(18)

البيضاء، ظلت المرأتان في طريقنا إلى إقامة السراب، ونحن نمتطي صهوة السيارة لكنه بجوابه المقتضب، وكأنه تشغلاً تفكيري، فطلبت من شكري أن يكشف لي سرهما، أجابني بالحرف الواحد يحتاج على طلبي، زادني غموضاً على غموض، إذ — إنهم مجرد صديقتين لا أكثر

أربكني جوابه حد الفزع، لكنني دون إرادتي، انتزعت منه ضحكاً عالياً، حين تساءلت بصوت مسموع:

— تتصادفان والرجال، دون أي اعتبار للشيطان؟
بوسأته:

— وما الذي يضحك في هذا؟

حاولت أن أرصد ملامحه من خلال ضوء متقطع ترسله أعمدة الإنارة، فاتضح لي أنه يضحك في سره، وخطبني

الهجري، كان — حين أدركه الصباح يا أبا حيان، بعد نومتك الأندلسية في القرن الرابع لم تقم وزنا لما العالم قد خطها إلى الأمام مسافة عشرة قرون، لكنك على ما يبدو، المرأتين هذا السؤال، إنك استغرقته هذه المسافة من تغييرات، وإلا ما كنت لتسألني عن تريد أن يتصرف الناس وفق منطق زمانك، هذا مستحيل

— أنا سألك عن حكاية المرأتين، وليس عن كيف يجب أن يتصرف الناس

جعلتني قلت. ولذت بالصمت. بعد فترة زمنية، استعدبت التفكير في حركة السيارة التي الرجل منشغل أحس بما يشبه هدهة المهد، ولعلني غفت لحظات قبل أن أنتبه إلى أن محفظته عن صندوق بشيء ما بين يديه، وحين أوقف سيجارته عرفت أنه كان يبحث في بعد سيجارة واحدة سوف سجائره، فتذكرت أن التدخين يساعد مزاجه على الروقان. إنه على سجائره الأولى، انفطرت بيوح لي باسرار المرأتين، وصدق حدي، فقبل أن يأتي حنجرته تعلن استعداده للبوج

— لا شك أن سلوك صوفيا وماريا أوقعك في حيرة من أمرك؟

— إنه كذلك.

أسرعت أجيبيه برنة من ينشد سماع المزيد.

فزاد:

— لا بأس، ولو أني سأعرض بإيجاز ما قد يتطلب مني ليلة كاملة من الشروح.

كانت أعمدة الإنارة قد اختفت، فبدا إلى جنبي شبحاً، لكنني من خلال هبوط حاد في نيرات حجرته، أدركت أنه ثملٌ

تشملك، — إن تصرفات صوفيا وماريا في مطعم ريتز، مرتبطة برياح التغيير التي لم واختراعات أكرر للمرة الثانية أن العالم أثناء نومك العميق، شهد حروبًا وثورات الأندلس، وأشياء أخرى واكتشافات، كظهور الطائرة والإنارة وموانع الحمل واحتفاء وقيم جديدة ومفاهيم جديدة كثيرة ومتنوعة، فكان من الطبيعي أن تولد عادات جديدة ورؤى جديدة.

لم أطق صبراً، وهو يكرر برتوب كلمات بعينها، وكأنه يخاطب أبله أو شخصاً ابنته من العصر الحجري، فقاطعته:

— من يجهل تأثير الزمن في سلوك البشر؟ كل الحضارات منذ سومر وبابل والأندلس مخيلة وغيرها، كانت مصادر لعادات وقيم لم تكن موجودة، أو هي كانت موجودة في لكن سؤالي الإنسان، إلى أن دعت الضرورة إليها، فتعرفناها. كل هذا أعرفه وأحقه، مطعم ريتز، وشاركتانا الضيق اقتصر على حكاية المرأتين اللتين قبلتاني أمام الملا في الرجال سواء بسواء، هذا تحديداً مجلس الشراب، وتقول إنهم صديقان لك، وكأنهما ما سألك عنك.

ما إن أتممت قولي، حتى توقفت بنا السيارة في وسط الطريق، فخاطبني شكري الشاطئ — إننا بجانب القصر الأميركي، على مقربة من فندق السراب، وسأرافك عبر إلى إقامتك، وإن اقتضى الحال، أتممت ما تبقى من الليل في ضيافتك.

ترجلنا من السيارة، فطلب شكري من السائق أن ينصرف

كماله، واستقبلتنا رائحة البحر بهواء ينشع العظام، وارتفع في السماء بدر منير في خطواتنا كشف أديم صفحة البحر، ولمعان بياض أمواجه، متّماً كشف ملامحنا وتعثر وسحراً. فوق رمل رحب استدار حولنا، فصرخت بأن البحر أشد مخلوقات الله روعة المنزل الأميركي إلى انحرفنا يميناً فامتدت أعمدة الإنارة خطأً واحداً مسرعاً من حدائق محضررة، فانطلقني شكري من فندق السراب، لكنها بدت أمام شعاع البدر قناديل باهتة

هيامي، وقال لي:

— نظريتك الفائلة إنَّ الاختراعات تمام في ذهن الإنسان، أعجبتني

— أخبرني أولاً بحال المرأتين.

قاطعته في عجلة من أمري، وأمسكت بذراعه أحثه على الابتعاد عن حدائق القصر،

: والاقتراب من الشاطئ، فضحك وأشعل سيجارة أخرى، وقال لي

عن السيدتين — أجل أجل، أعرف أنك مفتون بالبحر، لندن منه إذن، إنما قبل أن أحدثك

مصدرها اقتناعي دعني أصارحك بأن مقدمتي عن التغيير الذي أصاب سلوك البشر كان

مخالطتك للنساء، بجهلك للمرأة، وبصفة خاصة نساء هذا العصر، فقد عرف عنك عدم

السيدة نهاوند، فإن جل وباستثناء ما سمعته منك في المحكمة عن علاقتك بالجارية

ولذلك سقت تلك المقدمة الباحثين في سيرتك أجمعوا على خلو حياتك من المرأة،

قهقهت وهرولت محاولاً الابتعاد عن موجة اكتسحت الشاطئ، فغمرتني لأغوص وسط

الضحك، بركة ماء بارد بلغ ركبتي، وحين التقى إليه، وجذبه مُقوسَ الظهر من شدة

والموجة وقد تراجع إلى الخلف ركضاً في رشاشة نورس حقيقي، واستمر في ضحكه

تنساب بين قدمي، عائدة إلى البحر بعد أن أنهت مهمتها.

— أنت ابن الصحراء، وأنا ابن البحر، وإن كنت عرفت أن تتجو من البلل، عليك

بانزاع حذائك وحمله في يدك. فهو حذاء جميل.

قال وهو يقهقه بصوت مرتفع.

أنا أيضاً غمرتني نشوة فرح طفولي، فأجبته دون أن أكف عن ضحكي

الخلافة — أخر بانتهائي إلى الصحراء، متلماً أخر باني ابن بغداد، أكبر حاضرة في

الفارسية. إلا الإسلامية، لكنني عشت كذلك في مدن ساحلية، في البصرة وفي المحمّرة

شواطئكم. أخبرك بهذا لتضيفه أن أمواج شواطئنا أكثر رقة ونعومة وانسياباً من أمواج

المهمشين، لتوّرّخ أيضاً لحياة إلى معلوماتك الناقصة. لم تقل إنك أرّخت لحياة

هامشياً الهمشين، أو بالأحرى لمن صار في زمانك

نسمّيها — وأنت أيضاً أباً حيان، لتضفي إلى معلوماتك، بأن أسوأ ريح تهبّ على طنجة

الغربي، وهي تسربل "الشرقي"، بينما نسمي الريح التي يحملها إلينا بحر الظلمات

مشاعرنا بالنعومة والانتشار.

بدون أن يتوقف عن ضحكه، أضاف

وجوهنا — نحن معًا معلوماتنا ناقصة، إنك محظوظ يا صاحبي، وهذا النسيم الذي يلحف

إزعاجه لحظة هو ما نسميه "الغربي"، أما ريح "الشرقي"، فإلك لا تقوى على مقاومة واحدة.

(19)

ومشينا دون أن أخلع أشرت له بيدي أن نستأنف مسيرنا بمحاذة الشاطئ، فاستجاب، ورفعت رأسي إلى فندق حذائي المبتل وأمسك به في يدي، وكأني لا أملك سواه، البحر، ولمعت في ذهني قولته السراب أمامي، وقد بدا بأضوائه المرتعشة مارداً يحرس بيدده صخب الموج عن جهلي بالمرأة، فأردفت بصوت عال حتى لا — تعرّفت نساء كثيرات عربيات وفارسيات،ولي فؤاد خفيف وهام وعشق، وذاق طعم طي الغرام وهدة الوجد والبعد، هذا البحر أحضر لي تفاصيل من حياتي كانت في العدم، كنت في حوالي العشرين من عمري، غض الإهاب، حين همت بأول صبية فارسية.

— ياسلام! ماذا كان اسمها؟

سأل شكري، وأرخي أذنيه لسماعي، وفي عجلةٍ من أمري، وكأني أمتحن ذاكرتي في حاجة لأتعرف ما قد تستعيده من تفاصيل تلك الأيام البعيدة المنية، أو لربما كنت إلى البوح، قلت:

— كان اسمها شهربان، ومعناه بالعربية نور القمر

— يا سلام!

صرخ شكري، ورفع نظره صوب القمر، فأسرعت أقول له:

— من أجل ماذا تتمثل بين الحين والآخر بكلمة ياسلام، ماذا تعني بذلك؟

— ألا ترددون هذه الكلمة في العراق؟ إنها تقال في كل البلاد العربية، وتقييد التعبير بالإعجاب أو الإنبهار.

تواعدنا أن — ما علينا، قد تكون الكلمة من التعبير المحدثة. بيت القصيد أنتي وشهربان في الجبل، أو بعد أن نظل على وفائنا إلى أن نتزوج، كنا نلتقي خلسة عند غبش الفجر صارت شهربان دنياي ومناي. يرخي الليل سدوله على المنحدر أو الشاطئ، وبعد أن عكرت صفونا أو خصومة أفسدت ولعلني كنت قد صرت دنیاها ومناها، دون شائبة ليل حالك الظلام، فرحت أبحث عنها هوانا، احتفت مرة واحدة متلماً يختفي القمر في أمرَيْنِ، إما أن السماء رفعتها، وإما أن دون كل ولا ملل، حتى غالب على ظني أحد

أحد الكهول من آيات الله، ضمها إلى حريميه زوجا الأرض ابتلعتها، إلى أن بلغني أن قُم، وأترك لك تخيل ما أصابني من غم، وما لحق بي من رابعة، وهاجر بها إلى مدينة كدر وتعاسة.

— ألم ترتبط بعده شهربان بامرأة أخرى؟

— أبدا لقد صار النحس يلاحقني، ليظل الفشل حليفي، نحن مسiron ياشكري بالله لامخِرُون. فكل شيء مخطط له في لوح محفوظ بمشيئة الله، قبل أن نولد، ثم حقيقي كنت عليك، كيف تسألني إن كنت قد ارتبطت بامرأة أخرى، وأنا أحذّك عن حبّ أكّنه لشهربان؟

— أقصد بعد زواجهما من غيرك. وبعد مرور الزمن، ألم تفكّر في الزواج؟ على — "وما رميته إذ رميتك ولكن الله رمى"، صدق الله العظيم، أذكر أنني كنت أقدم خططتي للزواج مرتين، في المرة الأولى بمدينة شيراز الفارسية نفسها، وكانت قد يلتئم. الحقيقة الأربعين من عمري، كان الجرح الذي تركته شهربان في فؤادي قد أخذ فارسي كنت أعلمها مهنة أتنّي لم أفكّر في امرأة أخرى، لكن الواقعية بدأت على يد صبي شهوان بيتي، كان نجيباً مريداً الوراقة، وأفقهه في علوم اللغة العربية، مقابل توليه النزق، أخبرني ذات يوم أن أرملةً من ودوداً، تلك حكاية أخرى. الشاهد أن هذا الصبي ريعان شبابها، وكرر على مسمعي الخبر مرات، غير أنه توفى عنها بعلها، وتركها في ووصف مفاتنها وخصالها، ورشحها زوجاً لي، مما دون أن يكف عن الثناء عليها، ظننته مُرسلاً من قبلها، فاشترطت مشاهدتها قبل أن جعلني أشك في أمرها وأمره، إذ عليها، وحين استدرجها لزيارة بوصفي عالماً صوفياً، وجدتها مليحةً أفكّر في العقد فاستفسرت عن أصلها وفصليها، وقررت أن أزفها إلى نفسي مستنداً إلى حديث ناعمة، على علم مسبق للله (ص): "اخთروا لِنطِفَكُمْ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ"، ذلك أنني كنت رسول الكارثة بصلاح أشقائهما، ويا ليتني كنت أسرعت بخطبتهما قبل أن تحل.

أخذ شكري نفسها عميقاً. واستوقفني ممسكاً بذراعي، وسألني

— أية كارثة؟ أتزوجها غيرك؟

— ليت غيري تزوجها، فقد حدث ما هو أفعع من ذلك، ترددت على بيتي بضع مرات، من وتواعدنا على الزواج، ولأنني لم أكن أتوافر على ما أرتديه من لباس لائق يرفع وشملة، ثم كوفية مقامي أثناء الخطبة، اشتغلت بحياكة وخياطة تكّة وغلاله وبقيرٍ ابتعت نعلين على مقاسٍ وعمامة في بياض اللّين الحليب، دون أن أهمل قدمي، إذ

بأنها تزورني في خضم اشغالني هذا، قام أحد الوشاة لعنة الله عليه فألبلغ أحد أشقائها أن انقضى عليها خلسة في منزلي، فما كان من هذا الشقيق، صوناً لعرض عائلته، إلا بئر على مشارف كحيوان شرس، وبعد أن سفك دمها، ألقى بجسدها الغض في جوف المدينة.

أمسك شكري رأسه بكلتا يديه، وصرخ

— يا للكارثة. إنها حقاً مأساة! ماذا فعلت بعد ذلك؟

ووثقى من — لم أكن على علم بما حدث، إلا بعد أن زرت والدها، وأنا في أوج تألقي إلا من أقدم نفسي، فقد جلست إلى الرجل معرفاً بشخصي في ارتباك وحبور لا يدركه منزلها كليم الفؤاد، لأجهش على خطبة امرأة خفق قلبها لها، فأرادها حرثاً له. وغادرت بالبكاء، كامرأة ثكلاً أعز من تحب.

— وهل كان لا بد من ارتداء لباس أنيق كي تخطبها، مع أن علمك خير ما ترتديه؟

— إنها الأصول يا شكري، فلباسك يرفعك قبل جلوسك، وعلمك يرفعك بعد جلوسك.

(20)

حرك رأسه استحساناً لجملتي، وقال لي

سنين، ولا — أسايرك الرأي، أنا والله متفق معك، فموضوع الأنقة دوّخني أنا أيضاً منذ برجل أنيق، كان أرى بأساً في إخبارك بأن أقوى ما حفزني على الكتابة، هو إعجابي فضولي لاستفسر عمن محل ترحيب واحترام من لدن زبناء مقهى كان يرتاده، ودفعني كاتباً، ما أخبرك به سبق يكون هذا الرجل، فقيل لي إنه كاتب. فقررت للتو أن أكون تتجزأ، فالأنيق في كتاباته وثقافته، لا وأن أعلنته في أحد كتبني جهراً، ذلك أن الأنقة لا بد أن يكون أنيقاً في سلوكه ولباسه.

وأخذ يضحك بصوت مرتفع وكأن مساً قد أصابه

— ماذا يضحكك يا شكري. أجبني؟

توقف بعد أن ابتعد عن خطوتين، وهو يمسح عينيه من دموع الضحك، فقال لي

— أضحك على ما سببته لي من تعasse، فقد جعلتني أتألم، وحين انتبهت، وجدت أن مائة السيدة توفيت منذ قرون، أكثر من عشرة قرون، حتى لو كنت تزوجتها، أو عاشت وقتنا هذا أمر عام دون زواج، فقد كان عليها أن تكون في العدم. إنَّ الحزن عليها في قصوى تغمرني مضحك، وإذا أردت الحقيقة، فإني أضحك أيضاً من الفرح. من سعادة

— أية سعادة تقصد؟

أعرف لم يجبني، ألقى بين يدي بحقيقةه، وجرى يواجه الأمواج إلى أن ولج البحر. لم إلى الانتحار، بماذا ابتليت، هناك بكل تأكيد غاشيةٌ غشيتها، أو جنٌّ شقٌّ صدره دفعه وتبعته يهدّني الهلع:

— شكري شكري، لا تكن مجنونا، ارجع ارجع!

دون أن يتوقف صرافي، وقف الماء يعلو ركبتي، وداهمنتي موجة تكسرت فوق وأنا صدري، فكادت تلقي بي أرضا لتجرفني إلى داخل البحر، فترجعت إلى اليابسة، أشاهد شبحه يغوص ثم يطفو فوق الماء.

بعد برهة زمنية، وقد أوشك صبري على النفاذ، خرج الرجل المجنون وهو يرتعش من معا البرد. أنا أيضاً كانت ركبتي تصطكان من البرد أو الخوف، أو من هجمتها.

— ماذا بك يا شكري؟ لماذا ولجت البحر؟

لم يكف عن الضحك وهو يخلع سترته وقميصه، فخلعت أنا أيضاً سترتي نصف المبللة ووضعتها على كتفيه لتمنحه بعض الدفء.

— من شدة فرحي دخلت إلى البحر.

— عن أي فرح تتحدث يا هذا؟

في ذروة حبوره وضاحكه، أضاف:

— إنه التفرد بمعرفة أسرار أبي حيان، وعشقياته، وخيباته، ومنزلته الرفيعة في هذه الدنيا.

أزال حذاءه، ورمى به بعيداً في جوف البحر، ثم كوم سترته وقميصه، ولوّح بهما في البحر ذاته. وواصل حديثه متفلساً:

— إن القدر الذي حرمه من الزواج، هو نفسه الذي أبكاك حياً لتعم برغد العيش سيرِدُنَ التّعرف والحياة. القدر سيعوّضك ما فاتك في زمانك ذاك البعيد. كل نساء العالم كالذباب. هل هناك سعادة أكبر إليك، سوف يجتمعن حولك كالنحل ويرتدين على قدميك أن تولد. كان عليك أن تعرفه بمجرد من هذه؟ إن هذا مسطرٌ في اللوح المحفوظ قبل إليه. أنا لا أعرف كيف نتحجج نحن البشر علمك بعودتك إلى الحياة، لكنك لم تتتبه سعادتنا، إنما قل لي، إنك لم تحدثي بعد عن بمبررات لشقائنا، ولا نتحجج بها عن المرأة الثانية!

— أنت رجل أحمق، هيا بنا إلى الفندق قبل أن يزهق البرد أرواحنا.

(21)

همست لشكري:

— إني أحس بانجذاب نحوها، يخيل إلي أنها أصابت مني الفؤاد، ليس بقصائد الشعريّة، إطلاقاً، وإنما بأطرا فها كامرأة.

انحنى على كتفي، وأحاط فاه براحتني يديه، كي لا يسمعه غيري، وأسر في أذني إنها حقاً جميلة، وشاعرة جيدة.

ابتسم وهو يعتدل فوق مقعده بجواري، وتابع انصاته لما تلقى المراة من شعر.

— شاعرة ليست ولابد، لكن أنوثتها صارخة، قلت في نفسي

ظللت الأعناق مشرئبة نحوها، إلى أن توقفت، فاهتز المكان بالتصفيق.

حين رمقت شكري يتسلل وسط الحشد متدفعاً نحوها، وقد علق محفظته على كتفه، في انتبهوا إلى كانت هي تنشر ابتسامتها على من أحاط بها من مریدین، أولئك الذين ما أن مقامه الأثير لديهم قدوم شكري حتى أفسحوا له المجال ليصل إليها، مؤكدين بارتباكم مستطيلة، ذات بقية في مكانه أرعن الوجه والحركات، فدققت النظر في نوافذ كبيرة بصرى إلى جدار، زجاج سماوي، تتدلى على حواشيه ستائر زاهية الألوان، ثم انسحب سقف الرّدهة، زين بصور لمناظر بهية، وآخر طرز بزخارف ونقوش ارتفعت إلى فندلت ثريات ضخمة بمصابيح صغيرة نحيفة، صعب عليّ عدّها.

لا، ليس هذا فندقاً كما قال شكري، بل هو قصرٌ خليفيٌ بحق

رافني أن أكون نكرة وسط هذا الحشد من الناس. فلا أحد تعرفني أو انتبه إلى وجودي منها قصيدة فكرت في القصائد الشعرية التي هزّت القاعة بالتصفيق، تلك التي لم ترقني الشعر، غاب عنها واحدة، ولا صدر ولا عجز. فقد كانت أقرب إلى الترسل منها إلى الإيقاعية، وإلى استقلاله الوزن، وغابت الموسيقى، فافتقر البيت الشعري إلى وحدته التضمين، أو لعل شعراء هذا العصر تخلوا التام، وامتد إلى بيت لاحق، ربما هي تجهل عند الخليل إرادياً عن نظام العروض كما كان.

تذكرت صديقي أبا نصر الجوهرى، ومطارحانتا الفكرية المستفيدة عن مؤلفيه عروض الورقة" و "كتاب الصحاح المعروف"، فلو كان حاضراً واستمع إلى هذه" حل بكتابيه القصائد، لأقام الدنيا ولم يقعدها، كان لا يجامل أحداً في العلم. تُرى ماذا أستفسر عن مصيرهما. فما دام التحتفين، أخذدا بعد وفاته أمْ أتلفا واندثرا؟ لابد لي أن

هو الآخر قد عامله الزمن برفق، فأوصله أثري قد امتد إلى هذا القرن، فلم لا يكون أثره إلى هذا الوقت.

مدت يدي رداً على تحية عبد اللطيف، وقد فاجأني مبتهجاً مخاطباً

— مرحبا بك أبا علي، أما زلت في طنجة يارجل؟

استولى على مقعد شكري بجواري، وجلس واضعاً رجلا فوق رجل، دون أن يكف عن الترحيب بشخصي، وإداء رغبته لجلسة أخرى، كتلك التي ضمتا في مطعم ريتز. ثم "انقل لسؤالي عن مدى إعجابي بقصائد الشاعرة "إخلاص".

قال عنها "إخلاص"، أحكمتُ حفظ اسمها في ذاكرتي، وحركتُ رأسي دون أن انتفَظ بكلمة، فقد كانت تخطو في اتجاهنا

في الآن ذاته حدتُ أن شكري قد حدثها عنِّي، وإنما كانت لتقديمه في خط مستقيم نحوِي.

وقفتُ ومدلت لها يدي، فبادرتني بالقول:

— أعتز بحضورك يا أبا علي، إن العراق موطن الشعر الحق.

ثم التقى نحو شكري، وأنهت ما كانا يتحدثان بشأنه

— وهو كذلك، بعد ساعتين من الآن.

أن سارت بنا السيارة عبر الطريق الشاطئي، كان البحر المتوسط عن يميننا، توقيت المدينة، تكون الشمس في هذه اللحظات قد جنحت إلى الغروب في الطرف الآخر من ثوابتَ حيث بحر الظلمات، تشرق من بحر وتغرب في بحر آخر، أسعدني تعرفي قاله عبد طنجة، وانعرجت بنا السيارة لتنوغل في بطن المدينة. أكد لي شكري ما أمامنا ساعتين اللطيف من أتنا سنتعشى رفة إخلاص بمطعم ريتز، وأخبرني بأن كاملتين للفسحة.

بانهزم كانت العتمة في بداية إطاراتها الأولى، فسطعت أنوار الطرق والمتجار معجلة على قارعة الطريق. النهار. بشر مثل تجمعات نمل فَرَّ من تُقبِ الأرض، وانتشر يدبُ رجال ونسوة وفتیان وصبايا يتسلكون في أمن وسلام.

أخبرت شكري بأن حركة الرجال في العراق تتوقف عند صلاة المغرب، وقد تمتد في بيوتهم إلى وقت صلاة العشاء.

ثم سألته:

— أتوجد في عراق اليوم كهرباء، مثل هذه الموجودة في طنجة؟

وحين عاد لضحكه الساخرة، توقعت للتو ما سيقوله.

— يكاد العالم اليوم يبدو كله متشابها

اليوم أسعدني جوابه، سرحت أتخيل ليالي بغداد، تلك الموغلة في الماضي، وحالها ربما فوق مأنوسية بأضواء تسْطُع من نوافذ الدور ودكاكين التجار، وتلك المبثوثة صفحات حواشي الطريق، أو أركان الحرارات. فكرت في زخم ما سوَّدْته يدي من لو كان بيضاء، مسترشداً بضوء شمعة بعد شمعة، أو بقديل هزيل يكاد يضيء نفسه بغداد اليوم مثل طنجة لي مثل إنارة اليوم، لكنـت قد أَلْفـت أضعافـاً ما أَلْفـت من كتب. إنـ المتراءكة في كل مكان، إذن، تمرق بها سيارات، وتضيئها كهرباء، ولعل الأتربة بعد أن عَبَّدت الطرق وأضيئت، وعواصف الغبار المنتشرة كالضباب، اختفت كلـها اليوم الشوارع سافرة الوجه، عارية الرأس، وتخلـلت المرأة عن الخمار والبرقع، وغدت تجوب كحال شقيقـتها في طنجة.

إلى عالم إذا كان الحال كذلك، فلا داعي لأن أعد نفسي منزوعاً من عالم ومقذوفاً بي العراق، يتعاملون آخر. الآن فقط أتأكد من أن المغاربة حين يتعرفونـي أديباً وافداً من زمانـ معـي كـرـجـلـ اـنـتـقـلـ منـ مـكـانـ إـلـىـ مـكـانـ، وليسـ منـ زـمـانـ إـلـىـ حينـ نـطـقـ شـكـريـ جـملـتـهـ، اـنـقـضـتـ فـيـ مـقـدـيـ وـأـنـ أـحـسـبـهـ قـدـ قـرـأـ مـاـ يـمـوجـ فـيـ خـاطـرـيـ، إذـ قـالـ لـيـ:

— القـادـمـ منـ الزـمـانـ لـيـسـ كـالـقـادـمـ منـ المـكـانـ، شـتـانـ مـاـ بـيـنـهـمـاـ مـنـ بـوـنـ.

بعد ذلك انتبهت إلى أنه التقط جملتي حين جهر بها لسانـي دون إرادـتي، وأضاف تـافـهـ — كلـ مـخـلـوقـاتـ اللهـ تـسـافـرـ فـيـ المـكـانـ، منـ سـلـعـ وـبـضـائـعـ وـأـجـسـادـ آـدـمـيـةـ. إنهـ سـفـرـ إـحـسـاسـكـ سـاذـجـ، فالـسـفـرـ فـيـ الزـمـانـ هوـ الإـشـكـالـ الحـقـ المـحـيرـ، حـبـذاـ لوـ كـشـفـتـ لـيـ عـنـ الحقـ بـهـذاـ الـاـنـتـقـالـ.

أجبـهـ وـكـأـنـيـ أـحـدـثـ نـفـسـيـ

— الزـمـانـ المـتـعـدـ شـرـ مـتـعـدـ

فـأـسـرـعـ يـقـولـ فـيـ عـجلـةـ مـنـ أـمـرـهـ

— أـرجـوكـ أـبـاـ حـيـانـ، لاـ تـعـدـ قـوـلـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ، إـنـيـ أـخـشـيـ عـلـيـكـ مـنـ نـفـسـكـ

اعتل في مقعده وأشعل سيجارته، وأضاف

— لكي يكون الرجل سوياً، عليه أن يتقبل واقعه، بعوانه وتقلباته، إن خيراً فمرحبا، وإن شرّاً فمرحبا أيضاً.

— قول جميل، لكنه يظل قوله على كل حال

— إنه عصارة تجربة قاسية، ففي شبابي الأول، تعرضت لهزة نفسية بسبب رفضي لواقعي، وكانت النتيجة أنني عثرت على نفسي مطحوباً فوق أحد أسرة مستشفى للأمراض العقلية في قرية مهجورة.

— تقول في شبابك الأول، ألك شباب ثان؟

أجابني بغضب حاد

ولأجب — دعني يا أخي أنهي حديثي، لا تقاطعني، إنك لا تدري إلى أين أريد الوصول، الثاني، والشيخوخة أولاً عن سؤالك المقدم في حديثي، بأنني أسمى الكهولة بالشباب اعتراف؟ بالشباب الثالث، إن لي مسمياتي الخاصة بي، فهل لديك صحتك وأنا أتظاهر بالإلصاغة إليه، فأضاف

— مكثت بالمستشفى زهاء عامين، ولعلني اهتديت إلى علاج نفسي بنفسي، إذ صرت سردية، أراوغ واقعي، أو هم نفسي بتقبليه، أخلق عوالم خاصة بي، وأسكبها في متون احتجاج وبعبارة أدق، صارت الكتابة ملجئي ودوائي، بعد ذلك تحولت لدى إلى

وكأنه استدرك فكرة كادت تتضيع، فأضاف

نفسك، ليس هذا مهماً، ذلك أن ما كنت أهدف إليه، حين قلت لك بأنني أخشى عليك من لكنني هو أن أخبرك بقصة أهل الكهف، وهي قصة لم تشغلي حين قرأتها لأول مرة، بعد تلك الليلة في شاطئ المحيط عادت تطرق رأسي وتستد بتفكيري

— وهل لي علاقة بهذه القصة؟

أجل، لك علاقة بها، بل إنك أحد أبطالها الحقيقيين

كان يتحدث بثقة وصدق بالغين، مما ولد في نفسي فزعاً لم أقو على إخفائه
بوسالته

— كيف ذلك؟

حكائي — القصة استوحها صاحبها من آية قرآنية لا أحفظها، لكنه صاغها في قالب الكهوف شيق، وملخصها أن أربعة أشخاص وخامسهم كلبهم، لبثوا نیاماً في أحد العالم قد تغير عمّا المهجورة، مدة ثلاثة أيام أو أكثر، وحين استعادوا حياتهم، وجدوا

استقبلوا بها كقديسين، فإن صدمة كان عليه في زمانهم، وبالرغم من الحفاوة البالغة التي فرجعوا إلى الكهف، وقضوا به الزمان الجديد، كانت أقوى على نفوسهم،

الانتقال إن الآية القرآنية لا تتحدث عن وفاتهم، لكن الكاتب، ليكشف عن رؤيته لإشكال يفضلون الموت على في الزمان، وليمنح حكايته بعدها مأسوياً، جعل الرجال الأربع العيش في زمان غير زمانهم.

في سكت ينتظر رد فعله، لكنني لم أجبه، فقد سرحت أستحضر الآية القرآنية بكلمها ذهني، وأنا في أقصى وله من يُنتزع منه اهتمامه ودهشته، ثم أضاف والرأي، بل — تلك وجهة نظر كاتب الرواية، وذاك رأيه، أما أنا فأخاله وجهة النظر لأيام أعيشها في زمان إِنْتَي مستعد أن أتنازل عما تبقى من شبابي الثاني والثالث ثماناً أفتح عيني أجد نفسي في صحوة لاحق، أنام ملءً جفوني عن شوارد هذه الحياة، وحين لأصحاب الكهف، مارنوش عصر آخر، متلماً حدث لك يا أبا حيـان، ومثلما وقع الرواية تسميتهم، متلماً ارتـأـيـ أنـ وـمشـيلـينـيـاـ وـيمـيلـيـخـاـ وـالـكـلـبـ قـطـمـيرـ. هـكـذـاـ اـرـتـأـيـ صـاحـبـ العـيـشـ فـيـ زـمـانـ وـلـىـ بـعـدـ أـنـ تـعـرـفـتـ يـرـفـضـوـاـ العـيـشـ فـيـ غـيـرـ زـمـانـهـمـ. أـجـلـ، قـدـ أـرـفـضـ ستـكـونـ عـلـيـهـ الدـنـيـاـ وـلـوـ بـعـدـ قـرـنـ وـاحـدـ، فـذـلـكـ مـسـتـجـدـاتـ هـذـاـ عـصـرـ، لـكـنـ، أـنـ أـرـىـ ماـ وـلـعـلـكـ تـقـرـ بـأـنـ لـكـ مـنـاـ تـمـنـيـاتـهـ المـسـتـحـيـلـةـ، أـوـ لـنـقـلـ أـحـلـامـ يـقـظـتـهـ. أـحـدـ تـمـنـيـاتـيـ المـسـتـحـيـلـةـ، بـمـقـابـلـةـ "ـنـهـاـونـدـ"ـ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ـ إـنـكـ تـحـلـمـ بـكـلـ تـأـكـيدـ!

أجبته، فضحك، وأضاف بين الساخر والواثق مما يقول:

— إنها أمنياتك المستحيلة.

إنها خفتُ أن يسخر مني لو صارحـهـ بـأـنـيـ أـعـيـشـ لـأـقـابـلـهـ، فـلـذـتـ بـالـصـمـتـ، لـكـنـ قـولـهـ، كـأـحـدـ رـجـالـ أـهـلـ أـمـنـيـاتـكـ المـسـتـحـيـلـةـ، أـرـبـكـ مـخـيـ، حـدـ أـنـيـ تـمـنـيـتـ لـوـ كـنـتـ مـخـلـوقـاـ وـهـمـيـاـ فـتـأـكـدـ لـيـ حـقـيـقـةـ الـكـهـفـ الـذـيـ حـدـثـيـ عـنـهـ، وـاسـتـحـضـرـتـ الآـيـةـ القرـآنـيـةـ مـرـةـ أـخـرىـ، سـيـقـولـونـ ثـلـاثـةـ رـابـعـهـمـ كـلـبـهـمـ، "ـوـجـودـهـمـ، لـكـنـ الآـيـةـ لـمـ تـحدـدـ عـدـدـهـمـ وـلـمـ تـشـرـ إـلـىـ هـلـاكـهـمـ، وـيـقـولـونـ سـبـعـةـ وـثـامـنـهـمـ كـلـبـهـمـ، قـلـ رـبـيـ أـعـلـمـ وـيـقـولـونـ خـمـسـةـ سـادـسـهـمـ كـلـبـهـمـ رـجـمـاـ بـالـغـيـبـ، صـدـقـ اللـهـ الـعـظـيمـ .ـ بـعـدـتـهـمـ مـاـ يـعـلـمـهـ إـلـاـ قـلـيلـ.

لمـعـضـلـةـ أـنـ أـرـاحـتـ الآـيـةـ نـفـسـيـ، فـشـتـّـانـ مـاـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ شـطـحـاتـ كـاتـبـ الـرـوـاـيـةـ، حـقاـ، إـنـهاـ لـيـسـ بـهـ أـحـبـاءـ يـجـدـ المـرـءـ نـفـسـهـ وـبـدـونـ سـابـقـ إـنـذـارـ، فـيـ عـالـمـ لـمـ يـتـوـقـعـهـ وـلـمـ يـأـلـفـهـ، أـحـيـانـاـ، لـكـنـ الـحـنـينـ نـفـسـهـ وـلـاخـلـانـ وـلـأـعـدـاءـ.ـ فـحـتـىـ الـأـعـدـاءـ قـدـ يـحـنـ الغـرـيبـ إـلـيـهـمـ

البعيد، فيحل اليأس بدلـه، وأـي حـنين يتلاشـي أمام الـهـوة الزـمنـية التي تـفصلـنـا عن مـاضـينـا
يتـبـقـى بعد موـتـ الأـمـلـ؟

حـقـيقـة قد يـحـسـبـ المرـءـ باـسـتـحـضـارـهـ مـخـلـوقـاتـ تـفـصلـهـ عـنـهـ قـرـونـ،ـ أـنـهـ يـحنـ إـلـيـهاـ،ـ لـكـنـ فـيـ
تـذـكـرـتـ "ـنـهـاـوـنـدـ"ـ الـأـمـرـ لاـ يـحنـ إـلـاـ إـلـيـ نـفـسـهـ مـنـ خـلـالـهـ،ـ هـذـهـ تـجـربـةـ شـخـصـيـةـ أـعـيـشـهـاـ،ـ ثـمـ
الـبـعـيدـ الـذـيـ تـفـصلـنـيـ عـنـهـ فـسـرـتـ فـيـ بـدـنـيـ رـعـشـةـ حـنـينـ إـلـيـهاـ،ـ مـعـ أـنـهـ اـبـنـهـ ذـلـكـ الزـمـانـ
عـنـ ذـاتـيـ؟ـ قـرـونـ.ـ وـلـكـنـ،ـ هـلـ سـأـحـنـ إـلـيـهاـ إـنـ أـنـاـ فـكـرـتـ فـيـهـاـ بـمـعـزـلـ

خـفـتـ أـنـ يـقـطـعـ شـكـرـيـ حـبـلـ تـفـكـيرـيـ،ـ فـتـظـاهـرـتـ بـمـشـاهـدـةـ مـعـالـمـ الـمـدـيـنـةـ مـنـ خـلـالـ نـافـذـةـ
ذـهـنـيـ.ـ السـيـارـةـ وـهـيـ تـسـيرـ بـبـطـءـ،ـ لـكـنـيـ لـمـ أـشـاهـدـ شـيـئـاـ،ـ فـقـدـ بـقـيـتـ مـكـتـفـيـاـ بـمـاـ يـسـتـحـضـرـهـ
خـيـطـ مـاـ تـبـقـىـ لـيـ فـكـرـتـ فـيـ حـنـينـ إـلـىـ "ـنـهـاـوـنـدـ"ـ،ـ أـهـوـ حـنـينـ صـادـقـ حـقـيقـيـ،ـ أـمـ إـنـ مـرـدـهـ
الـعـرـاقـ بـاـقـ،ـ وـشـيـرـازـ وـفـاسـ،ـ مـنـ أـمـلـ فـيـ لـقـيـاـهـ؟ـ ذـلـكـ أـنـهـ بـاـقـيـةـ فـيـ مـكـانـ مـاـ،ـ مـثـلـ مـاـ هـوـ
يـوـجـدـ فـيـ الزـمـانـ فـلـعـلـ السـبـبـ أـنـ مـاـ يـوـجـدـ فـيـ المـكـانـ أـبـقـيـ وـأـرـسـخـ مـاـ

الـزـمـانـ إـذـنـ هـوـ الـمـعـضـلـةـ،ـ لـكـنـ لـيـ إـلـىـ حـدـ تـفـضـيلـ الـمـوـتـ عـلـىـ الـحـيـاـةـ،ـ كـمـ جـاءـ فـيـ
الـجـنـةـ إـلـىـ زـمـنـ روـاـيـةـ أـهـلـ الـكـهـفـ الـمـتـخـيـلـةـ،ـ وـإـلـاـ،ـ لـكـانـ آـدـمـ قـدـ اـنـتـحـرـ حـيـنـ اـنـتـقـلـ مـنـ زـمـنـ
فـهـلـ اـنـتـقـالـيـ مـنـ الـأـرـضـ،ـ وـلـكـانـ الشـيـطـانـ قـدـ حـذـوـهـ.ـ وـلـأـظـلـ فـيـ تـجـربـتـيـ الشـخـصـيـةـ،ـ
زـمـنـ إـلـىـ زـمـانـ سـيـجـعـلـنـيـ أـفـضـلـ الـمـوـتـ؟ـ

كـانـ عـلـىـ شـكـرـيـ أـنـ يـعـيـدـنـيـ إـلـىـ وـاقـعـيـ الـعـيـنـيـ
ـ أـلـاـ تـرـيدـ النـزـولـ،ـ فـقـدـ وـصـلـنـاـ؟ـ

لـمـ أـعـرـفـ كـيـفـ تـوـقـفـتـ السـيـارـةـ،ـ تـرـجـلتـ مـنـهـاـ وـأـحـاـوـلـ أـنـ أـبـدـوـ ثـابـتـاـ مـحـافـطـاـ عـلـىـ
هـمـتـيـ وـأـتـرـانـيـ،ـ فـأـنـاـ عـالـمـ مـنـطـقـيـ.

كـانـ اللـيـلـ مـسـجـيـ يـفـوحـ فـيـهـ نـسـيمـ بـحـرـيـ عـلـيـلـ.ـ بـادـرـتـ شـكـرـيـ
ـ يـسـكـنـيـ صـفـاءـ ذـهـنـيـ خـارـقـ،ـ إـنـيـ لـقـادـرـ فـيـ هـذـهـ اللـحـظـةـ أـنـ أـكـتـبـ مـؤـلـفـاـ كـامـلـاـ
وـلـوـجـ ـ لـتـكـتبـهـ بـعـدـ أـنـ تـعـودـ إـلـىـ إـقـامـتـاـكـ،ـ أـمـ الـآنـ فـدـعـنـيـ أـخـبـرـكـ بـأـنـنـاـ مـقـبـلـوـنـ عـلـىـ
تـدـيرـهـ وـارـثـتـهـ "ـبـارـادـ"ـ،ـ أـجـمـلـ مـطـعـمـ وـأـرـوـعـ حـانـ فـيـ طـنـجـةـ،ـ إـنـ لـمـ أـقـلـ فـيـ الـمـغـرـبـ كـلـهـ،ـ
زـمـرـةـ أـصـدـقـائـهـاـ نـدـعـوـهـاـ "ـلـيلـيـانـ"ـ،ـ سـيـدـةـ أـمـرـيـكـيـةـ مـؤـهـلـةـ لـتـكـونـ بـطـلـةـ لـرـوـاـيـةـ بـاـذـخـةـ،ـ نـحـنـ
ـلـيلـيـ"ـ تـصـغـيـرـاـ وـتـجـمـلـاـ.

وـيـفـرـشـهـاـ دـفـعـ الـبـابـ بـيـدـهـ وـفـسـحـ لـيـ الـمـجـالـ لـأـقـدـمـهـ.ـ فـوـجـئـتـ بـحـدـيـقـةـ تـظـلـلـهـاـ أـشـجـارـ باـسـقةـ،ـ
وـعـلـىـ الـيـسـارـ بـعـدـ سـجـّادـ مـنـ عـشـبـ أـخـضـرـ،ـ وـمـوـاـئـدـ بـشـرـجـ قـصـيـرـةـ تـضـيـءـ نـفـسـهـاـ لـاـ أـكـثـرـ،ـ
بـأـلـوـانـ قـوـسـ قـرـحـ،ـ دـعـانـيـ صـعـودـ دـرـجـيـنـ،ـ رـُصـّـتـ مـوـاـئـدـ أـخـرـىـ،ـ وـطـوـارـ وـأـضـواـءـ تـتـلـأـلـأـ

مقدماً للجلوس، بدون متوكلاً إلى حيث الطوار الخشبي الناعم، وطلب مني أن أعتلي الظهر، وتسلق آخر مثلث.

أصابعها جاءت "ليلي" مبتسمة ضاحكة، مدّت لي يدها فصافحتها، أما هو، فانحنى على لا أعرفه يقبلها بلطف مبالغ فيه، وكأنه ولد مطيع، ودخل معها في حوار بلغط وبعد أن انسحبت قال لي:

رشاقتها — ليلي جاوزت العقد السادس، لكنها تبدو في شبابها الثاني، تحافظ على خليلة لثري أمريكي، بالحركة وعزف البيانو ودرء كل ما قد يربك مزاجها. بدأت حياتها الحياة، فورثت عنه هذا فانتهت علاقتها غير الشرعية بعلاقة شرعية، تزوجها وفارق البقاء في طنجة المطعم وعقارات وأموالاً في أمريكا، لكنها فضلت

بۇنادى عىلەيە يطلب شىئا، فجاعتە بكتاب ئىنىق، تناولە و قال لى

لفنانين، — إنه دفتر ضخم للذكرى أعدته "ليلي" لزوارها الكبار، توجد به رسومات مرّوا بهذا المطعم، وكلمات لسينمائيين وكتابٍ وشخصيات من العيار الثقيل، جميعهم لماذا لا تخطّ به أنت كذلك كلمات، وتوقعها باسمك الحقيقى؟

— ومَاذَا عَسَانِي أَكْتُب؟

أخذ يضحك حتى كاد أن يسقط أرضاً، وطلب كأساً إضافية لنفسه، وقال دون أن يكف عن الضحك:

— أكتب يا أخي آية الكرسي

— ولماذا آية الكرسي؟

أجابني وهو يواصل ضحكته

— حتى تحجبها الآية من كل سوء.

عرفت أنه يمزح، فضحك بدوره، وقلت

— بما أنها ليست مسلمة، فسادع أمر الكتابة لفقيه نصراني، أو لمحمد إن كانت ملحدة وضحكتنا معًا.

أقرُّ بأنِّي أُعجبت بتأقائيَّةِ شكري، فهو يرفع الكلفة من أول لقاء، ويُقْحِمُ الْهَزْلَ في وقته المناسب متى أحس برتاب الكلام الجاد.

٦٣٧ - **بِوَقْبَلِ أَنْ يَطُولَ صَمْتًا، قَالَ لِي**

— لم أزر "ليلي" منذ أسبوع كامل، وقد اعتدت أن أمر بها آخر الليل لأنماول آخر كأس،
أسميه عكار الطريق.

(23)

إلى مطعم ريتز، أخبرني شكري ونحن نهم بمعادرة مطعم باراد، بأننا سندذهب مشياً وإنما إدخال نفسي أسير حيث الأصدقاء في انتظارنا، هلت لهذا الخبر بفرح طفولي، يطل، فما إن انحدرنا في الهويني مكتشفاً أزقة وحواري مدينة طنجة. لكن فرحي لم نصير، حتى وجدنا مطعم شارع ولی العهد، ثم عرجنا يساراً على شارع موسى بن ريتز عن يميننا بالمرصاد.

قبل أن ندخل المطعم، همس لي شكري

— لا تلتفت خلفك، فحراسك على خطوات منا

— هم يعلمون إذن بمعاقرتك الخمر، وقد يبلغون عنك

سألته، فدعاني إلى الدخول، وقال لي بصوت خفيض

— لا تكترث لذلك، فلن يجرؤ أحد منهم على حشر أنفه فيما لا يعنيه

لكن مزاجي تعكر

كانت الجماعة جالسة حول مائدة عن يسار مدخل المطعم، في الركن الخاص بشكري، بداخلي إخلاص وعبد اللطيف ورجلان لا أعرفهما، حاولت أن أدرأ عنى الغم، فردتْ قول امرئ القيس: اليوم حمرٌ وغداً أمرٌ

ودعاني إلى أسرع القيم على المطعم الشاب حافظ، يسعفنا بمائدة، فيما جرّ شكري مقعداً لتصبحاً واحدة الجلوس، وجاء باخر لنفسه قبل أن ينهي حافظ ترتيب المائتين،

ملأ شكري أقداحاً مستثنياً كأسياً وكأس إخلاص وكأس عبد الإله، وعرفت أن الرجل أصغر الآخر اسمه حسن، دقيق الملامح، أبيض البشرة، نحيف، مستقيم الأنف، بدأ أعمارنا الحاضرين سناً، لكن عبد الإله هو الآخر أقرب إلى عمر حسن منه إلى

سألني عبد اللطيف عن أحوال الحرب في العراق، فتصدى له شكري معلناً رفض سماع أخبار الحرب.

تروي كانت إخلاص تجلس قبالي، أسعدني وجودها بيننا، كيف لا، وإنما الظمآن لأنثى بل تعمدتْ عجاف سنواتي الهازبة مني، لكن همتني وحيائي جعلاني أتحاشى النظر إليها، تحقيق رغباتي الدفينة، أن لا أجعل نظراتنا تتقابل، إنما رويداً رويداً، صرت أجرؤ على السلطة، وإنما بوقار العلماء وذلك بالتنعم فيها، ليس بواقحة حاشية الخلفاء ورجال أو سانحة محمودة، هكذا كنت، أختزل وعفّتهم حين يسترقون النظر كلما وجدوا غفلة،

له في مخيلتي ما تصبو إليه نفسي في نظرة عابرة، ما يقع عليه بصري، فأفرد فيها المرأة شابة، ذات بياض ناصع، يميل إلى شقرة في لون سماء الغروب، كل شيء تنطق به، تتنقى يشدق إليها، ما ظهر بدواخلها وما خفي، فهي تتجمل في القليل مما وإنما تنظم نثراً فنياً كلماتها وتصوغها في تعابير مستحدثة جميلة، وكأنها لا تتحدث، بدت بهمتها وكبرياتها وأنفها القصير أميرة بيزنطية بحق.

كيف السبيل لأن أضمها إلى متاعي زوجاً على سنة المصطفى، لكن من أين لي بعلاً لها؟ بمهرها؟ أي قبل معالي وزير العدل بأداء قيمة الصداق؟ وقبل ذلك، أتقبلني أزلتها، وشكرتُ فكرت في شخصي، وفي عمامتي التي تخليت عنها، وفي لحيتي التي شبابي الثاني، كما لهؤلاء المغاربة بدعهم، بفضلهم انقص عمرى ضعفه، لأصير في يقول شكري!

غابت عني مواضيع أحاديثهم، لكن بعد أن أخرج عبد الإله من محفظته ورقة وأخذ يقرأ مابها، ركزْتُ انتباهي لسماعه

سَمَاوِيٌّ / يُرَطِّبُ / صَرْخَتِي أَنَا الْمَصْنُوعُ / مِنْ تَبْغِي الرَّحِيقِ / وَقَهْوَتِي الْمُرَّةُ / وَمِنْ مَاءِ نَفْسَهَا / الشَّهْرَةُ الْحُرَّةُ / وَلَا أَحْتَاجُ مَقْبَرَةً / تُسَمِّي

ما إن توقف، حتى ارتفعت حناجرهم إعجاباً، وكأن ما استمعوا له يعد شعراً خالصاً استرققت أذني حديث عبد اللطيف حين سأله إن كانت القصيدة لإخلاص، فأخبره بأنها لشاعر مشرقي لا يقل سموقاً عن إخلاص.

شرق يقولون عن هذا الكلام إنه سموقٌ شعريٌّ، وينسبونه إلى المشرق، هل هناك سيطوله التغيير عربيٌ آخر لا أعرفه؟! ركبتي الحيرة، فما كنت أظن أن ديوان العرب والتبؤ والتأمل وكشف هو أيضاً، فيقع التخلّي عن خاصية الشعر الرائعة، وعن الحكم العروض، ووجدت نفسي أسأل عبد أسرار الحياة، وعن مراعاة الوزن والقافية وقواعد الإله:

— هل ما قرأتُه يصنف ضمن الشعر العربي؟

استقبل سؤالي بامتعاض، وكأني ألمته حنظلاً، ثم نظر إلى عبد اللطيف وإلى إخلاص، نظرة من يستشهد بأحدهما، وأجابني بكل ثقة

— إن ما أنشدته يُعدُّ من أجود الشعر العربي!

إن الانسحاب من مجلسهم أخف على نفسي من سماع هذه الترهات، فقد صدمني جوابه بالصبر في الوهلة ذاتها، انتهت إلى شكري الذي أشار على بالصبر، من أين لي

حاصرني، إذ وكلامهم مطرقة تدق رأسي. فكرت في أن أدلّي بوجهة نظري، لكن الشك فيبدو حديثي في خفت أن يكون عامل الزمن قد وَجَّهَ الشعرَ وجهة أخرى تغيب عنِي، على الصبر، فقررت نظرهم على قدر كبير من السخف. لكن بالرغم من ذلك، لم أقو عليه الشعر في زمانهم، مجابهتهم باحتراس، كأنَّ استدرجهم إلى أن أقف على ما أمسى بوجهت سؤالي إلى عبد اللطيف

— هل تذكرني بما طرأ على الشعر العربي حتى أصبح على ما هو عليه في وقتنا هذا؟

جميعاً، إذ كنت أظن أن عبد اللطيف وحده استمع إلى سؤالي، فتبين لي أن الأمر يعنיהם لأنّوا بالصمت، وظلوا في حالة ترقب لما سيجيب به الرجل

مصطلح الشعر — أنت تعلم يا أبا علي بأن إخواننا في العراق، كانوا سباقين إلى إطلاق والقافية. وقد وُفقوا الحر، أي تحرر الشعر من القيود القديمة كنظام الشطرين والوزن الواقع، ومن غير المعقول أن يظل في هذه الريادة، ذلك أن للشعر قيمة علياً ترتفع عن تحول. إن كل تجربة إنسانية، بما تحمله حبّس ستة عشر بحراً، مكرراً نفسه، دون أي من بحور الشعر، لذلك كان عليه أن ينفتح على من آمال ومعاناة وألام، تمثل بحراً جميع بحور الحياة.

رشف من كأسه وأضاف

فثمة الشعر. فلماذا — إن الشاعرية موجودة حتى في النثر، فأينما وُجد الإيقاع في الكتابة ترى معي أنها مرهقة، تجعل الشاعر نقده بالبحور! ولنأخذ على سبيل المثال القافية. إلا والانفعال وغيرهما؟ يضيع في البحث عنها على حساب المعنى ليتهم هو يتحدث وأنا ألعن في سرّيبني قومي العراقيين، مبدعي مصطلح الشعر الحر، الاجتماعية، وتركوا كانوا قد سخروا طاقاتهم لمحاربة الطغيان والاستبداد والفوارق الشعر لشأنه.

الشعر الحق، وتذكرت ما قالته إخلاص في أول لقاء بها هذا العشي، منْ أن العراق بلد أسألها فأي شعر حق كانت تقصد، القديم أم هذا الحر؟ ووجدت نفسي

— سيدتي إخلاص، أتفقين مع ما ذهب إليه عبد اللطيف؟

رسمت على محياتها ابتسامة خجل، وصمتت للحظة كأنها تدعو الحضور لسماعها، أو لعلها كانت ترتّب أفكارها، وقالت

والإنجاح، — تلك حقيقة، فمثلاً تحررت المرأة من وظائفها القديمة، كخدمة الرجل

والقافية، فقد تخلّى كذلك تحرر الشعر الحديث من وظائفه القديمة، ومن العمود والوزن فاقترب بذلك من الشعر العالمي، الشاعر المعاصر عن العمامة والعقال وركوب الفرس، السيارة والطائرة. لقد أصبح يكتشف الأفاق، وصار يرتدي البذلة وربطة العنق، ويركب ذلك أن الحضارة المدنية الصناعية حلّت محله. ولم يعد مجرد معبر، وإنما خالقُ الحضارة الزراعية الـرتيبة.

كنت أحس بكل كلمة تصدر عنها خنجرًا يُغرس في صدري. فلو كانت تعاقر الخمر يصدر عنه، لحسبت كلامها هذياناً، لكنها وهي تتحدث بثبات الرجل الفحل، المقدّر لما في الأدب، كعهدي به جعلتني أرتاب في الأمر، ربما لم يعد الشعر يحتلُّ مكان الصدارة طيلة التاريخ، إلى في زمانِي، قلت في نفسي. وتذكرت كيف أن الأدب ظل منظوماً الأدب، لكن ذلك حدث منذ اثنين نهائين القرن الثاني، ليستقل الشعر بنفسه معتلياً صدارته أعلن عنه بشار بن برد وأبو نواس عشر قرناً. ثم تذكرت مصطلح الشعر المحدث الذي إنه زمن طويل، كاف لظهور الشعر الحر! وأبو تمام في أيامي البغدادية، يا إلهي بحوره وغيره، إنما ليس إلى حد التخلّي عن.

مناقشتهم في لمح البصر، تتسلّل هذه الأفكار في ذهني، لأزداد افتئاماً بعدم جدواً سيظل الشعر ذو الأوزان أمور استحدثت في غيابي، ذاك ديدنُهم وهذا ديدنِي. لكن، الخلق، والأوفي في التعبير الشطري، في ملتي واعتقادي، هو الشعر الحق الأبلغ في وربطات أعناقها عن حياتهم الجديدة نفسها، بسياراتها وطائراتها.

وانتشراني شكري من حواري مع نفسي، ليرفع الغم عن صدري بقوله
— الشعر الحر صرعة عصرية عابرة لن تطول

والتقت نحوبي مبتسماً وكأنه ينبهني إلى عدم تسليمي بآرائهم، وبعد أن أوقده لفافته، تابع قوله:

دائم — جمهور تيار الشعر الحر قليل جداً، مقارنة بعشاق الشعر القديم، لذلك فأنا التساؤل عما سيكون عليه حال الأغنية إن فقدت القصيدة وزنها وقافيتها سكت وظل محدقاً في شخصي، فوصلت إلى رسالته البلاغة الصامتة، لتغموري بنشوة الكلام. وبعد عارمة، زادت نفسي حباً وتقرباً من هذا الصديق، وأحسست بشهيتي تفتح أقف فوق أرض أن علمت بعمر مصطلح الشعر الحر، وبأن جمهوره قليل، شعرت بأنني فقلت متوجهاً صلبة، وبأني هناك، وارتآيت أن أبدأ حديثي من حيث توقف شكري بكلامي إلى عبد اللطيف

تستقيم إلا على — الغناء حلةُ الشعر، إن لم يلبسها طويتْ. ذلك أن الألحان لا تتهيأ ولا
شعر منظوم موزون مقفى، فلا يعقل أن نتغنى بكلام منثور

:أقيت في جوفي كأس ماء، وتوجهت إلى عبد اللطيف متابعاً قولي الواقع. ألم يكن لم أفهم في الحقيقة ما قصدته من قولك إنَّ الشعر قيمة علياً ترتفع عن علوك تقصد خوض الشعر مرتفعاً محتلاً صداره الآداب منذ العصر الجاهلي؟ أم إذا كان الأمر كذلك، فأية قيمة في العالم المثالية، وتخليه عن هموم وانشغالات الناس؟ ترى في هذا إفراغاً للشعر من معناه ستظل للشعر إن تخلَّ عن هموم العباد؟ ألا لتخلوا عنها طمعاً في بحور أخرى مغايرة الحقيقى؟ ثم كيف ضاقت بكم بحور الشعر البحور نفسها التي نظم بها القدماء في كل مجالات للعلم والمنطق؟ أليست تلك هي والحب والعداء والهجاء، وهي مجالات تستعرق حياتنا إلى الحياة، من السلم وال الحرب يومنا هذا؟

تجود فريحة ثم إن الاعتقاد والنوايا واللباس والمطايَا، لا علاقة لها بشيطان الشعر، فقد طائرة ممتطي جمل أو معتمر عمامة، بما لا تجود به فريحة راكب سيارة أو ظلت نظراتهم مصوبة نحوِي في ذهول

(24)

سيبويه، رحمة كانت عادتي، ألا أتحدى العربية الفصحى إلا حين أكون رفة صديقي والبلاغة، رحمة الله الله عليه، وربما تكرر ذلك مع غيره من علماء النحو والمنطق أشنف أسماعهم حين أنطق عليهم جميعهم، لكنني مع هؤلاء المغاربة، فطنت إلى أنني العراق. فحرست ألا أحيد عن هذا العربية الفصحى بتتغمية الأعراب القحاح في بادية على وجدهم، بل ومن سحق بعض آرائهم السبيل، وأنا أرى نفسي متمكناً من السيطرة في الشعر سحقاً

تقكريبي هكذا كانوا يصابون بالدهشة والخشوع، دون أن يقوى أحد منهم على قطع حبل بنات أفکاري أو إرباكِي بتدخل سمج ساذج، فاستمر حالِي على هذا المنوال، وأنا أبسط على طريقة مالك، إلى أن تم لي ما أردت

بعد أن توقفت بمحض إرادتي ورويت نفسي بماء زلال بارد، داهمنتي إخلاص بصوتها: الأنثوي الخجول

— أعترف لك يا أبا علي، أنه لم يسبق لي أن قابلت أديباً له قوة بلاغتك أو سحر

حديتك!

أكملت جملتها وحملفت في وجهي كأنها ذكر وأنا أنتش!

بثم واصلت تجملها بإيقاع مغربي متفرد، كان سمعي قد أخذ يألفه

— إن كلامك مقنع، أقصد آراءك، فهي تتاسب وكأنك تتلو من كتاب بين يديك، تراه ولا نراه.

فتدخل عبد اللطيف، مخاطباً جمعنا:

— تلك حقيقة، إن الصديق أبا علي لظاهره، عند كل لقاء يجمعنا، نكتشف سحراً جديداً يخفيه عنا.

خفضت بصرى دون إرادتي، ليس حياء من مدح عبد اللطيف، أبداً، بل ضعفاً أمام ليّنا نظرات إخلاص، ذلكم طبعي منذ يفاعتني. قويا كنت بين الحكام والوزراء، وهشاً أني لم أمام الحرير. لكن مع إخلاص، شمني ضعف من نوع خاص، باللغة اللذة، حتى وهي رميم، لعلني أجد سبيلاً لمقاومته، فبقيت متقد الوجدان، "سبحان الذي يحيي العظام له، فكما أن الصبي رددت هذا في نفسي، وفكرت في أن الوجد لا عمر ولا إرادة هواه يتثبت بحاضنه حد العشق، يتثبت الشيخ بمن يسقط عليه!

لكن نهاوند كانت لي بالمرصاد، فقد أحست بطيفها يحوم حولي، أنظر إلى إخلاص كثيرات، وأحياناً، ما فأراها نهاوند لحماً ودماً، لم يكن هذا جديداً، فقد تمثلتها في نساء حتى تحضر نهاوند، كأنها أن ينتعش وجاني ويتصابي فؤادي، فيرتعش من سحر امرأة امرأة ترومها عاطفتي، ويكون لها ربة العشق، مالكة لزمام أمره، فتحول بيني وبين أية ذلك.

بدونها؟ استغرقتني نهاوند وإخلاص على مقربة مني، أكان لا بد أن أرحل عن بغداد عشرة قرون؟ هب أننا هاجرنا معاً، هل كانت ستثبت معي في تلك المغاربة الأندلسية العراق أو يرحمها الله ويدثرها برحمته الواسعة، إنها اليوم راقدة في قبر مجهول، في السوسي أكد على في الأندلس أو في المغرب، من أدراني؟! أتذكر أن الساحر إبراهيم ولكن، كيف مسمعي أن سحره غير مخالف للشرع، سيحفظ جسدينا إلى أن نلتقي،!تشمني رقيته وحدي وتستثنى هي منها؟

وهي أحست بصوت نذير خفي في داخلي يُسرّ لي، بأن نهاوند قد أصابها ما أصابني، لباسي، إذن هائمة تبحث عنـي، فانتقضت للخبر إلى أن تصبّـ من جسدي عرق اخترق يكون إلا كذلك هي مثلـي في العاجلة، في مكان ما تبحث عنـي. إن الأمر لا يجب أن

يا إله السموات والأرض! كيف غابت عني هذه الحقيقة؟

أعطيتُ سلمتُ بعودتي إلى الدنيا بعد عشرة قرون من غيابي، ونسيت عودتها؟! مع أنني
أين غاب المنطق بخنقها لإبراهيم السوسي ليعد رقته حتى تشملنا معاً، أنا ونهاوند؟!
الذي أتكى عليه لينير طريقي؟ أين كان عقلي؟

أعادني صوت شكري إلى يقظتي يستفسرني عن دواعي هيامي، فأصابني الارتكاك،
ألم بي وسحبت نفساً عميقاً، ثم أحطت كلتا يدي ببطني وتظاهرت وكأن مغصاً شديداً
فكرت بأنه السبيل الوحيد لأبتعد عن مجلسهم، حتى أفكر في أمر نهاوند، فهي بكل تأكيد
هائمة في مكان ما تخفي حقيقتها.

افترحت إخلاص أن أتناول كوباً من الزعتر، مصدقة مرضي المفاجئ، فشرح لي
بأن الزعتر نبات بري يغلّ في إناء ماء ويشرب، وله مفعول السحر في الشفاء، شكري
لكنني انتصبت على قدمي معلنا عودتي إلى الفندق.

ألقي شكري في جوفه بقية كأسه، ووقف إلى جانبي وهو يعلق محفظته الجلدية فوق
فصاحتهم كفه، فاعتذررت لإخلاص حين أبدت استعدادها لمراقبتنا، ومددت لهم يدي،
بي. كذب أبيض، قلت واحداً واحداً، ثم أعدتها لتمسك ببطني متظاهراً بالألم الذي استبد
في نفسي.

سرّي أن يتطلع شكري لمراقبتي دون أن أطلب منه ذلك، فقد كنت في حاجة إلى
مؤنس أبوح له بسري، أتحدث إليه بصوت مرتفع عن مصيبي، هذه المصيبة المحيرة
التي تكشفت لي من تحت طبقة الغبار في ذاكرتي.

أنا ونهاوند، كان عليّ أن أعلم قبل اليوم بأن الرقيقة التي أعدّها إبراهيم السوسي تشملنا
لم أفكر سوى في ذاتي وبأننا سنظل في العاجلة إلى أن نلتقي، لكنني من شدة أنايني
ما أن غادرنا مطعم ريتز حتى أخبرت شكري بأنّي سليم معافي، وبأن مرضي مجرد
تمويه لأطلاعه على ما يشغلني.

لم يمهلني لأنهي حديثي، بل قاطعني صاحكاً

— إنها أيضاً أبدت اهتمامها بشخصك

— من تعني؟

— إخلاص!

— يا لك من متسرع متھور، إن ما يشغلني هو نهاوند وليس إخلاص

أرخي أدنيه لسماعي بذهول، فانسابت مصيبي على لساني إلى أن أتممت قص

تفاصيلها

ظل فترة من الزمن مأخوذاً، مقلباً الخبر في رأسه، وخطبني

— إنها قضية كبيرة، شائكة، تصلح لأن تكون مادة لرواية شائقه، إني أراها فوق مستوى تفكير الإنسان العادي.

صمت قليلاً، وأضاف:

— من ذا الذي يصدق خبراً مثل هذا؟ جارية تبحث عنك منذ عشرة قرون؟!

أدار رأسه يميناً وشمالاً، وبعينه ارتياط، وكأنه يبحث عن فضوليٍّ أو متخصصٍ يسترق السمع إلينا قال لي:

— إننا يا أبا حيان نتحدث وقوفاً في الشارع!

— وأين تريد أن نتحدث جالسين؟

— أقترح مطعم "بيرغولا" المواجه للبحر، ودعني أصارحك بأنني صرت في حاجة إلى بالكاد كأس إضافية تخصب مخي حتى يقوى على استيعاب هذا الخبر الجديد المحير بالقولة صدقت قصتك الغريبة، وها أنت تضيف إليها ما هو أغرب! إن هذا يذكرني بالإسبانية: "كنا أربعة عشر نفراً، فأضافت الجدة مولوداً آخر".

فذف بنا شارع موسى بن نصير، ليتفقنا شارع آخر فسيح، قال عنه شكري

— هذا شارع باستور

ثم أخذ يلقي خطبة بعيدة عن موضوع قضيتنا

الاسم — باستور، اسم مسيحي لطبيب عالم اكتشف دواء يشفى من داء كان فتاكاً، وهو عشرات أسماء الأجنبي الوحيد الذي أبقى عليه مسؤولو مدينة طنجة، بعد أن استبدلوا الشوارع بأسماء عربية.

كدت أصارحه بعدم أهمية ما يقول، لكنني فكرت في أن تلك طبائع بعض البشر، يقحمون مواضع هامشية في قضايا مصيرية تشغلك، و تظاهرت بالإلصاغة. فاستأنف حديثه:

— ليتهم اكتفوا بشطب أسماء القادة العسكريين الأجانب، وأبقوا على أسماء العلماء والمفكرين والفنانين الأجانب!

اللباقة تلزم سماعه ومسائرته، لكن شكري صديقي، فقلت له:

— لكن لماذا لم يختاروا منذ البداية أسماء عربية لشوارعهم؟

— كانت طنجة مدينة دولية، أي تحت نفوذ الأجانب المسيحيين، وهؤلاء من أقاموا الجدد، الشوارع وتولوا تسميتها، وبذلك، فإن تغيير تلك الأسماء من لدن المسؤولين تحريف وتربيف للحقيقة!

سكت قليلاً وأضاف:

— ألم تطلعني يا أبا حيان على موعد كان لك مع نهاوند في جنة العريف بغرناطة؟
تنفست الصعداء، إذ أسعدني أن يعود بي إلى قضية نهاوند، فأسرعت بالقول
— بلـ، إنه كذلك، فقد كنا على موعد في جنة العارف
لكنه أجابني:

هذا — هب أن اسم جنة العريف تغير إلى اسم آخر! فماذا سيكون موقفك؟ ألا ترى في الأندلس، أبقوا على تغييراً للحقيقة؟ ولعلك فإن الإسبانيين بعد أن أخرجوا المسلمين من

نقوم نحن بتزييف التاريخ وإرباكه؟ بعض الأسماء العربية، حفظاً لذاكرة التاريخ، فلماذا
كان عليّ أن أشاركه موضوعه، رغم أنف مصيبيتي، فقلت له

— أوقفك على ما تقوله الآن، فتلك حقيقة كانت تعيب عنـي، وأتمنى أن تكون بغداد
محتفظة بأسماء أحياها ومعالمها القديمة!

كـنا نـسـير في شـارـع طـوـيل عـرـيـض بـجـوـار الـبـحـر، مـضـاء بـأـمـدة نـور لا تـحـصـى، فـقـلت لهـ:

— لنـعـد إـلـى وـاقـعـنا، فـي أـي بلد يـحـتمـل وجود نـهـاـونـد؟
أـسـرع في خطـواتـهـ، وكـأنـهـ بذلك يـطـلب منـي أـنـ نـؤـجـلـ الحديثـ إـلـى أـنـ نـصـلـ المـطـعـمـ.

(25)

فـبـدـتـ لـنـاـ صـالـةـ سـرـنـاـ صـامـتـيـنـ إـلـىـ أـنـ وـلـجـنـاـ مـطـعـمـ "بـيرـغـوـلـاـ". صـعـدـنـاـ بـضـعـ درـجـاتـ،
رمـالـ بـيـضـاءـ، رـحـبةـ نـصـفـ مـغـطـاةـ، مـلـأـتـهاـ مـقـاعـدـ وـطـاوـلـاتـ، وـأـشـرـفـتـ عـلـىـ شـاطـئـ ذـيـ
خـاصـةـ وـقـدـ جـعـلـتـ أـشـعـةـ اـمـتـدـ إـلـىـ أـنـ اـنـبـطـحـ لـأـمـواـجـ الـبـحـرـ. كـانـ المشـهـدـ مـثـيـراـ لـحـوـاسـيـ،
الـعـجـيـبـةـ، لـيـلـةـ الـاحـتـفـالـاتـ بـعـرـسـ الإـنـارـةـ ظـلـامـهـ نـهـارـاـ مـضـاءـ جـعـلـنـيـ أـسـتـحـضـرـ تـلـكـ اللـيـلـةـ
ابـنـةـ "بـهـاءـ الدـوـلـةـ الـبـوـيـهـيـ"، فـقـدـ كـانـتـ الأـضـوـاءـ الـخـلـيـفـةـ "الـقـادـرـ بـالـلـهـ"، حـينـ تـزـوـجـ سـكـيـنـةـ
دـجـلـةـ، وـأـخـرـىـ تـزـيـنـ الـحـارـاتـ وـالـأـزـقـةـ، جـاعـلـةـ لـلـيلـ تـسـطـعـ مـنـ عـشـراتـ الـمـرـاـكـبـ فوقـ
بـالـأـلـبـابـ بـغـدـادـ نـهـارـاـ بـهـيـجاـ يـأـخـذـ

بـدـفـءـ فـيـ تـلـكـ اللـيـلـةـ الـبـغـادـيـةـ الـمـضـاءـ، وـشـهـوـتـهاـ تـدـاعـبـ عـوـاطـفـيـ وـتـسـرـبـلـ أـحـاسـيـسـيـ

موقت آذان جارية ترقب عودتي، بقيت ساهراً رفقة صديقي بديع الزمان الهمداني إلى نسيب وغزل الفجر، كنا بحى الكرخ على صفة دجلة، أنسده مما يستحضره ذهني من تتفاوت إلى مسامعنا القدماء، ويسمعني من أطابق مقاماته الجديدة، وحين نصمت للراحة، أن ينقطع صدى لأهازيج مواويل بدوية حزينة، تصدر من مركب على مسافة منا، دون الخليفة مغنين جواري وغلمانا من غنائية يحملها نسيم النهر. كان عرساً بحق، استقدم له وقصور الوزراء وقصر والد العروس الهند وفارس ومصر، فتوزعوا بين قصر الخليفة ودور الحاشية وكبار رجال الشرطة.

حدث ذلك منذ حوالي عشرين عاماً أو أقل. أجل، أتذكر العام بالضبط، سنة ثلاثة وأقوال وثمانين وثلاثمائة هجرية، ونحن الآن في عام ثلاثة وعشرين وأربعين وألف، على منذ حوالي عشرين عاماً! يا لسخرية القدر؟! ورسى بصرى في اتجاه واحد، ضيافتها تلك الميناء نفسه الذي استقلبني مهاجراً سرياً، تذكرت شرطة طنجة وكرم بوآخر تغادر الميناء الليلة، فقد كانت أتعس ليلة في حياتي. أصوات منفرة تصدرها مرمى حجر مني. ولعل وأخرى تحل في رحابه، لم أغظ طرف في عنه، فقد كان على المراكب إليه، أما الضوء الآخر المقام الضوء البعيد هناك، كثير الغمز، أقيم عنوة ليرشد وزودت بمعلومات عنه في إقامة السراب، إن مصدره للغاية نفسها، فقد سبق أن تعرفته بإرسال برقه بين لحظة وأخرى طوال الليل محتجب عنى، لكنه لا يكف عن

البحر لا أنكر نشوة التنعم في انعكاس إشارته الضوئية في السماء و على صفحة مياه لكنه لم يشغلني دون أن تخفت أنفاسه. لعله من أعجب اختراعات بني الإنسان وأغربها، يستحضره ذهني مما كان عن التفكير في عرس الخليفة ولا في نهاوند، ولا شغلني بما فقد كنت مولعاً بالمقارنة بين قد مرّ بي أيام شبابي في شط مدينة المحرمة بفارس، ملتهاً وودياناً شاحبة يطاردها الجدب، الصحراء والبحر. كنت أرى الصحراء عراء الصغيرتين الحافيتين إلى أن ينسلخ بعض جلدhem، فتذكرت الرمال الساخنة تحرق قدمي وجزره، وأستكمل من رأسي أساطير وأسرار سردها و كنت أرقب البحر في مده والبصرة، فتصحبني في نومي، تؤرقني أو توقدني بحارون من مدینتي المحرمة مفروعاً، مكسواً عرقاً.

وبقيت على تلك الحال، إخال الصحراء صادمة، والبحر ملهم، إلى أن أوضح لي الزمان بأن كل ما يصدمنا، فتساوت لدى الصحراء بالبحر.

كدت أضيق بصمت شكري، فهو لا يفتح فمه إلا ليتجرع كأساته، مما جعلني أخرجه من

صمته بسؤاله

— إن نهاؤند تبحث عنِي، فما السبيل لأعثر عنِها أو لأجعلها تعثر عنِي؟!

نهش في شعر رأسه، وأجابني بصوت خفيض

— ما دليلك أنها تبحث عنك؟

— دليلي بصيرتي، ثم إني أستند إلى قناعتي ولا تهمني قناعتك، هب يا رجل أن ما

أقوله هو عين الواقع، وفكرة معى في وسيلة توصلنى إليها

— لك ما تريد

نطق كلمته بتکاسل، ودسّ في فيه سيجارة أوقدها بيدين مرتعشتين، وقال

— إن أقصر السبل إلى نهاؤند أن تعلن عن وجودك، أن يجعل الصحافة والإعلام

من يتحدثان عن انتباعاتك بعد عشرة قرون من غيابك، والجملة الأصح، بعد عشرة قرون

بالجلسات موتك! ولربما قد تستمتع بلقاء السيدة نهاؤند. لكن يقيناً سوف لن تستمتع

الهادئة في الأماكن التي ارتدتها أو في تلك التي لم تتعرفها بعد

للحديث، أهرق كأسه في جوفه، وسافر ببصره بعيداً نحو البحر، ثم نحن مهياً صوته

بوكانه سيحسم الموضوع برأي لا يُرُدُّ له أمر، وقال واثقاً من نفسه

— بإشهار وجودك، سيرتبك العالم كله. سيصبح خبرك حديث الناس في كل بقاع

الأرض، شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، بين المصدق والمرتاب والنافي. سيسعى آلاف

الرابع الهجري. البشر إلى الظفر بمشاهدة هذا المخلوق العجيب الغريب القادم من القرن

ساحراً أو جنباً. سيتزاحم فئة منهم ستقول عنك المهدى المنتظر، وفئة أخرى ستعتبرك

والفضوليون، إنها ضريبة الشهرة، أعني على روئتك الصحفيون والأدباء والسياسيون

المجانين على اغتيالك، لمجرد الحسد، أو ليشاركك جزيتها. ومن يدرى، فقد يجرأ أحد

شهرتك

قطعته

— لهذا الحد وصلت أهميتي؟!

— أجل إلى هذا الحد! بل إلى أبعد مما تتوقع! فإذا كنت أنا محمد شكري، الرجل

البسيط، كتبت مجرد كلام جريء عن مسيرة حياتي، وعن وجوه صرفها القدر في

طريقي، أ تعرض لمضايقات مزعجة، من لدن الخاصة وال العامة، فما بالك بأبي حيان

الحياة التوحيدية، مبدع أمهات الكتب في الفكر والمنطق والفلسفة؟ وأكثر من ذلك، فإن

وجودك، وإلقاء نفسك استعادته من بعد موته بعشرة قرون؟! إني لا أرى فائدة في إشهار

افي مكاره من أجل امرأة جارية عشقها!

للم أطق سمع بقية خطابه، فعجلت بالرد عليه

تطغى — لتصمت يا شكري غفر الله لك. إن ما تقوله قد يوافقك عليه رجل من العامة، الدنيا وكنوزها، ذاته على ما عادها، أما أنا أبو حيان التوحيدى، لن أخلع نهاوند بمباحث يرجى من رجل يصد إني استرخص كل مخلوق لا يخفق قلبه بالحب، ولا أرى نفعاً قطعاً لم تكتو بنار العشق، محبوه لقاء كسب مادي، فأحرى مخافة الشهرة والعزلة! إنك ولا نقت طعم خمرته؟!

:اعتل في مقعده، واشرع عينيه وكأن كلامي أفقه من غيبة طويلة، وخطبني

— أكاد لا أصدق ما تسمعه أذني! أبو حيان صاحب الإشارات الإلهية، المتخذ من

التصوف قضيته الكبرى، تحوله جارية إلى عاشق مستهام، تتزعزع عنه بردى الورع

والنقوى، وتلبسه عباءة قيس بن معمراً

ضرب كفافاً بكافٍ وهو يتأملني، وتابع خطابه:

عشق واحدة — إنك أيها الفقيه السلفي كنت متسلقاً مع نفسك في بغداد، حين لم تذكر كلمة واليوم في طنجة، تضع في جميع مؤلفاتك، ولا أشرت إلى أية امرأة في جميع ما كتبت مخلوق لا يخفق قلبه نهاوند في كف وما عادها في كف أخرى، تعلن استرخاصك لكل القدر ! أنا حقاً لا أفهمك بحب امرأة. المحيّر، إنك عالم، فقيه، متصوف ! يا لسخرية

:ابتسمت استخفافاً برأيه، وأوجزت جوابي في جمل مبتورة

— ما تبرمت من الورع والنقوى، ولا قايبست ديني بأية امرأة. فأنا الشخص ذاته

بماضيه في بغداد وبحاضره في طنجة. ما حدث هو أنني أبحث عن امرأة سكنتني،

مسلم يا جزاً مني بأنني أيضاً سكنتها. فأنا مخلوق بشر قبل أن أحمل باقي الصفات، أنا

وإذا كنت تراني شكري. أعمل لدنياي كأني أعيش أبداً وأعمل لآخرتي كأني أموت غداً،

لا يتعدى بضعة قد عدت للبحث عنها بعد فراق دام عشرة قرون، فذلك بالنسبة لي

التدوين عنها أو عن أشهر، هي ما استغرقه سفري من بغداد إلى طنجة، أما عزوفي عن

عاشرة المرأة واقع عيني بدبيهي، أية امرأة غيرها فلا يدعو إلى أي استغراب، ذلك أن

ثرثرة منفحة، غير مستحبة. فأنا يخفق قلب الرجل وتدوين البداهات لدى العلماء والفقهاء

بقلبه لا يضيف إلى الكتابة الأدبية أو الفلسفية قيمة جديدة، بحب امرأة أو يشقي للظفر

الواضحات من المفتضحات. ولعلك تذكر ما أعلنته في حضرة الوكيل العام فتفسير

من أن جنس الشعر وحده ما يستوجب تخصيصه للنظم عن المرأة للملك

قاطعني هازئاً

— وجهة نظر قديمة، باليه، مضحكة، ربما كانت مقبولة قبل عشرة قرون، أما في يحق لنا عصرنا هذا فلم يعد هناك ما يحدّ من حرية الكتابة. فمثلاً يحق لنا أن نتحدث عادت قيمتها في أن نكتب. ثم إن الموضع الأدبي عموماً، نثراً كانت أم شعراً، ما الجوهر، ولربما لهذا جوهرها، وإنما في كيفية تناولها، أي صار الشكل مرجحاً على واحداً، يطلق عليه الكتابة ذات السبب تداخلت الأنواع الأدبية وتمازجت لتصبح نوعاً الشكل الجديد.

انتقضت في وجهه

بالشاعر، — يستحيل أن أقبل بهرطقة كلامية كهذه، تمزج الشعر بالنشر كمن يمزج القمح
جوهرها! إنكم تتدوّق الشكل قبل الجوهر! ما سمعت عن أحد أطربه شكل قصيدة قبل
باجتها لكم هذا تقدمون العربية على الحصان.

أخذ يضحك وقاطعني

— إنك لم تدعني أنهى حديثي يا أبا حيان. طيب، لازوردنك علماً بأن الشكل أصبح كلها. صار دون أن يظل مقتضاً على المجال الأدبي، بل امتد ليشمل أنواع المعرفة تصور العدل! سمة مهيمنة على جميع أمور حياة هذا العصر، حتى العدل لم ينج منه، وجوباً اعتماد وعلى سبيل المثال، إذا أقدمت على بسط تظلمك على القضاء، يلزمك مثل الناقد شكلٍ محدّداً حسراً تحت طائلة بطلان حركك، ففاضي هذا العصر صار الأدبي، يقوم الشكل قبل الحق، وكم من حق ضاع بسبب شكلٍ تافه.

— وَأَيْنِ مِنْكُمْ قُوْلَةٌ عَلَىٰ بَنِ أَبِي طَالِبٍ مَا ضَاعَ حَقٌّ وَرَأَهُ طَالِبٌ؟

فارغة سنبلة صارت!

— يا إله السموات والأرض، خف عن مخلوقك ما ابتليته به. أرجوك يا شكري أن تصمت، فما عدت أتحمل سماع مثل هذه الأخبار، إن عصركم هذا لعصر مجانين بحق أراد أن يضيف شيئاً، فأسكنته بإشارة من يدي، وقلت له:

أنت تربكني، يا شكري، لعلك تقصد بالشكل والجو هر، اللفظ والمعنى؟

— تماماً، ذاك بالضبط ما قصدته، فالشكل هو اللفظ والجوهر هو المعنى، وقد أصبح اللفظ في عصرنا الحالي مر جهاً على المعنى.

الجسد — شخصياً قد لا أتفق معك، ذلك أن ترجيح اللفظ على المعنى هو بمثابة ترجيح خالد لا يتبدل. على الروح. فاللفظ كالجسد، عارض متغير فان. أما المعنى، فهو كالروح،

أن الشاعر وحتى العالم أو ولذلك قيل في زمامي السابق "إن الشعر تجويد للمعاني" ، ذلك ذلك طريقة تجويدها الفيلسوف، هو الذي يجيد التقاط المعنى، فتأتي بعد

بدا غير مقتنع بوجهة نظري، وقبل أن يتحدث أضفت قائلاً

أيضاً – أفهم أنكم صرتم في هذا العصر تجمعون على ترجيح اللفظ على المعنى، هذا الجاحظ عليه ليس بالشيء الجديد، ففي عصري السابق وُجد من قال بهذا. أذكر أن بلنقطها المسلم رحمة الله، قال ما معناه، إن المعاني ملقاء على قارعة الطريق، وهو قول في ظاهره والنصراني والمجوسي، لكن الحرفية تكمن في كيفية صياغتها، كذلك يبدو وكأنه يرجح اللفظ على المعنى، لكنه في عمقه ليس

ابتسما شكري وهو يوقد سجارتة وتلمظ رحيق كأس صبّها في حلقه، ثم تطلع إلى سقف الصالة وكأنها ستمده بما يعتزم الردّ به، وخطبني

– أنت أيضاً أربكتي يا أبا حيان، فلم أعد أعرف من مَنْ على صواب! طيب إني أفكر في أن أطلعك على آخر مستجد في النقد العربي

قال ذلك ورفع بصره مرّة أخرى إلى سقف الصالة، فاستعجلته

– هات ما لديك، إني أثوّق لمعرفة هذا المستجد

ضحك، وانخرط في الحديث

المرتبة – قبل خمسين عاماً إن لم تخني ذاكرتي، كان المشتغلون بالنقد، يضعون في بعد ذلك توحّدت الأولى الكاتب قبل نصّه، فقد كان الكاتب أهم من النص الذي يكتبه، الكاتب، هذا التفضيل الآراء على استبدال الكاتب بالنص، ليصبح النص أكثر أهمية من الغرب المسيحي، ودعا إلى للنص، لم يتم طويلاً، فقد قام أحدهم من عشر منظري فارئ. ضحك وأضاف ترجيح التلقي على النص، أي عدم جدوا النص دون

– ما قول الأديب الفيلسوف القادم من القرن الرابع الهجري، أزهى عصور ثقافة العرب؟

بالرغم من الكؤوس التي صبّها في جوفه، أحسست به في كامل قناعته بما يقول، فارتآيت أن أعود به إلى موضوعنا مخافة فساد جلسنا، فقلت له

الفكر – إن التلقي، ومنه الإصغاء لأحد مدلولاته، ليس مفهوماً جديداً وافداً على شأنه العربي، فقد كان موجوداً في بداية العصر العباسى، وكانت لنا مطارحات أوقفني بإشارة من يده، فخلته سيشكّرني على حصافة رأيي، إلا أنه فاجأني بما لم أتوقعه منه، إذ قال

تنسبه — علىَّ أنْ أكون صريحاً معك، فقد أخذت تربكني حقاً، كل مستجد أطلعك عليه، العصر يجهلون إلى تاريخك البعيد، لم أعد أعرف إن كنت تتعمد ذلك أم أن متفقى هذا تاريخ ثقافتهم؟

قاومتُ غضبي، وقلت له:

إمامي بالنتقي — أنت الأعلم يا شكري بأنني لم أقرأ كتاباً واحداً منذ القرن الرابع، وأن لأتحدث عنه ساعات والإصغاء يعود إلى أيامي البغدادية، بل إنني على أتم استعداد العربي منذ أزيد من عشرة وساعات، ولعلك فإن الإصغاء كان حجر الزاوية في أدبنا قرون.

أمسك بقنية نبيذه وملا قدحاً صبّه في حلقه، وقال لي

— منذ أن التقينا وأنت ترج بي في معضلة وراء معضلة دون استراحة

إني بصراحة لا أطيق الصنف الجاد من البشر لأكثر من ساعة، فقد تخليت عن مهنة
يمنطقهم التدريس لهذا السبب، وكذا عزوفاً عن سخافة منطق المدرسين، وأنت تجادلني
أحسست بالغضب يتسلق صدري، لكنني في ذات اللحظة صرت أقاومه، مكتفاً بإرادتي
مفتول، لدرء استفزازه. أنا لا أستقر إلا بإرادتي، ردت ذلك في نفسي وخاطبته بهدوء
بوأنا أكتم غيظي:

— لكنك يا شكري أنت الذي اختار الحديث عن المفاهيم المستجدة في الأدب، ومن يطرق الباب عليه سماع الجواب.

— لكنك أطلت الحديث في أمور عقلانية لا تناسب المقام

— ما العيب في ذلك وأنت من اختار المقام؟

— الحلم والوهم وحدهما يناسبان مجالس الشراب

— لا تنسى أن الإكثار منها، مضاف إليهما الشراب، يؤدي إلى الجنون

أثناء — مرحبا بالجنون، من كان دون جنون يُرفض من زمرة المبدعين. أتعرف أنني بترحاب منقطع كتابتي لروايتي "الخنزير الحافي" كنت في حالة جنون، فاستقبلت الرواية في أوج التعقل، لم النظير، وعندما أتبعتها بكتاب "غواية الشحرور الأبيض"، وكنت بيلتفت إليه أحد

لربما أحسست أنني أجالس شخصاً غريباً عنِّي، أكيد أن الرجل أصيَّب بلوثة عقلية، أو إلى أقصى جنونه طغى على تعقُّله، فلا معنى أن ينقلب مزاجه من أقصى درجة الوداعة دون أدنى درك الوقاحة. تذكريت كيف كان يضرب على ظهر عبد القادر بشدة وقسوة

بحذائه وسترته في سبب، وكيف ولج البحر في الهزيج الأخير من الليل، بعد أن ألقى
وسط الأمواج المتلاطمة.

أشياء وتصرفات خرقاء صار ذهني يستحضرها، إلى أن قال لي
إليها — إنني أتقبل بشغف أن تحدثي عن علاقتك بنهاوند، فالظرف الذي جعلك تتعرف
جميلة. في زماننا يدعو إلى الدهشة. أهديت الوزير كتاباً فأهداك جارية، يا لها من حكاية
بسميات أخرى، عشيقة أو الحاضر لم يعد الوزراء يملكون جواري، أو هم يملكونها
صديقة.

الظلمات. أفكر لم أجده بشيء. كان ذهني مشتتاً، تترافق به أفكار تتلاطم كأمواج بحر
الشاذ، وأفكر في إعلان البحث عن نهاوند لتدفء فراشي، وأفكر في مزاج شكري
ما فوق المائدة، وانسحبت تمالك نفسي التي لو لم أتق شرها لكنت أقيمت فوق رأسه بكل
من دائرته إلى الأبد.

من جديد فاجاني وهو يضحك

الصالح — إننا نحن العرب جميعاً نعيش حياة مركبة، حياة انفصام. ندعو إلى السلف
ولا مع ذاك، صانع النكسات والماسي ونستلذ التبعية للغرب المسيحي. أنا لست مع هذا
ثمار لم نشارك في لا مستقبل يرجى من العودة إلى الوراء، ولا فائدة ترجى من قطف
زرعها.

أخذ يضحك حتى خلته مجعوناً حقاً، ثم تحامل على نفسه ليتنصب على قدميه، وأخذ
بيحوم حولي متابعاً ضحكه

— أنت أباً حيان، تتعل حداء عصرياً وتتدلى على صدرك العراقي ربطه عنق صنممت
في الغرب، وتخفي عظامك داخل بذلة فاخرة، فوق قميص غربي ناعم، إنك لا تختلف
عن المشارقة في شيء، بل عن العرب عامة، ولست الوحيد القادر من القرن الرابع
الهجري، فجميعنا قفزنا على عشرة قرون، استبدلنا ركوب الجمل والحمار بركوب
الطائرة، دون أن نسهم في صناعتها. لكننا نبر ركوبها بحرق المراحل.

توقف عن ضحكه وأخذ ينعم في وجهي وأضاف، لكنه هذه المرة نطق بمودة فضحتها
بحجرته

— إنني أفسر صنمتك برفضك لشخصي، أرجوك أباً حيان، لا تغضب مني، أكن لك مودة
حقيقة، لعلي في حالة سكر، لكن عرضي وافر، وأنا في الوقت ذاته في كامل قوتي
القدر العقلية، ذلك أن سكري مثل جنوني لا يستغرقني سوى لحظات. عليك أن تشكر

ما نحن الذي جمع بيننا، فلو كنت صاحبت غيري، ما كنت ستحظى بالاطلاع على حال فيه، أقصد ما يعتمل في دواخنا. لنكف عن الوهم والجنون.

لاحظت أنه ساه عن سماعي، فتوقفت عن الحديث. مرت فترة صمت دون تواصل وعلى صدى صوت نسوى أدرت رأسي ملتفتا خلفي، فالفيت حشداً من بشر ملأ بيننا، كان فارغاً، نسوة ورجال تكادوا فوق مقاعد كتجمّعات النمل، وازدانت موائدهم حيزاً بأشربة ومزادات وقهقات، واندرج خاطري إلى أن إداهن في حالة سكر طافح، فقد طغى صوتها على ضجيج المقهى.

انتبه شكري إلى غيابه عنِّي، فخاطبني بمودة

— معذرة أبا حيان، فقد سهوت عنك، انشغلت بأم كلثوم

لم أفهم شيئاً، أو بالأحرى حسبته منشغلًا بالبنت السكرانة، وتساءلت مع نفسي كيف عرف أن اسمها أم كلثوم إلى أن قال لي

— أم كلثوم، سيدة الطرف العربي وتدعى كوكب الشرق، وهي الآن تغني قصيدة لأبي فراس الحمداني.

أدخلني شرحه في دهليز مظلم، فبادرته بالقول

— إنك زدتني غموضاً، أوضح رعاك الله!

ضحك وقال:

في — الصوت المسجل الذي نستمع إليه الآن، هو للفقيدة أم كلثوم، وقد سطع نجمها التي تشندو بها، الغناء العربي، سطوع نجم المتنبي في سماء الشعر العربي، أما القصيدة فهي للشاعر أبي فراس الحمداني.

أيضاً لم أقو على كبح ذهولي، ليس إعجاباً بالموسيقى أو صوت المغنية فحسب، وإنما أذني لأذوب بقصيدة أبي فراس الذي لحق بي إلى القرن الرابع عشر الهجري، وأرخيت الدف والصنج: في رقة معاني شعر أبي فراس، وهي تتساب في حلة من أنغام العود أراك عصي الدمع شيمتك الصبر، أما للهوى نهي عليك ولا أمر

(26)

حين أحس بي شكري مشدوداً إلى السماع، سألني

— حبذا لو أعرف مدى تقبلك لهذا النوع من الغناء، وهل أصلاً تفهم في الغناء

أسكته بحركة من يدي إلى أن انتهت السيدة من غنائهما وقلت له

نصر — لا تنسى يا شكري أني كنت صديقاً لجهاز علماء الموسيقى في عصرى، كأبى جميع كتب الفارابى وأبى الفرج الأصبهانى، وبهذه الأصابع التي تشاهدنا، قمت بنسخ إحصاء العلوم"، "الفارابى، كـ "الإيقاع" و "الموسيقى الكبير" وكذا "أصل العلوم" والأغاني" لصديقى وجميعها في علم الموسيقى والحن، كما نسخت وحفظت "كتاب المرحوم أبى الفرج الأصبهانى.

عاد يقول:

— أعرف أنك موسوعة، لكنى لم أسألك عن الجانب العلمي في الموسيقى وإنما عن تذوق الألحان.

قاطعته ضاحكاً

جهة، — أزعم أني أفوقك تذوقاً للألحان، وذلك لأنى أحيط بعلم الألحان النظري من وقع خطأ و بتذوق ما يهز منها مشاعرى تطبيقاً من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال، إذا كنت مغرماً في العزف أو في أحد الإيقاعات، فإني أكتشفه في الحال، ولعلك فإنى كنت أنوى اللحاق بعزف إبراهيم الموصلى وشقيقه إسحاق، وكذا بتلميذهما زریاب الذي به في الأندرس.

نظر إلى باستغراب، فأضفت قائلاً

وتراً — أتعلم أن العود بعد أن كانت له أربعة أوتار من الحرير، أضاف له زریاب العود، الريشة خامساً، أسماه الأوسط؟ جعله تحت المثلث و فوق المثلث، واتخذ مضراب إسحاق الموصلى، لكنه من جناح النسر، بدلاً من قطعة الخشب، وجعل عوده بحجم عود أخف وزناً بمقدار ثلث وزن عود الموصلى.

كانا ستقول هذه معرفة، لكن صدقني أن صوت علية بنت المهدى و طريقة أدائها للغناء، صفاء ينزع عن مني مشاعرى و دهشتي و يسمون بي إلى أعلى السماء، كان صوتها في السيدة صاحبة أغنية أراك عصي الدمع و مواصفاتها.

أصابت الدهشة شكري، فقال لي

— من يصدق ما تقوله؟ من سيصدق أن أبا حيان يعرف عن الموسيقى والألحان أكثر مما يعرفه متقو عصرنا هذا؟

و قلت له

— أصارحك يا شكري بأن أبا ناصر الفارابى إلى جانب العالم والصوفى كان مغنياً الفيلسوف الطبيب و عازفاً مبهراً، كان يعيش بداخله العالم والفنان متلازمين. وإذا كان

معتبراً الموسيقى فرعاً من أبو يوسف الكندي قد سبق الفارابي إلى التأليف الموسيقي، استوعب علمه وفاته في أمر الرياضيات، ووسيلة لشفاء المرضى، فإن الفارابي تقافة العجم. أذكر عندما كنت أنسخ الأصوات والأنغام والتالف، وزاد عنه اطلاعاً على غايتها من تأليف هذا الكتاب كانت بسبب ما وجده كتابه "الموسيقى الكبير"، اكتشفت أن عليه رحمة الله الواسعة. نعم الرجل، تعاشرنا في من نقص وغموض في كتب الإغريق، وابن مسكونيه دون شائبة، إلى أن سرنا في موكب حزين نعيده السنوات الأخيرة أنا وهو إلى التراب.

أنا أتحدث، وهو يحملق في وجهي مأخوذاً، إلى أن قال لي

— هل تحفظ لحناً للفارابي أو الأصبهاني؟

— أحفظ لهما ألحاناً كثيرة، لكنني لم أغنى منذ زمن طويل

ضحك وقال:

— أرغب أن تسمعني مقطعاً من أغاني ذلك العصر، لا يهمني الصوت، أرجوك أبا حيان.

— لكن الغناء لا يستقيم إلا بالموسيقى.

— ليس بالضرورة، فأنا أريده بدون موسيقى

بل — لكنني أشترط حضور الموسيقى في الغناء، فالعلاقة بينهما ليست وشحة فحسب، هما واحد في لبوسين، وبذلك حرمتُ على نفسي الغناء دون آلة موسيقية.

— معنى ذلك أنك تجيد العزف؟

— علماً و عملاً.

— طيب، إذا جئتكم بعود، هل تغنى؟

— ليس وسط هذا الضجيج

التفت خلفه يستطلع من في الصالة، وخطبني مزهوأً

— لم يعد صحبتنا سوى أربعة أشخاص، وفي وسعي أن أخرسهم جميعهم ناولني ابتسمت له موافقاً، فنهض مسرعاً، غاب زماناً قصيراً إلى أن عاد يحمل آلة عود، فتوقفوا عن إيقاعها ثم خطى إلى حيث الأشخاص الأربع، وهمس لهم كلاماً لم أسمعه أحديتهم.

على في تلك الثناء، كانت آلة التسجيل قد كفت عن بث موسيقاها، فأطبقت السكينة المكان، ولم يعد يسمع سوى هدير خفيف لأمواج تتكسر على شاطئ البحر.

داعبت أوتار العود قليلاً، وقلت لشكري

— إن العود الذي اعتدت عليه في بغداد وغيرها، كانت به ست أوتار فردية، أما هذا،
فبه أحد عشر وتراً

:امّى الفرح من وجهه، وقال في كابة

— إذن لن تستطيع العزف

:ابتسمت وطمأنته

— سأعزف أنغاماً شجية، فلا شيء تغير في العود، سوى أن كل وتر أصبح مزدوجاً،
الحنينة على باستثناء الوتر السادس، فقد ظل منفرداً، فبدونه لا يمكن تحقيق الغاية
مستوى الصندوق الرنان. أي بطن العود

:ابتسم شكري وحرك رأسه مشجعاً، فأخذت أداعب كل وتر وأنا أشرح له علمي
يصير مدوزناً — هذا العود مُدوزَنْ على مقامات أندلسية، على أن أقوم بتحويله حتى
على المقامات المشرقية القديمة، ليتسنى لي أن أسلط عليها

بعد لحظة تمكنت من دوزنة العود، وخطبت شكري

سأسمعك أغنية من أغاني عُليَّة بنت المهدى

وبعد أن عزفت المقدمة اللحنية، أنشدته جاعلاً كل نغمة تتماه مع كل كلمة أنطق بها،
لب الهوى كُلّما دعاك

ولاح في الحُبِّ مَنْ لَحَاكَ

مَنْ لَمَّا في الحُبِّ أُوْ نَهَاكَ

فرِدْهُ في غَيْكَ انْهِمَاكَا

إنْ لَمْ تَكُنْ في الهوى كَذَاكَا

نَالَ لَذَّاتِهِ سُوكَا

أغني وأرقب في الوقت نفسه تسرب الناس إلى قاعتنا، ولعل مستخدمي مطعم بيركولا
أنفسهم صاروا ضمن أولئك الناس

مقبلاً ما إن ختمت وصلتي حتى دوت الصالة بالتصفيق المتواصل، فارتدى شكري على
الانفعال رأسي ويدى وقد اغزورقت عيناه بالدموع، وخطبني وهو في أقصى حالات
على — أنت أعظم فنان في هذا العصر، بالله عليك أبا علي، كيف سمحت لنفسك بالتنستر
هذا الكنز الفريد؟ إن صوتك يخفي سحراً أخاداً يهز النفس ويبهر العقل.

أوتار لم أقل شيئاً ولا حتى أطلت الابتسام، كي لا أبدو مزهواً بنفسي، بل عدت أداعب تلك الأغنية العود، مستأنساً بتقسيم على الطبقة الصوتية الخفيضة، إلى أن حضرتني التي كنت أعزفها بعد أن ودعتْ نهاوند في بغداد.

الأغنية واكتفي شعور حاد بالأسى على فراق نهاوند، فأدركت أن تعبيري في أداء وذوق وسأستميل القادمة سيكون صادقاً لأن عاطفتي كانت فياضة، وبذلك سأغني بفن قلوب سامي.

واندفعت أعزف وأغنى

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا
بِالْكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الْأَوْزَارِ مَطْلِعُهُ
وَدَعْتُهُ وَبِوْدِي لَوْ يُوَدِّعُنِي
صَفْوُ الْحَيَاةِ وَأَنِّي لَا أُوَدِّعُهُ

وقد أعدت أداء الأغنية ثلاثة مرات، لسبعين اثنين، أولهما استجابة لرغبة الحاضرين في العراق، أفضى بعضهم في الإشادة بحسن أدائي، وحسبوني مطرباً حديثاً قادماً من فقلت له وثانيهما استجابة للاحش كري الذي تحدث عن موهبة استماعه وتدوّقه صوت — بدون المتنقي لا قيمة للمغني، فلكي تحصل لذة الطرف لا بد من توافر صدق فالموهبة كما تكون المغني وحسنه، ورغبة المتنقي في الاستماع والتقبل، وأنا أتفق معك، للمغني تكون للمتنقي.

ناولته العود، لكنه رفض وأصر على الاستماع إلى أغنية أخرى، فتعالت الأصوات تؤيده.

ابتسمت، وخطّبت شكري بصوت خفيف

— لا بأس، سأختم هذه الليلة بأغنية كانت مفضلة لدى صديقي ابن فهم الصوفي أبي القاضي، كان رحمة الله، إذا سمعها هاج وأزبد، وتعفر شعره، وهي من شعر ربيعة.

أجعل احتضنت العود وعزفت مدخلاً موسيقياً من مقام لحن الأغنية نفسها، وذلك حتى أترك الآذان تعتمد جو المقام، ثم عرجت على اللحن الخاص بالأغنية من غير أن كطائير لأحد هم ذرة إحساس بانتقالي من زمن موسيقي إلى زمن موسيقي آخر، بل سرت مفرد مغرّد محلي في سماء صافية رحبة.

وأنسابت القصيدة تنفذ في شرایین الموسيقی، وكأنهما جسد وحطة لا يليقان إلا ببعضهما.

أَنْيَرِي مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَفَلَ الْبَدْرُ
وَقُومِي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأْخَرَ الْفَجْرُ
فِيَكِيْ منَ الشَّمْسِ الْمُنْيِرَةِ نُورُهَا
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكِيْ الْمَحَاجِرُ وَالثَّغَرُ

(27)

اتصل شكري بسائق السيارة، واقتصر أن يرافقني إلى فندق السراب في الجبل، فأوّل مأتم
برأسى موافقاً

ونحن نهم بركوب السيارة، قدمت رجلی اليمنى على اليسرى وكأني سأجعل السائق خلفي، ثم استدركت خطأي فعدت لأ LJ السيارة بشكل سليم، فضحك وقال لي !— تندو كأنك أنت السكر ان

ضحكـت بـدورـي، وقلـت لهـ:

ذلك كان حالي مع صديقي الناسخ ابن عدّي النصراني، هو يشرب وأنا أسكر عوضه، وكانت بطنه صغيرة مثل بطنك، لكنها قاحلة كالصحراء، لا ترتوى أبداً.

أقلعت بنا السيارة، وكمن يخاطب نفسه بصوت مسموع قال

!- على أن أنتظر إلى صباح غد لتأكد

وب قبل أن تستفسره عن الشيء الذي يريد التأكد منه، أسرع مضيفاً

لليلة واقعاً عينياً أم مجرد لدغة حلم

لم يكف عن الضحك، وهو يضيف

تجيد العزف والغناء لصدق نصف الخبر

— وما هو النصف الآخر الذي لم تصدقه؟

، الصق بفيه واحدة وأغلق نافذة السيارة عن يمينه كي

لَا تطْفَئِ الْرِّيحَ عُودَ تَقَابِهِ، فَاتَّمْ لَهُ مَا أَرَادَ، وَخَاطَبَنِي

— مشاهدي بأم عيني عزفك وغنائك، هي النصف الآخر من الخبر

فتح نافذة السيارة ليتسرب دخان سigarته إلى خارجها، والقفت نحو يخبرني
آخر في — إني يا أبا حيـان مستهـام بالغنـاء، عـاشق للأصـوات الجـميلـة ولـلعزـف الرـفـيع،
هـذه اللـيلـة وـأنت منـزـلي تسـجيـلات مـتنـوـعة لأـهم المـطـربـين والعـازـفـين عـرـبـاً وـعـجمـاً، لـكـنـي
علـيـه من تسـجيـل تـحـلـقـ يـهـ، فـي مـلـكـوتـ الفـنـ الـراـقـيـ، جـعـلـتـيـ أـفـزـمـ كـلـ ما أـتـوـفـرـ

العود، أرجو أن تثق بي يا أبا حيان، فقد دوّختي، أحياناً كان يخيل لي وأنت محضن
أو هي مختبئه بين عازفاً منشداً، أن أقواماً من الجنّة مختفية عن الأنظار تتضم عزفك،
انه السحر بعينه. لعل ثانياً الأوّلار، وأنت تستطعها فرداً فرداً، وجماعات جماعات
متلماً يعتق الخمر الأصيل بعد أن سباتك الطويل في تلك المغاره الأندلسية عتّق صوتاك
والله صوتاك، مسکر كالخمر المعتق، يرقد لأمد طويـل في مخزن هادئ منعزل؟ هكذا
قد يحدث لبني البشر حين يكتشفوا عذوبة أين منك مطربـي هذه الأيام؟ إني لا أدرى ما
صوتاك وسحر عزفـك!

لكني لم اكتتفـي زـهـو فـطـريـ، وأـنـا أـسـتـمع إـلـى شـكـريـ يـشـيدـ بـمـهـارـتـيـ فـي العـزـفـ وـالـغـنـاءـ،
كـدـتـ أـحـتـجـ عـلـىـ أـدـعـ تـثـمـيـنـهـ يـوـقـظـ غـرـوريـ، أوـ لـرـبـماـ لـاـ مـسـهـ خـفـيفـاــ. وـمـنـ بـابـ الدـعـابـةـ،
يـحـصـدـ مـاـ تـبـقـىـ تـشـبـيـهـ لـصـوـتـيـ بـالـخـمـرـ، لـكـنـيـ عـدـلـتـ عـنـ رـأـيـ خـشـيـةـ إـقـحـامـيـ فـيـ نـقـاشـ
مـنـ لـيـلـتـنـاـ الـقـصـيرـةـ، فـيـضـيـعـ مـنـيـ مـخـطـطـيـ لـلـبـحـثـ عـنـ نـهـاـونـدـ.
ـ بـوـجـدـتـ نـفـسـيـ أـصـارـحـهـ، دـوـنـ أـزـيـغـ عـنـ سـيـاقـ الـحـدـيـثـ
ـ عـنـدـمـاـ كـنـتـ أـعـزـفـ قـصـائـدـيـ وـأـشـدـهـاـ، كـنـتـ أـسـتـحـضـرـ نـهـاـونـدـ وـأـخـاطـبـهـاـ، كـنـتـ أـحـسـ
هـذـاـ أـنـهـ تـسـمـعـنـيـ وـتـرـانـيـ، فـأـغـنـيـ لـهـاـ، وـأـشـاهـدـهـاـ وـحـدـهـاـ وـهـيـ تـشـيرـ عـلـىـ بـيـدـهـاـ لـأـعـيـدـ
تـصـفـيـقـاتـكـ وـتـتـعـالـىـ المـقـطـعـ، أوـ لـأـكـرـرـ هـذـهـ جـمـلـةـ الـمـوـسـيـقـيـةـ الـحـزـيـنـةـ. وـلـكـنـ، حـيـنـ تـشـتـدـ
أـغـنـيـ لـحـمـاـعـةـ مـنـ السـكـارـىـ أـصـوـاتـكـ، أـسـتـفـقـ عـلـىـ وـاقـعـيـ، وـأـدـرـكـ أـنـهـ قـصـيـةـ عـنـيـ وـأـنـيـ
بـالـاغـتـرـابـ، فـأـسـكـبـهـ فـيـ الـقـصـيـدـ وـمـسـتـخـدـمـيـ الـحـانـ، فـيـتـضـخـمـ حـالـ وـضـعـيـ النـفـسـيـ الـمـأـزـومـ
الـمـغـنـىـ نـفـسـهـ، وـأـعـوـدـ لـاستـحـضـارـهـاـ.

أـنـيـ مـكـانـ الـبـدـرـ إـنـ أـفـلـ الـبـدـرـ

وـقـومـيـ مـقـامـ الشـمـسـ مـاـ اـسـتـأـخـرـ الـفـجـرـ

إـنـهـ الـقـصـيـدـةـ نـفـسـهـاـ الـتـيـ كـانـتـ تـسـتـهـوـيـهـاـ، فـلـاـ تـمـلـ سـمـاعـهـاـ مـرـاتـ وـمـرـاتـ

الـسـيـارـةـ تـلـتوـيـ بـيـنـ مـنـعـرـجـاتـ الـجـبـلـ عـلـىـ مـشـارـفـ بـحـرـ الـظـلـمـاتـ نـحـوـ إـقـامـتـيـ، وـشـكـريـ

بـعـدـ أـنـ أـنـصـتـ فـيـ ذـهـولـ لـمـاـ صـارـتـهـ بـهـ، قـالـ لـيـ

ـ إـذـاـ كـانـ وـرـاءـ كـلـ مـبـدـعـ شـيـطـانـ، فـأـنـتـ وـرـاءـكـ شـيـاطـيـنـ

ـ سـكـتـ يـنـتـظـرـ رـدـيـ، وـحـيـنـ لـمـ أـجـبـهـ، أـضـافـ

ـ صـدـقـ الـمـعـاصـرـونـ مـتـاـولـوـكـ بـالـدـرـسـ إـذـ نـعـتـوكـ بـأـدـيـبـ الـفـلـاسـفـةـ وـفـيـلـسـوـفـ الـأـدـبـاءـ،

ـ فـيـ لـكـنـهـمـ أـغـلـوـاـ الـحـدـيـثـ عـنـ عـلـمـكـ بـالـمـوـسـيـقـىـ وـالـغـنـاءـ، رـبـماـ لـأـنـكـ لـمـ تـتـحدـثـ عـنـهـمـ

ـ مـؤـلـفـاتـكـ، وـلـاـ الـقـدـماءـ أـشـارـوـاـ إـلـيـهـمـاـ عـلـىـ مـاـ أـظـنـ

هو يتحدث، وأنا مأخوذ بجمال الليل، وعبر بحري بارد، يتسرّب من نافذة السيارة المفتوحة على يميني، فانتبهت، وأسرعت بالقول

لا — إني أجهل ما قيل عنِّي بعد وفاتي، لكن ما أعلمُه عنِّي نفسِي، إني سوَّدتُ أوراقاً ويفيني تحصى عن علم الموسيقى والغناء، وعن ليالٍ في الإمتاع والطرب كنتُ سيدها، وصلكم منها، لا أنها لم تتجوّه من قبضة النار مع غيرها من مؤلفاتي، وإنِّي لأخالُ أنَّ ما يمثُّل سُوى نزير قليلٍ مما تبقى محفوظاً لدى خلاني.

ظل شكري مشدوداً لما أرويه عنِّي نفسِي، فأضفتُ قائلاً

— إنَّ ما يهمني اليوم هو مصير نهاوند، وأريدكَ أنْ تساعدني في البحث عنهاً أدار برأسه نحوِي، وقال محتاجاً

— نهاوند نهاوند، ألا تحاول نسيانها، إنَّها بعيدة عنك مسافة عشرة قرون، يستحيلُ أن تظل على قيد الحياة.

اعتذلت في جلستي، وصرختُ فيه

— عن أي استحالة تتحدث وأنت تشاهدني حياً أرْزق، إنَّ الذي استعادني للحياة من جديد، قادر على استعادتها من جديد.

قاطعني

عملة ثمينة — لو أنَّ الأمر كما تقول لعمّ خبرها العالم بأسره. اسمع يا أبا حيان. إنك إعلان وجودك، حدث فريدة، وفي حياتك الجديدة هذه، سوف تلتقي بنهاوندات، إن مجرد الظفر بالتعرف إليك فريد في تاريخ البشر، سيجعل نساء الدنيا تتسابقن إلى

قاطعته

ساقها — ما كنت زير نساء حتى أسرخ علمي لاستمالة النساء. أنا مكتفٌ بامرأة واحدة عضوية تتشدّد القدر في دربي، فاصطفيتها عن بقية نساء العالم، وحبي لها ليس حاجة تخطيّت مرحلة الإشباع حتى أسعى إلى آخريات. إبني في سني وتجربتي وثقافتي الانجذاب الجنسي إلى ما هو أعلى وأسمى.

— ترى القول بأنك عاشق عذري؟

ابتسمت مدركاً أنه لم يفهم ما أرمي إليه، فأجبته بصيغة تهمك، سائلاً إياه

— أدرك حقيقة الحب العذري؟

صدرت عنه ضحكة متغطرسة وكأني سألته عن لون الماء، وأجاب مزهواً بعلمه — الحب العذري واضح كالشمس، فهو حبٌّ مثالي، متساوي، يرجح بطلاه متعة الروح

الزواج. إنه على متعة الجسد، فيرتبطان بعلاقة تشوّبها العفة والطهارة إلى غاية حصول واقعك أنت مع نهاوند، أتريد مزيداً من الشرح؟
لهم أقو على كبح امتعاضي، فقلت له

— إني لا أسعى إلى الزواج من نهاوند، فهي أصلاً زوجي، ثم إنك لم تصب في ولি�تك شرحاً، بل كررت ما سال الحبر عنه في الكتابة والكلام، أي نقلت ولم تجهد، مريض، نقلت ما هو مفيد. ولعلمك يا شكري، فإن العاشق العذري رجل أنااني، شهوانى، يبالغ في حب نفسه، متوهماً أن ذلك الحب هو لمعشوقته

قبل أن أسوق له أمثلة على ما أقول، قاطعني محتاجاً

— الآن دخلت في الهرطقة، تنفي الحب العذري من أساسه، تنفي قصة جميل وبثينة وقيس وليلي وعروة وعفراء، لا، لا، إنك أنت من ابتعد عن الصواب أسرعت بالرد:

— دعني أنهىرأيي وقل بعد ذلك ما شئت، ثم إني لا أبني قصص من ذكرتهم من يحب الشعراء. غير أن ما يستمد من قصائد جميل، أنه لم يكن يحب بثينة بقدر ما كان أشعاره نفسه، ولا كان يرغب في الزواج منها أصلاً، وإلا، ما كان ليتغزل بها في التي يريدها زوجاً. علانية وهو المدرك لتقالييد قبيلته التي تمنع زواج من يشبع بالمرأة حبه عن الناس، لا أن يقوم فلو كان جميل قد أحاب بثينة وأراد الزواج بها، لكن كثم وتقاليدها، مفضلاً أن يظل عاشقاً بإرادته الحرية ليعرقل زواجه، متحدياً أعراف قبيلته وترغب في الزواج منه، ما كانت لتنبه على أن يصبح زوجاً، وإذا كانت بثينة تحبه صحيحاً ما ينسب للحب العذري من العفة والطهارة بعشقه وتعلنه أمم رفيقاتها. فليس فأي متعة روحية يحسها رجل يختلي بأمرأة في وفضيل متعة الروح على متعة الجسد. فأي متعة روحية يحسها رجل يختلي بأمرأة في وفضيل متعة الروح على متعة جسدية عصمة غيره، إن لم تكن متعة جسدية عصمة غيره، إن لم تكن

— دعني أهزّك ولو مرة واحدة يا أبا حيان، إنما بالله عليك، قل لي، في أي خانة تصنف حبك لنهاوند؟

— ليس من الضروري أن نصنف عواطفنا في خانات، وكأنها أراء في الشعر أو وعاشرتها، الموسيقى. بالنسبة لي، أحب نهاوند وكفى، وبعد أن اخذتها زوجاً، وعرفتها، عشقتها فلم أطق فراقها.

— ألم يكن جمالها سبب عشقك لها؟

الغرباء بأعينهم، — جائز، بيد أن في الحب دوماً إبهام، فما يراه المحب بعينيه قد لا يراه

العاشق كثيراً ما يعشق ولعل رأيي هذا يقترب من رأي صديقي الجاحظ الذي قال: "إن الموصوف بالبراعة والرشاقة، ثم إذا غير النهاية في الجمال، ولا الغاية في الكمال، ولا سئل عن حجته في ذلك لم تقم له حجة".

هكذا هو حبي لنهاوند. ولعلمك يا شكري، فإني أميل إلى تصديق المقوله الشائعة بأن في حياة كل رجل امرأة واحدة.

ضحك وأخذ يردد الجملة نفسها، وطلب من السائق أن يتهمل في سيره، وقال لي لا داعي لمزيد من الشرح، أنا أشاطرك رأيك.

سرح يفكر، وكأنه يبحث عن شيء غاب عنه، وقال

حبها في — أنا أيضاً من طينة من تصدق عليهم تلك المقوله، فالمرأة الأولى التي استقر البيضاء قلبي ظلت الأخيرة، وغيرها كثيرات، لكنهن مرن كالسحب الصيفية.

فتح نافذة السيارة وألقى بعقب سجارتة خارجها، وسألني

— هل ترغب في سماع قصة حبي الأول، تصور أني لم أبح بها لأي شخص، ولم لتلك عنها شيئاً، لكنني في هذه اللحظة تتفتح شهيتي للحديث عنها، قد يكون حتى أكتب يدعوني لأحدثك الأيام أو شوقي إليها، أو لعل اقتاعي بحصافة رأيك في الحب هو الذي عنها.

— هات ما لديك يا شكري، أسعد لسماعك.

نطق جملتي بمودة لا تخطئها الأذن، فمن غير اللائق أن أطلعه على مكونات قلبي، ولا أن أمنحه وقتاً ليبح بلوابع عشقه، فقال

— بدأت حكاياتي مع زبيدة منذ حوالي ثلاثين عاماً، لا، أكثر قليلاً، فقد كنت حديث الالتحاق بمدرسة المعلمين في تطوان. آه زبيدة.

غمره الضحك إلى أن انخرط في السعال، وأضاف

— أتعرف ما يضحكني؟

لا أعرف!

أجبته، وصمت قليلاً ليطعنني على مصدر ضحكته

— بالطبع لا تعرف، بالسخرية القدر، ضحكتُ من نفسي، إذ صرت مثالك، أتحدث عن لتحضر عشق قديم كاد الزمان يتلفه. ما علينا، كانت زبيدة قد جاءت إلى منزل والدي السويقات من ذلك حفل خطبة شقيقة مليكة، معناه أنها إحدى صديقات أختي. في تلك اتخذت مكاني فوق مقعد المساء النطاواني البعيد، وقبل أن يقع بصري عليها، كنت قد

للظهر، لكن ما أُن لمحتها خببي شاغر دون إرادتي، فقد كان قصيراً وبدون متكاً
بأنني ما كنت لأختار غير ذلك وانتبهت إلى وجودها على خطوة مني، حتى تأكّد لي
المقدّ.

هذه وغمرني زهو الشباب وأنا أطوف بعيني أستجلّي وجوه النساء الحاضرة في الحفل،
أقرب عبوس ذات وجه مستدير كوجوه الفلاحات، وتلك شبّيهة ببقرة عجفاء، والأخرى
لتتملّى فيها رغم إلى رجل منها إلى امرأة، إلا زبيدة، كانت بأنوثتها تثير الدهشة، تشدق
متلبساً بالقرس فيها، أنفاك، لها عيناً ظبية مشرقتان ضاحكتان، صوبتهما نحوّي لتجذّني
أزاحتهم عنّي وانشغلت بلا شيء.

نفسِي، هل إنّها الخطوة الأولى، قلت في داخلي، وستليها خطوات أجراء، وانشغلت بتقويم
مركز اجتماعي أحسد أنا قادر على استعمالها، وحسبّي أنّي أيضاً كنت شاباً وسيماً ذا
عليه، كنت طالباً في مدرسة المعلمين.

كان على غير عادته يتحدث ببطء شديد، وكأنه يرتجّل حكاية يسردها لأول مرّة،
فاغتثمت لحظة توقف خلاها متذكرة، وسألته:

— أحسد لأنك طالب علم؟

— بل أحسد لأنّي أتقاضى راتباً شهرياً، وأنا بعد أخطو نحو العشرين من عمري
أجانبي، وأضاف:

— قبل أن ينتهي الحفل وتغادر زبيدة المنزل، أقسمت جازماً بأنّها سمكة في شبّكتي، فقد
همست لي مرتبّة:

— سأترك عنواني لدى شقيقتك مليكة

سررتُ وقبل ذلك، وبالرغم من أن الظرف لم يفتح لنا وقتاً لنتبادل أحاديث مسّهبة، فقد
ضخم في عبر أذنها، جملة تختصر مؤلفاً كاملاً في العشق، وهمست لي بمُؤلف كبير
الهوى، مختصر في جملة قصيرة.

تملّكتني الضحك انتشاء بأسلوب شكري السجي وسألته في عجلة من أمري

— ماذا قلت لها، وماذا قالت لك؟

— أنت التي كنت أبحث عنها قبل أن أولد، لن أُعشق غيرك

صرختُ بهذه الجملة مرتين حتى تلتقطها أذن زبيدة، ذلك أنّ الحاضرات كن يرددن
تعالى أغنية مع صوت الراحل "محمد فويتح" المنبعث من أحد التسجيلات، وفي غمرة
تلك الأصوات النسائية، صرخت بدورها تجذبني

— اطلب عناني من مليكة، واكتب لي

وتناقلت معها منذ تلك اللحظة وأنا أذوب عشقًا في تلك الأغنية، كلما تناقلت إلى أذني إلا بعبق العطور تلك الأصوات الصافية لأولئك النسوة الحاضرات في الحفل، ممزوجة لا يوصف، والأضواء، ودهشتني، وفرحي، وقلبي الصغير ينشغل، لأول مرة، بشيء يسمونه الحب الأول.

وأخذ يردد مقطعاً من تلك الأغنية باللهجة المغربية:

قولولي ماله غير حالم... قولولي مال الاشقر آش جراله

توقف عن الغناء وكنا قد افترينا من فندق السراب، فعدت أسأله

— ماذا بعد ذلك، كيف التقينا؟

تلتوى — لم نلتقي، أو بالأحرى التقينا بعد عشرين عاماً، قال ذلك وسكت. كانت السيارة صفة البحر بنا بين منعطفات الجبل، بطيئة في حركتها، وكان ضوء القمر الساقط على أخذاداً مثيراً لشجوني، فمزقت الصمت بسؤاله:

— لم أفهم شيئاً، ألم تراسلها؟

— أبداً، بقىت أنتظر أن تحصل أختي على عنوانها أياماً طويلة، ثقيلة، وكأنني في انتظار يوم القيمة، إلى أن حلّت الصدمة الأولى.

أسرعت بسؤاله:

— أي صدمة؟

— رفضت أن نتعارفاً.

أجابني، ثم تابع حديثه:

— بعد أيام أخرى وقلبي تنهشه النار، عادت أختي تخبرني بأن زبيدة تزوجت، وسافرت لنقيم في مدينة سبتة المغربية السلبية.

توقف وكأن بحنيجته غصة، ثم أضاف برنة حزينة

العذريين، — أبا حيان، لا تقلل من شأنى فتخلي علّي حكماً كالذي أصدرته على العشاق أخفيك أني حاولت أن ذلك أن حبي لها ظل عذرياً مثاليّاً، دون أن أطلع عليه أحداً، لا منشغل بها، أهرّب منها إليها، أنساها، لكن أي نسيان، ففي كل لحظة، كنت أجد نفسي أغمض عيني أو أتركهما مشرعين، فاستسلمت لقدري. صار حلمي تعويضاً لواقعي، مروضاً يركض بي إلى حيث زبيدة، فانتشرلها فأخال نفسي فارساً مغواراً أمتطي جواداً صدره سيفي، وأهرّب بها بعيداً إلى منزلي في من أحضان زوجها بعد أن أغرس في

ثم أخال أشياء أخرى، وهكذا دواليك، إلى أن جبل درسة المطل على بيوت تطوان،
إن المرأة تنسيك في الأخرى: النقطة أذني ذات يوم، حكمة تقول

تطردها هلت لهذه الحكمة، وهمت باحثاً عن امرأة تنسيني زبيدة، تلغيها من وجودي،
زاحت زبيدة، من أحلامي. التقيت بالمرأة الأولى، وبالثانية، والخامسة، ولا واحدة
دون أن أجدها في امرأة فزادت قناعتي بأنني كنت أفتش عنها في كل امرأة أتعرف إليها،
شراعي. صارت تتقاذفني نساء واحدة، فعاد مركري لمذهب الريح. فقدت سيطرتي على
بعد أخرى الليل واحدة لآخرى، وحانات طنجة تعصرني واحدة

شكري يروي سره، وأنا أرخي أذني لسماعه في أقصى حالات اهتمامي، فقد كنت أحس
صدقه في كل كلمة ينطق بها، واسترسل في سرده

بسبب قد عينت مدرساً في طنجة، لكنني لم أقو على التدريس – في تلك الأيام كنت
أبا حيان، محنتي وكأساتي، فأُسننت لي مهمة أقل عناء، معيد في الإداره. لن أخفيك
بعد ذلك متعة أذني في تلك السنوات الأولى من عملي انكبت على القراءة، لأكتشف
هي مستعصية، إن لم الكتابة، إنك أعلم مني بحالها، فأنت الكاتب المقتدر، تدرك كم
وأقعده في كتابات تمرينية، إلى تمنحك نفسك لن تمنحك نفسها. هكذا، صرت أقيم الليل
عنها جميعها، لكنني بما نشرته منها أن راكمت قصصاً ومسرحيات وروايات لم أفرج
ونفوذاً لم يتكرم عليّ بهما أحد، ولا يستطيع أكتسبني مصالحتي مع ذاتي، حقق لي سلطة
لي موقعي في جغرافية الإبداع، إلى أن قيل عني، الكاتب أن ينزعهما مني أحد. أصبح
رأيهم وليس رأيي. المفید أني ما عدت أقرب الشراب إلا ليلاً، المؤرخ للمهتمسين، هذا
نهاراً، إلى أن قابلت زبيدة. أجل التقيت بها، لكن بعد أن كان الصيف أو من حين لآخر
اللبن، وصارت شمسي في منحدر غروبها، هي أيضاً بالرغم من أن الزمان قد ضيع
بمودة تُحسد عليها، لم تتج من قبضة فصل الخريف، فقد جاءتني بكاهل متقل عاملها
تعاتبني بكمشة أولاد، تجر وراءها خيبة زواج فشل في أيامه الأولى، وقفـت أمامي
لماذا لم تراسلني، فقد ناولت شقيقتك عنوانـي مرتين؟

حالي – سألتني دون مقدمات وكأنـنا لم نفترق سوى أمس، وبإرادة مشلولة انبرى لسان
يحيثـها على إعادة السؤـال، متمنـياً أن تكونـ أذني قد أخطـأت سماعـها
فادحـ، تلك كانت الصدمة الثانية، أن أعلمـ أن شقيقـتي من حال دون تحقيقـ سعادـتي. خطـأ
ولـ كانت زبـيدة امرـأة أو تـافـهـ، بالنسبةـ ليـ الـيـومـ سـيـانـ. إنـماـ لـوـلـاهـ لـكـنـتـ رـبـماـ شـخـصـاـ آخرـ،
أـخـرىـ، أـنـسـتوـعـ ماـ أـفـولـهـ ياـ أـبـاـ حـيـانـ؟

— إني معك قلباً وقالباً، يالمضاضة ظلم ذوي القربي! إن ذلك كان مكتوباً في لوحك قبل أن تولد.

أجبته، فعاد يضيف:

— ليتني ما علمت بذلك الخبر، فقد وصل بعد فوات الأوان. كان أثقل مما أتحمل، تصور، مجرد خطأ يرتكبه شخص يُحول مجرى حياته الهادئة إلى شقاء دائم. كنا قد وصلنا إلى فندق السراب، وكان الأفق يعلن انهزام الليل.

(28)

فجمعت بين النهار فتحت عيني، فوجدت الظلام يخيم على غرفتي. لعل نومي كان ثقيلاً بدت لي بعيدة وكأن جزء من الليل. فكرت في آخر ليلة قضيتها مع محمد شكري،! مجرد حلم. لا أدرى شهوراً مررت عليها فغيبت بعض تفاصيلها عن ذهني، قد تكون مفتاح حاولت أن أغفو ثانية، فلم أحس بأدنى رغبة في النوم، امتدت يدي تبحث عن للمرة الثالثة الكهرباء، لم تجده في مكانه، فكرت في أنه كان على يميني، أعدت الكوة أفترش الأرض ولا الخامسة دون جدوى. داهمني بعض القلق، بعد أن اتضح لي أنني لأتتحقق من وجودي أنا وجود لسريري، لا وجود أيضاً لوسادتي. مسّدت وجهي بيدي الحلاقة منذ شهور أو سنتين أيضاً، فازداد ذعرى، إذ حسبته وجه رجل آخر لم يقرب تراحمت، اشتد نبض قلبي، وارتفع هديره إلى أن وصل أذني، تشتبّط ذهني. أسئلة كثيرة يُعقل أن فانحبس في داخلي. أغمضت عيني وسط الظلام علني أسترجع رشدي، لا لحيتي، أُلقي بجسدي فوق سريري وأنام، فأصحو لأجد نفسي أفترش الأرض، وتطول وكأنني لم أحلقها منذ سنتين.

أكون بداخل قبري؟ من أين لي أن أدرى! رفعت يدي لأمس سقف قبري. لا، هذا ليس به سقف.

عله قبر ضخم يسع قامة رجل واقف أو مدد.

أف تحاملت على نفسي إلى أن انتصبت واقفاً، ففطنت إلى أنني خائر القوى. بصعوبة قدمي على رجلي. أرسلت يدي في كل اتجاه دون أن يعترضني سقف أو جدار، لكن تعثرتا بقطعة قماش صلب حسبتها وسادتي أو جزءاً من سريري، وحين انحنيت لأنقطعها تبيّن لي أنها سرج حصان، وبجانبها قطع حديدية لم تكن سوى ركاب سرج الحصان.

من جاء بها إلى غرفتي؟

لم أفهم شيئاً، أو بالأحرى أجلت أن أفهم

لكني حين تعثرت رجلاً بالخجر، وتحسست مقضه وغمضه والحررين الماسيين
المرصع بهما، تطاير صوابي من شدة ذعرني.

لم يبق ما يمكن تأجيله، باعثتني أجوبة متخفيّة تفضح ما احتبس في داخلي

صرخت مستجداً بإله السموات والأرض، عسى أن يدراً عنِّي كابوس هذا الحلم، فأنا
لست في المغارَة بل في غمرة وهمِّ الحلم.

عفِّي الله عن المغارَة منذ أن أخرجوني منها، وأركبوني الباخرة العملاقة محاطاً
بحارسين، وكأنني من قطاع الطريق.

كل شيء كان واضحاً جلياً. مفوضية شرطة الميناء، الحاج ابراهيم ضابط الشرطة
الممتاز ذو العينين الصغيرتين المطلتين من وجه طويل بشارب ممزوج بالشيب،
الوجه والشرطي البدين المكرش الذي جرني من قفاي كأنني كلب، والآخر النحيل أصفر
عاًبراً من تولى تدوين محضر استتفادي. لا لست في المغارَة. إني في حالة حلم
أسُّصحُّ منه قريباً، سيكون لي معه شأن.

في جرجمت رجلاً خطوات باحثاً عن منفذ أغادر منه الغرفة، سأكسـر بابها حتى وأنا
أُنـي حقـقة حالـ الحـلمـ، لكنـ جـبـنيـ اـرـتـطمـ بـأـحـدـ الـجـدرـانـ لـيـنـبـهـيـ أـمـيـ إـلـىـ صـحـويـ،ـ إـلـىـ
بـالـأـلـمـ وـالـخـوـفـ قـائـمـةـ فـيـ أـقـصـىـ حـالـاتـ وـعـيـ وـإـرـادـتـيـ وـشـعـورـيـ،ـ فـيـ كـامـلـ إـحـسـاسـيـ
وـالـقـلـقـ وـالـتـذـكـرـ.

إذن، لا غبار على حقيقة وجودي في المغارَة بمدينة المنقب، سرج حصاني وركابه
إليه أثناء وخجري وثيابي يشهدون بذلك، ولكن، لم لا أكون بأحد السجون؟ نقلني القضاة
نومي، وأحضروا أغراضي من المغارَة! كل شيء محتمل الوقوع.

أن أكون سجيننا بداخل حجرة في أحد السجون، محتمل جداً، إنما أن يتولى القضاة
حبسي دون محاكمة، فهذا بعيد الاحتمال، لكن الشرطة يمكنها ذلك، ولو من قبيل
القضاء الانتقام، فهي الوحيدة التي لم يقنعوا دفاعي عن نفسي، وبعد أن أحالتني على
سلامتي من كل متلبساً بجريمة الهجرة السرية، تلقت أمراً بحراستي والحفظ على
الارتياـبـ،ـ عـلـىـ الـأـقـلـ مـكـروـهـ وـأـنـ أـقـيمـ فـيـ أـضـخمـ فـنـدـقـ فـيـ الـبـلـدـ!ـ شـيـءـ يـدـعـوـ إـلـىـ
وـجـهـةـ نـظـرـ هـاـ.

المغارَة لن لا، لا يعقل أن أكون في المغارَة، فأغراضي كوسائل إثبات على وجودي في

أعمدة الكهرباء. ترجمح على شهود عيان عاشرتهم في طنجة، وما شاهدته وما خبرته الظلمات. دركات المبثوثة على جوانب طرق معبدة. فندق السراب المطل على بحر أخرى تصعد باك. ثلات تقضي بك إلى داخل مطعم ريتز في شارع موسى بن نصير هناك في الصالة المشرفة. إلى مطعم بيركولا المواجه للميناء والبحر الأبيض المتوسط وأنشدت الحضور أحلى أغاني على البحر، قمت بوزنة العود الذي جاعني به شكري، من جيلي، ضمتا مجالس عامة وأخرى علّيَّة بنت المهدى البغدادية، آه علّيَّه! إنها وصديقي أبو ناصر الفارابى، لكن ابن خاصة رفيعة. غنت لنا وغنينا في حضورها أنا الغناء بالرغم من إجادته الاستماع، تلك حكاية مسكونية الحاضر دوماً، لم يكن له في الآن فهو أيام طنجة، تلك التي تتماهى بين الحقيقة وال幻梦， قديمة حقيقة، أما ما يشغلني مجرد حلم؟ هل يمكن أن تكون

في مطعم بيركولا، ارتمى على شكري مقبلاً رأسى ويدى، اغرورقت عيناه بالدموع وهو يخاطبني:

— أنت أعظم فنان في هذا العصر

الملتوى، أسرّ لي في تلك الليلة ذاتها، بعد منتصفها، والسيارة تختال بنا في طريق الجبل غيري قصة حبه الأول، تلك الحكاية المثيرة التي لم يبح بها لأحد إذن عشت في طنجة، واقع يشهد به وكيل الملك والوكيل العام ووزير العدل نفسه، من أين لي بهؤلاء الشهود؟

أعيانى وقوفى، فتهاكلت على الأرض، جلست القرفصاء، وهمت مفكراً، زكمت أنفي على رائحة رطوبة عطنة، هي الرائحة ذاتها الموجودة بالمغاربة القديمة. عدت لأقف المغاربة قدمي، ودلفت بين أرجائهما باحثاً عن منفذ لها، فلم أمس سوى ما لمسته في مرأة ثانية؟ السابعة، أ تكون هي ذاتها؟ لماذا يمكن لي تفسير عثوري على نفسي بها أيعقل أن أحمل من فوق سريري بفندق السراب بطنجة ويُلقى بي داخل مغاربة لا منفذ بها في مدينة أندلسية نائية؟

إما أني عشت في طنجة حقيقة وعودتي للمغاربة حلماً، وإما أني لم أغادر المغاربة أبداً فلتظل أيام طنجة حلماً

طنجة، ذلك هو المنطق القويم، هو ما يدل عليه سرج حصاني الذي حملني من فاس إلى وثيابي ولحيتي وخجري الذي رافقني من بغداد إلى هذه المغاربة في الأندلس، وسراويلى لأنстريح بها ليلة واحدة الكثة الطويلة، بمعنى أني لم أغادرها منذ أن ولجتها بإرادتى.

لا يُعقل أن أئم عشرة قرون، لا يعقل أن يعيش المرء حاضرين في زمانين يبتعدان عن بعضهما عشرة قرون!

الآن، ولو أني كنت في حالة حلم، أتفطن إلى سبب رفض المغاربة تصديق قدوسي إليهم! من عصري العباسي البائد، أنا نفسي لم أقبل بذلك

المغارة إن الحقيقة الصارخة القاسية هي التي أواجهها هذه اللحظة، هي استيقاظي في محاصرأً بداخلها بعد نومي بها ليلة أو ليالين، ولربما قام أحدهم بسد منفذها فبقيت أما صحوتي السابقة وخروجي من المغارة فقد كان مجرد حلم، تماماً مثل أناس طنجة، فلم أتعرفهم سوى في الحلم.

من يؤكّد لي حقيقة وجود رجل يدعى محمد شكري مقيم في طنجة؟

إنه شخص هلامي من الشخصوص الحاضرة في الحلم، وبالرغم من ذلك فإن مراجعته أدفأته أيامى وليلى، وكأنى عاشرته حقيقة!

وراء ما يؤكد أن ما حدث كان حلمًا، هو قوله ذات ليلة إن الحضارة الحقة تأتي من أني البحر، من لدن الغرب المسيحي، ونحن العرب مجرد مستهلكين لها، الغريب صدق ذلك!

أنتدكر في السياق نفسه، جواب وزير العدل بعد أن سأله

— من تعني بغير العرب؟

ظاهرة — أقصد الغرب المسيحي، فمنذ النهضة التي شرع فيها قبل خمسة قرون، ونحن وقع التبليء لأبحاثه واكتشافاته، ويكفي إخبارك بأنك أنت شخصياً أبو حيان التوحيدي وإليك، وإلى مؤلفاتك من لدن الغرب قبل العرب.

يا لضعفِ الإنساني و هشاشة عقلي في غمرةِ الحلم، فقد سلمت بهذه الأخبار وهي تنافي
المنطق!

من يصدق أن من كان وراء اكتشاف قيمتي العلمية والفكرية وبنه إلى مؤلفاتي هو الغرب المسيحي؟ مهزلة! بهتان

في أما الشخص الآخر وكيل الملك، أحد الشخصوص الهمامية في مشهد الحلم، فقد توغل لدغة الذهيان، حين زعم أن الأندلس سقطت في قبضة النصارى إمارة إمارة، خرافه، أحلام! هذيان حقيقي!

العرب لا أح مدك يا ذا الجلال والإكرام، أن ما وقع كان مجرد حلم، وأن الأندلس مفخرة
والشعراء، إنها هناك، متلماً تزال عدوة مغربية إسلامية منبئاً للعلماء والأدباء

العراق الحبيب قوة شامخة هناك.

دولة أي معنوه هذا، سيخطر بباله تعرض العراق للدمار والنهب؟ ومن قبل من؟ من لدن استتبطها في غير موجودة! أوجدوها في حلمهم وسموها أمريكا! أو بالأحرى أنا من حلمه، أنا من خلقهم جميعاً في حلمه! يا لخرافة أحلام المغارات

عمرها من يقوى على هزم خلافة إسلامية عربية مسيّجة بأشقاء مسلمين عرباً؟ دولة سومر إلى كما قيل في الحلم، خمسمائة عام، تهزم العراق، منبع حضارات الدنيا من حضارة الإسلام؟ خرافة، هراء، كلام قيل في لحظة لا وعي

استقامت واقفاً وخطوت إلى الأمام ورجعت إلى الخلف، ثم عدت فجلست على الأرض و أنا لا يشغلني سوى هذا الحلم

لكن الأحلام لا تنداعي بهذه التفاصيل الصغيرة الدقيقة الواضحة، وكأنها الواقع المعيش لعل الأمر يتعلق برؤيه وليس بحلم. أحداث الرؤى ترسخ في ذهان أصحابها دون أن تتباہت أو تتلاشى كالأحلام

بكل تأكيد هي رؤية حقيقة، من تلك التي يخص بها الله عباده من الصفة الصالحة الزاهدة في الدنيا.

ألم أكن زاهداً في حياتي العراقية والإيرانية؟

تحقق، لكن الآخر الموجود بداخلي يلح أن اعتبرها مجرد حلم، ذلك أن الرؤى غالباً ما سلام على الأندلس، وإذا ما كتب لهذه أن تنفذ إلى الوجود فتنجس واقعاً عيناً، حينذاك مستضعفة، بشراً، حيوانات سنغادرها لتصبح حضارتنا في خبر كان، سنتحول إلى قبائل أنا في صف الآخر الموجود ترعاها حضارة مسيحية جديدة، لا لأن تكون رؤيا، أنها رؤيا، لن يصدق أننا العرب بداخلي، أقول معه، أن من يملك ذرة منطق، لن يصدق لتجارب غيرنا، أبداً أبداً، ليست مصدرى العلم والوعي سنصبح منقرضين، ظاهرة عابر منفلت، حلم مضحك، يدعون إلى الشفقة رؤيا، ليست عالماً ممكناً، إنها مجرد حلم إني في المغاربة الأندرسية، ليس لي من مؤنس سوى أحلامي، حلم طنجة كان متفسسي يبحثون الوحيد لأظل حياً، أما ما يحدث في الواقع، هو أن خلاني المغاربة في انتظاري المسلمة عنى، سوف يهتدون إلى مكاني، وسانضم إليهم لنكمِّل رحلتنا إلى غرناطة بعضها البعض العربية، سنتبارى في سرد أحلامنا، فجмиعنَا أقمنَا في مغارات يشبه تنفيذاً لاتفاقنا، آه نهاؤند، الحبيبة البغدادية الغالية، لا ريب أنها في طريقها إلى غرناطة مسامعها تفاصيل حلمي سألتقي بها صباح يوم الجمعة في جنة العريف، سأقص على

وتعرض العراق للدمار المغربي، وكيف تعرفت إلى محمد شكري ونبأ ضياع الأندلس، والنها، ستضحك مثلي.

لكن حتى التقى بها، على أن استجمع قوتي لأعود إلى قرع الجدار.
ياله من حلم غريب!

بحثت عن خجري، أمسكت به وطفقت أقرع الجدار وأصرخ، لكن لا أحد انتبه إلى
قرعي أو سمع صرافي، فاستبدلت بخجري سرج حصاني، نزعت الركاب عنه
به ذا الجدار وذا الجدار، محدثاً ذويَاً يخترق سمع الأصم، لا أتوقف إلا وصرت أقرع
بأن أن يكلّ مثلي، وأعيد القرع والصراخ مرات تضيع في العد، إلى أن صار يقيني بعد
هذا الحجر المسكون بالظلام والأحلام، سيكون لا محالة قبرى

بعد أن استسلمت لقدي، وسقطت على الأرض ناطقاً بشهادتي، ذوى في أذني صدى
لطرق من الخارج، بعد لحظات تأكد لدى الطرق بوضوح لا لبس فيه، ففاضت عيني
الجدار بالدموع إعلاناً عن ولادتي من جديد، إذن أنا حي أرزق. وقف، وعدت لأقرع
وأصرخ

— أنا أبوحيان، أغيبونني.. أغيبونني.